

الجيوش الإسلامية وحركة التغيير

فى دولتىّ المرابطين والموحدين

(المغرب والأندلس)

د. فتحى زغروت

من التراث الأندلسى

الجيوش الإسلامية وحركة التغيير

فى دولتى المرابطين والموحدين
(المغرب والأندلس)

تأليف
دكتور/ فتحى زغروت

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٢٢٢٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N

977-265-599-3



دار التوزيع والنشر الإسلامية

مصر - القاهرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٢٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٢٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٢٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com



١- أهمية الموضوع ودواعى اختياره.

٢- منهج البحث.

٣- دراسة المصادر والمراجع.



أولاً: أهمية الموضوع ودواعى اختياره

هذا الكتاب كان رسالة علمية تقدم بها كاتب هذه السطور لنيل درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية من قسم التاريخ الإسلامى فى كلية دار العلوم جامعة القاهرة بعنوان (الجيش فى عهدى المرابطين والموحدين) . وقد أجازتها اللجنة الممتحنة للطالب عام ١٩٨٢م بتقدير «ممتاز» فلله الحمد والمنة على هذا الفضل العظيم.

تأملت حال أمتنا العربية وماهى عليه اليوم، وما يعتريها من مظاهر الضعف والفرقة والتمزق والانحلال السياسى، وتحكم الدول الكبرى فى مقدرات أمورها ومجريات حياتها، وقد هالنى هذا الوضع المشين وأحزننى حزنا شديداً فبت أفكر فى أمر تلك الأمة التى شرفها الله على الأمم ولسان حالى يقول: أليس لهذا العبث من نهاية؟ تزيل عنا تلك الغمة، فإلى متى سيظل الوطن العربى مهد الحضارات ومهبط الديانات تعبث به أيادى الحقد والكراهية من يد إلى يد، ومن سوء إلى أسوأ؟

لقد جلت بخاطرى وأنا أقلب صفحات التاريخ باحثًا عن حقبة تاريخية لعلها تضئ طريقنا وتضع أيدينا على الداء العضال الذى نعانيه، وتكون بلسمًا شافيًا لعلاج كل مشاكلنا. فوجدت تلك الحقبة المضيئة وهى حقبة زمنية امتدت لما يزيد عن القرنين فى المغرب والأندلس مهد دولتى «المرابطين والموحدين»، وكأنى بهاتين الدولتين تعيشان عهد الخلفاء الراشدين، إذ تميزت كل منهما بطابعها الإسلامى وجيوشها المسلمة الفعالة.

لماذا اتخذ البحث من دراسة جيوش المرابطين والموحدين هدفًا على وجه الخصوص؟

لأنها جيوش جديرة بالتأمل والدراسة فقد وجدت فى الحقبة التى عاشتها تلك الجيوش ضالتنا التى نبحث عنها، والمثل التاريخى الذى ينبغى أن يحتذى به، فإن جيوش هاتين الدولتين كانت الدعامة الأساسية والركيزة الكبرى التى حققت لمسلمى المغرب والأندلس حياة العزة والكرامة وأحرزت سلسلة من الانتصارات

الكبرى عجزت أغلب الدول عن تحقيقها على الرغم من قصر حياة دولة المرابطين، إذ لم تعمر إلا ما يقارب الثمانين عامًا ومع ذلك فقد حققت نصر الزلاقة الكبير عام ٤٧٩هـ ثم تلته انتصارات مرابطية أخرى مثل انتصار إفراغة وأقليش، ثم تلا ذلك انتصارات دولة الموحدين وخاصة نصر الأرك الذى هز أرجاء أوروبا، وكانت بلا شك تلك الانتصارات لها أهميتها الكبرى فى إيقاف زحف «ألفونسو الثالث» لاسترداد بلاد الأندلس وبذلك حافظت على رقعة بلاد الأندلس الإسلامية وحفظتها من التردى والضياع ما يجاوز قرنين من الزمان.

وكان من أهداف البحث أيضًا الوقوف على طبيعة ونوعية تلك الدولة وجنودها وقوادها وأمرائها الذين اعتنقوا دعوة الفقيه وأحلوا الفكرة الإسلامية فى عقولهم وأرواحهم، فعاشوا بها وعاشوا لها ولا غرو فى ذلك فهم أبناء الرباط المجاهدون فى سبيل الله وقد انطلقوا من الرابطة بقيادة أميرهم وهدى فقيههم نحو الصحراء الكبرى وبلاد السودان لنشر الإسلام الصحيح، ثم انطلقوا من مرحلة التنظيم والتكوين إلى مرحلة التمكين والسيطرة فأنشأوا حلفًا إسلاميًا قويًا أفضى فى النهاية إلى مرحلة الدولة العظمى التى ضمت المغرب والأندلس.

إذن نحن أمام حركة عسكرية عقيدتها الجهاد فى سبيل الله والتى رفع شعارها المرابطون والموحدون فأكسبتهم هيبة فى عيون الأمم وألبستهم حلل العزة والكرامة، فهى حركة عسكرية دعوية إصلاحية حملها كل رجالات الدولة، وعمل على تجديدها الرعيل الأول من حكام هاتين الدولتين.

وقد يقول قائل: ما جدوى الحديث عن جيوش وأنظمة عسكرية عفا عليها الزمن؟ وما جدوى السيف والرمح فى مواجهة العسكرية الحاضرة المتميزة بأسلوبها العلمى والتكنولوجى من طائرات وغواصات وصواريخ بعيدة المدى وقنابل ذرية وهيدروجنية وعنقودية وأسلحة دمار شامل إلى غير ذلك؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات تذكرنا بما قاله بعض البحاث عن نهضة اليابان الحديثة إذ تساءل الكثيرون منهم عن أسباب تلك النهضة فكان أفضل تعليل لما وصلوا إليه هو أن سبب نهضة اليابان هو أن اليابانيين جمعوا فى نهضتهم بين الماضى والحاضر، وبين الأصالة والتجديد، وأكبر دليل على ذلك أنك إذا زرت مصرفًا من مصارف المالية فى اليابان وجدت التعامل فيه بالتكنولوجيا الحديثة ولا

مجال للتعامل اليدوى مطلقًا، فالمرتاد لتلك المصارف يقضى مطلبه بسهولة وبسرعة فائقة ولكن الأدهش من ذلك أن موظف البنك حينما ترجع إليه لاستبدال عملة أو مراجعة حسابات فإنه يهرع إلى عداد خشبى قديم يسمى «السوربان» ليجرى عليه الحساب الختامى، وهذا العداد عبارة عن قطع خشبية كان يستخدمها التلاميذ فيما مضى ليتدربوا على العمليات الحسابية ولكن ما هدف ذلك الموظف من أن يجرى الحساب الختامى على السوربان على حين أنه لديه الآلات الحاسبة الجديدة؟

إنه بلا شك ذلك التراث العزيز عليه، فهو يريد أن يشير إلى أنه يثق فى تراثه كما يثق فى حاضره، وأنه لولا ماضيه ما كان حاضره، لذا تراهم يغلفون دائمًا قطعة من الآلات الجديدة ويجانبها قطعة أخرى من القديمة ويجمعونها جنبًا إلي جنب فى معارضهم ليراها الزائرون، فلا جديد إلا بالماضى ولا نهضة إلا بجمع الاثنين معًا.

وهكذا عسكريتنا وتراثنا العسكرى وسيوفنا ورماحنا، فلابد أن نثق فيها كثقتنا بالطائرة والصاروخ والدبابة، فالإنسان العربى هو الإنسان العربى، الذى استخدم السيف واستخدم الطائرة والعقيدة هى العقيدة، بينما الذى اختلف هى أدوات الحروب ووسائلها.

لذا كان من الأهداف القصوى للبحث بث الثقة بتراثنا العسكرى عند الشباب المسلم فإن ثقة الأبناء فى تراث الآباء وفى بطولاتهم الرائعة وفيما أحرزوه من انتصارات إنما هو الزاد القوى الذى يملأ قلوبهم أملاً فى الحاضر وطموحًا فى المستقبل.

ولقد أدرك المستعمرون وبعض أذنابهم من المستشرقين أهمية ذلك الأمر وخطورته، فحاولوا طمس تراثنا العسكرى أو تشويهه لتغييب القدوة والمثل الأعلى، ولإحداث هوة عميقة بين جيل الأبناء وجيل الآباء فتضعف اليد التى تحمل السلاح ولا تقوى على الوقوف ومجاهدة العدو وتفقد تمامًا مدلول الرمى الذى فسره الرسول ﷺ حينما تلا قوله تعالى: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾** [الأنفال: ٦٠] فعقب ﷺ قائلاً: **«ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى»** قالها ثلاثًا، وما العسكرية الحديثة إلا رمى كالرمى قديمًا مع

اختلاف الوسائل، فالرمى قديمًا كان بالسهام والنبال والرماح، أما اليوم فإن الرمى أصبح بالقنابل والصواريخ والمدفعية، إذن الرمى هو الرمى لكن العبرة باليد القوية التى ترمى ولن تستمد تلك اليد قوتها إلا من وصل الماضى بالحاضر ولا سبيل لأية نهضة بدون ذلك.

ومما هو جدير بالذكر أن نشير إلى الدراسات التى سبقت هذه الدراسة، فمن الواضح أنه لم يتعرض أحد من الباحثين فى بحث مستقل عن النواحى الحربية فى إحدى هاتين الدولتين أو كلاهما معًا أو يجمع شتات الموضوع فى مؤلف واحد يتناول بالدراسة والبحث تلك الجيوش من كافة نواحيها، فأغلب الكتابات التى جاءت كانت مجملة لا تتعدى بضع وريقات تعتبر تتمة للحديث عن النظم العامة لهاتين الدولتين.

وإن كانت هناك بعض المحاولات الجادة فى الدراسات العسكرية حديثًا فقد كانت مقصورة غالبًا على التاريخ العسكرى للمشرق الإسلامى[1].

أما التاريخ العسكرى للمغرب الإسلامى فقلما تعرض له أحد من الباحثين سوى مؤلف واحد هو اللواء جمال الدين محفوظ فى كتابه «قادة الفتح العربى» وهو الكتاب مكون من جزءين تحدث فى الجزء الأول عن قادة الفتح فى المشرق الإسلامى وتناول فى الجزء الثانى الحديث عن قادة الفتح فى المغرب الإسلامى.

وقد جاء هذا الكتاب سردًا تاريخيًا لبلاد المغرب منذ الفتح العربى الإسلامى متعرضًا فيه لترجمة وافية لسير الأبطال والقواد أمثال موسى بن نصير وعقبة بن نافع وغيرهما، وقد غفل المؤلف أية دراسة فنية لنظم الجيوش المغربية كما لم يتعرض للنواحى الإستراتيجية أو التكتيكية لمعارك المغرب الإسلامى، ولم يشر من قريب أو من بعيد لأى ناحية من النواحى العسكرية لدولتى المرابطين والموحدين، من هنا جاء بحثنا هذا متداركًا لسد هذا النقص، وأدعو الله أن يتقبله منا وأن يعين الباحثين فى الانتفاع به فى مجالات التاريخ الإسلامى العسكرى.

---

(١) مثل كتابة شكيب أرسلان فى كتابه «تاريخ غزوات العرب» وإحسان هندى فى كتابه «الحياة العسكرية عند العرب» والأستاذ أحمد شوقى الضابط فى كتابه «فن القيادة» والأستاذ جمال الدين عياد الضابط فى كتابه «نظم الحرب فى الإسلام» والأستاذ عبد الرؤوف عون فى كتابه «الفن الحربى فى صدر الإسلام» والأستاذ نعمان ثابت فى كتابه «الجندية فى الدولة العباسية».

ثانيًا: منهج البحث

وقد خطا البحث نحو تحقيق هـذه الأهداف خطوات واسعة ظهرت من خلالها النتائج منبثة فى ثناياه مدعمة بالأدلـة والبراهين. ومن تمام الحديث عن منهج البحث أود أن أبدى عدة ملاحظات كان لها تأثير كبير فى تشكيل منهج البحث:

١- ركز البحث على دراسة حركية متأنية لأوضاع الجيوش فى دولتى المرابطين والموحدين وما يستلزمها من دراسة شاملة للأوضاع العسكرية والنظريات الحربية، وكذلك العقيدة العسكرية التى أرشدت رجالات تلك الجيوش وأذكت حماستهم للدفاع عن القضية الإسلامية والتعامل مع الشعوب غير المسلمة المغلوبة معاملة الرفق والتسامح وقد فاقت فى عدلها وسموها الإنسانى ما تدعو إليه الأمم المتحدة اليوم وما تتشدق به بعض الدول فى مجال القانون الدولى وقضايا الحرب.

٢- أما عن الفترة الزمنية التى تستغرقها دراسة موضوع هذا البحث فإنها تستغرق من الوقت والزمن قرابة مائتين وأربعة عشر عامًا تبدأ من عام (٤٥٤هـ - ١٠٦٢م) وهو عام تأسيس مدينة «مراكش» وإعلان قيام دولة المرابطين حتى عام (٦٦٨هـ - ١٢٦٩م) وهو عام سقوط دولة الموحدين التى أعقبت دولة المرابطين فى الحكم، هذا وإن كانت هذه الحقبة قد استغرقت أحداث دولتين هما «المرابطين والموحدين» فإن الرقعة الجغرافية للبحث قد اتسعت فشملت بلاد المغرب: تونس والجزائر والمغرب الأقصى والصحراء الكبرى وبلاد السودان حتى حوض السنغال، كما امتدت تلك الرقعة شمالاً إلى بلاد الأندلس الإسلامية فهى لا شك رقعة فسيحة ممتدة الأطراف متباينة الأماكن والبقاع.

وإذا كانت تلك الحقبة التاريخية التى أشرنا إليها سابقًا وشملت الدولتين معا والتى جاوزت القرنين «الخامس والسادس الهجريين» العاشر والحادى عشر «الميلاديين» فإن الباحث يعتبر تلك الحقبة فترة زمنية واحدة شملت الدولتين معًا مخالفًا بذلك عادة المؤرخين الذين دأبوا على أن يؤرخوا لكل دولة على حدة.

ومما يؤيد رأى الباحث فيما ذهب إليه:

أ - إن المغرب والأندلس شهدا وحدة سياسية لأول مرة فى عهدى هاتين الدولتين حيث استطاعت دولة المرابطين أن تضم كلاً من المغرب والأندلس فى دولة واحدة لأول مرة فى التاريخ وجعل من «مراكش» فى «المغرب» قاعدة الملك بينما كانت الأندلس ولاية تابعة لأمير المرابطين وكذلك حينما جاءت دولة الموحدين وسيطرت على المغرب وقضت على دولة المرابطين ضمت إليها الأندلس واستولت على ممتلكات تلك الدولة الذاهبة وبقيت الوحدة قائمة بين المغرب والأندلس فى عهد الموحدين أيضاً.

إذن هذه الظاهرة السياسية وهى التى شهدتها بلاد المغرب والأندلس قد حققت ما يسمى بوحدة التاريخ (Unity Of History) أو الاستمرار والتسلسل فيه لأنه يصعب على الباحث تقسيم التاريخ إلى فترات تبدأ وتنتهى فى سنين معينة، فسقوط مدينة وانتهاء دولة كدولة المرابطين والتى أعقبتها دولة الموحدين مثلاً قد يسبب تغيير حكومة أو تعديل نظام من أنظمة الحكم ولكن تبقى الظواهر الكبرى الفنية والمؤثرات العميقة سارية بين شعبى المغرب والأندلس.

والمتأمل لكثير من آلات الحرب والعمارة الحربية من تحصينات يجدها ذات نمط واحد كالأسوار والأبواب ذات المرفق الواحد والمرافق المتعددة والقلاع والحصون وأغلب العمارة الحربية أو عمارة التحصينات.

ب - كما أن هناك ظاهرة أخرى سائدة فى تاريخ هاتين الدولتين هى أن ذلك التاريخ يعتبر تسطيراً فى المقام الأول لتاريخ المغرب الكبير بمساحاته الشاسعة كما قلنا سابقاً ولا يشغل فيه تاريخ الأندلس سوى حيز وإن كان غير بسيط باعتباره مسرحاً للمعارك العسكرية حيث كانت الأندلس فى ذلك الوقت ولاية مغربية داخل الدولة الإسلامية الكبرى المرابطية والموحدية، وقد خرجت جحافل هاتين الدولتين إلى ذلك المسرح لصد حملات الصليبيين التى توافدت على الأندلس من معظم أرجاء أوروبا، وقد انصهرت زهرة شباب هاتين الدولتين فى الدفاع عن تلك الأرض وقد اضطرمت نفوسهم بفكرة الجهاد فى سبيل الله فهم رجال محاربون ومجاهدون فى سبيل الله فلا غرابة أن يكون الجهاد هو أسمى أمانيهم.

٣- ومما يقوى الغرض الذى وضعناه سابقا وهو جعل عصر المرابطين والموحدين عصرا واحدا هو ذلك التشابه الدقيق بين الدولتين فهما حركتان إصلاحيتان مغربيتان اعتمدتا كل الاعتماد على العنصر البربرى المغربى، كما أن الدعوتين قام بكل منهما فقيه وداعية مغربى، كما أن لكل من الدعوتين منهجا إصلاحيا وحركة تغيير أدت فى النهاية إلى قيام دولتين الأولى دولة المرابطين والحركة الثانية أدت إلى قيام دولة الموحدين، كما أن كلا من الدولتين قد اعتنقت فكرة الجهاد فى سبيل الله التى قلناها سابقًا وزحفت جيوشها لنصرة مسلمى الأندلس، فكلا البلدين واجه الحملات الصليبية فى الأندلس، فلعل هذا التشابه الكبير فى أوضاع الدولتين يقوى هذا الغرض الذى وضعناه سابقا وإن كان ثمة اختلاف بين الدولتين فكان اختلاف غير مؤثر بدرجة كبرى.

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة ومدخل تاريخى وستة أبواب وخاتمة على النحو التالى.

المدخل التاريخى

يتحدث هذا المدخل عن خلفية تاريخية توضح قيام كل من دولة المرابطين والموحدين، وحقيقة منهجهم الإصلاحى ومصادره وسماته وكذلك حركة التغيير عند المرابطين والموحدين ثم أوجه التشابه والاختلاف بين الدعوتين: المرابطية والموحدية إذ انعكست طبيعة كل دعوة ومنهجها على رجالها وقادتها وجندها وصبغت الحياة العسكرية بصبغتها.

الباب الأول: "نشأة الجيوش فى دولتى المرابطين والموحدين"

ينقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول تتحدث عن نشأة الجيوش المرابطية والموحدية كالآتى:

الفصل الأول: يتحدث عن نشأة جيوش المرابطين وتطورها فى ثلاث مراحل هى مرحلة التنظيم والتمكين والدولة العظمى.

الفصل الثانى: ويتحدث عن نشأة جيوش الموحدين وتدوين تطورها فى مراحلها الثلاث كما ذكرنا عند المرابطين.

الفصل الثالث: ويتحدث عن شروط التجنيد فى الدولتين.

الباب الثانى: «تشكيلات الجيوش وتنظيماتها وشئونها الإدارية»

وينقسم هذا الباب إلى أربعة فصول تتحدث عن صنوف الجيش وعناصره البشرية ونظمه كالآتى:

الفصل الأول: صنوف الجيش وتشكيلاته من حيث العناصر البشرية ودورها فى حياتى السلم والحرب.

الفصل الثانى: ويتحدث عن النظام الدائم لكتائب الجيش وتشكيلاته فى جيوش *المرابطين والموحدين*.

الفصل الثالث: تناول فيه الباحث الحديث عن الألبسة والألوية والرايات ونظافة الجند وصحتهم وشاراتهم والموسيقى واستعراض الجند الحرس الخاص.

الفصل الرابع: وقد خصصه الباحث لدراسة الشئون الإدارية فى الجيوش، ويتناول قضايا الأعطيات والإطعام والإسكان والدواوين المشرفة على هذه الأمور وغيرها.

الباب الثالث: «أسلحة القتال فى الجيشين»

تعرضنا فى هذا الباب لدراسة أسلحة القتال المستعملة فى الجيوش المرابطية والموحدية، وقد قسمنا هذا الباب إلى فصلين كبيرين هما:

الفصل الأول: يتحدث عن أسلحة القتال الهجومية سواء الخفيفة منها أو الثقيلة.

الفصل الثانى: ويتحدث عن أسلحة القتال الدفاعية التى تنقسم إلى وسائل دفاع خفيفة مثل الدرع والجوشن والمغفر والترس إلى آخره، ووسائل دفاع ثابتة وهى التى تفوق فيها المرابطون والموحدون مثل إقامة الحصون والقلاع والأسوار والأبواب ذات المرافق المعقدة، وقد تركز الحديث حول رباط «ابن ياسين» محضن دعوة المرابطين، وحصن تينمل «محضن دعوة الموحدين».

الباب الرابع: «نظم التعبئة فى جيوش الدولتين»

وقد أفردنا فى هذا الباب لدراسة نظم التعبئة وتنظيم القوات، وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول هى:

الفصل الأول: ويتحدث عن التدابير التحضيرية للقتال الهجومى وهى مرحلة ما قبل المعركة، وتتناول حشد القوى والمسير إلى القتال وحفظ الأسرار فى العمليات العسكرية، وبث العيون والجواسيس وغير ذلك.

الفصل الثانى: ويتناول مرحلة إدارة المعركة وتوجيه القوات أثناء سير القتال ويطلق عليها المرحلة التكتيكية، وتتناول مجلس الحرب - دور الطلائع فى المعركة - اختيار موقع المعركة - أنظمة التعبئة، وقد أثبت البحث تعبئة جديدة لعبد المؤمن بن على الموحدى يطلق عليها مربع عبد المؤمن.

الفصل الثالث: ويتناول مرحلة ما بعد المعركة والمشكلات الناجمة عنها مثل مشكلة الأسرى وفرض الجزية وتوزيع الغنائم والعلاقات السلمية السياسية الناجمة عن الحرب مع المرابطين والموحدين من جهة وبين أعدائهم النصارى من جهة أخرى.

الباب الخامس: «الأساطيل البحرية لدولتى المرابطين والموحدين»

ولم يغفل البحث أهمية الأساطيل البحرية باعتبار أنها القوة المساندة للجيوش فى حصارها للثغور البحرية، فهى ليست من صميم البحث ولا هدفًا أساسيًا فيه، لذا تحدثنا عنه بصورة مختصرة فى ثلاثة فصول هى:

الفصل الأول: نشأة البحرية فى دولة المرابطين.

الفصل الثانى: نشأة البحرية فى دولة الموحدين.

الفصل الثالث: المعركة البحرية وإدارتها وأسلحتها.

الباب السادس: «دراسة مقارنة لبعض المعارك»

وقد أفردنا هذا الباب لإجراء دراسة مقارنة للجيشين المرابطى والموحدى عن طريق دراسة معركة هامة لكل منهما، الأولى معركة الزلاقة المرابطية والأخرى معركة الأرك الموحدية، وقد كشف البحث عن أوجه تشابه وتباين بين الجيشين فى كثير من النواحى وقد تناول هذا الباب النقاط التالية:

أولاً: من معارك المرابطين: معركة الزلاقة.

ثانيًا: من معارك الموحدين: معركة الأرك.

ثالثًا: المقارنة بين المعركتين.

رابعًا: مناقشة آراء المستشرقين حول دولة المرابطين.

خامسًا: خصائص الحياة العسكرية لدولتى المرابطين والموحدين.

ثالثًا: دراسة المصادر والمراجع

إن المصادر والمراجع التي خدمت هذا البحث كثيرة ومتنوعة، بعضها أسهم بمادته في تأليفها، وبعضها أفادها بفوائد متنوعة من قريب أو بعيد دون أن يكون مصدرًا أساسيًا لها. وقد تنوعت هذه المصادر ما بين مخطوطات ومصادر عربية قديمة ومراجع حديثة وكتب معربة وأجنبية.

ويمكن لنا تقسيم هذه المصادر إلى:

أ- مصادر عسكرية:

ومنها مخطوطات خدمت البحث من الناحية الحربية الفنية وبالرغم من أن هذه المخطوطات قد أمدت بمعلومات قليلة إلا أنها كانت ذات قيمة علمية كبيرة من حيث استعمال الأسلحة ونظم التعبئة المختلفة والتدابير المختصرة للقتال الهجومي وغير ذلك، ومن هذه المخطوطات:

- «تحفة المجاهدين في العمل بالميادين» تأليف «لاجين بن عبد الله الذهبي الحسامي الطرابلسي» (٧٣٨هـ - ١٢٩٧م) وهو مصور بالجامعة العربية (ف ٩٠٢) يتحدث عن ركوب الخيل، والمناصب الحربية وإدارة الحروب وعلم الفروسية.

- «الإفادة والتبصير لكل رام مبتدئ أو ماهر. تحرير بالسهم الطويل أو القصير» تأليف/ «عبد الله بن ميمون بن عبد الله»، من رجال القرن السابع أو الثامن الهجري. مصور بمعهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية (رقم ١٢١٣).

- «مختصر في سياسة الحروب» وهو من الكتب الحربية في الدولة العباسية تأليف/ «الهرثمي» من رجال الحرب في عصر المأمون وهو مصور بالجامعة العربية (ف٨٤٤)، وقد جمع «الهرثمي» في هذا الكتاب مبادئ مفيدة في الشئون الحربية من الناحية التكتيكية والاستعداد للمعركة والعمل عند لقاء الأعداء وأورد كثيرًا من النصائح التي تهم القواد والجنود، وقد اعتمدت على هذا الكتاب في بعض نواحي البحث.

- «آثار الأول في تدبير الدول» «للحسن بن عبد الله بن محمد العباسي» وقد ألف هذا الكتاب سنة ٧٠٨هـ، وهو مخطوط بالمتحف الحربي بالقلعة (برقم ٣٨٣ عربي). ومطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي طبعة مصر ١٣٠٥هـ.

وبالرغم من بعد الكتب المشرقية إلا أنه أفادت كثيراً فى الحديث عن أسلحة القتال وخاصة أسلحة الحصار وكيفية استخدام الحصون، واستفدت منه أيضاً فى الحديث عن المعارك البحرية والأساطيل

ومما يجدر الإشارة إليه أنه لندرة المصادر المغربية فى الناحية العسكرية فقد اعتمدنا على هذه المصادر وخاصة المتأخرة منها وإن كانت مشرقية الأصل فهى قريبة من عصر المرابطين والموحدين، وقد رأيت أنه لا يوجد فرق كبير بين هذه النظم والنظم الشرقية مدعمين رأينا هذا بما ورد من نصوص وحقائق حربية متفرقة فى ثنايا كتب التاريخ الخاصة بعصرى المرابطين والموحدين. ومن المصادر العربية القديمة التى أفادت البحث من النواحى العسكرية أيضاً:

- «الغاية من رفع الراية» لأبى عبد الله بن عباس الجرارى، الرباط طبعة أولى (١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م) وقد أفاد البحث فى استعمال الألوية والرايات فى جيوش المرابطين واستعمال شارات الملك الخاصة بالمظلة واستعمال الطبول وغير ذلك

«حلية الفرسان وشعار الشجعان» تأليف: على بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسى، تحقيق: محمد عبد الغنى حسن، الكتاب السادس من ذخائر العرب - طبعة دار المعارف. وقد أفاد البحث فى الحديث عن فرق الفرسان وتشكيلاتها المختلفة.

ب- مراجع عامة أفادت البحث فى نواحى مختلفة منها:

١- مراجع تاريخية وضعت فى تاريخ المرابطين والموحدين من قبل المغاربة والأندلسيين ومن أهمها:

- كتاب «البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب» لابن عذارى المراكشى (القسم الثالث) (المتوفى فى القرن السابع الهجرى) ويمكن اعتبار هذا الكتاب من أعظم الكتب التى تناولت أخبار الأندلس من الناحية السياسية والعسكرية، وقد اعتمدنا على هذا الكتاب اعتماداً كبيراً فى الحديث عن أخريات دولة المرابطين وبداية دولة الموحدين، وصور لنا بدقة الفترة الانتقالية خير تصوير بأحداثها المتشابكة ثم انتفعنا به فى الحديث عن معركة الأرك الموحدية وبعض المعارك الأخرى. ويمتاز مؤلف هذا الكتاب بالحيدة التامة فى إيراد الحوادث وتقديم الأشخاص

«سراج الملوك» «لأبى بكر الطرطوشى» ت سنة ٥٢٠هـ وهو مؤلف أندلسى معاصر لقدوم المرابطين إلى شبه الجزيرة الأندلسية وقد انتفعنا بهذا الكتاب فى الحديث عن أنظمة التعبئة المختلفة لجيوش المرابطين واستخدام نظام الزحف وأساليب المرابطين القتالية وأسلحتهم المختلفة.

«والمغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب» «لأبى عبيد البكرى» (٤٨٧هـ - ١٠٩٧م) وقد استفاد البحث بهذا الكتاب فى الحديث عن رباط «عبد الله بن ياسين» وأسلوب معيشة أهل الرباط وطرائقهم الأولى فى القتال.

- «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب» «للمقرى التلمسانى» ت (١٠٤١هـ - ١٦٣١م) وقد امتاز هذا الكتاب بإيراد معلومات مهمة عن تاريخ الأندلس، وقد أفاض الحديث عن معركة الزلاقة واستفدنا منه فى ذلك المجال.

- «العبر وديوان المبتدأ والخبر..» الجزء السادس، ومقدمته التاريخية المعروفة «لابن خلدون» ت سنة (٨٠٨هـ - ١٤٠٥م) فقد استفاد منها البحث استفادة عظيمة فى دراسة العناصر البشرية لدولتى المرابطين والموحدين، وكذلك فى الحديث عن النظم العسكرية الشائعة فى المغرب وعن بعض المعارك المختلفة لهاتين الدولتين.

- «الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية» لمؤلف مجهول وقد امتاز هذا الكتاب بإيراد بعض الخطط الحربية منثة خلال فصول الكتاب، وقد استفاد بها البحث أكبر استفادة ويمكن أن يلاحظ القارئ ذلك من خلال هوامش البحث.

- «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» «لعبد الواحد المراكشى» ت سنة (٦٤٧هـ - ١٢٤٩م) وهو يعد شاهد عيان للأحداث التى جرت فى عصر الموحدين ومن المقربين لبلاط الموحدى، وقد كثر الاستشهاد من هذا الكتاب فى سائر البحث لما تميز به من الصدق والإنصاف فى معظم رواياته.

«نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان» «لابن القطان» وهو «على بن محمد بن عبد الملك بن يحيى» ت سنة (١٢٨هـ - ١٢٣م) وقد استعنت بالجزء الذى اشتراه معهد الدراسات الإسلامية بمدريد من أرملة المستشرق الفرنسى «ليفى بروفنسال» وحققه الدكتور/ «محمود على مكى» سنة ١٩٦٢م، وهذا الجزء يحمل أحداثًا هامة

وخاصة الفترة التى ظهر فيها «المهدى بن تومرت» و «عبد المؤمن بن على» وتحدث عن المعارك التى دارت بين المرابطين والموحدين فى مراحل نهاية الدولة المرابطية.

- «الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» لأبى الحسن بن عبد الله بن أبى زرع الفاسى» ت (٧٢٦هـ - ١٣٢٦م) ويسير المؤلف على طريق سرد الأحداث دون تقيد بالحوليات فى بعض الأحيان، وفى بعض الحالات يلتزم بها كما جاء فى حديثه عن تاريخ المرابطين والموحدين.

ويبدأ الكتاب من سنة ١٧٢هـ بذكر الدولة الإدريسية، وينتهى عند أحداث سنة ٧٢٦هـ. وقد استفدنا من هذا الكتاب استفادة كبيرة فى حديثه عن نشأة الدولة المرابطية فى عهد «يوسف بن تاشفين» ومراحل تأسيس جيشه وجوازه إلى الأندلس وهزيمته للنصارى فى معركة الزلاقة، وانتفعنا به أيضًا فى الحديث عن غزوات «المهدى بن تومرت» و «عبد المؤمن بن على» وتأسيسه للأسطول الموحدى.

وكذلك أفادنا هذا الكتاب فى دراسة معركة «شنترين» التى استشهد فيها «يوسف بن عبد المؤمن» الخليفة الموحدى.

٢ - كتب التاريخ العام التى انتفع منها البحث وهى كتب مشرقية ومنها:

- «الكامل فى التاريخ» «لابن الأثير» ت (٦٣٠هـ - ١٢٣٣م) وهو كتاب مشرقى اهتم بتاريخ المغرب، ويعد من أحسن المؤلفات التى ظهرت فى المشرق وإن كان بصورة مختصرة.

- «صبح الأعشى» «للقلقشندى» ت ٨٢١هـ وقد استفدنا من هذا الكتاب فى الحديث عن موضوع لباس الجند وزيهم الحربى والرايات والألوية والموسيقى والاستعراضات والتدريبات الحربية للجيوش، وكذلك فى التعرض للدواوين المختلفة المشرفة على الجيوش من الناحية الإدارية. واعتمد عليه البحث أيضًا فى دراسة تشكيلات جند الموحدين وطريقة مسير السلطان بجنده إلى الحرب.

٣- كتب السنة المختلفة ومنها استفاد البحث فى النواحى الفقهية والشرعية:

- كتاب «المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات الشرعيات لأمهات مسائلها المشكلات» المعروف «بمقدمات ابن رشد».

، كتاب البداية المجتهد ونهاية المقتصد، والكتاب لابن رشد أبي الوليد محمد أحمد الفقيه الإمام ت سنة ٥٢ قاضي جماعة قرطبة وكان معاصرا للمرابطين.

- «فتح البارى بشرح البخارى» «لابن حجر العسقلانى» ت (٨٥٢هـ - ١٤٤٨م).

- «رياض النفوس» «لأبى بكر عبد الله المالكى» ت (٤٥٣هـ - ١٠٦١م).

- «الخراج» «لأبى يوسف» ت ١٨٢هـ.

- «أعز ما يطلب»، «موطأ الإمام المهدى» «للمهدى محمد بن تومرت» مؤسس دولة الموحدين (٥٢٤هـ - ١١١٢م). وقد استفدنا من هذه الكتب فى باب توزيع الغنائم بين الجنود والدولة ومعاملة الأسرى، وكذلك فى مسألة التجنيد وشروط الإلتحاق بالجيوش.

جـ- مراجع عربية حديثة استفاد منها البحث من الناحية العسكرية أهمها:

«القوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط» للدكتور «إبراهيم العدوى»، «الفن الحربى فى صدر الإسلام» «لعبد الرؤوف عون»، «السلاح فى الإسلام، والألوية وشارات الملك» «لعبد الرحمن زكى»، «المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية» «للواء/ جمال الدين محفوظ»، المدرسة العسكرية الإسلامية» للعقيد/ محمد فرج». هذه الكتب استفدنا بها من الناحية العسكرية فقط.

أما باقى المراجع الثانوية العربية والمعربة والأجنبية والمجلات والأبحاث فيمكن الإطلاع عليها من ثبت المصادر والمراجع. ومن خلال هوامش البحث فقد يضيق المقام عن ذكرها فى هذا الموضع.

أما بعد.. فلعلنا فى هذه العجالة يكون قد اتضح لنا أهمية هذا الموضوع فى مجال التاريخ العسكرى الإسلامى، وبهذا ندعو الأجيال من الباحثين كى ينقبوا عن المزيد من البحث والدراسة لنبرز للعالم طبيعة عقيدتنا العسكرية وأثرها فى نشر الدين والأوطان، والحمد لله على ذلك. إنه نعم المولى ونعم النصير

دكتور/ فتحى زغروت

كاتب وباحث إسلامى

الشرقية فى ٥/ ١/ ٢٠٠٥م

مدخل تاريخي

من هم المرابطون والموحدون؟

إن أمتنا العربية بجناحيها الشرقي والغـربي قد واجهت قوى الصليبيين في مصر والشام من جهة وفي المغرب والأندلس من جهة أخرى، وقد قيض الله للمسلمين من يجمع صفوفهم ويوحد كلمتهم ويقود جيوشهم من نصر إلى نصر، فكان البطل المجـاهد (صلاح الدين الأيوبي) ليتصدى لشتى حمـلات في المشرق الإسـلامي والذي حقق انتصـاره الرائع في معركـة حطين، كما قاد المسلمين في المغـرب والأندلس البطل (يوسف بن تاشفين) زعيم دولة المرابطين ومن بعده البطل (عبد المؤمن بن علي) و(أبو يعقوب المنصور) من خلفاء دولة الموحدين.

وإذا كـان لنا أن نأخذ لمحة من التاريخ لنضيء به حـاضرنا ونحدد به بُعـد مستـقبلنا فلنقف وقفة تأمل وتدبر لـفكرة الجهاد التي قامت عليها هاتان الدولتان حيث تمكنت جيوش المرابطين والموحدين من إنقاذ مسلمي الأندلس في فترة حرجة تعرضت فيها دولة الإسلام للإبادة والموت المحقق

فقد كان حـال الأندلس الإسلامية بعد سقوط الخـلافة الأموية في تمزق وتفسخ واختلال سـياسي حيث تـوزعت البلاد إلى دويلات يحكم كل واحـدة منها ملك استـبد بنفسه في الحكم وهو ما يعرف بعصر الطوائف، ولعل هذا الوضع يشابه أوضاع أنظمتنا العربية اليوم حيث ينفرد كل حاكم برأيه وأصبحت الأنظمة العربية لديها تقريبًا أنظمة شمولية مـستبدة متفرقة فيما بينها، والعجيب أن هذا التشابه الدقيق بين حـال العرب اليوم وحال مـسلمي الأندلس آنذاك قد وصل إلى ظاهرة سيئة في تاريخ أمتنا وهي الاستعـانة بالأجنبي، ومحاولة إرضائه وكسب وده، فقد كـان أمراء الطوائف بالأندلـس يستعيـنون بألفونسـو السادس عدوهم ثم جعله يستـخف بهم ويؤلب أحدهم على الآخر ويرهقهم بالضـرائب الباهظة ويحـاصر المدن ويشغلهم في حروب مستمرة، فـأخذت مدن الأندلس تتساقط في يديه تباعًا باذلا كل جهـده لاسترداد أرض الأندلس كلها مـن أيدي المسلمين، ولا يغيب عن

ولعل ما نراه اليوم من استعانة حكام العرب بأمريكا وبعض دول الغرب مما كان سببًا في فرض الهيمنة الأمريكية والأجنبية على العالم العربي حكامه وشعوبه بإرهاب السلاح واحتلال الشعوب تارة والغزو الفكري وبرامج الإصلاح المزعومة تارة أخرى، ولسنا في مجال الإفاضة في هذا الحديث لكن ينبغي أن نعلم كيف كان العلاج وكيف خطا التاريخ خطواته وانتشل أمة الأندلس إلى حين على أيدى المرابطين والموحدين قبل أن تغرق وتضيع إلى الأبد.

لقد قيض الله لمسلمى الأندلس آنذاك دولة فتية هي دولة المرابطين والتي نشأت على فكرة الجهاد في سبيل الله، ولا عجب أن تكون تلك الفكرة هي عماد دولة المرابطين وقوامها الرئيسى. فقد نشأت تلك الدولة في رباط يسمى رباط «ابن ياسين» قد أقامه الداعية والفقيه المالكى «عبد الله بن ياسين» في حوض نهر السنغال في جنوب الصحراء المغربية بعدما قدم عليه الملثمون وطردوه من بلادهم وقد بدأ ذلك الرباط بسبعة أفراد أخلصوا الطاعة لذلك الفقيه ثم بدأت تتوافد عليهم الجماعات تلو الجماعات من المغرب ومن السودان وغيرهم ويقوم «ابن ياسين» بتنشئتهم نشأة خاصة داخل ذلك الرباط إذ يحفظهم القرآن ويعلمهم الفقه المالكى والسيرة النبوية ويصلون الفروض جماعة ويدربهم تدريبًا عسكريًا ويعيشون عيشة مستقلة داخل الرباط، فإذا ما وصل عددهم ألفًا خرج بهم إلى القبائل يدعوهم إلى الدخول في تلك الدعوة ويبين لهم ضرر البدع التي كان يعيش فيها المغاربة آنذاك إذ كان يغص المغرب بكثير من النحل والملل التي هربت من المشرق وجاءت لتبث سمومها في تلك البيئة الطيبة.

وبعد عدة غزوات تمكن المرابطون من بسط نفوذهم على المغرب كله وتأسيس عاصمتهم «مراكش» عام «٤٥٤هـ - ١٠٦٢م».

وقد سمع أمراء الأندلس بتلك الدولة المجاهدة الفتية فماذا يفعلون وقد ضاقوا ذرعًا وساءت أحوال بلادهم بسبب عدوان ألفونسو وعزمه على استرداد بلاد الأندلس وخاصة بعد سقوط طليطلة واختراقه لأراضى أشبيلية وبطليوس وإرهاقهم بالأموال المطلوبة.

وقد كانت فكرة استنصار مسلمي الأندلس بالمرابطين في المغرب أملا يداعبهم إلا أنها وجدت معارضة، فقد كان ثمة ملوك من الطوائف يخشى عواقبها ويحذر «ابن عباد» ملك «أشبيلية» صاحب فكرة الاستنصار من عواقبها ولكنه أصر على الاستعانة بالمرابطين ورد عليهم بكلمته المأثورة (راعي الجمال خير من راعي الخنازير) يقصد بذلك أن الأفضل له أن يغدو أسيراً لدى أمير المسلمين يرعى جمالهم من أن يغدو أسيراً لملك قشتالة النصراني.

ويبدو من كلام «ابن عباد» اقتناعه بأهمية الاستنجاد بالمسلمين وأنه رأى أن شبح السقوط واقع لا محالة، وإذا كان الأمر كذلك فإن يقع في أيدي المسلمين أفضل من أن يقع في أيدي النصارى عملاً بقول «علي بن أبي طالب»: (إذا كنت مأكولا فكن أنت آكلي).

وسرعان ما خف مسلمو المغرب من المرابطين لنجدة إخوانهم المسلمين في الأندلس وحققوا نصراً رائعاً في معركة الزلاقة عام «٤٧٩هـ - ١٠٨٧م» وهي معركة مشتركة ضد الصليبيين الذين توافدوا من أراجون وبسكونية وحشد كبير من فرسان فرنسا وإيطاليا وغرب أوروبا جاءوا جميعاً يحدوهم لهزيمة المسلمين، ثم توالت انتصاراتهم في معركتي أقليش ٥٠١هـ وموقعة إفراغة ٥٢٨هـ ثم أعقبتهم جيوش دولة الموحدين التي حققت نصرها الرائع في موقعة الأرك عام «٥٩١هـ - ١١٩١م».

وبذلك الجهد العسكري لأمة المسلمين في المغرب والأندلس استطاعت جيوشهم من المرابطين والموحدين أن يحقنوا دماء المسلمين وأن يؤخروا سقوط الأندلس في أيدي الإسبان إلى حين.

المرابطون والموحدون وحركة التغيير

إن دولتى المرابطين والموحدين تعدان حركتين لتجديد قوى الإسلام فى المغرب العربى إذ انطلقت كل منهما من دعوة تبناها فقيه ثم عاش لها بفكره ومشاعره ثم نضجت وكبرت إلى أن صارت ذا قوة فعالة فأسست جماعة مسلمة ثم مجتمعًا مسلمًا ثم دولة لكل منهما ترفرف عليها ألوية الإسلام

لذا يرى الباحث من المفيد أن نقف على أسرار نمو الحركتين والأسباب المحركة لهما متأملين حركة التاريخ لنأخذ منها العظة والعبرة ونصحح بها مسار حركتنا الإصلاحية اليوم إذا تطلب الأمر وسنتحدث عن كل حركة على حدة.

أولاً: المرابطون ومنهجهم الإصلاحى وحركة التغيير

«رباط ابن ياسين محضن الدعوة»

يعتبر ذلك الرباط هو الجهاز الدينى السياسى الأول الذى جمع عددًا من الشيوخ والفقهاء وعلى رأسهم "يحيى بن إبراهيم الجدالى" زعيم قبيلة "جدالة"[1]، و"عبد الله بن ياسين" الفقيه المتشدد والذى كان القوة الدافعة لحركة المرابطين من الناحية الدينية، وقد تآزر الأمير السياسى مع الداعية الدينى فى وضع الخطط الحربية لتسيير حياة الرباط.

- إدارة الرباط:

تتركز إدارة الرباط من الناحية العلمية فى هذا الفقيه "عبد الله بن ياسين" وفى يد الأمير "يحيى بن إبراهيم الجدالى"[2] ثم خلفه الأمير "يحيى بن عمر اللمتونى" فى رئاسة المرابطين بعد موته، وعن طريق سلطة الفقيه والأمير ومجلس الشورى كان ينعقد ويتم تصريف شئون الرباط وذلك طبقًا لأحكام المذهب المالكى

---

(١) ابن أبى زرع الفاسى - الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتايخ مدينة فارس ص(٧٩)، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب لأبى عبيد البكرى، ص(١٢٢) وما بعدها

(٢) المصدران السابقان ونفس الصفحات

- عبد الله بن ياسين داعية المرابطين:

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير [illegible]، وهو من صحراء الجنوب وقد درس على يد "وجاج بن زلو" فقيه السوس ومؤسس [illegible] ببلد نفيس[1]، وقد شهدت هذه المنطقة التي نشأ فيها ذلك الفقيه منذ الفتح الإسلامي بعض التطورات الفكرية والسياسية والدينية، وقد انعكست على شخصيته فتأثر بها ثم تعرف على أغلب المشاكل السياسية والحركات الفكرية التي تموج بالمغرب في وقته وبذلك جمع شتى المؤثرات القديمة والحديثة.

كما أنه تشبع بتعاليم المذهب المالكي[2] الذي كان يدين به أبو عمران الفاسي أستاذ "وجاج بن زلو" والذي تلقى منه "ابن ياسين"، وقد كتب لهذا المذهب السيادة على باقي المذاهب الفقهية الأخرى المنتشرة في المغرب في ذلك الوقت، ومن هنا سعى "ابن ياسين" لنشر هذا المذهب حتى قامت دولته والتي يعتبر سيادة هذا المذهب من أعظم ثمار تلك الدولة وبتوجيه محقق لذلك الأمل وطموح أستاذه "وجاج بن زلو" في إعداد جماعة تقوم بنصرة هذا المذهب فشاءت إرادة الله أن تتحقق الآمال على يد تلميذه "ابن ياسين" الذي كان سفيره ومبعوثه إلى بلاد صنهاجة.

من هنا يتضح أن شخصية "عبد الله بن ياسين" قد توافر لها من المؤثرات الفكرية والسياسية ما جعل من "ابن ياسين" مصلحًا وداعيًا إسلاميًا مرموقًا.

وقد تبحر في دراسة الحديث[3]، وكان مشهورًا بالحفظ والذكاء والحزم وحسن التدبير والقدرة الشديدة على الحركة والنشاط والتأثير الشديد في أتباعه[4].

---

(١) انظر [illegible] (ص ٦٦) [illegible] (ص ٧٧) [illegible] سنة ١٩٣٦م [illegible] ١٩٢٣م [illegible] ص (٩).

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس [illegible] سنة ١٩٥٤م [illegible] ج (١) ص (٩٩) [illegible] ١٩٣٦م [illegible] ج (٦) ص [illegible].

(٣)، (٤) المرجع السابق ونفس الصفحة.

وقد تميزت أخلاقه بالخلق الإسلامي الرفيع وكانت بحق هي خلق الداعية المسلم التي ذكرها القرآن وأشارت إليها سنة الرسول ﷺ ولعلها كانت السبب في نجاحه ونجاح دعوته بين المرابطين إذ تميز بالصدق - الصبر - الرحمة - التواضع - والقدرة على مخالطة الناس ومعرفتهم، كما كان لهذا الفقيه قدرة فائقة على الاستيعاب الجيد لدعوته الإسلامية وكان ذلك واضحًا في مفهومه لحركة التغيير كما تميز أتباعه من الدعاة بهذا الاستيعاب بدليل نجاحهم في نشر الدعوة وتثبيتها في قلوب المغاربة.

- طريقة القبول بالرباط:

كان القبول في الرباط وفق التعليمات التي أقرتها إدارة الرباط وبهدي من داعيتهم «ابن ياسين» فكان القبول معلقًا على امتحان وفترة مراقبة للتأكد من استعداد الراغب في الرباط لقبول نظامه، فإذا توافر له الاستعداد في نظر إدارة الرباط، قبل وأسلم إسلامًا جديدًا حتى من البلوغ ويطلب منه أن يتطهر وأن يحاسب على ما اقترفت يداه من إثم في حياته السابقة[1]، وبذلك تكون قد انطبقت على المريد الشروط التي يراها «ابن ياسين» والكفيلة بتربية الأفراد وصناعة الرجال ولا غرو في ذلك التشدد فإن الكليات العسكرية اليوم تجرى عند القبول الكثير من الاختبارات العسكرية والبدنية والنفسية الشاقة عند قبول طلابها.

وقد كان لهذه الشروط صداها عند قبائل الملثمين على الرغم من قسوتها حيث وجدوا فيها الطريقة الجادة لنجاتهم وفهمهم الديني الصحيح، فأسرع العديد من أبنائها للانضمام إلى الرباط بعدما أصبح هدف الرباط واضحًا وهو خلق قوة مجاهدة على أساس من الإيمان المتين والإسلام الصحيح قادرة على فرض الإصلاح وإرادة التغيير. فقد كان «ابن ياسين» يأمر بجهاد من خالف دعوته وصد عنها من قبائل صنهاجة على أن يبثوا الأعذار والإنذار على مدى سبعة أيام[2]، ثم بعد ذلك يكون للسيف كلمته.

---

(١) المراجع السابقة: انظر «المرابطون وبرنامجهم السياسي» محمد عبد الهادي شعيرة، ص (٣٩ - ٤٦) بتصرف، ومحمد عبد الله عنان في «دولة الإسلام في الأندلس»، ج (٣) طبعة الهيئة المصرية للكتاب مكتبة الأسرة ص (٣٠٢، ٣٠٣)

(٢) روض القرطاس مرجع سابق، ص (٧٩)

- أصول دعوة المرابطين:

لقد كانت مصادر الدعوة التي استقى منها «ابن ياسين» فكرته الدعوية هي:

أ- **القرآن الكريم:** لقد كان «ابن ياسين» داعية متميزًا بالاستيعاب الجيد والفهم المركز للقرآن الكريم حيث أمر أتباعه بقراءة القرآن الكريم وحفظ معانيه، وكان كثيرًا ما يجمعهم في الرباط ويقص عليهم أخبار الرسل والأنبياء الكرام وما جرى لهم من عنت شديد في دعوتهم لأقوامهم حيث تحملوا الأذى في سبيل الدعوة وصبروا حتى كتب الله النصر لأنبيائه. وبذلك ثبت «ابن ياسين» قلوب أتباعه على دعوة الإسلام ووعدهم بإقامة دولة الإسلام التي تهفو إليها قلوبهم.

ب- **السنة النبوية:** وهي المصدر الثاني الذي حرص عليه داعية المرابطين، وقد عرف «ابن ياسين» بحفظه للكثير من أحاديث الرسول ﷺ وبخاصة في مجال الدعوة، فقد اقتدى به في منهجه الدعوي وكذلك في وسائل دعوته، ولا شك في ذلك فإن نجاحه في توحيد قبائل اللثام وإقامة دولة جمعت المغرب والأندلس لأكبر دليل على نجاح ذلك الداعية وتوفيقه في وسائله ومنهجه.

جـ- **سيرة السلف الصالح:** فقد وجد داعية الرباط في سيرة سلفه الصالح من الصحابة والتابعين أمورًا مهمة استفاد منها بلا شك في دعوته.

د- **استنباطات الفقهاء وبخاصة الفقه المالكي:** أخذ «ابن ياسين» في أمور دعوته في الأغلب الأعم بأحكام المذهب المالكي السائد في المغرب آنذاك، وقد عمل بها في كثير من القضايا المتعلقة بأحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله. وقد أورد لهذه المسائل فقهاء المالكية في المغرب أحكامًا خاصة في كتبهم. هذا بالإضافة إلى استنباطات «ابن ياسين» نفسه واجتهاداته في بعض المسائل والتجارب وخاصة مع مريديه داخل الرباط أو التعامل الخارجي حين نشر الدعوة بين قبائل المغرب خارج الرباط، وقد حرص «ابن ياسين» في ذلك على التمسك بالمنهج الصحيح في الوسائل والأساليب التي اتبعها في نشر دعوته فقد كان صارمًا مع مريديه كما سنعرف بعد.

-حقيقة دعوة المرابطين:

أ- تمكين منهج الله في الأرض وإقامة نموذج إسلامي أمثل يشمل حياة الناس الدنيوية والأخروية.

ب- القيام بواجب الدعوة لدرء العذاب عن الناس وهذا ما لمسناه فى أمير جدالة "يحيى بن إبراهيم الجدالى"[1] الذى حرص على هداية قومه. فبعد أداء فريضة الحج عرج فى عودته على أكثر من فقيه حتى ظفر أخيرا "بعبد الله بن ياسين".

ج- الجد والجهاد وسيلة أساسية لتحرير المغرب من قيود القطيعة ومن البدع والإلحاد والرباط للدعوة والجهاد المستمر الذى يحقق الأهداف السامية لدعوة المرابطين عملا بقوله تعالى: ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده﴾ [الحج: ٧٨]

د- تربية الرجل المسلم وإعداده ليقوم عليه بناء الأسرة المسلمة ثم الشعب المسلم والحكومة المسلمة، ثم إقامة الدولة الإسلامية الكبرى "وهذا هو الهدف الأسمى" الذى سيؤدى إلى الدولة الإسلامية التى تسود العالم بمبادئها المثلى، وقد ظهر ذلك واضحا جليا فى حرص المرابطين على ذلك الهدف، فوجدناهم قد ثاروا فى الصحراء ثم سيطروا على المغرب وأقاموا الحكومة المسلمة ثم عبروا المضيق إلى الأندلس وجاهدوا النصارى هناك ثم ضموا الأندلس إلى المغرب فى دولة إسلامية واحدة يرفرف عليها لواء الأمن والطمأنينة فى ظل السيادة الإسلامية، ثم خضعوا للخلافة العباسية حتى لا تتمزق وحدة المسلمين.

- أسلوب حياة الرباط.

جرت العادة أن يكون لكل رباط نظامه الخاص المتعارف بين أهل الرباط وكان هذا النظام تقليدا متوارثا تراعيه الأفراد من جيل إلى جيل، ومن هذه الأنظمة التقليدية أن يبنى الرباط على التجرد من طلب المنافع الدنيوية جملة، والعمل بالسنة، وعلى التقشف والصبر على الخشونة، وعلى القناعة بالبسيط للجهاد، وعلى طلب العلم، وعلى إخلاص العبادة لله. وقد قامت الحياة فى هذا الرباط على الاكتفاء الذاتى، وتعاون أفراد الرباط فى تحقيق هذا الاكتفاء، خلق حياة مثالية تتمشى مع تقاليد الإسلام وسوف نحاول أن نعطى بعض الصور التى تمثل حياتهم اليومية:

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص (١١٢)، وانظر قيام دولة المرابطين للدكتور حسن أحمد محمود ص (١٣٦).

أ- نظام العبادة والتقرب إلى الله:

إن العبادة هدف رئيسي من أهداف الرباط وقد كانت تقوم على أساس تلاوة القرآن الكريم وإقامة الصلاة في أوقاتها جماعة، وعلى صلوات النقصاء الإجبارية، وقد وضعت عقوبات صارمة لكل من يتخلف عن الصلاة أو يتأخر عن وقت الجماعة فمن فاته ركعة ضرب خمسة أسواط ومن تخلف عن صلاة فرض ضرب عشرون، ويبدو أن مبدأ العقوبات كان ينفذ بكل دقة لأن العوام منهم كانوا يفزعون إلى الصلاة بدون وضوء خوف من الضرب، وقد كانوا يحرصون على الصمت والخشوع في المسجد حتى عدوا رفع الصوت في المسجد مخالفة تستحق العقاب كما كانوا يكثرون من صوم النفل، وقيام الليل وقراءة الأوراد وفق النظام الديني للرباط.

ب- نظام التعليم في الرباط:

إن التعليم هو الهدف الثاني من أهداف الرباط، وهذا دور الفقيه "عبد الله بن ياسين" الأساسي، فقد كان يحفظهم القرآن ويفسره لهم وكذلك يفقههم في تعاليم السنة النبوية أخذاً في الاعتبار كل تعاليم المذهب المالكي الذي طبع الدولة المرابطية فيما بعد بطابع ديني خاص، ويتمثل في سيادة هذا المذهب وسطوة نفوذ الفقهاء في تلك الدولة، وقد وصل اهتمام "ابن ياسين" بالعلماء، أنه رفع مكانتهم فجعل لهم الخمس في الغنائم، وجعل لهم حقاً في أموال الزكاة والعشور، كما أحسن إعداد وتعليم الدعاة الذين انتشروا في الصحراء وبلاد المغرب يدعون الناس للدخول في دعوة المرابطين.

جـ- نظام العمل في الرباط:

من المحتمل أن نصل إلى نظام العمل في رباط "ابن ياسين" من خلال وصف الأمير "يحيى بن إبراهيم الجدالي" للجزيرة التي أشار بها إلى "ابن ياسين" لكي يتخذ عليها رباطه حيث قال: "فيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر، فندخل فيها ونقتات من حلالها، ونعبد الله تعالى حتى نموت" من هذا يتضح أنهم كانوا يعيشون حياة جماعية يسودها التعاون للنهوض بأعباء الحياة من

صيد البر والبحر وفلاحة الأرض وزرعها، وبناء الرباط وصنع الثياب والأسلحة إلى غير ذلك. وقد عرف عنهم البعد عن زخرف الحياة وزينتها إذ يفضلون خشونة العيش عن نعومته ولنا أن نتصور طعام أميرهم «يوسف بن تاشفين» وهو فى عز ملكه فقد كان لا يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل ولا يشرب سوى لبنها.

د- التدريب على أعمال الفروسية والقتال:

من المعروف أن هذا الرباط قد بنى للمرابطة حيث يؤدي غرضًا مهمًا وهو الجهاد فى سبيل الله، وكان يشحن بالمقاتلة والفرسان ليرابطوا ويتخذوا الأهبة للدفاع، كما أن من المعروف أن الفروسية شرط فى حياة المرابط وشرط فى تربيته الإسلامية ما دام الرباط قائمًا على الحدود لذا كان أهل الرباط يمارسون الرياضة والتدريب على الخيل وعلى استخدام السلاح وألعاب الفروسية المختلفة، وقد دأب المرابطون على ممارسة هذه الألعاب وكان يحضرها السلطان بنفسه.

تأملات فى تعاليم «ابن ياسين»:

لا شك أن «ابن ياسين» قد فهم طبيعة الملثمين وما جبلوا عليه من الخشونة واستطاع هذا الرجل أن يسوس هذا الشعب وأن يقوم بتهذيبه وتطويعه للفكرة الإسلامية ولحياة الرباط، فهل كان «ابن ياسين» محقًا فى اجتهاداته تلك؟ نعم كان «ابن ياسين» محقًا فى تلك الاجتهادات وإن كان معتمدًا فيها على اجتهاداته الخاصة فكان من حقه هو والأمير التعزير لكل من يخالف تعاليم الرباط ومن هذا المنطلق نقول:

أ- اعتبر «ابن ياسين» تعاليمه إسلامًا جديدًا بعيدًا عن البدع والانحراف التى كان يغص بها الشعب المغربى، لذا نراه يلزم من يريد الانضمام إلى رابطته أن ينكر ما كان عليه وذلك لهدم الباطل ثم يدخل الإسلام من جديد بمعتقد صحيح.

ب- أما فكرة صلاة القضاء التى طولب بها المريد عما يكون قد فرط من تقصير فى أدائها قبل الانضمام إلى الرابطة فإن «ابن ياسين» يريد بذلك أن يطهر نفسه وأن يحررها من فكرة التقصير فى جانب الله.

جـ- وفكرة التطهير من الذنوب بإقامة الحدود وذلك بضرب من يريد الدخول فى الإسلام حدودًا معينة وذلك ليخلص المريد من فكرة الندم وانكسار النفس.

د- أما رفع منزلة العلماء ومساواتهم بأهل البيت حيث جعل لهم الخمس في الغنائم وحقًا في أموال الزكاة والعشور فكان يهدف من ورائها رفع منزلة العلماء والربط بين الفقهاء والأمراء[1] حتى لا يفرق بين أمور الدين والدنيا، فلا عجب أن نرى من أمراء المرابطين ملوكًا أشبه بالأئمة ولا أدل على ذلك من مكانة "يوسف بن تاشفين" وابنه "علي" فكانوا ملوكًا وعلماء متفقهين في الدين نفضل تلك التعاليم التي خلفها "ابن ياسين"، وهذا ما نفتقده اليوم بسبب فساد حياتنا فلعلنا ندرك أو يدرك المسئولون أن اتحاد الفقهاء مع رجال الحكم من شأنه أن يحمل الناس على جادة الجد وعدم الفصل بين أمور الدين والدنيا كما يفعل العلمانيون ودعاة المجتمع المدني.

- أسباب التغيير عند المرابطين:

لقد كان التغيير عند إدارة الرباط مطلبًا ضروريًا وملحًا لأنه لا سبيل إلى إصلاح الفساد الديني والعقدي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي الذي انتشر في بلاد المغرب إلا بإجراء حركة التغيير، وقبل أن نتكلم عن سمات تلك الحركة لابد أن نبرز شيئًا من مظاهر الفساد والبدع التي انتشرت في تلك البلاد قبيل ظهور المرابطين وقد أشار إليها المؤرخون منها:

أ- ظهور ادعاء النبوة كما حدث في قبائل غمارة المضروبة في جبال الريف والمطلة في سبتة وطنجة وفاس حيث ادعى أحدهم النبوة وتلقب بالمفتدي وقد ادعى بنزول القرآن عليه وسن له شريعة ألزم بها المغاربة وقد قصر الصلاة على الصبح وآخر النهار وأحل لهم أكل أنثى الخنزير وأسقط الحج والطهر والوضوء، كما ظهر أيضًا "صالح بن طريف" في قبائل برغواطة حيث ادعى النبوة وشرع لأتباعه صوم رجب والأكل في رمضان وغيّر من طريقة الوضوء وضاعف الصلوات إلى عشرة فروض.

---

(١) المرابطون وتاريخهم السياسي، مرجع سابق، نفس الصفحات، وقيام دولة الإسلام في الأندلس، عنان، ص (٣٠٢، ٣٠٣)

ب- ظهرت بعض العادات الاجتماعية السيئة حيث انتشرت فكرة الزواج من النساء فوق الأربع وشيوع نوم النساء في بعض القبائل مع غير أزواجهن، كما أبيح للفتاة التي بلغت سن الأربعين أن تعاشر من ترتضيه من الرجال.

جـ- كما ظهرت بعض البدع من رواسب التشيع الذي عم المغرب وقد قام المرابطون الحارسون للسنة بالقضاء على تلك الرواسب مثل فكرة عبادة الأولياء والتمسح بهم والاعتقاد بحلول الله في بعض الأشخاص.

د- كما ظهر بالمغرب ظلم اجتماعي من سيطرة بعض القبائل التي لها الرئاسة والهيمنة على مصادر الدخل واحتكار التجارة وتسخير الناس لمصالحهم، وهذا ما ظهر في قبائل زناتة ومكناسة وبني يفرن وغيرها الذين قاوموا الدعوة وصدوا عنها حفظاً على مكانتهم ومكاسبهم.

من هذا كله يتضح ضرورة القيام بحركة تغيير شاملة تطهر عقلية هؤلاء المحرفين من قبائل الملثمين والمغاربة ثم تحويلهم إلى الطريق الصحيح واعتناق الإسلام على أصوله ومبادئه الصحيحة(١). فما هي سمات حركة ذلك التغيير؟

- سمات حركة التغيير عند المرابطين:

أ- إنه تغيير شامل وليس تغييراً محدوداً في جهة خاصة وإنما جاء هذا التغيير شاملاً جميع مجالات نشاط الإنسان في المجتمع المسلم، تلك المجالات التي تقوم على الشرع فشملت تغييرات عقدية لتصحيح العقيدة في عقول المريدين من المرابطين، كما شملت تغيير المعاملات حيث أمروا أن يتبعوا التشريع الإسلامي وما سنه لهم الفقه المالكي في هذا المجال من بيع وشراء وإجارة، كما اتسمت الأحوال الشخصية أيضاً بالشريعة الإسلامية من زواج وطلاق، كما خطط السياسيون لقيام دولتهم تخطيطاً سياسياً وفق التصور الإسلامي، كما تميزت العسكرية الإسلامية بآداب الحروب التي سنتها الشريعة الإسلامية في معاملة العدو والأسرى والمرضى والقتلى وغير ذلك، كما وزعت غنائم الحرب توزيعاً إسلامياً أيضاً كما عرفنا سابقاً، وخلاصة القول أن التغيير جاء شاملاً يتناسب مع شمولية منهج الإسلام للحياة.

---

(١) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص (١٣٤ - ١٤١)

ب- تغيير مستقر دائم وليس تغيير وقتى إذ عمل قادة الرباط مع فقيههم «ابن ياسين» على ترسيخ فكرة المرابطين الإسلامية والقائمة على أصول إسلامية كما قلنا فى قلوب الأتباع والتواصى بها جيلاً بعد جيل حيث ما فتئ الدعاة ينتشرون فى القبائل يبشرون بهدى الفقيه ويعملون على قيام النموذج الإسلامى الأمثل. وقد حافظ على تثبيت هذا النظام نظام الحسبة الذى يرأسه المحتسب الداعى إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما عمل القضاة والعلماء والفقهاء بهدى فقيه الرباط. لذا ثبتت الفكرة فى العقول واستمرت قائمة ثابتة على الرغم من موت صاحبها ومؤسسيها، فالدول الناجحة هى التى تقوم على الأفكار لا تقوم على الأشخاص فالفكرة باقية بينما الرجال فانون.

ج- تغيير متدرج وليس فورى أى مر بمراحل متتابعة وهى سنة تقتضيها طبيعة البشر من مظاهر التغيير حيث درجت النفوس على التغيير المتدرج الهادئ ولنا فى التشريع الإسلامى خير أسوة إذ نجد الكثير من التشريعات بالتدرج مثل تحريم الخمر وموقف الإسلام من الرق... إلخ ومن هنا نجح التغيير الذى قام به المرابطون والذى مر بمراحله الثلاث: مرحلة الرباط التى كان هدفها التأسيس والتنظيم، ثم مرحلة التمكين وهذه خطوة أساسية نجحت فى تكوين الجيوش فكان المرابطون الذين ربوا فى الرباط هم دعائم تلك الجيوش، ثم انتقلوا إلى المرحلة الثالثة وهى مرحلة الدولة الإسلامية العظمى والتى ضمت بلاد المغرب والأندلس فى وحدة سياسية إسلامية.

د- تغيير جذرى: أى أنه تغيير يعتمد على تغيير الشعوب والأفراد أولاً قبل تغيير الحكام والقادة، بالحجة والإقناع الذى يبدأ من القاع لينتهى فى القمة وهذا ما لاحظناه فى حركة التغيير التى قامت أولاً فى الرباط حيث استهدفت شعوب المغرب والذين جاءوا للانضمام لرابطة «ابن ياسين» عن إقناع واقتناع ولذا نكون أغلب القبائل قد سرت فيها مبادئ الدعوة وفاح فيها عطرها، وإذا لم يكن كذلك فما استطاع «ابن ياسين» و«الأمير يحيى بن عمر» أن يكونا الجيوش التى جهزوها لمحاربة القبائل المعادية والمضادة عن الدعوة إذ تميزت تلك الحشود بجيوشها الضخمة.

هـ- كما تميز التغيير أيضًا بأنه تغيير فوقى إذ تم عن طريق الإصلاحات التى استخدمها جيش المرابطين حيث اصطدم بقبائل زناتة التى رفضت الانصياع للدعوة

وبعدما صدت ورفضت كان لابد من التغيير بالقوة فدارت الحروب وقضى على زعامات القبائل الرافضة ودخل أتباعها فى الدعوة الجديدة، وبذلك تكون دولة المرابطين قد جمعت أهم نوعين من أنواع التغيير وهما التغيير الفوقى والجذرى، وقد شمل رؤساء القبائل وأتباعهم فى وقت واحد.

- وسائل حركة التغيير:

لا شك أننا أمام حركة تغيير كبرى قامت بها دولة المرابطين واستطاعت أن تعدل من سلوك أتباعها وأن تبنى العقول وتكون المفاهيم اللازمة لقيام جماعة مسلمة فى وقت قصير وتدرجت معهم الدعوة من حيث الدعوى بأطوارها الثلاثة: «التنظيم - التمكين والسيطرة - الدولة»، فما إذن الوسائل التى اتبعها المرابطون فى التغيير؟

أ- الدعوة بالحسنى وإقامة الحجة والدليل:

لقد تعلم «ابن ياسين» من سيرة الأنبياء والمرسلين أن وسيلتهم الماضية إلى يوم القيامة والتى أمر بها القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة أن تكون الدعوة قائمة على الإقناع والحجة والموعظة الحسنة حيث لا إكراه فى الدين ونلمس ذلك واضحًا فى قول «ابن ياسين» حينما جمع دعاته وأرسلهم إلى قبائل الملثمين يدعونهم للدخول فى دعوته بعد ما يئس منهم فقال لأتباعه «قد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده».

وكان لهذا المسلك الطيب أثره فى نفوس القبائل إذ تسابقت للانضمام إلى تلك الرابطة من كل حدب وصوب فتوثقت الصلة بين الرباط والبيئة المجاورة، ففرض «ابن ياسين» الزكاة والعشور على تلك القبائل التى دخلت فى زمرتهم وأجراها فى مصارفها الشرعية.

وقد كان لوجود الرباط أثره العظيم فى إشاعة الأمن والطمأنينة فى تلك المنطقة فساد السلم واطمأنت قوافل التجارة التى تمر بأراضيهم مما حبب الناس فى الإسلام ودعمه فى قلوبهم.

ب- التربية وتكوين الإنسان المسلم:

لا شك أن منهج الرباط في تربية المرابطين كان منهجًا تربويًا سليمًا حيث كانت التربية دعائمها القرآن والسنة والقدوة الصالحة والمثل الأعلى الذى كان أمامهم فى داعيتهم «ابن ياسين» ودعاتهم النشطاء.

ولقد تعددت وسائل تلك التربية فكانت تارة بالقول ثم العمل وأحيانًا بالشدة كما رأينا فى أسلوب الرباط، ومما لا شك فيه أن تربية الفرد المرابطى تربية إسلامية قد انعكست على أسرته فى بناء بيت مسلم بعيدًا عن الخرافات والبدع التى كان سببها أولئك المتطرفون من مدعى النبوة، ثم نهض المجتمع المسلم بنهضة الأسرة فكان مجتمعًا قويًا متماسكًا.

جـ- الجهاد فى سبيل الله:

لقد كان الجهاد هدفًا أساسيًا للرباط لأنه هو الوسيلة الوحيدة لتقويم الاعوجاج والمتمردين على وسائل الدعوة، وإذا ما فشلت الدعوة بالحسنى ولم ينفع الوعظ والحجة كان لابد من القوة ليهدم الباطل ولإقامة الحق فإن الدعوة لا تحيا إلا بالجهاد، فلا غرو إن كان الجهاد سبيل المرابطين لتحقيق أهدافهم العليا.

وخلاصة القول أن دولة المرابطين قد استوعبت الفكرة الإسلامية استيعابًا جيدًا ثم انطلقت حركة نشطة توجه وتهدى وعلى رأسها قيادة قوية حازمة، وقد شملت تلك الحركة جميع المستويات فى دولة المرابطين حكومة ودعاة وقوادًا وعمالاً، وقد كانت تلك القيادة بصيرة بأهدافها واعية لما ترمى إليه، لذا نجحت حركة التغيير وكفلت لأصحابها قيام دولة إسلامية عظمى.

ثانيًا: الموحدون ومنهجهم الإصلاحى وحركة التغيير

١- من هم الموحدون؟

الموحدون هم جماعة دينية إصلاحية كونها الفقيه محمد بن تومرت المعروف بالمهدى فى أول القرن السادس الهجرى تقريبًا، وقد بدأها بالمغرب فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى زاد عدد أتباعه، وأظهر دعوته إلى القبائل فانضم

إليه منهم الكثير، حتى صاروا قوة واحدة يناوئ المرابطين ويصطدم معهم في معارك متواصلة حتى قضى عليهم، وقامت دولة الموحدين على أنقاض دولتهم، وينحدر هذا الفقيه من أسرة بربرية وهي قبيلة هرغة أحد بطون قبيلة مصمودة الكبرى التي تعتبر أكثر القبائل البربرية عددًا وأشدها بأسًا وأعرقها نفوذًا[1].

٢- نسب ابن تومرت:

ينتسب ابن تومرت إلى أسرة عريقة ذات دين وحسب ونسب، وقد يمتد نسبه فيصل إلى النبي ﷺ عن طريق الحسن بن الحسن بن علي وهذا النسب يقره أتباعه ويؤمنون به لأنه شرط للمهدوية، وقد كان هذا النسب موضع خلاف بين المؤرخين القدامى والمحدثين على السواء[2]، فالذين يرفضونه يميلون إلى تجريد ابن تومرت من نسبته النبوية لأنه اضطر إلى ذلك بسبب ادعائه بأنه الإمام المهدي ويرون أنه شتان ما بين النسب العربي والنسب البربري، بينما يرى من المؤرخين المحدثين الدكتور عبد الحميد العبادي أن ابن تومرت صادق في نسبته إلى الرسول ﷺ وهو من أحفاد العلويين الأدارسة الذين اندمجوا في البربر وتخلقوا بأخلاقهم وتطبعوا بطباعهم فهو عربي الأصل بربري الطباع والأخلاق[3].

٣- التكوين العقدي والفكري لابن تومرت:

وقد تعلم ابن تومرت علوم عصره ودرس على أيدي نخبة من العلماء الأجلاء في المغرب والمشرق، ودرس بالمغرب علوم القرآن والحديث والفقه والأصول وعلوم اللسان والأدب وهي العلوم التي كانت سائدة آنذاك.

ثم خرج ابن تومرت من المغرب واتجه إلى قرطبة ثم تركها واتجه نحو المشرق وقد طاف بمدنه طلبًا للعلم فبدأ بالإسكندرية ثم إلى دمشق ثم استقر به المقام فترة بمدينة بغداد مركز العلوم الإسلامية والثقافية واللغوية والفلسفة وعلم الكلام ثم اتجه إلى القاهرة فدرس بالجامع الأزهر وأخيرًا درس على يد الإمام الطرطوشي

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج (١٠) ص (٢٠٥)، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج (٤)، ص (١٣٨)

(٢) انظر الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دكتور عبد الله علي علام، ص (٤٤، ٤٥، ٤٦)

(٣) الحلل في تاريخ الأندلس، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٥٨م، ص (١٨٢)

بالإسكندرية وجملا فقد ظل بالمشرق ما يقرب من عشر سنوات متنقلا بين عواصمه في سبيل طلب العلم، وقد استفاد من العلوم الدينية والعقلية الكثير وخاصة تلك العلوم التي كانت محظورة مثل علوم الكلام التي حظرها المرابطون آنذاك حيث كانوا يعتقدون أن علوم الكلام تؤدي إلى الإلحاد والكفر.

فنحن أمام فقيه ضليع في العلم ذي عقلية منظمة قادر على الاستيعاب الجيد حيث أقبل على علوم الكلام وتشبع بها متأثرا بفكر المعتزلة وأفكار الشيعة ومذاهبهم وبذلك حصل أفكارًا جديدة في السياسة إذ طاف وتنقل بأرض الخلافة الفاطمية التي كان يمزقها آنذاك الخلاف بين أهل السنة والشيعة، ثم لمس وهو في بغداد ضعف الخلافة العباسية والتي دنت تترنح وتقترب من نهايتها وأدرك ما عليه العالم الإسلامي من ضعف وفرقة وتمزق وضياع، وتطلع كما يتطلع المسلمون آنذاك إلى الخلاص.

٤- صفات المهدي بن تومرت:

ومن ثم كان للرجل نظرته البعيدة في تكوين جماعة مسلمة تقوم بحركة تغيير وتفرض منهجًا إصلاحيًا يدين به أهل المغرب وبخاصة أن دولة المرابطين بدأ يتفشى فيها شرب الخمر والرقص وتحكم النساء في الملك وبدأ يسيطر عليها الجند وتسوء أحوالها، وكان المهدي جديرًا بتلك الحركة الإصلاحية فقد كان غزير العلم كثير الدهاء شديد التأثير في النفوس، كما كان الرجل يتمتع بمنطق قوي ومحاجة قاطعة مؤثرة في خصومه ومحاجيه، كما كان خطيبًا مفوهًا فصيحًا في العربية والبربرية معًا له قدرة على استمالة الجموع بروائع بيانه وعظيم وعظه، كما كان متمكنًا في علوم القرآن والسنة وأصول الفقه وأصول الدين، كما عرف بزهده في الدنيا وتقشفه وورعه فكان لا يلبس سوى ثياب الصوف، وكان يرتدي ثيابًا مرقعة ولا يقبل على شيء من متاع الدنيا بل كان يكفيه أن يقتات برغيف وبقليل من السمن أو الزيت[1].

---

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج (٢) ص (٥٢).

٥- ابن تومرت والدعوة إلى الله فى المغرب:

وقد تأثر ابن تومرت أثناء دراسته بالمشرق بالنظريات المشرقية فى علوم الكلام والسنة والفلسفة. ويرى ابن خلدون[1] أنه تأثر بعلوم الأشعرية وأخذ عنهم وخاصة فى تأويل المتشابه فى القرآن والحديث، ولما أتم ابن تومرت دراسته بالمشرق عاد إلى المغرب -كما يقول ابن خلدون- بحرًا متفجرًا من العلم وشهابًا واريًا من الدين. ثم نزل بالمهدية وسامع به الناس وأقبل الطلاب يقرأون عليه وكان إذا شاهد منكرات مثل آلات الملاهى أو حوانيت الخمر بادر إلى إزالتها وقد ناله بسبب ذلك الأذى الكثير، ثم هاجر إلى بجاية وأخذ يدعو فيها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم غادرها بعدما خشى العاقبة على نفسه إلى فاس ثم مكناسة وأخيرًا إلى مراكش[2] سنة ٥١٤هـ

والدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى تحمدها ابن تومرت شعاره هى فكرة إسلامية وأصل من أصول الإسلام أمر بها القرآن فى قوله: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [آل عمران ١٠٤]. وقول الرسول ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده إن استطاع، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[3].

وقد كانت مراكش كذلك حين دخلها ابن تومرت شأنها شأن المدن المغربية قد انتشر فيها الاستهتار والفساد، وتباع الخمر علنا فى الأسواق، وكانت الخنازير تمرح فى أحيائها. هذا بالإضافة إلى ما كان يسود الإدارة المرابطية من ضعف وانحلال واغتصاب لأموال اليتامى وغير ذلك من ضروب الفساد[4]

ويروى أن ابن تومرت رأى أخت الأمير على بن يوسف قد خرج فى موكبها فى وسط جواريها الحسان وهن جميعًا سافرات على عادة المرابطين من سفور النساء واتخاذ الرجال اللثام. فعندما رأى الرجل هذا الموكب أنكر على النساء

---

(١) العبر، ج (٦) ص (٢٢٦)

(٢) الحلل الموشية، ص (٧٧، ٧٨)

(٣) الحديث رواه مسلم - رياض الصالحين طبعة دار المأمون للتراث، ص (١٠٠، ١٠١)

(٤) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى، ص (٩٩)

مغفورهن وأمرهن بستر وجوههن، وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت الأميرة عن دابتها ووقع الاضطراب والهرج، وقد وصل ذلك إلى مسامع أمير المؤمنين وقد تزايد علماء مراكش فى وصف ابن تومرت للسلطان وتحاملوا عليه وعلى دعوته، ثم جئ به ولما سئل من قبل أمير المؤمنين إن كان له حاجة ينظر فى قضائها فكان جوابه أنه لا حاجة له إلا تغيير المنكر[1].

وقد أمر على بن يوسف بأن يناظر علماء المرابطين ذلك الرجل وكانت بلا شك تجربة قاسية خرج منها ابن تومرت منتصرًا وذلك لإجادته علم الكلام وفنون المناظرة والمجادلة، وقد أشار مالك بن وهيب رئيس المناظرين من المرابطين على ابن تومرت، وأخذ يحرض السلطان على قتله أو سجنه إلى الأبد إلا أن على بن يوسف لم يأخذ بمشورته، وفر ابن تومرت وبعض صحابته من وجه مالك بن وهيب إلى حيث آواه قومه بالسوس وغيره بمصمودة ونزل بموضع منها يعرف بتينملل ومن هذا الموضع قامت دعوته واستوى عودها واشتد خطرها.

رابطة تينمل «محضن دعوة الموحدين»

١- موقع الرابطة:

تقع هذه الرابطة بمدينة تينملل أو فى أحوازها من بلاد السوس ويقال إنه ذهب إلى قرية إجليز أو جبل إجليز من بلاد هرغة بلده وموطن قومه، وقد اختار هذا الموضع لأنه مكان منيع لا يصل إليه أحد من طريق لا يسلكها إلا الراكب بعد الراكب، ويمكن أن تدافع عنها أقل عصبة من الناس[2]، ومن هذا الموضع قامت دعوته كما قلنا إذ اجتمع إليه وجوه المصامدة وأخذ يدرسهم العلم والدعاء إلى الخير أى «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»[3]. وكان يعنى بالأخص بأن يشرح لأنصاره نظرية المهدى المنتظر والإمام المعصوم.

---

(١) روض القرطاس، ص (١١٤)

(٢) انظر وصف مدينة تينمل وحصنها المنيع فى نظم الجمان، ص (٩٥)، والحلل الموشية، ص (٨٣)، والإدريسى فى نزهة المشتاق، ص (٦٤)

(٣) عنان: دولة الإسلام فى الأندلس عصر المرابطين والموحدين فى المغرب ج (٤) مكتبة الأسرة، ص (١٦٩، ١٧٠) والمراكشى المعجب ص (١١٩، ١٢٠)

٢- الدرس ونشر الدعوة:

وبعد استقراره أنشأ رابطة للعبادة لكي تكون مقرا للدرس ومركزا لتدبير أمور الدعوة وليحقق هدفه المنشود في تعليم مريديه صيغة التوحيد الكلامي على مذهبه، وقد ألف عقيدته تلك باللسان البربري لكي لا يتعثر فهمها على قومه البربر ثم أمر تلاميذه الذين اختارهم لنشر الدعوة واستمالة القبائل بأن يبتعدوا عن أساليب العنف وأن يعتمدوا على أساليب اللين في استمالة القبائل، وهذه الدعوة بلا شك مناقضة لما عرف عنه من التشدد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكيف يأمر تلاميذه باصطناع اللين في نشر الدعوة وقد عرف عنه القسوة والعنف في تصرفاته[1]. إنها بلا شك العقلية السياسية المتفتحة فالرجل يتمتع بتلك الحاسة بجانب تمتعه بالتأصل الديني فهو ينشر دعوة يغلفها اللين لاستمالة الأنصار وتكثير الأتباع وهم الذين سيكونون قوته وعدته بلا شك وسوف يؤلف منهم جيشه لمقارعة المرابطين وأعداء دعوته.

٣- فكرة الإمام المعصوم والمهدى المنتظر:

ولما كثرت الوفود وانهالت عليه القبائل ووثق من أتباعه ادعى أنه الإمام المعصوم والذي ينسب إلى آل البيت واستخدم في ذلك حيل انطلت على عقول المغاربة البسطاء، وأثبت في عقولهم أنه الإمام المطاع الذي لا ترد له كلمة، فطاعته هي طاعة لله وعصيانه كفر ثم أخذ يشوقهم إلى المهدى المنتظر ويبشر به ويجمع الأحاديث النبوية التي قيلت في تلك النظرية[2]، ولما كان اسمه محمد بن عبد الله وينتسب إلى النبي ﷺ وكان اسمه مطابقًا لاسم المهدى المنتظر بايعوه على أنه هو المهدى المنتظر.

وينقل إلينا ابن القطان خطبته التي اعتزم أن يعلن فيها إمامته في اليوم الخامس عشر من رمضان سنة ٥١٥هـ وفيها يقول المهدى: (الحمد لله الفعال لما يريد،

---

(١) كان ابن تومرت عنيفا في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد لوحظ ذلك في نصحه لركاب السفينة التي نقلته من الإسكندرية حيث هاجمهم لشربهم الخمر فألقوه في البحر وتخلصوا منه كما ورد في بعض الروايات، ولوحظ ذلك أيضا حينما اصطدم مع أهل بجاية ومهدية وفر بعدها إلى مراكش، انظر الدولة الموحدية بالمغرب، ص (٥٤) وما بعدها

(٢) المعجب، ص (١٨٦، ١٨٧)

يقضي بما يشاء، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، وصلى على سيدنا محمد رسول الله المبشر بالإمام المهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور. مكانه المغرب الأقصى ومنبته وزمانه آخر الزمان واسمه اسم النبي ﷺ، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم، وقد ظهر جور الأمراء وامتلأت الأرض بالفساد، وهذا آخر الزمان، والاسم الاسم، والنسب النسب، والفعل الفعل)[1].

٤- المبايعة وتكوين الحكومة الموحدية:

وعلى أثر ذلك هرع إلى المهدي عشرة من أصحابه وبايعوه على أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم، وهؤلاء هم العشرة الأوائل من أصحاب المهدي الذين كانوا أول من آمنوا به وسماهم بالمهاجرين الأولين وبجماعة [illegible] وهم الطبقة الأولى، ثم بايعه من بعدهم خمسون رجلاً فسموا أهل خمسين وهم الطبقة الثانية من أصحاب المهدي، ثم بايعه من بعدهم سبعون آخرون فسموا أهل سبعين وهم الطبقة الثالثة، وكانت هذه الطبقات الثلاث تضم أخلص أتباع المهدي، ثم بعد ذلك قسمت الطبقات إلى طبقات أخرى كما وضحنا في البحث[2].

إذن بويع المهدي ابن تومرت بالمهدوية، ثم شرع يؤلف حكومة منظمة وبدا الرجل في ذلك الوقت أنه رجل سياسة ودين في آن واحد وأطلق عليه الإمام المعصوم والمهدي المنتظر المرسل من قبل الله ليقضي على الفساد ويعيد الدين إلى نقائه وصفائه كما لقب أنصاره بالموحدين، ثم دعا قومه إلى شق عصا الطاعة على المرابطين ووجوب محاربتهم.

---

(١) فكرة المهدي المنتظر فكرة قديمة في التاريخ الإسلامي استخدمها كثير من الدعاة ليجمعوا من حولهم جماعات أو دولاً وهي تظهر أكثر ما تظهر في وقت المحن والشدائد التي تحل بالشعوب والتي تتطلع إلى خلاص فتأتي تلك الفكرة في وقتها المناسب وتجد صداها في عقول الناس إذ يأملون أن يأتي المهدي ليخلص الأرض من الظلم والجور وينشر فيها العدل، وقد استغلها الشيعة أحسن استغلال في إقامة دولتهم الفاطمية في تونس ثم مصر [illegible] فهي في حاجة إلى إعادة النظر فيها.

(٢) نظم الجمان انظر رواية روض القرطاس، ص(١١٣)، ابن خلدون في العبر، ج (٦)، ص (٢٢٨)، والحلل الموشية ص (٧٨)، والدولة الموحدية بالمغرب عبد الله علام، ص (٦٦).

سمات منهج دعوة الموحدين

ولا شك أننا أمام دعوة أقرها المهدى، أودعها كتبه وصبغ عليها من فكره ما جعلها دعوة خاصة بالموحدين وإن كانت فى طبيعتها وشكلها دعوة إسلامية، وهذان الكتابان هما:

- كتاب أعز ما يطلب: ويضم مبادئه ونظرياته وآراءه فى الأصول وفى الإمامة وفى التوحيد والعلم.

- الموطأ: وهو ما يعرف بموطأ الإمام المهدى وقد وضعه المهدى فى العبادات والمعاملات والحدود وهو يشبه موطأ الإمام مالك حيث يتناول علم الفروع.

ومن خلال الكتابين السابقين لابن تومرت يمكننا أن نستخلص مظاهر عقيدة المهدى بن تومرت التى أوجبها على أصحابه ومريديه، فما مرجعية تلك الدعوة؟

المرجعية والقياس:

اعتمد منهج ابن تومرت الإصلاحى على مرجعية وضعها بنفسه، حيث صاغ لأتباعه أفكاره ومبادئه من حيث العقيدة والشريعة والعبادات فى كتابين، وقد تأثرت تلك المبادئ بنظرية المهدوية والإمام المعصوم ومن ثم حدثت محل خلاف بين الموحدين أنفسهم وبين الموحدين وغيرهم مما لا نسلم به فى أى مشروع للنهضة الإسلامية أن تكون المرجعية فيها للإسلام فقط: كتاب الله وسنة رسوله، لذا نلاحظ عدة ملاحظات على منهج الموحدين وهى:

١- أنه وضع علم التوحيد باللغة البربرية فى كتاب سماه المرشدة يحتوى على العلم بمعرفة الله تعالى والعلم بحقيقة القضاء والقدر وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وينقسم أيضًا للأعشار والأحزاب والسور وقال لهم إن من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد وإنما هو كافر لا تجوز إمامته، ولا تؤكل ذبيحته، فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز فقد كانوا أقوامًا جهلة لا يعرفون شيئًا من الدنيا[1].

---

(١) الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على - عبد الله علام، ص(٦٩)، عنان دولة الإسلام فى الأندلس، ج(٤)، ص(٢١٦، ٢١٧)، روض القرطاس، ج(٢)، ص(١١٥) وما بعدها

٢- وكان يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى وأداء الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة إذ كانت تؤخذ من غنائمهم وترد على فقرائهم ويأمرهم بقراءة القرآن وحفظه ثم قراءة الأحزاب التي وضعها لهم بعد صلاة الصبح وبعد المغرب، ثم أمر المؤذنين أن ينادوا بعد طلوع الفجر (أصبح ولله الحمد) وذلك إشعارا بلزوم الطاعة وحضور الجماعة ثم فرض عقوبة على المخالفين لذلك.

٣- كان ابن تومرت إلى جانب هذه الصفات صارم النفس شديد التعصب ذا جرأة على سفك الدماء في سبيل هدفه ومقصده لا تأخذه شفقة ولا رحمة، وكان يضفي على هذه الصفة من السفك صفة شرعية لما يزعمه من مخالفة خصومه لأحكام الكتاب والسنة أو لمبدأ التوحيد الذى اتخذه شعارا

٤- كما تميز ابن تومرت بالقدرة الفائقة على الخداع والكيد والمكر[1] حيث استطاع بهذه الصفات أن يستهوى الجماهير ويستغل جهلها حتى ذاعت دعوته وقويت شوكته، ثم بعد ذلك استحل فيهم القتل جملة كما ظهر عند التمييز حيث كان يقتل الآلاف من المؤمنين لدعوته، وذلك لتأكيد مهدويته، وينفى الشك عن عصاميته من ناحية أخرى.

مصادر دعوة الموحدين

يمكن أن نستشف من الكتابين السالف ذكرهما وهما كتابان من تأليف المهدى بن تومرت أودعهما الكثير من المبادئ التي تعد أصولاً في دعوته ومن هذه الأصول

أ- أصول الشريعة:

١- يرى أن الشريعة لا تثبت بالعقل من وجوه منها أن العقل ليس فيه إلا الإمكان والتجويز مهما شك والشك ضد اليقين ومحال أخذ الشيء من ضده.

ومنها أن الله سبحانه وتعالى مالك الأشياء يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه بما يشاء فليس للعقول تحكم ولا مدخل فيما يحكم به الله.

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية المجلد الحادى عشر، ص(٤٧٦، ٤٧٧)

٢- وأصول الشريعة تنحصر فى عشرة هى أمر الله ونهيه - وخبره بمعنى الأمر - وخبره بمعنى النهى - وأمر الرسول ونهيه - وخبره بمعنى الأمر - وخبره بمعنى النهى - وفعله وإقراره.

٣- الفروع وتنحصر فى خمسة وهى: الواجب والمندوب والمحظور والمكروه والمباح وهؤلاء لا يخص الإجماع والقياس بالذكر إذ يعتبرهما من أصول الشريعة وهو ينظر إلى قياس الوجود بما هو قياس المجسمة وهم المرتطون فى نظره ويعتبره من ضروب القياس الفاسد.

٤- أما عن الاجتهاد كأصل من أصول الشريعة فإن ابن تومرت يحمل عليه ويشير إلى إثبات النفى على أنه قلب الحقائق وقلب الحقائق محال، ومعنى هذا أن ابن تومرت كان يأخذ فى تفسير الشريعة بالمذهب الظاهرى، فيما يقول به من وجوب الاعتماد فى استنباط الأحكام على الكتاب والسنة دون غيرهما، وإنكار ابن تومرت لقيمة الاجتهاد كمصدر من مصادر الشريعة ومعارضته لجهود المجتهدين فى تحديد الشريعة والاستنباط فى مجال الاجتهاد من الأمور المنطقية الخاصة به هو، لأن ابن تومرت يدعى أنه الإمام المعصوم الذى لا تبحث آراؤه ولا ترد أحكامه، وبذلك يفرض على أتباعه وجوب الاعتقاد فى الإمام المعصوم، ولعل ابن تومرت بموقفه هذا من الاجتهاد يفرض الولاء على جميع أتباعه الذين لا يقوون على مخالفة آرائه أو حتى مجرد التفكير فى المخالفة

د.- أصول العقيدة:

حيث يتحدث عن التوحيد وعن دلائل وجود الله سبحانه وتعالى وتنزيهه باعتباره أساس الدين الذى بنى عليه، ويتحدث عن شروطه وفضله وأن التوحيد يهدم ما قبله من أفكار منحرفة وأوزار وآثام، وهو يرى أن العلم بالتوحيد واجب ومقدم على العبادة وأن التوحيد دين الأولين والآخرين من النبيين المرسلين، وأن دين الأنبياء واحد، ويرى ضرورة معرفة طرق إثبات العلم فى التوحيد إلى غير ذلك من مسائل وردت فى كتاب أعز ما يطلب لابن تومرت.

وإذا كان التوحيد فى الأصل يعد ركناً من أركان الإسلام الأساسية فإنه يعتبر عند ابن تومرت أساساً لمذهبه الدينى والسياسى معاً، إذ يتحول على يد المهدى من صفته الدينية إلى فكرة سياسية هى التى أصبحت أساس الدولة الموحدية ودعامة

مستعدينها إذ لم تبق فكرة التوحيد في حدود الاعتراف بوحدانية الله ولكن غدا معناها الخضوع لحكومة الموحدين، ومن دلائل ذلك أن ابن همشك الزعيم الأندلسي عندما خضع لحكومة الموحدين وصفوا ذلك الخضوع فى قولهم "توحيد ابن همشك" وبذلك غدا كل من دخل في زمرتهم موحدًا أي مستسلمًا راغبًا في الدخول فى طاعة هؤلاء القوم[1].

وقد اتخذ هذا اللقب "التوحيد" لأتباعه نكاية في أعدائه المرابطين الذين كانوا يأخذون بظاهر الآيات فلا يؤولون صفات الله مما يؤدي إلى التجسيم والتكفير، فهم مالكية سلفيون لا يحيدون عن مذهب مالك وترك ذلك الإمام عمدوا للتأويل، حيث يقول فيه "الشهرستاني": أما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ولم يتهدفوا للتشبيه فمنهم مالك بن أنس رضي الله عنه إذ قال في تفسير قوله تعالى ﴿الرَّحمٰنُ على العرش استوىٰ﴾ [طه: ٥] الاستواء معلوم والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[2].

لذا فإن تومرت يهاجم المرابطين ويعتبرهم بالكفرة المجسمين، وقد نال مذهب مالك وعلماؤه من الموحدين الشيء الكثير ومع ذلك فقد بقي كما هو فنشأت دولة الموحدين، وزالت، وظل مذهبه قويًا شامخًا حتى يومنا هذا.

ويبدو أن ابن تومرت قد استعار عبارة التوحيد تلك من المعتزلة فهم الذين يعطون اسم التوحيد في تعريفهم لفكرة الله. يقول "الشهرستاني" عن المعتزلة: (واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار، ونفي التشبيه عنه من كل وجه، جهة ومكانًا وصورة، وجسمًا وتحيزًا وانتقالاً وزوالاً وتغيرًا وتأثرًا، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها، وسموا هذا النمط "توحيدًا")[3].

لذا نرى ابن تومرت كان يرى أعداءه المرابطين مسئولين عن فكرة التجسيم والتشبيه التي انتشرت بين المغاربة ومن هنا استحقوا القتال بسبب نشر ذلك الإلحاد الذي يخالف التوحيد كما يرى فهم أهل شرك ويجب أن يشهر عليهم الجهاد في سبيل الله.

---

(١) عنان دولة الإسلام فى الأندلس، ج(٤)، ص(٢٠٥)

(٢) الملل والنحل للشهرستاني، ج(١)، ص(١١٨) وما بعدها

(٣) الشهرستاني فى كتابه الملل والنحل نقلا عن عنان دولة الإسلام فى الأندلس، ج(٤)، ص(٢١٣)

جـ- مسألة الإمام المعصوم والمهدى المنتظر:

ولعل هذه المسألة تعد لب مذهب ابن تومرت ولب دعوته السياسية فإن الإمامة الدينية هى الشعار السياسى الذى رفعه وأذاعه بين القبائل ثم جاءت نظرية المهدى المنتظر لتضفى عليها روحًا وقدسية، وقد تحدث ابن تومرت عن الإمامة وأوجب الاعتقاد بها على الكافة وجعلها إمامة مطلقة واجبة الطاعة فيقول فى كتابه: (هذا باب فى العلم وهو وجوب اعتقاد الإمام على الكافة وهى ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الشريعة، ولا يصح قيام الحق فى الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمام فى كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة)[1].

وبهذه الإمامة أضفى ابن تومرت على نفسه صفة من صفات النبوة حيث وصف نفسه بالمعصوم الذى لا يخطئ لأن العصمة من صفات الأنبياء، وبتلك النظرية يكون ابن تومرت قد أكد دعوته الدينية والسياسية التى انضوت تحتها القبائل وكان لها تأثيرها على قلوب الناس وخاصة هؤلاء الذين يسودهم الجهل وتسيطر عليهم الخرافة فكانت تعاليمه تلك أشبه بالقرآن الكريم فيقول: (لا يكذب بهذا إلا كافر أو جاحد أو منافق أو زائغ أو مبتدع أو مارق أو فاجر أو فاسق أو رذل أو نذل، لا يؤمن بالله واليوم الآخر)[2].

وقد أقنع أتباعه المغاربة بأنه المهدى الذى تستحيل على يده شئون العالم من الفساد الشامل والظلم المطبق إلى الصلاح والعدل، ويأمر أتباعه بوجوب طاعة المهدى أيضًا والإيمان برسالته والإذعان لمشيئته والاستسلام لحكمه، ويرى أن طاعته هى طاعة الله ورسوله ذاتها، والانقياد له هو انقياد إلى الله ورسوله، فهو أعلمهم بالله وأقربهم إلى الله[3].

وكان ابن تومرت كثيرًا ما يلقى فى روع أتباعه أنه قادر على أن يكشف مسائل المستقبل، فكان يقول لهم: لو شئت لعددت خلفاءكم خليفة خليفة فزادت فتنة

---

(١) كتاب محمد بن تومرت (أعز ما يطلب)، ص(٢٤٥، ٢٤٦) نقلا عن عنان دولة الإسلام فى الأندلس، ج(٤)، ص(٢٠٦، ٢٠٧)

(٢) نفس المصدر السابق ونفس الصفحات

(٣) المصدر السابق، ص(٢٠٩).

أتباعه وأظهروا له شدة الطاعة فيقول ابن أبي زرع: (فقصده الناس إليه من كل جهة ومكان يبايعونه ويتبركون برؤيته فيأخذ عليهم البيعة ويعلمهم أنه المهدي المنتظر حتى علا أمره وقوي سلطانه، وسمى كل من دخل في طاعته وبايعه وتابعه على طريقته بالموحدين، وعلمهم التوحيد باللسان البربري ووضع لهم فيه الأعشار والأحزاب والسور وقال لهم من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بمؤمن وإنما هو كافر لا يجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته، فصار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز)[1].

واستطاع بذلك ابن تومرت أن يستميل القبائل إليه وأن يعلي من شأن أتباعه حتى يتم الولاء لطريقته، يقول المراكشي: إن ابن تومرت كان يسمي أتباعه المؤمنين ويقول لهم: (ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم وأنتم العصابة المعنيون بقوله حتى يأتي أمر الله، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى ابن مريم ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة)[2].

ثم توعد كل من تسول لهم أنفسهم مخالفة المهدي ومعارضته أو مجرد الشك في أمره بالويل الشديد وبأشد النكال، وليس له طريق إلى النجاة، يقول ابن تومرت في كتابه: (أمر المهدي حتم، ومن خالفه يقتل، لا دفع له في هذا لدافع، ولا حيلة فيه لزائغ)[3].

د- العبادات والمعاملات والحدود:

يتناول ابن تومرت طائفة من المسائل الدينية في باب العبادات وقد جاءت في كتابه المسمى «موطأ الإمام المهدي» حيث جمعت فيه تلك المسائل على نسق موطأ الإمام مالك، وعلى ما يبدو أن ابن تومرت قد قدم لنا تلك النواحي كما أفتى بها مالك رحمه الله جارية على مذهبه، ويتكون موطأ المهدي من كتابين هما:

الكتاب الأول: يتكلم عن الطهارة، والصلاة، والجنائز، والصيام، والاعتكاف، والزكاة، والحج، والجهاد، والإيمان، والنذور.

---

(١) روض القرطاس، ج(٢). ص(١١٥) وما بعدها

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص(١٨٨).

(٣) كتاب محمد بن تومرت نقلا عن عنان، ص(٢٠٩)

الكتاب الثاني: يتكلم عن الضحايا، وعن العقيقة، والذبائح، والصيد والأشربة، والحدود، والنكاح، والطلاق، والرضاع، والبيوع، والشفعة، والرهن، والإيجارة، والمساقاة، والفرائض، والعتق، والمكاتب، والتدبير، والعقول، والقسامى، والتعدى، والغضب، والأقضية والجامع.

هـ- تكفير ابن تومرت للمرابطين ومعاداته لهم:

كان ابن تومرت بارعًا في دعايته ضد المرابطين إذ استغل بعض مسائل العقيدة والدين وسخرها في هذا الجانب لاويًا عنق الحقيقة، ومن المواضع التي هاجم فيها المرابطين وانطلت على أتباعه فآمنوا بها:

1- مسألة التلثم: إذ كان من عادة المرابطين أن يلتثم رجالهم بنقاب يغطي نصف وجوههم على حين تسفر نساؤهم عن وجوههن، وقد استغل ابن تومرت هذا ضدهم، فقال عنهم: (وكذلك المجسمون الكفار الذين يتشبهون بالنساء في تغطية الوجوه بالتلثم والتنقب على حين تتشبه نساؤهم بالرجال في التكشف عن الوجوه بلا تلثم ولا تنقب، فهذا التشبه بهم حرام، ثم أتى بحديث عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء» فقد شملتهم اللعنة جميعًا[1]، ومن كثر سواد قوم فهو منهم وذلك كله حرام، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ [هود: ١١]

فلعلك تلمس المبالغة والتعنت في تفسير ابن تومرت للحديث النبوي الشريف إذ فسره بعيدًا عن حقيقته، فاللعنة المرادة في الحديث هي منصبة على الرجال المتشبهين بالنساء في التخنث والليونة والميوعة، وهي أمور تسبب تلاشي الرجولة، وهذا بلا شك يعوق الرجل عن القيام بواجباته التي أوجبها الشرع كالجهاد في سبيل الله ومما يتنافى مع العرف السائد والعادات الإسلامية، وعلى حياة الجندية المتميزة بالخشونة والبطش، ولقد كان المرابطون بلا شك متميزين بالخشونة والبطش ومقدرتهم على الفروسية والقتال في سبيل الله، فلا ننسى أن دولتهم قد قامت على فكرة الجهاد، وكم حققوا بخشونتهم تلك انتصارات عظيمة منها نصر الزلاقة

(1) كتاب محمد بن تومرت - عنان، ص(٢١٢) مصدر سابق

للزور، ويقول الدكتور عبد الله علام: كان مظهر الجندي المرابطي الملثم يثير الرعب والفزع وتنخلع له قلوب الأعداء بعكس ما يصوره المهدي بن تومرت[1]، لقد عرفنا سابقًا لماذا استخدم المرابطون اللثام فهو استخدام قديم توارثه الخلف عن السلف وذلك ليقيهم من لفح العواصف والرمال والحر والبرد.

٢- حملة ابن تومرت على المرابطين بسبب ما أحدثوه من المناكر والمغارم:

وقد أشرنا إلى ذلك سابقًا حيث ظهر الفساد وذاع شرب الخمر وأكل أموال اليتامى إلى غير ذلك من منكر وفواحش وسيطرة النساء واستبدادهن بالأمور وانتشار قطاع الطرق الذين يقودهم نساء، فقد كان ابن تومرت على حق في ثورته تلك، وكما حدث في أخريات دولة المرابطين حدث أيضًا في أخريات دولة الموحدين، فبعد ذهاب المهدي، ثم تولى عبد المؤمن الخلافة ظهر في أولاده من كان يشرب الخمر وخاصة ابنه الأكبر والذي حرمه من ولاية العهد بسبب إدمانه لها، وقد ظهرت تلك المناكر في أواخر دولة الموحدين حينما انتابها الضعف والتفكك وهذا أمر شائع عندما تتشبع القلوب بحب الدنيا.

٣- دعوة ابن تومرت إلى شق عصا الطاعة على المرابطين:

يرى ابن تومرت أن المرابطين ليس لهم حق في ولايتهم على المسلمين حيث لا ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وعلى هذا دعا أتباعه إلى الخروج عليهم وجهادهم، لأنهم الكفرة المجسمون والمنكرون الحق، ثم يستند إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، فهو يعتبر المرابطين كفارًا فلابد من محاربتهم بالسيف.

ثم يلجأ ابن تومرت إلى التأسي بصنيع أبي بكر رضي الله عنه في محاربة مانعي الزكاة من المسلمين فكيف لأبي بكر أن يحارب من منع الزكاة وهو لا يحارب الذين أشركوا بالله؟ فالمرتدون عطلوا فريضة الزكاة بينما المرابطون في نظره قد أشركوا بالله وإن الشرك لظلم عظيم، وهم منعوا الإيمان والدين والسنة[2].

---

(١) الدولة الموحدية بالمغرب، ص(٧١، ٧٢).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص(٧٧).

ولعل يتمثل التعسف في ذلك القياس الذي أخذ به ابن تومرت فلا يصح للمسلم أن يكفر مسلما أجرى نطق الشهادتين، وقد قام علماء المرابطين وعلى رأسهم مالك بن وهيب عدو ابن تومرت بالرد علي هذه التهم التي ألصقها بالمرابطين فقال عن ابن تومرت: إنه رجل يكفر الناس ويمنع من الصلاة على أهل «القبلة» أي يمنع الصلاة على قتلى المرابطين وأنه يرد المطلقة ثلاثًا إلى زوجها، ويطرح مذاهب العلماء وكتبهم، ولم يأخذ بمذهب السلف وخرج من الإجماع، واستحل دماء المسلمين وأموالهم، كما استحل حريمهم، وجعل أموال المسلمين غنيمة[1] تخمس كما تخمس أموال النصارى، إلي غير ذلك من ردود مفندة.

رأى الإمام ابن تيمية فى منهج الموحدين

وقد سئل شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية عن المرشدة وصاحبها وهل يجوز قراءتها فأشار إلى أن ابن تومرت كان منافقًا كذابًا فى دعوته يحاول أن يثبت لنفسه المعجزات وأنواعًا من المخاريق ليأمنوا بمهدويته، حيث اعتقد البربر أن الموتى يكلمونه ويشهدون له بذلك فعظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره، فصار يجئ إلى المقابر يدفن بها أقوامًا أحياء ويواطئهم على أن يكلموه إذا دعاهم ويشهدوا له بما طلبه منهم، فيشهدوا له بأنه المهدى الذى بشر به رسول الله ﷺ وأنه الذى يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت جورًا وظلمًا، ثم يهدم عليهم القبور ليموتوا ولا يظهروا أمره[2].

ثم أردف ابن تيمية حكاية أخرى تروى عن ابن تومرت وذلك أنه واطأ رجلا على إظهار الجنون وكان ذلك الرجل عالمًا يحفظ القرآن والحديث والفقه فظهر بصورة المجنون، والناس لا يعرفونه إلا مجنونًا، ثم أصبح ذات يوم وهو عاقل يقرأ القرآن والحديث والفقه، وزعم أنه علم ذلك فى المنام، وعوفى مما كان فيه، فصاروا يحسنون الظن بذلك الشخص، فلما كان يوم تفرقة «التمييز» الذى تميز فيه المهدى بين أوليائه، فيجعلهم من أهل الجنة ويعصمهم من القتل، وبين أهل النار الذين يشك فى أمرهم وولائهم فيستحقون القتل، وبذلك قد استحل دماء

(١) الدولة الموحدية بالمغرب، ص(٧٧)

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، دار التقوى للنشر والتوزيع المجلد الحادى عشر، ص(٤٧٧)

ألوف مؤلفه من أهل المغرب المالكية، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة، يقرأون القرآن والحديث كالصحيحين والموطأ وغير ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة. فزعم أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل المقالة ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم[1].

ثم ينتقد الإمام ابن تيمية المرشدة التي ألفها ابن تومرت بأنه لم يذكر فيها شيئًا من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السنة والجماعة ولا ذكر فيها الإيمان برسالة النبي ﷺ ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي ﷺ من أمر الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر، فهذه أصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة، بينما صاحب المرشدة يتناولها باختصار شديد واقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن لله وجودًا مطلقًا، وهو قول المتفلسفة والجهمية والشيعة، وأقوالهم تلك قد اتفق أهل السنة والجماعة، وأهل المذاهب الأربعة على إبطالها وتضليلها.

ثم يحاول شيخ الإسلام أن ينقض فكرة التوحيد التي ينادي بها ابن تومرت فهي مخالفة لمعناها الشرعي كما جاء في كتابه العزيز وعلى لسان رسوله كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

فنفاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيدًا، فمن قال إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق أو قال إن الله يرى في الآخرة أو قال: أستخيرك بعلمك لم يكن موحدًا عندهم بل يسمونه مشبهًا مجسمًا، وصاحب المرشدة لقب أصحابه موحدين اتباعًا لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيدًا ما أنزل الله به من سلطان وألحدوا في التوحيد الذي أنزل الله فيه القرآن[2].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، المجلد (١١)، ص(٤٧٨)

(٢) المصدر السابق، ص(٤٨٨)

الحقيقة أنه لا يصح إلا الصحيح، فكم من دعوات بقيت واستمرت مع الزمن لاستقامة فكرتها وصحة مبادئها، وكم من دعوة ذهبت ولم تعمر طويلاً لفساد فكرتها وسوء نتائجها، وهذا ما حدث مع دعوة الموحدين، فنظراً لتلك الدعوة التي يشوبها الكثير من الأفكار المنحرفة والبعيدة عن الإسلام بما فيها من إلحاد وشرك بالله فإن العاملين بها سرعان ما سئموا منها وملوها، فهذا الخليفة المنصور الموحدي أعظم خلفاء الدولة الموحدية، وقد أشادت الرواية الإسلامية بخلاله وصفاته وامتداح تصرفاته وسياسته وتفانيه في الذود عن قضية الإسلام، نرى ذلك الخليفة قد هاله الاختلافات في الرأي التي نشبت بين الموحدين في المغرب والأندلس وكثرة الفروع التي حفظها لهم ابن تومرت في موطئه في مسائل العبادات والمعاملات وغيرها والتأويلات في الرأي من حيث صفات الله وذاته وغيرها من مسائل التأويل التي انحرفت بالموحدين عن جادة الطريق، لذا نرى ذلك الخليفة يطارد علم الفروع وتلك التفصيلات في العبادات والمعاملات ويرتاب في آراء المهدي بن تومرت.

وتروى الرواية العربية أن المنصور كان من أشد دعاة المذهب الظاهري والمناقض لعقيدة التوحيد، وهو المذهب الذي اشتهر على يد الفيلسوف ابن حزم القرطبي في أوائل القرن الخامس الهجري، وخلاصة هذا المذهب أنه يجب أن تستمد أحكام الشريعة من ظاهر القرآن وظاهر السنة فقط، وألا يعتد في ذلك بالرأي أو القياس، وأن يبقى الإجماع محصوراً في إجماع صحابة رسول الله، ويروى عن المنصور أنه حمل الناس على اعتناق ذلك المذهب الظاهري والتزام الأخذ بالظاهر من القرآن والحديث، وكان ذلك الخليفة يشكو من تعدد الآراء والأحكام المذهبية في المسألة الواحدة، ويرى أن الأخذ بالمذهب الظاهري يحسم كثيراً من الخلافات، وكان المنصور يجل ابن حزم ويقدره ويرى أن كل العلماء إنما هم عيال على ابن حزم[1].

كما أن المنصور في أواخر أيامه عين قضاة من الشافعية وبذلك أخذ بنوع بين الاتجاهات والمذاهب المختلفة وإن يخالف بذلك آراء ابن تومرت وعقيدته.

(١) المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب طبعة القاهرة ١٣٠٢هـ، وطبعة صادر ١٩٦٨، ج(٢)، ص(١٦٢)

وعلى ما يبدو أن أغلب خلفاء الموحدين كانوا يجنحون إلى المذهب الظاهري سرا وإن لم يفصحوا عن ذلك، حيث كانت الدولة الموحدية لا تزال في بدايتها وكانت عقيدة التوحيد تعلو على كل ما عداها، وكان من أثر ذلك أن ازدهر علم الحديث في عهد المنصور وحظي طلابه بالتشجيع والرعاية الفائقة[1].

وإذا كان المنصور غير متحمس لإمامة المهدي ولم يكن كذلك من المؤمنين بعصمته، فإنه لم يشأ أن يعلن ذلك أو يتخذ خطوة عملية ضد تلك النظرية وإنما الذي اتخذها وأقدم عليها بكل ثقة وجرأة هو الخليفة المأمون الموحدي، حيث أصدر مرسومه إلى سائر البلاد بإزالة اسم المهدي من الخطبة ومن السكة ومحو اسمه من المخاطبات، وقطع النداء عند الصلاة بالسعادات البربرية مثل (تاصليت الإسلام وسودود، وبردي، وأصبح ولله الحمد)، وغير ذلك مما كان العمل جاريا عليه.

والعجيب أن يأتي خليفة موحدي فيصوب الفكرة الخاطئة ثم يمحوها ليريح الناس من جراء العبث الذي لاقوه من التطبيق العملي لتلك الفكرة، فيدبج المأمون في كتابه الرسمي الذي أنشأه بنفسه أن وصف ابن تومرت بالمهدي وبالإمام المعصوم إنما هو نفاق وبدعة وأمر باطل، وإنه يجب نبذه والتخلص عنه.

وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب نص هذا الكتاب الذي يعد حدثا خطيرا في تاريخ العقيدة الموحدية ننقل منه بعض الفقرات المهمة. (ولتعلموا أنا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق، وأن لا مهدي إلا عيسى ابن مريم، وما سمي مهديا إلا لأنه تكلم في المهد، وتلك بدعة قد أزلناها، والله يعين على القلادة التي تقلدناها، وقد أزلنا لفظة العصمة عمن لا تثبت له عصمة، فلذلك أزلنا عنه رسمه. . . وقد كان سيدنا المنصور رضي الله عنه هم أن يصدع بما به الآن صدعنا وأن يرقع للأمة خرق الذي رقعنا فلم يساعده لذلك أمله، ولا أخره إليه أجله)[2]، ويقول (وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه، أف لهم قد ضلوا وأضلوا)[3].

---

(١) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص(١٥٧، ١٥٨).

(٢) ابن عذاري القسم الثالث، ص(٢٦٧، ٢٦٨).

(٣) المصدر السابق ونفس الصفحات.

ولا شك أن عمل المأمون كما عرفنا سابقًا وهو إلغاء المهدوية وإمامها المعصوم يعد أعظم تصحيح لدعوة قامت لأنه تصحيح في أصول العقيدة الموحدية التي تجافت الفكرة الإسلامية وعقيدتها الغراء حيث عاش الكثير من المغاربة ردحًا من الزمن لا يعرفون إلا عقيدة التوحيد التي أقرها ابن تومرت في «مرشدته» والتي صدرت كالقرآن الكريم في قدسيتها، بل نرى المغاربة البسطاء يتركون القرآن والسنة ويقبلون على تلك العقيدة المهدوية المنحرفة، ومن المآخذ التي أخذت على تلك العقيدة:

١ - إن فكرة الإمام المعصوم والمهدي المنتظر هي أسطورة خرافية ولا معصوم إلا الأنبياء رضوان الله عليهم، واتصاف ابن تومرت بالإمام جعل له الحق في نظر أتباعه أن يشرع ما يشاء ويسن لهم سنته التي يريدها متشبهًا بالأنبياء، وهذا انحراف ما بعده انحراف، وقد شاهدنا ذلك في محاولة الموحدين تشبيه ابن تومرت بالنبي ﷺ حينما خرج في معاركه ومحاولة حمله والذود عنه، ولعل فكرة الإمام هذه والتي أخذها ابن تومرت عن الشيعة الفاطميين جعلته يستأثر بها ويلح عليها في دراسته لأتباعه لأن الإمام هو ظل الله في أرضه كما يرى الشيعة وهو مصدر السلطة وهو مخزن العلم، وهو مصدر الفتوى، فلا اجتهاد ولا قياس لأن العلم كله عند الإمام وبذلك يكون ابن تومرت انحرف انحرافًا بالغًا وأفقد جماعة الإسلام في المغرب إحساسها الدافئ والأصيل بحب الله ورسوله إذ شغل هو تلك المكانة في قلوب أتباعه.

فنعم ما قام به المأمون من القضاء على تلك الإمامة وعلى المهدي المنتظر فهي أسطورة يستغلها الدعاة ليضللوا بها العامة، فما أضعفها من فكرة وما أتعسها من أسطورة.

٢ - كما يؤخذ على ابن تومرت إغراقه في التأويل وآيات الصفات فهو بذلك يكون قد خرج عن روح الجماعة التي تؤمن بصفات الله، كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل. ﴿ ليس كمثله شيءٌ وهو السميعُ البصير ﴾ [الشورى: ١١] وبذلك

جر إلى المنطقة خلافات المعتزلة والأشاعرة والجهمية ممن يسمون المتصوفة، والذين تأثر بهم في المشرق إبان دراسته، وهم بالتالي بعيدون عن روح الإسلام وعما اتسم به أهل السلف.

٣- وقع ابن تومرت في محظورات التكفير حينما كفر المرابطين ونعتهم بالمجسمين الكفار، وهم على فطرة الإسلام وعلى عقيدة التوحيد، ولم يقولوا بكلمات الكفر، ولم ينكروا معلومًا من الدين بالضرورة، ولم ينكروا شيئًا من أحكام القرآن وأقوال الرسول ﷺ، كما أنه منع الصلاة على أمواتهم، واستحل دماء المسلمين وأموالهم من المرابطين.

٤- كما يؤخذ على ابن تومرت تلبسه بالبدع والخوارق والكرامات التي حاول أن يثبت بها إمامته حيث استعان بالمقبورين الذين تواطئوا معه داخل القبور أحياء، كما قلنا سابقًا، ثم دفنهم والتحدث معهم أمام أتباعه ليشهدوا له بالإمامة والمهدوية، وهذه الحيل بلا شك تفقد الرجل مصداقيته وعدله وتثبت انحراف دعوته عن أهم مبادئ الإسلام وهو توحيد الله.

٥- وقد أكثر الرجل من البدع التي لا أصل لها وكل بدعة ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها، فمن البدع التي استحدثها ادعاؤه علم الغيب والإخبار عن نتيجة المعركة قبل خوضها، كما سن لهم بعض التسابيح والعبارات وألزمهم بها صباحًا ومساءً، فأثقل كاهل الناس بهذه التسبيحات وغيرها من المراسيم.

٦- كما نرى أنه أهمل الاجتهاد والقياس وبذلك عاش المسلمون معيشة منغلقة لا يستطيعون التوفيق بين معطيات الحياة الجديدة وبين تصور العقيدة المهدوية الجامدة، مما جعل أغلب الناس وعلى رأسهم الخلفاء الموحدون أنفسهم والتي أسفرت في النهاية عن إلغاء مراسيم المهدى وإبطال إمامته الزائفة.

هذا هو منهج الموحدين الإصلاحي وحركتهم في التغيير وإذا ما قورن بمنهج المرابطين سالف الذكر لوقفنا على كثير من التأملات التي لابد لنا من أن نقف عليها، فإن الإسلام ذو معنى فسيح اتسع لأحداث الماضي ويتسع لأحداث الحاضر وسوف يستوعب أحداث المستقبل بمشيئة الله تعالى، ولقد شهد جماعات كثيرة وطوائف

متباينة واختلافات فى الرؤى بعضها صائب وبعضها خاطئ وهكذا تدور عجلة حياة ولابد أن نقف على أخطاء الماضى لنضئ خطوات المستقبل ونسير بخطى ثابتة.

وبالمقارنة بين منهجى الدعوتين نجد هناك نقاط التقاء وتشابه، ثم نقاط اختلاف وتباين كان لها أثرها الكبير على سكان المنطقة.

فمن نقاط التشابه أن كلتا الدعوتين قامت على يد فقيه مغربى ضليع فى العلم متفقه فى الدين وعلوم الشرع، وأن كلا منهما دعوة مغربية صرفة قامت على تحالف القبائل البربرية ومساندة العشيرة لفقيهها، وأن كلا من الدعوتين وجدت أنصارًا وأرادت أفرادًا، وكونت جيوشًا قوية استطاعت بها أن تقيم دولة مغربية كبرى، ثم تمت لتبسط سلطانها على بلاد الأندلس وتتحقق الوحدة السياسية لشعوب تلك المنطقة لأول مرة فى التاريخ

أما الفروق والتباين بين الدعوتين فهى واضحة، فدعوة المرابطين دعوة مرجعيتها الإسلام فى أنقى مبادئه وأجلها متمثلة فى كتاب الله وسنة رسوله وسيرة التابعين، وما أفضت به عقول الأمة المسلمة من اجتهادات وإجماع.

ومن هنا فإن الفكرة الإسلامية التى بلورتها دعوة المرابطين لا خلاف حولها، عاشت فى عقول الناس وفى صدورهم وعاشت رمزًا للدولة إلى حين، مكونة أهدافها وضابطة سلوكياتهم، ومجالات أنشطتهم المختلفة، وانعكس ذلك على الفرد والأسرة والمجتمع، ثم انعكست أخيرًا على الدولة الإسلامية الكبرى.

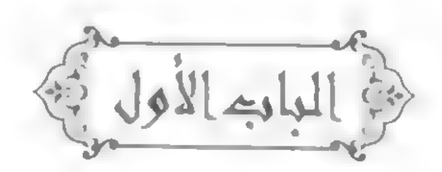
أما مرجعية الدعوة عند الموحدين فهى قائمة على تشريع بشرى مصبوغ بالروح الإسلامية، وإن كان فيها بعض المبادئ والتشريعات والعبادات من تعاليم الإسلام، وضعها داعية الموحدين فهى أيضًا تهدف إلى مساندة فكرة الإمام المعصوم والمهدى المنتظر، واستغلالهم فى تكوين جماعة قوية، يوحد بها قبائل مصمودة ويصنع منها حلفًا قويًا ينفذ به برنامجه.

وهنا قد يظهر تساؤل: هل كان لحركة التغيير عند دولتى المرابطين والموحدين أثرها الفعال فى إطالة عمر الدولة، والسؤال بمعنى آخر: هل استطاع كل من الدولتين أن تحتضن الفكرة الإسلامية وتعمل لها طوال عصور حكمهما؟

من المعروف تاريخياً أن دولة المرابطين لم تعمر طويلاً فقد هرمت وانتهت وهي لم تجاوز السبعين عاماً ولعل السبب في سرعة زوال تلك الدولة يرجع إلى أن دولة المرابطين لم تحتضن الفكرة الإسلامية طوال عصور حكمها إلا إبان حكم الأمير يحيى بن عمر اللمتوني، والأمير يوسف بن تاشفين، فقد بذلا الجهد لتبقى الفكرة الإسلامية قائمة في عقول الناس وفي أرواحهم، وبموت يوسف بن تاشفين أهمل أبناؤه الأمراء شأن الدعوة ولم يعملوا على تجديدها بالاجتهاد حتى تتلاءم حياتهم مع المنهج الإسلامي الصحيح، فبعدت الفكرة وانحرفت الحياة وساءت أحوال البلاد، ثم جاء الموحدون فانقضوا على الدولة وقضوا عليها قضاء مبرماً بدلاً من أن يبدوا النصح للحكام ويتضامنوا معهم في الحكم فشقوا عصا الطاعة وخرجوا عن الجماعة.

أما دولة الموحدين فقد طال أمدها شيئاً ما عن دولة المرابطين ولكن تعد هي الأخرى من الدول التي زالت بسرعة أيضاً لأنها لم تقم على مرجعية إسلامية صحيحة إذ قامت على فكرة الإمام المعصوم والمهدي المنتظر الذي يستبد فيه الإمام بكل شيء، ولما كانت هذه الأفكار منحرفة مجها الناس وسخروا منها، وقتل بسببها الآلاف من أبناء القبائل بل أبيدت قبائل بأكملها، جعل الناس يضمرون لهذه الدولة الشر، ويجارون الموحدين في الظاهر، وقد شعر حكام الموحدين بذلك فعملوا على تصحيح تلك العقيدة التي وضعها لهم الإمام المهدي ثم ثبت لهم أخيراً فشل تلك العقيدة في أن تبني رجالاً وأن توحد دولة، فسارع الموحدون أنفسهم إلى إلغاء مراسيم المهدوية وبطلان عصمة الإمام ابن تومرت، ورجع المغاربة إلى النبع الصافي ومعين الإسلام الذي لا ينضب، فتخلوا بعد ذلك عن أمثال تلك الدعوات المشبوهة والمنحرفة.





الباب الأول

نشأة الجيوش فى دولتى المرابطين والموحدين

الفصل الأول: نشأة جيوش المرابطين وتطورها

الفصل الثانى: نشأة جيوش الموحدين وتطورها

الفصل الثالث: شروط التجنيد ونظمه فى الدولتين



الفصل الأول

نشأة الجيوش المرابطية وتطورها

مر الجيش المرابطى فى تطوره بعدة مراحل متميزة تبعًا لطبيعة دولة المرابطين ومراحل قيامها، ووفقًا للهدف الدعوى والاستراتيجى لكل مرحلة، فجاء ذلك الجيش متأثرًا بمؤثرات متعددة منها المؤثرات الدينية والسودانية والمغربية ثم الأندلسية، وقد لعبت العصبية القبلية فيه دورًا بارزًا تكاد تكون ملموسة آثارها فى قيام هذا الجيش، ولكنها عصبية مهذبة بتعاليم الإسلام وهدى فقيه المرابطين «عبد الله بن ياسين» إذ اتسعت معها حدود القبيلة وخصومتها إلى أفق إنسانى أرحب وأوسع تآلفت فيه قلوب رجال تلك القبائل وتناسوا ما كان بينهم من اختلافات وخصومات حيث جمعهم جميعًا هدف واحد هو الجهاد فى سبيل الله ونشر الدعوة الإسلامية بمنهج جديد يحرر المغاربة من الشعوذة الدينية والإغراق فى البدع والتشيع المفرط وسموم الفرق الإلحادية الأخرى.

ويمكننا أن نتتبع مراحل تطور الجيش المرابطى على النحو التالى:

المرحلة الأولى: التأسيس والتكوين

بدأت النواة الأولى لجيش المرابطين فى رباط «عبد الله بن ياسين» فقيه المرابطين وداعيتهم الروحى، والذى أعد فيه مريديه إعدادًا تربويًا دينيًا سليمًا ونهج بهم منهجًا سلوكيًا قائمًا على العلم والعمل والجهاد فى سبيل الله، وقد بدأ ذلك الجيش بسبعة نفر من قبيلة «جدالة» ونفر واحد من «لمتونة» وهو «يحيى بن عمر اللمتونى» فى صحبة فقيههم «ابن ياسين» وبمرور الوقت انضم إلى هؤلاء النفر كثير من الرجال بلغوا الألف رجل قد أخلصوا الطاعة لهذا الأمير[1]، فبارك طاعتهم وسماهم «المرابطين» نسبة لمرابطتهم فى تلك الرابطة التى تلقوا فيها تكوينهم الروحى والحربى[2].

---

(١) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص(٧٩)

(٢) انظر طرق التربية الدينية والروحية والعسكرية فى رابطة ابن ياسين فى المدخل التاريخى.

وقد أحسن ابن ياسين تربية وتكوين هذه الطائفة وتحويلها إلى جماعة حربية تحمل السلاح لتحقيق أول هدف من أهداف الرباط وهو دعوة قبائل الملثمين للدخول في الإسلام والانضمام لدعوته، وكان منهجه في تربية وتكوين هذه **الجماعة وتحويلها إلى جماعة مسلحة كان يقوم على الآتي:**

أ- كان يدقق الاختيار والاصطفاء لكل من يريد الانضمام لجماعته، فكان يجري له اختبارًا بدنيًا ونفسيًا شاقًا، إذا اجتازه عُدَّ جنديًا في هذا الرباط وكان يفرض عليه أن يطهر نفسه من الدنس وأن يقام عليه الحدود التي شرعها الإسلام.

ولقد كان **«ابن ياسين» محقًا في اجتهاده هذا فهو من باب التعزير** والتأديب فيه للإمام فهو يريد أن يتحقق من ثبات إيمان رجاله وولائهم للدعوة الجديدة ومقدرتهم على تحمل مشاق الجهاد وتبعاته. وليس هذا بغريب فإن هذا الاختبار شبيه بالاختبارات التي تجريها الكليات العسكرية في عصرنا الحاضر حيث تقيم للطلاب اختبارات بدنية ونفسية شاقة لتنتقي منهم العناصر القادرة على تحمل مشاق الحياة العسكرية وأعبائها.

ب- وإذا كانت الطاعة من ضروريات الحياة العسكرية فقد حرص «ابن ياسين» على غرسها في نفوس أتباعه لتحقيق الانضباط التنظيمي وقد ساعده على ذلك مدى ما يتمتع به من حب هؤلاء الناس له، ومدى ما يتمتعون به من سماحة وسطحية، وقد ظهرت آثار ذلك واضحة جلية عندما قالوا له: «أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين طائعين، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا»[1]

جـ- وكان هدف «ابن ياسين» من هذه القوة تكوين هيكل عسكري تربوي بتعبير ولسلطة يساند الدعوة إذا احتاجت إليه فتكون قوة رشيدة منضبطة تدافع عن الدعوة وغاياتها، ثم قسم هذه القوة إلى عشرات أو خمسات، وعين على كل عشرة منهم عريفًا أو نقيبًا يكون أميرًا لها ومسئولاً عنها سواء في حياة الرباط أو في تبليغ الدعوة إلى الأهل والعشائر، وقد اختار لهذه المجاميع قائدًا عسكريًا سياسيًا هو يحيى بن إبراهيم الجدالي زعيم جدالة[2] كقائد عسكري ثم من بعده يحيى بن عمر اللمتوني ثم أبو بكر بن عمر اللمتوني من بعده، وهؤلاء القواد كانت مهمتهم

---

(١)، (٢) روض القرطاس، ص (٧٩)

قيادة هذه الجماعات في الحروب بينما تفرغ "ابن ياسين" للتوجيه الديني ونشر الدعوة بنفسه.

د- وفر "ابن ياسين" احتياجات الجيش من المال للإنفاق على الجند، وشراء السلاح فجمع الزكاة والعشور واشترى منها السلاح والخيل، ودرب الجند على الحرب وأساليب القتال(1).

ومن البديهي أن تتزايد أعداد الجيش المرابطي الذي خرج من الرباط على النحو الذي أعده "ابن ياسين" داعية المرابطين فانضمت إليه أعداد غفيرة من البلاد التي دخلت في دعوة المرابطين وأخلصت لدعوتهم من بلاد السودان وبعض حشود من قبيلة جدالة ولمتونة ومسوفة ولمطة.

وقد لعب "ابن ياسين" دورا بارزا في تأليف قلوب هذه القبائل التي تنتمي إلى عصبية واحدة هي "عصبية صنهاجة الجنوب" حملة اللثام وقد استجابوا له أيما استجابة إذا رأوا أن الأمر قد تجاوز حدود الشخصية القبلية وأصبح دعوة دينية تناصر الحق وتدعو إلى إقامة النموذج الإسلامي الأمثل، وقد مس الناس إحساس جديد يعبر عن تأثير قوي لدعوة الإسلام الصحيح في ظل تلك العصبة الجديدة المؤمنة

وبدخول قبيلة لمتونة وما تبعها من القبائل في دعوة المرابطين يكون ابن ياسين قد حقق هدفه الأول الذي خطط له وهو توحيد قبائل الملثمين أو صنهاجة الجنوب الضاربة في الصحراء، وأصبح لهذه المرحلة جيش يتسم بأنه يتألف من مزيج قبلي برئاسة أمير لمتوني هو "يحيى بن عمر اللمتوني" الذي وكل إليه قيادة هذه الجيوش.

وبذلك يكون قد انتهى الدور الأول من أدوار الجيش المرابطي والذي يتسم بالصفات الآتية:

أ- كان هذا الجيش بسيطا في نظمه وتكوينه يلائم طبيعة الصحراء التي عاش فيها الملثمون، وتتمثل تلك البساطة في نظام إمرته الذي كانت مهمته مساندة الدعوة في مراحلها الأولى وتأمين حرية نشرها واستخدام القوة كما يرى داعيتهم فهي قوة رشيدة تساند الدعوة وتؤازرها سياسيا ودعويا، وعسكريا إن لزم الأمر.

(1) روض القرطاس، ص(٨٠)، ابن خلدون، ج(٦)، انظر ص (١٨٣).

كما تمثلت البساطة فى طريقة قتاله وسهولة الإشراف عليه إذ كانت الروح المعنوية والموالاة للدعوة والالتزام الخلقى والأدبى قد أغنتهم عن الكثير من الأنظمة.

ب- تزايد أعداد جيش المرابطين تباعًا بدخول القبائل فى الدعوة الإصلاحية وحركة التغيير التى يقودها «ابن ياسين» بدليل أنهم عندما توجهوا لمقاتلة «جدالة» قد استعد لها المرابطون بثلاثين ألف مقاتل[1].

جـ- قد غلب الطابع الصحراوى على تسليح هذا الجيش فقد كانت أسلحة بدوية بسيطة تتألف من درق اللمط والقنا الطوال[2] والمزاريق المسنونة[3]، فقد يحمل الرجل منهم عدة مزاريق فى آن واحد[4]، كما كانوا يعتمدون فى قتالهم على الإبل ولا يكثرون من الخيل ويفضلون القتال مترجلين.

د- أما نظام إمرة الجيش فى هذا الدور فقد تولى قيادة الجيش ثلاثة من الأمراء هم «يحيى بن إبراهيم الجدالى»، ثم «يحيى بن ابراهيم بن عمر اللمتونى» ثم أخوه «أبو بكر بن عمر اللمتونى». والملاحظ من خلال هذه الأسماء أن ابن ياسين قد نقل قيادة الجيش من قبيلة جدالة إلى قبيلة لمتونة، وقد كان -بلا شك- صائبًا فى رأيه إذ أنه بهذا التصرف يكون قد ضمن تأييد أكبر قبيلة من حاملة اللثام وهى قبيلة لمتونة التى كانت تتمتع بمكانتها المرموقة وحب الناس لها.

هـ- أما طرائق القتال فقد كان قتالهم يقوم على نظام الصف- كما سنعرف بعد- إذ يصفون الرجال صفوفًا متراصة ويقدمون أمامهم رجل بيده راية يأتمرون بأمرها ويقفون ما وقفت منصته، وإن أمال تلك الراية جلسوا جميعًا فكانوا أثبت من الهضاب[5]. وكان لقتالهم شدة وبأس ويثبتون أمام العدو ولايفرون من الموت.

المرحلة الثانية: التمكين لقيام دولة المرابطين

هى تلك المرحلة التى أعد فيها الجيش المرابطى إعدادًا حسنًا يتناسب مع أهمية الدور الذى سيلعب فى هذه المرحلة وهو الوحدة بين قبائل «صنهاجة». فبعد توحيد

---

(١) البكرى، المغرب انظر، ص (١٦٧).
(٢) الحلل الموشية انظر، ص (١١)
(٣) الطرطوشى، سراج الملوك انظر، ص (١٧٩).
(٤) البكرى، المغرب، ص (١٦٦)
(٥) المصدر السابق نفس الصفحات، الحلل الموشية انظر، ص (١٠، ١١).

«صنهاجة الجنوب» تطلعت القيادة المرابطية نحو المغرب لتوحيد «صنهاجة الشمال» وضمها إلى «صنهاجة الجنوب» وقد قدر المسئولون خطورة هذا الاتجاه وصعوبته إذ سيواجهون خصمًا عنيدًا طالما نازعهم العداء من قبل، ذلك الخصم هو «أهل زناتة» بحشودها الجرارة الذين وقفوا يتربصون بتلك الدعوة الناشئة وقوتها الحربية التي نمت في الصحراء يريدون الإجهاز عليها وإطفاء نورها الذي بات يهدد ديارهم ومكانهم ومصالحهم الخاصة، وقد عملت قيادة الرباط على دعم جيوشها وتجهيزها تجهيزًا قويًا لتواجه تلك المرحلة الشاقة وتحقق الهدف الاستراتيجي الذي تطلعت إليه تلك القيادة وهو توحيد قبائل «صنهاجة الشمال» و«صنهاجة الجنوب» كما قلنا رامين من وراء ذلك ربط إقليم «الصحراء» الجنوبي بشمال المغرب والسيطرة على خطوط القوافل المارة في الصحراء من «أودغشت» جنوبًا إلى «سجلماسة» شمالا، وفي اعتقادي أن هذه المرحلة هي مرحلة مصير لتلك الدعوة الناشئة المتطلعة للتوحيد وقيام الدولة فإما أن يكتب لها البقاء والظهور وإما الإخفاق والفناء، ولكي نقف على طبيعة ذلك الجيش ينبغي أن ندرسه من خلال خمس.

أولا: من حيث الأوضاع السياسية والدعوية:

لقد تميزت تلك المرحلة بالتوافق التام بين القائمين على الدعوة والأمراء السياسيين آنذاك توافقًا تامًا كان من شأنه تحقيق حركة التغيير وإقامة مشروع النهضة الإصلاحية حيث اجتمع الفقيه «ابن ياسين» داعية المرابطين مع الأمير «أبو بكر بن عمر اللمتوني» القائد السياسي إبان تلك المرحلة واجتمعت كلمتهم على تغيير الانحراف العقدي والضلال والمنكرات الشائعة في بلاد «المغرب والصحراء»، فقد أرسل فقيه الدعوة «ابن ياسين» دعاته وتلاميذه إلى قبائلهم وأهليهم يدعونهم إلى الإسلام الصحيح وترك المنكرات والانضمام إلى حركة المرابطين الإسلامية التي تدعو إلى الله على بصيرة، وقد لاقت هذه الدعوة صدًا كبيرًا من أغلب رؤساء القبائل حيث وجدوا فيها قضاء على مصالحهم الخاصة وثرائهم القائم على الاحتكار والاستغلال وتسخير الأفراد. بينما وجدت صداها في قلوب المواطنين على المستوى الشعبي ولكنهم لايملكون الجرأة في الإقدام والانضمام إلى الدعوة خوفًا من أسيادهم.

وقد أراد ابن ياسين أن يتدرج ويصعد بدعوته مرحلة أعلى من مرحلة التنظيم والتكوين ألا وهى الدعوة إلى إقامة مجتمع مسلم له مقوماته وتصوراته الإسلامية ليظفر بمجتمع أو دولة موحدة تضم طرفى الصحراء فى الجنوب والشمال مكونة دولة المرابطين وهو الهدف الأسمى فى تلك المرحلة.

وقد رأت إدارة المرابطين إجراء حركة تغيير وإصلاح لذلك المجتمع لتؤتى الثمار المرجوة والتى يهدفون إليها، وكانت حركة التغيير تلك التى اتبعتها إدارة المرابطين حركة انبثقت من تعاليم القرآن والسنة وليس لها مرجعية أخرى سوى التشريع الإسلامى وبخاصة الفقه المالكى.

كما تميزت حركة التغيير عند المرابطين بأنها حركة قام بها المرابطون أنفسهم ومنبثقة من إرادة هؤلاء الملثمين حيث جاءت تعبر عن احتياجاتهم الخاصة والعامة.

كما كانت تلك الحركة تتميز بتغيير مستقر وليس وقتيًا ولم تنته تلك التغييرات مثلا بموت داعية أو أمير ولكن ظلت مؤثرة فى نفوس المرابطين إلى مايقرب من مائة سنة، ولعل من أسباب نجاح ذلك التغيير أنه كان متدرجًا إذ مر بمراحل ساهمت فى ترسيخ مفاهيم الحركة الإسلامية فى نفوس سكان المنطقة فقد بدأت الدعوة بمرحلة الرباط، ثم تدرجت إلى قبول أفراد جدد ثم تضاعفت حتى وصلت لألف مرابط، ثم انتقلت من مرحلة التنظيم تلك فى الرباط إلى المرحلة التالية لها لذا كان تدرجها وفقًا للسنن الكونية المتبعة.

أما دور الجيش فكان يساند منهج التغيير عند الجماعة وقد ظهرت تلك المساندة فى نموذجين من نماذج التغيير هما:

١- **التغيير الجذرى**: وذلك عن طريق العمل الشعبى الذى يستهدف تغيير صفات سكان المنطقة وتغيير أفكارهم ومعتقداتهم، وقد تم ذلك عن طريق إرسال الرسل والدعاة إلى القبائل ليقنعوهم بفكرة التغيير، ففى عام ٤٤٧هـ - ١٠٥٥م نرى أن أهل سلجماسة ودرعة قد اجتمعت كلمتهم على مراسلة الداعية «ابن ياسين» يرغبونه فى أن تصل إليهم الدعوة ليخلصهم من ظلم «مسعود بن وانودين الزناتى» وقومه من المغراويين، فتشاور «ابن ياسين» مع إدارة الرباط فقرروا إرسال جيش من المرابطين إلى بلاد «درعة» واشتبك معها «ابن وانودين» وانتهت المعركة بهزيمته ومصرعه ودخلت «سجلماسة» فى دعوة المرابطين.

٢- التغيير الفوقي: وهو ذلك التغيير الذي تم بقوة الجيش وذلك بإرغام رؤساء القبائل على الدخول في الدعوة أو محاربتهم وهذا التغيير يتم من أعلى إلى أسفل أي من قمة الهرم إلى قاعدته الذي ساهم فيه كل من الأميرين: الأول "أبو بكر بن عمر اللمتوني" في الصحراء، حيث ساندت الجيش في تأمين الدعوة الإسلامية ونشرها في بقاع كثيرة في أرض الصحراء، والأمير الثاني هو "يوسف بن تاشفين" الذي قاد نصف الجيش الآخر وسعى إلى تكوين وتثبيت دعائم المجتمع المسلم في "المغرب الأقصى" حيث استطاع توحيد قبائلها على النحو الآتي:

أ- في سنة ٤٤٨هـ اتجه جيش المرابطين بقيادة "يوسف بن تاشفين" لغزو بلاد "السوس" وتمكن من احتلال "أودغست" وطهر تلك المدينة من الروافض الخارجين عن الإسلام وأعاد الناس إلى الإسلام الصحيح.

ب- في سنة ٤٤٩هـ - ١٠٥٧م افتتح "يوسف بن تاشفين" مدينة "أغمات" وهرب واليها "لقوط بن يوسف بن علي المغراوي"، ثم اتخذوا من أغمات قاعدة عسكرية لجيوشهم.

جـ- ثم سار المرابطون لقتال "برغواطة" وهي قبيلة ملحدة والتي تدين بنبي لهم ادعى النبوة وهو صالح بن طريف الذي استقى تعاليمه من تعاليم اليهودية وقد تمكن من هزيمة تلك القبيلة وتمزيقها وإعادة الخارجين فيها إلى الإسلام.

د- ثم تمكن بعد ذلك "يوسف بن تاشفين" من فتح بلاد "المغرب الأقصى" سنة ٤٥٤هـ في مدة تقارب الثلاثين عاما استولى فيها على أغلب البلدان التي بأيدي الزناتيين، واستولى على "فاس" ثم على جميع بلاد الريف حتى مدينة "طنجة" عام ٤٦٠هـ، ثم مدينة "فاس" عام ٤٦٢هـ ثم جبل "غياثة" ومعظم أحواز "تازة".

كما سير "يوسف بن تاشفين" جيشا عام ٤٧٠هـ وانتصر به على "الحاجب بن سكوت" وتم افتتاح "طنجة" بأكملها ثم اتجه "يوسف بن تاشفين" بجيوشه إلى "تلمسان" لمطاردة الزناتيين وقد استطاع هزيمة "معلى بن يعلى المغراوي" ثم اتجه "يوسف" بعد ذلك نحو "وهران وتنس وجبال ونشريش" حتى وصل إلى مدينة "الجزائر" بالقرب من دولة بني حماد وتوقف عندها.

ثم عـاد إلى «مراكش» عـام ٤٧٥ هـ بعـد جـهاد طويل تمكن بـه من توحـيد «المغرب» والسيطرة عليه[1].

وهذا ما نعنيه بمرحلة السيطرة والتمكين والتي ضمت قـبائل الملثمين جميعها في دولة واحدة على رأسها أمير سياسي وقائد عسكري محنك وقبل ذلك رجلاً مسلمًا نشـأ في رابطة «ابن ياسين». فـلا غـرابة إذن أن تكون السـياسـة والدين صنوان لايتنازعان فـي تكوين النموذج لدولة إسـلامية كـبرى، ولا غرابـة أيضًا أن يكون القائد العسكري المسلم فقـيهًا وعالمًا وأديبًا وسياسيًا بـارعًا إذ كان قدوة لرجاله من ناحية ونموذجًا إسلاميًا رفيعًا أمام عيون البلاد المفتوحة.

ثانيًا: من حيث الأوضاع العسكرية:

١- لقد كان التجنيد في المرحلة السابقة للجيش وهي مرحلة الرباط إلزامًا أدبيًا، فكل من انضم إلى الرباط عـد جنديًا له وهذا التزام خلقي وديني يلـتزم به المرابط بدافع من تعـاليم الدين وهدى الفقـيه للظفـر بالشهادة ونيل ثـواب الله. أما نظم التجنيد في هذه المرحلة الثانية فقـد أدخل «يوسف بن تاشفين» عليها تطويرًا حيث أدخل التجنيد الشـامل لكافة طبقات المجـتمع وأصبح التجنيد يشـمل نظامين هما التجنيد الإلزامي والتجنيد التطوعي، حيث كانت أعداد غفيرة من المطوعة يتدفقون للانخراط في سلك المجاهدين طمعًا في ثواب الله بجانب التجنيد النظامي.

٢- ومن الطبيعي أن تتزايد أعداد جيوش المرابطين في هذه المرحلة نظرًا لدخول رجال قـبائل الحلف الأول من صنهـاجة الجنوب في زمـرة المرابطين، فعندمـا غزا الملثمـون درعة وسـجلماسة وهذه أول غـزوة لهم في بلاد المغرب، كـان عددهم ثلاثين ألف مقاتل[2].

وبعد استيـلائهم على هذا الإقليم انضم إلى جيشهم أعداد كـبيرة من الجنود مما جعلهم يضطرون إلى بناء قـاعدة قريبة من سجـلماسة تعرف باسم تبلبل تسـتقبل الصنهاجيين الجدد من أبناء عمومتهم.

---

(١) انظر الأحداث [illegible] مفصلة في روض القرطاس، ص(١٩)، وابن خلدون، ج(٦)، ص(١٩٤) وما بعدها، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص(١٦٩) وما بعدها، والحلل الموشية، ص(١٣، ١٤) وما بعدهما

(٢) البكري، المغرب، ص(١٦٧).

وفى سنة ٤٥٣ هـ حدثت زيادة جيوش المرابطين وقد أشارت المراجع إلى تقسيم جيش المرابطين إلى قسمين أحدهما يقوده "يوسف بن تاشفين" والآخر يقوده "أبو بكر بن عمر اللمتونى" فى الصحراء[1]، وقد ميز "يوسف بن تاشفين" جيشه فوجده أربعين ألفًا وبذلك تكون قوة جيش المرابطين فى ذلك الوقت ما يقرب من ثمانين ألف مقاتل، وقد جاءت هذه الأعداد من رجالات القبائل التى خضعت لهم مثل درعة وسجلماسة وجدميوة وأغمات وبلاد المصامدة بجبال درن، وكانت هذه الزيادة زيادة هائلة بدليل أن أهل أغمات عاصمة المرابطين الأولى قد بادروا بالشكوى للأمير أبى بكر بن عمر من عبث الجند وضيق المدينة بهم مما جعله يبادر لتخطيط مدينة **مراكش لتكون نزلة لجيوشه وتستوعب هذه الأعداد الغفيرة من الجند.**

وتعطينا المراجع تقديرًا آخر لزيادة حشود الجيوش المرابطية، فعند فتح "يوسف بن تاشفين" لمدينة فاس وهى من المعاقل الحصينة والتى أعد لها يوسف أعدادًا غفيرة من الصنهاجيين، كان عدد جيشه يزيد عن مائة ألف مقاتل[2]، وتنقسم إلى خمسة جيوش إذا دقت الطبول سارت الجيوش المختلفة تحت أعلامها الخاصة لمقاتلة **العدو فى أكمل نظام**[3].

٣- لقد عرفنا سابقًا أن قيادة الجيش فى مرحلة الرباط قد أسندت إلى ثلاثة من القواد كان آخرهم الأمير "أبا بكر بن عمر اللمتونى" الذى تجمعت حوله قلوب المرابطين فهو ابن لمتونة أقوى قبائل الملثمين والذى عمل جاهدًا على تحقيق أهداف "ابن ياسين" الذى سلم له زمام الأمر بعد موته، فقاد جيوشه إلى النصر فى أكثر معاركه التى قادها فى بلاد المغرب، وفى سنة ٤٥٣ هـ تذكر المراجع أنه رحل إلى الصحراء بنصف جيشه ليفض النزاع الذى نشب بين قبائل الملثمين هناك، ومنذ هذا التاريخ انقطعت أخباره فى أغلب المراجع، ولكن الثابت تاريخيًا أن دعوة المرابطين لم تنقطع فى الصحراء بل ازداد عدد الداخلين فيها حتى شملت أغلب بلدان السودان الأفريقى مثل السودان وموريتانيا وغانا والصومال والسنغال ومالى،

---

(١) ابن خلدون، ج(٦)، ص(٣٧٧).

(٢) ابن أبى زرع، روض القرطاس انظر، ص(٨٩).

(٣) المصدر السابق نفس الصفحات، أشباخ، تاريخ الأندلس، ج(١) انظر، ص(٧١).

، مكنت لتشمل أقطارًا عديدة في أواسط أفريقية وجنوب الصحراء الكبرى، ومن الثابت أيضًا أنه حدث قسمة لجيوش المرابطين نصفها قاده أبو بكر بن عمر اللمتوني وذهب به إلى بلاد السودان كما قلنا سابقًا وذلك لنشر دعوة الإسلام هناك وتحقيق مقاصدها، وعلى ما يبدو أنه كان متفانيًا في هذا الاتجاه باذلاً قصارى جهده مجاهدًا في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الإسلام وإرساء دعوة المرابطين في تلك المناطق، والنصف الآخر قد قاده الأمير «يوسف بن تاشفين» والذي أقره على تلك الإمرة هو أبو بكر بن عمر نفسه حينما أدرك حسن قيادته للجيوش وتفانيه في خدمة الإسلام ومحاولة القضاء على البدع وتوحيد شطري صنهاجة، فلا غرو أن يصطحب ابن تاشفين وأن يؤمره على نصف الجيش لكي يلتقي معه في توحيد صنهاجة الكبرى: صنهاجة الجنوب وصنهاجة الشمال، وبظهور «يوسف بن **تاشفين» خطت جيوش المرابطين خطوات سريعة نحو التطور والتقدم.**

وقد ظهر على يدي «يوسف» عدة قواد أسدوا للمرابطين خدمات جليلة وساعدوا في إقامة صرح تلك الدولة، ومن أشهر هؤلاء القواد «سير بن أبي بكر اللمتوني، محمد بن تميم الجدالي، عمر بن سليمان المسوفي، ومدرك التلكاتي، **محمد بن الحاج، وداود بن عائشة.. وغيرهم».**

وقد ولاهم «يوسف بن تاشفين» قيادة الفرق المختلفة بينما احتفظ هو بالقيادة العليا للجيش، وقد أثبتت حروب المغرب مدى ما تمتع به هؤلاء القواد من كفاءة عالية في قتالهم ومدى التزامهم بالخطط الحربية التي تضعها القيادة العليا للجيش، فقد كان هؤلاء القواد بفرقهم يقاتلون جميعًا في بلاد المغرب في جبهات متعددة في آن واحد ومع ذلك فقد كان بينهم من التناسق والتعاون وخفة الحركة ما جعلها تحقق أهدافها.

٤- ومن مميزات هذا الجيش اكتمال أسلحته وتطور أساليبه في القتال بصورة تلائم طبيعة المرحلة المغربية وهي مرحلة التمكين ومواجهة القبائل المعادية كقبيلة «زناتة» المعروفة بالفروسية وشدة البأس، فأضافوا إلى الأسلحة البدوية التي كانوا يقاتلون بها في الصحراء مثل ركوب الخيل والتسلح بدرق اللمط والقنا الطوال

والمزاريق المسنونة، الذين أضافوا إليها سلاح النشاب، وشكلوا الفرق من الرماة بالسهام والنشاب، وأصبح الجيش المغربي تتمثل فيه جميع الأسلحة المستعملة في عصره سواء كانت أسلحة بدوية أو مغربية هذا بالإضافة إلى تكوين فرق من الفرسان المدربة على ألوان القتال والتي أصبحت عماد قوة الجيوش المرابطية لتحل محل الفرق الإبلية حتى تساير جيوشهم جيوش بلاد المغرب»[1].

بالإضافة إلى ذلك استعمل المرابطون الطبول[2] في حروبهم ومعاركهم، فعند بدء المعركة كانت تدق هذه الطبول فيتصدع لها قلوب الأعداء بدويها المرتفع.

5- ومن أبرز معالم تلك المرحلة بهذا الجيش هو إقامة مراكز لتجمع الجيوش المرابطية ونقاط الحراسة، فقد حرص المرابطون على إقامة هذه القواعد عقب كل فتح يظفرون به لتكون مراكز لتجمع جنودهم تنطلق منها إلى الحرب والقتال في الميادين القريبة منها، ولتكون أيضا بمثابة نقاط حراسة ومراقبة للقبائل التي خضعت لهم، والتي كانت غالبا ما تقوم بثورات متعددة وحركات ارتداد ضدهم مما اضطر المرابطين إلى حشد هذه المراكز بالعديد من الجند تقيم بها لتردع حركاتهم وتحبط مؤامراتهم.

ومن هذه المراكز الحربية قاعدة "تمسنا" لمراقبة سكان منطقة "السوس"، وقاعدة "أغمات"[3] التي اتخذوها منها عاصمة وقاعدة لتجمع جيوشهم، وقاعدة "تاكورت"[4] بالقرب من "تلمسان" وحصن "أمرجو" بمدينة "الوداد"[5] في الطريق الموصل إلى "جبل غمارة" لمراقبة سكان هذه المنطقة. وقد أكثر المرابطون من بناء هذه السلسلة من القواعد لتحاصر قبائل "مصمودة" بالجنوب وقبائل "غمارة" في الشمال و"زناتة" في المغرب الأوسط، ولم يكن إقامة مدينة "مراكش" في قلب بلاد "المصامدة" إلا من أجل هذا الهدف. ومن الملاحظ أيضا أن هذه

---

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث ت. العبادي، ص(٣٣٣).

(٢) روض القرطاس، ص(٨٩).

(٣) المرجع السابق، ص(١٨٤).

(٤) ابن خلدون، ج(٦)، ص(١٨٦).

(٥) الاستبصار في عجائب الأمصار انظر، ص(١٩٠)

المراكز الحربية قد ارتبطت بسلسلة من الطرق البرية ربطتها فيما بينها وسهلت تنقل الجند من مركز إلى آخر كما أن هذه المراكز صارت فيما بعد مراكز تجارية حضارية لعبت دورا كبيرا في حياة بلاد "السودان" و"المغرب" اقتصاديًا وثقافيا وسياسيًا.

٦- تشير المراجع الإسلامية إلى أن جيوش "يوسف" قد تمدينت كما قلنا سابقا واتخذت بطابع حضاري مغربي منذ أن اتخذ من مراكش عاصمة لدولته سنة ٤٥٤ هـ فحشد الأجناد، واستكثر من القواد، واتخذ الطبول والبنود، وكون في جيشه فرقًا من الرماة واتخذ حرسًا خاصًا لحراسته من عبيد "السودان" فكان عنده ما يقرب من ألفي عبد فغلظ حجابه وعظم ملكه"(١).

المرحلة الثالثة: دولة المرابطين الكبرى في المغرب والأندلس

هو جيش الدولة الإسلامية الكبرى التي كان يهدف إليها قادة الرباط من وراء دعوتهم إذ كانوا يرمون إلى وحدة شاملة لقبائل "المغرب" تضمهم رئاسة مسلمة تسعى إلى تحقيق النموذج الإسلامي الأمثل، وقد بدأت أولى مراحل هذا الجيش بتولية "يوسف بن تاشفين" قيادة تلك الجيوش، ولعل في وصية الأمير "أبو بكر بن عمر اللمتوني" "ليوسف بن تاشفين" عندما تنازل له عن حكم "بلاد المغرب" يدل على مثالية دعوة المرابطين ونقاء هدفها إذا أوصاه قائلاً: "يايوسف إني قد وليتك هذا الأمر وإني مسئول عنه، فاتق الله في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك من النار، ولا تضيع من أمر رعيتك شيئًا، فإنك مسئول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو خليفتي عليك وعليهم"(٢).

وقد قام هذا الجيش بفتح "المغرب الأقصى" وقاد المرابطين من نصر إلى نصر حتي توحد "المغرب الأقصى" كله بعد جهاد استمر ثلاثين عامًا، تمكن المرابطون من قيام دولتهم، ثم اتخذ "يوسف بن تاشفين" لقب الإمارة وراسل الخليفة العباسي الذي أقره على دولته وأصبح رجلاً من رجال تلك الخلافة لايريد أن ينشق عليها مؤملاً وحدة المسلمين الكبرى، وقد شهدت تلك الفترة ضم بلاد الأندلس والمغرب "تونس والجزائر والمغرب" بالإضافة إلى بلاد "السودان الأفريقي" سالفة

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث ت، العبادي، انظر، ص(٢٣٥)، الحلل الموشية، انظر، ص(١٣)

(٢) روض القرطاس، ص(٨٦)

الذكر، وهذه بلا شك رقعة جغرافية فسيحة ممتدة مختلفة البقاع والأجناس ودروب النشاط المتعددة.

وقد تطلبت هذه المرحلة «الدولة الإسلامية الكبرى» جيوشًا قوية جرارة لتحافظ على أمن البلاد التى تحت سيطرة المرابطين فى «المغرب والسودان الأفريقى والصحراء الكبرى» - كما قلنا سابقًا- هذا من ناحية، كما تطلبت تلك الدولة الإسلامية العظمى جيوشًا للجهاد فى سبيل الله لنشر الدعوة الإسلامية ونشرها فى أماكن لم تصلها الدعوة، كما تطلبت جيوشًا أخرى لتعبر البحر إلى بر عدوة الأندلس؛ لتشارك المسلمين هناك فى قتالهم ضد النصارى الإسبان، وبه بسط «يوسف بن تاشفين» نفوذه على شبه جزيرة الأندلس وخلع ملوك الطوائف ووحد بين بر العدوتين «المغربية والأندلسية» فى وحدة كبرى حافظت على رقعة بلاد المسلمين بالأندلس دون أن تتردى فى أيدى الإسبان إلى حين.

وقد أعد هذا الجيش إعدادًا حسنًا يتناسب مع طبيعة الدور الذى سيلعبه فى هذه المرحلة على أرض الأندلس فكان عليه أن يتصدى للممالك النصرانية الثلاثة: قشتالة وأراجون وقطلونية، ويقف فى وجه أطماع «ألفونسو السادس» عميد هذه الممالك والذى تزعم حركة الاسترداد لطرد العرب من شبه الجزيرة الأندلسية، لذا كان لزامًا على هذا الجيش أن يخوض غمار حروب مستعرة دائمة الأوار فى الأندلس.

وقد أحرز المرابطون خلال هذه المرحلة ضد النصارى عددًا من الانتصارات الباهرة كان أولها انتصار الزلاقة عام ٤٧٩هـ - ١٠٨٦م، ثم انتصار أقليش عام ٥٠١هـ - ١١٠٨م، وأخيرًا موقعة بواعة عام ٥٢٨هـ - ١١٣٤م.

واستطاع الجيش المرابطى على وجه العموم حتى أواخر عهده بالأندلس الذى استظل بها أكثر من خمسين عامًا أن يحافظ على بلاد الأندلس، ولم يتصدع من كناحه سوى قيام الثورة عليه عند ظهور الموحدين وسقوط مدينة سرقسطة فى أيدى النصارى الإسبان.

وخلال هذه المدة مر جيش المرابطين بالأندلس بمراحل مختلفة وأثرت فيه عوامل كثيرة أسلمته من القوة إلى الضعف كالآتى:

أ- كان الجيش المرابطي بالأندلس طوال عصر يوسف بن تاشفين قويا منظما تقوده قيادة عسكرية، متميزاً بكثرة حشوده وكمال أسلحته وبراعة طريقته في القتال ومما يثبت ذلك:

١- اشتراكه مع المسلمين في موقعة الزلاقة بالأندلس بسبعين ألف مقاتل وقيل أربعة وعشرون ألف مقاتل من مختلف قبائل المغرب[1] مدربة أعظم دربة، منسقة أتم تنسيق، وقد أثبت ذلك الجيش كفاءة عالية في قتاله، حيث أدخل "يوسف" فنا عسكريا وتكتيكا حربيا جديدا لم تعرفه الأندلس من قبل حقق به نصرا على جيوش ألفونسو السادس[2]

٢- أرسل "يوسف" أربعة جيوش إلى شبه جزيرة الأندلس ضد ملوك الطوائف، وكانت هذه الجيوش تحارب في أكثر من جبهة في آن واحد، وقد انطلقت جميعها صوب أهدافها محققة الخطة العسكرية التي رسمها لهم قائدهم الأعلى "يوسف بن تاشفين".

٣- نظر المرابطون إلى الأندلس على أنها معسكر ضخم دائم الإقامة لذا حشدوا فيه جيوشا جرارة وأنشأوا به مراكز تموين مشحونة بالغلال والسلاح والخيل وتتجمع فيه الجند مثل "سلا" والجزيرة الخضراء بعدوة الأندلس و"سبتة" بعدوة المغرب، وبهذا تكون القيادة المرابطية قد وفرت خطوط التموين على مسافات طويلة من المغرب والأندلس، وأقاموا في معظم ولايات الأندلس معسكرات تقيم فيه الجند، فقد روى صاحب الحلل الموشية أن "يوسف" أوصى ابنه عليا بأن يحتفظ في الأندلس بجيش دائم من المرابطين قوامه سبعة عشر ألفا من الفرسان موزعين في هذه المعسكرات كالآتي: سبعة آلاف فارس في إشبيلية وأربعة آلاف في سرقسطة وثلاثة آلاف في غرناطة وألف فارس في قرطبة والباقي وقدره ألفان يحتلون القلاع والحصون[3].

---

(١) أشباخ، تاريخ الأندلس، ج(٢)، ص(٨٤)

(٢) انظر التكتيك الحربي للمرابطين في معركة الزلاقة في الباب الخامس

(٣) الحلل الموشية، ص(٥٧)، أشباخ، تاريخ الأندلس، ج(١)، ص(١١٩)

ب- وفى سنة ٥٠٠ هـ - ١٠٠٦م توفى "يوسف بن تاشفين" وبموته فقدت الجيوش المرابطية أعظم قائد لها حيث فقدت فيه القوة والعقلية المرشدة والموجهة لها. ومع ذلك ظل جيش المرابطين قوياً شامخاً فى السنين الأولى لحكم ابنه "على بن يوسف" ثم بدأت تسرى عوامل الضعف والوهن فى الجيوش حتى انتهى إلى أن أصبح أشلاء متناثرة فى عهد ابنه تاشفين حتى قضى عليه قضاء مبرماً على أيدى الموحدين. وتكشف لنا صورة توضح حالة دولة المرابطين التى تمثل نهاية المرحلة التى بلغت العشرين عاماً فى الحروب من عمر الدولة إذ تعرض فيها المرابطون لعدة أزمات عارضة لا تحتملها إلا الجبال.

وقد بدأت طوالع هذه الأزمات منذ عام ٥٠١ هـ حيث اختفى من ميدان الجيش جملة من القواد الأشداء الذين قام على سواعدهم بناء تلك الدولة الفتية أمثال "محمد بن الحاج"، "وداود بن عائشة"، "ومحمد بن مزدلى"، "وسير بن أبى بكر اللمتونى" ثم ظهر جيل جديد من القواد ولكن بدأت معه طوالع الشدة حيث كان ينقصه الخبرة والدراية العسكرية الكاملة.

ومن النكبات التى منى بها هذا الجيل من القواد والتى تعد بحق نقطة سوداء فى جبينهم هو أمر سقوط سرقسطة وعدة الثغر الأعلى حيث أعقب ذلك تصدع كبير فى نظام الجبهة الدفاعية فى شمال شرقى الأندلس وضاع معها الكثير من هيبة المرابطين العسكرية فى شبه الجزيرة الأندلسية. ثم توالت بعد سقوط سرقسطة عدة هزائم أخرى فى الأندلس منها هزيمتهم فى معركة كتندة عام ٥١٤هـ عندما أرادوا استرداد قلعة أيوب واستشهد فى هذه الموقعة عدد كبير من الجنود والعلماء تقدره الرواية العربية بنحو عشرين ألفاً(١). ثم أعقب هذه الهزيمة هزيمة أخرى فى موقعة القلاعة عام ٥٢٣ هـ فنى فيها أعداد كثيرة من جنود المرابطين واحتوى العدو على سائر أسلابهم وبلغت خسارتهم نحو اثنى عشر ألفاً بين قتيل وأسير(٢).

وقد أظهرت تلك الهزائم بلا شك خللاً فى النظم الدفاعية فى الأندلس كما أظهرت مدى ضعف الخطط العسكرية الكافية لرد عدوان النصارى بالأندلس.

(١) ابن الأثير، الكامل- ج(١٠)، ص(٢٠٨)، المقرى نفح الطيب - ج(٢)، ص(٥٨٠)

(٢) ابن القطان نظم الجمان، ت، مكى، ص (١٠٩).

وليس أدل على ذلك من أن ملك أرغونة قد قام بشنبة عام ٥١٩ هـ من الثغر الأعلى حتى شاطئ البحر المتوسط دون أن تستطيع قوة إسلامية مرابطية أن تقف فى سبيله[1]

وإذا كان هذا هو حال جند المرابطين بالأندلس فإن الوضع فى المغرب قد ازداد خطورة حيث ظهرت فيه الأزمة الفادحة والتى عجز المرابطون عن حلها وهى أزمة ظهور المهدى "ابن تومرت" داعية الموحدين سنة ٥٥١ هـ، والذى أعلن الحرب والجهاد ضدهم فى سلسلة معارك أنهكت قوى المرابطين واستنفدت كل مصادرهم. وقد استعان المهدى فى الكيد لتلك الدولة بكل ما يمتلك من وسائل الدعاية الرخيصة حيث كان يصفهم بالصفات الذميمة ويدعى أنهم الكفرة المجسمون واستند فى ذلك إلى أنه الإمام المعصوم الذى يجب ألا يرد له أمر أو يخرج الناس على طاعته حيث أقنع هؤلاء الأتباع بأن جهاد المرابطين فرض عليهم كما فرض على الصحابة من قبل جهاد الكفرة، وبذلك كانت الحملة قوية على المرابطين فهبطت معنوياتهم وتوالت عليهم الهزائم على يد الموحدين، كما نرى الكثير من قواد المرابطين قد خشوا سوء العاقبة فغادروا جيوش المرابطين وانضموا إلى الموحدين الذين عملوا على استمالتهم بكل طريقة ومن جراء ذلك فقد ساءت الأحوال الاقتصادية وعزت الأقوات وارتفعت كلفة الجيش ثم جعل جنود المرابطين يرتكبون ضد أبناء الشعب الآمنين فى الأندلس ضروبًا مثيرة من التعدى والأذى، وقد سجل ذلك وزير أندلسى خدم فى بلاط "على بن يوسف" فى رسالته التى وضعها فى القضاء والحسبة حيث يقول: "يجب ألا يلثم إلا صنهاجى أو لمتونى أو لمطى فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيبونهم ويأتون أنواعًا من الفجور كثيرة بسبب اللثام"[2] وبذلك ازدادت أحوال الجيوش المرابطية سوءًا ودب فيها الوهن إلى أن مرقت بافتتاح الموحدين لمدينة مراكش آخر معقل كان للمرابطين فى مملكتهم التى انقرضت.

---

(١) الحلل الموشية، انظر - ص(٦٦ - ٧٠)، الإحاطة- القاهرة ١٩٥٦م - ج(١)، ص(١١٦- ١١٩)

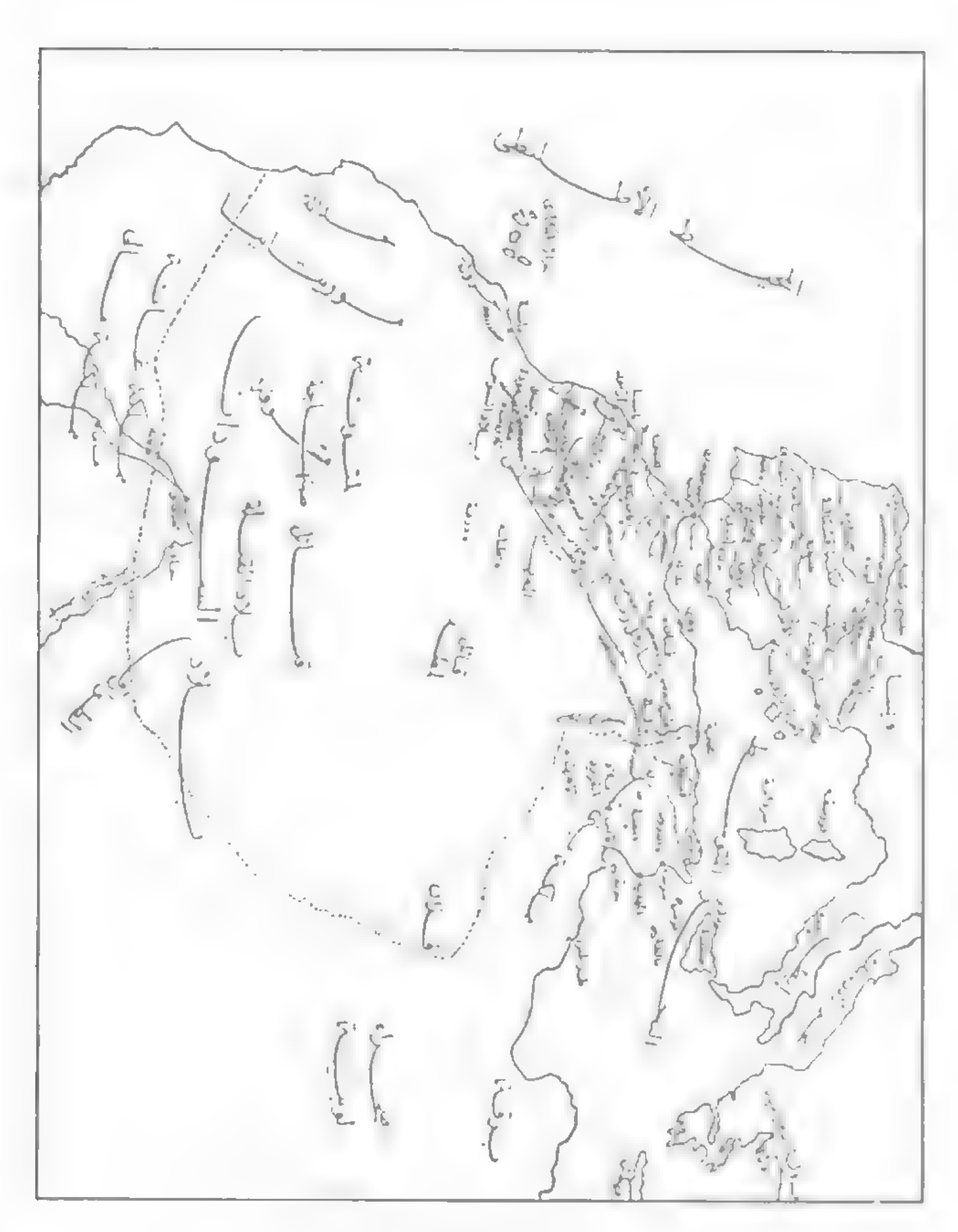
(٢) ابن عبدون- فى رسالته عن القضاء والحسبة، نشر ليفى بروفنسال، انظر، ص(٢٨)

وقد يتساءل المرء عن سر شيخوخة تلك الدولة الناشئة بتلك السرعة وضعف جيوشها وترديها إلى هذه المرحلة بعد رحيل مؤسس الدولة والقائد المحنك "يوسف بن تاشفين"، ومن الملاحظ أن المرابطين كانوا أصحاب دعوة منظمة ومدعومة بالقرآن والسنة وقد حرصوا على نشرها ثم استطاعوا أن يتمكنوا من إقامة المجتمع المسلم ثم إقامة الدولة الإسلامية الكبرى التي ظلت ما يقرب من خمسين عامًا ثم هوت تلك الدولة سريعًا ولعل السبب في ذلك يعود إلى:

١- ترك الدور الدعوي الذي حرص عليه الداعية الفقيه "عبد الله بن ياسين" كما حرص عليه أيضًا الأمراء العسكريون من بعده، حيث نرى أن الدولة من بعد "يوسف بن تاشفين" قد أهملت أمر الدعوة وركن الناس إلى الدنيا وابتعدوا عن تعاليم الإسلام الحنيف وعن النموذج الإسلامي الأمثل الذي رسمه دعاة هذه الدولة.

٢- نظام توريث الملك الذي أخذت به تلك الدولة حيث أثبت فشله لأن الدعوة لا تورث، فلها رجالها في كل زمان ومكان، فقد عجزت تلك الدولة على أن تورث أفكارها ومناهجها وعقيدتها للأجيال المتعاقبة، ولاشك أن هذا فيه إهمال شديد وتقصير في شأن تلك الدعوة التي ينبغي أن يكون لها دعاتها المجددون لها على مر السنين.

٣- كما كان للموحدين وداعيتهم أثر بعيد المدى في سقوط تلك الدولة التي انشغلت بالرد عليه والوقوف في وجه مطامعه، فأنهكت قواهم الاقتصادية مما أدى في النهاية إلى تخاذل جيش المرابطين وضعفه ثم انقراضه مع انقراض دعوتهم التي كان ينبغي أن يعضوا عليها بالنواجذ، لأنها كانت سبب عزتهم وتمكينهم، وكان ينبغي أن تعيش الفكرة الإسلامية معششة في العقول والأرواح ولا تقترن بالرجال والشخصيات، فقد تموت الرجال وتبقى الفكرة حية قوية في نفوس الناس إذا وجدت الدعوة من يجددونها على الدوام.



شكل رقم (١)

الدولة المرابطية الكبرى عقب وفاة يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ

الفصل الثانى

نشأة جيوش الموحدين وتطورها

المرحلة الأولى: مرحلة التأسيس والتكوين:

لقد كانت رابطة "تينملل" هى المدرسة العسكرية التى تخرج فيها جيش الموحدين فى أطواره الأولى، وفى هذه الرابطة التى شادها المهدى "ابن تومرت" داعية الموحدين وزعيمهم الروحى كانت التربية الروحية والعسكرية والعقدية التى حفظ لها ذلك الداعية.

وقد أحسن "ابن تومرت" اختيار موقع رابطته، فقد اختارها فى مدينة "تينملل" بين أهله وعشيرته الذين آزروه ونصروه، ثم التفوا حوله يحمونه من أن تمتد إليه يد السلطة الحاكمة بأى أذى. ثم مكن لدعوته أن تنمو ويشتد ساعدها حيث اجتمع إليه وجوه المصامدة الذين كون منهم عصبته وجماعته[1]، فقد انهالت عليه حشودهم فأخذ يعلمهم العلم وعقيدة التوحيد كما يراها، ويدعوهم إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويغرس فى قلوبهم البغض للمرابطين الذين سماهم المجسمين والخارجين عن أصول الدين الحنيف كما عرفنا سابقًا.

ويبدو أن المهدى وأتباعه قد صاروا قوة لها بأسها فى فترة قصيرة من الزمن فقد استطاعوا أن يغدروا بقبيلة "هرميرة" عندما كشف المهدى عن خيانتهم وخاف من تآلبهم، واستطاع المهدى وأتباعه أن يقتلوا منهم ما يبلغ خمسة عشر ألفًا[2].

وقد كان لهذه الواقعة أثرها فى نفوس أتباعه ومريديه من قبائل مصمودة فالتفوا جميعًا على عقيدة "المهدى ابن تومرت" وأبدوا الوفاء والولاء لدعوته.

وعندما آنس "ابن تومرت" فى رجاله قوة يخشى بأسها، وقد تميزت بأعدادها الهائلة وثبات عقيدتها، أعلن عليهم مهدويته، وبايعته هذه الحشود ولقب بالمهدى، وصارت لتعاليمه قدسيتها فى نفوس أتباعه يحفظونها عن ظهر قلب وأصبحت نبراسًا لهم يستنيرون به فى حياتهم. لا يقوى أحد على تركها أو الحيد عنها، وبذلك أخذ

---

(1) [illegible] – المعجب، ص (186، 187).

(2) ابن القطان، ص(94)، ابن الأثير – ج(6)، ص(296).

مكانة قوية في نفوس المغاربة خوف ورهبة كما لا يجرؤ أحد على عصيانه أو الشك في أمره، وكان يأخذ بالقتل وسفك الدماء كل من شك في ولائه في أثناء عملية التمييز، وفي كل وقت شاء فلا يتورع أن يقتل الآلاف من القبائل.

ومن مظاهر بأسه وبطشه أنه سمى أتباعه (بالموحدين) نكاية في المرابطين الذين سماهم بالمجسمين أو الكفرة، وأوجب على الموحدين قتالهم كما أوجب الرسول على الصحابة قتال الكفرة من قريش، وكان لابد لهذه الحشود من تنظيم يشملها ويضعها جميعًا في إطار واحد تحت يد حاكمة توجهها نحو تحقيق أهداف هذه الجماعة فشرع المهدي ابن تومرت يؤلف حكومة منظمة اصطبغت بالصبغة العسكرية على غرار الحكومات العسكرية المعاصرة التي تؤلف وقت الحروب إذا ما استمرت بين دولتين

ومن الملاحظ أن حكومة المهدي هذه بكل طبقاتها - كما سنعرف بعد - كانت أعضاء عاملين في الجيش، سواء كانوا قادة أو جنودًا محشودة في الجيش الموحدي لا يتخلف منهم أحد عن معركة الجهاد مهما كانت مكانته في هذه الحكومة. بل كان كبار الشيوخ الذين تتكون منهم أعلى طبقة في حكومة المهدي والمسماة بأهل الجماعة في مقدمة الجيوش، ففي موقعة البحيرة التي استعر لهيبها بينهم وبين المرابطين استشهد نصف أهل الجماعة وسلم النصف الآخر[١]

وإذا استعرضنا تنظيم المهدي لحكومته لأدركنا مدى حشود جيشه في ذلك الوقت والتي شملها أول تنظيم سياسي وحربي.

وإليك أول نظام لحكومة الموحدين كما وضعه المهدي ابن تومرت.

الطبقة الأولى: (أهل العشرة) وهم أول من آمنوا بالمهدي وقد أسندت إليهم قيادة الجيوش الموحدية وكانوا يسمون بالشيوخ الكبار[٢].

الطبقة الثانية: (أهل الخمسين).

ثم الطبقة الثالثة: (أهل السبعين). ثم قسم المهدي بعد ذلك بقية أصحابه وأنصاره إلى طبقات تلي هذه الطبقة منها: طلبة العلم، الحفاظ، صغار الطلبة،

---

(١) نظم الجمان، ص(١١٨)

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج(١)، ص(١٩، ٢٠)

أهل الدار أقرب المهدي، أهل هرغة، أهل تينملل، أهل جدميوة، أهل جنفيسة، أهل هنتاتة، ثم طبقة الجند والغزاة والرماة وأخيرًا طبقة الغرات وهم الأحداث وصغار الأميين. ثم وضع المهدي فيما بعد نظامًا خاصًا لمهام هذه الطبقات ورتبها، وجعل لكل منها مهمة خاصة ورتبة لا تتعداها سواء في السفر أو الحضر[1].

من هذا العرض لحكومة المهدي يتبين أنه أفرد طبقة للجند والغزاة والرماة. وهذا أول تنظيم للجيوش الموحدية ونلمح من هذا التقسيم أيضًا أن طبقة الجند المشار إليها سابقًا قد تضخمت أعدادها وأصبحت قوة جديرة بلقاء جموع المرابطين في صراع مسلح. فلجأ ابن تومرت إلى تنظيم هذه الأعداد إلى عشرات وجعل على كل عشرة منها نقيبًا ثم اختار لقيادة هذه الفرق قوادًا أكفاء من أهل الجماعة العشرة ثم خرجت هذه الجيوش للصدام المسلح مع المرابطين وفق منهاج جديد في القتال، وخطط مبتكرة في حروبها، وعلى ما يبدو أن هذه التنظيمات جاءت متأثرة بالتنظيمات الشيعية أو الفرق الصوفية ولا أدل على ذلك من اختيار المهدي للقب الإمام المعصوم فهو أهم ألقاب الشيعة.

وقد كانت عدة جيش الموحدين عند أول لقاء لهم مع المرابطين أكثر من ثلاثين ألف رجل تقريبًا، زادت تباعًا بانضمام القبائل للدعوة الموحدية وقد اضطلعت هذه القوة بعبء القتال لمدة ثلاث سنوات، خاضت خلالها تسع غزوات متوالية كانت أغلبها ضد المرابطين واستطاعوا خلالها أن يبسطوا سلطانهم على منطقة السوس كلها[2].

ويبدو أن جيش الموحدين قد تزايدت أعداده بصورة ملحوظة وواضحة، وتفسير ذلك يرجع إلى دخول القبائل في طاعة الموحدين وإمدادها بزهرة شبابها لتنتظم في تلك الجيوش. لما رأوا تلك الجماعة الجديدة تحقق انتصارات باهرة على جيوش الملثمين التي ساءت أحوالها المادية والمعنوية كما أشرنا سابقًا.

ومما يقوي رأينا في تزايد أعداد جيش الموحدين، أن المهدي ابن تومرت أخذ يتأهب لمرحلة تالية وحاسمة في صراعه مع المرابطين، فقد وضع في مخططه القيام بهجوم واسع لغزو لمتونة في عقر ديارهم واختار وجهة هجومه هذه المرة "مراكش" عاصمة اللمتونيين.

(1) الحلل الموشية، ص (٧٩)، روض القرطاس، ص (١١٣).
(2) ابن خلدون، ج(٦) ص (٢٢٨)، روض القرطاس، ص (١١٥)

ومن الواضح أنه لم يقم بهذه الخطوة الجريئة على حاضرة اللمتونيين إلا إذا كان واثقاً من مقدرة رجاله النهائية في تحمل عبء هذه الخطوة التي تحتاج إلى قواد وجنود أكفاء وحسن قيادة ومقدرة فائقة على التخطيط.

وقبيل الشروع في هذه الخطوة رأى المهدي أن يستوثق من أتباعه ودرجة ولائهم له وأن يستبعد من جيوشه العناصر المتقلبة والتي أطلق عليها الموحدون (أهل التخليط)

ولم لا يفعل ذلك؟ وقد حشدت في جيوشه جموع غفيرة منها من انضم إليهم عن قناعة، ومنها من انضم إليهم عن خوف ورهبة ينتظر فرصة مواتية، وسرعان ما يقلب لهم ظهر المجن. لذا صدر أمر المهدي بإجراء التمييز فأمر أن ينادي في أهل الدعوة بالناس جميعاً ثم بدأ أبو محمد البشير بتمييز الناس ويستأصل العناصر غير الموالية لهم، ويخوض بالباقي معركة المصير. وقد قيل إنه أعدم في هذا التمييز نحو سبعة وعشرين ألفاً من أعز رجال القبائل الموحدية(١).

وهذا العدد وإن كان مبالغاً فيه إلا أنه يدل على مدى الحشد الهائل الذي كان يتمتع به جيش الموحدين، فقد بلغت قوة جيوشهم قبل معركة البحيرة نحو أربعين ألف مقاتل، منهم أربعمائة فارس فقط، والباقي من الرجالة المشاة، لأنهم كانوا يعتمدون على عنصر المشاة في أغلب فنون قتالهم بخلاف المرابطين الذين كانوا يعتمدون على قوة الفرسان، وقد استطاعت هذه القوة أن تشتبك مع المرابطين قبل معركة البحيرة في أربعين معركة دارت أغلبها مع المرابطين خارج مراكش(٢).

ويمكن لنا أن نستشف قوة جيش الموحدين الذي أعد لمعركة البحيرة التي دارت بين الموحدين والمرابطين- ومنى فيها الموحدون بهزيمة ساحقة- بما يناهز الستين ألف

---

(١) ابن خلدون، ج(٦)، ص(٢٢٨) نلاحظ الشطط الكبير والبعد عن الخط الإسلامي في عملية التميز تلك، فتروي الروايات أنه في عام (٥١٩هـ- ١١٢٥م) أمر «الونشريشي» بأن يذكر أسماء من يشك في مهدويته كما أنه زود القبائل بأسماء المشاغبين ثم أمر المهدي بعد صلاة الفجر بالتميز وهو التميز سالف الذكر فأخرج أتباعه إلى جهة اليمين والذين يخالفهم يضعهم في جهة اليسار ويقول: هؤلاء هم أهل النار ثم أمر القبائل أن تنقض على هؤلاء النفر فقتل منهم عددا كبيرا يقدره ابن خلكان بسبعين ألفا - وفيات الأعيان ج(٦)، ص(٥٢، ٥٣) وعلى ما يبدو أن في هذه الروايه مبالغة والرواية الأولى هي أقرب إلى الواقع والمقصود من هذا التمييز هو التخلص من العناصر التي تشكك في مهديته فكان يتخلص منهم بهذه الطريقة الشنعة، وبذلك يجبر الباقين على أن يتجمعوا ويخلصوا له ويطيعوه حتى ولو قتل أبناءهم

(٢) نظم الجمان- ت- مكي، ص(١١٨)

مقاتل أو يزيد على ذلك، فقد قدر ابن القطان عدد من قتلوا في هذه المعركة بأربعين ألفاً، وسقط في الميدان نصف أهل الجماعة وسلم نصفهم الآخر(1).

وعلى أثر هذه الهزيمة الساحقة لجيوش الموحدين توفي المهدي سنة ٥٢٤هـ تاركا جيشاً هزيلاً تكتنفه عوامل الفناء، وأكثر القبائل الموحدية ساخطة من جراء عملية التمييز الجائرة والتي فنيت فيها قبائل بأسرها.

وبهزيمة الموحدين في معركة البحيرة وموت المهدي بن تومرت يكون قد انتهى الدور الأول من أدوار تأسيس جيش الموحدين.

المرحلة الثانية: التمكين لدولة الموحدين

هو ذلك الجيش الذي قاده الأمير عبد المؤمن بن علي خليفة المهدي ابن تومرت بعد موت المهدي وتولاه برعايته واهتمامه وبث فيه الحياة من جديد بعد ما كان عقب معركة البحيرة شبحاً هزيلاً. وقد تحمل هذا الجيش عبء الصراع المرير بين المرابطين والموحدين في سلسلة حروب مستمرة أشبه بحرب العصابات، حتى تمكن أخيراً من الانقضاض على مراكش والاستيلاء عليها وإعلان قيام دولة الموحدين بالمغرب.

وبعدما بويع «عبد المؤمن» بالخلافة شرع في تأسيس جيش موحدي قوي مؤلف من شتى قبائل الموحدين كانت عدته تناهز الثلاثين ألفاً. ثم بدأ هذا العدد يتزايد بدخول كثير من القبائل في دعوة الموحدين وبفضل سياسة عبد المؤمن في تأليف شتى القبائل وتقريبهم إليه.

ثم بدأ يطارد المرابطين في منطقة السوس في وسط المغرب ثم في شماله نحو الشمال الشرقي، ثم استولى على تلمسان ووهران، ثم أجزاء كبيرة من الجزائر، ثم فتح فاس ومكناسة وسلا وأخيراً أسقط مدينة مراكش آخر معاقل المرابطين وسيطر على كل أرجاء المغرب.

ومن الملاحظ في هذه المعركة التي تمثل الصراع بين المرابطين والموحدين أن جيش الموحدين لم يكن يتمتع بحشود كبيرة كالتي يتمتع بها جيش المرابطين في

---

(1) نفس المؤلف والمصدر السابق ونفس الصفحة.

المراحل الأولى من الصراع، وذلك بسبب إجراء عمليات التمييز المتكررة والتى تسببت فى إنقاص عدد جيوش الموحدين من جهة والتى تسببت فى فرار البعض من جهة أخرى. لذا نرى حرص عبد المؤمن على عدم التقائه معهم فى معركة فاصلة واكتفى فى هذه المرحلة بسياسة النفس الطويل عاملاً فى تدويخ الجيوش المرابطية فى سلسلة غزوات استغرقت سبع سنوات منذ أن خرج من تينمل سنة ٥٣٤ هـ والتى انتهت باستيلائه على مراكش سنة ٥٤١هـ[1].

وكان هدف عبد المؤمن من هذه السياسة هو حشد أكبر عدد ممكن فى جيشه من القبائل التى دخلت فى دعوته، وتحطيم الروح المعنوية لجيوش المرابطين التى هرع معظمها للانضمام فى الجيوش الموحدية.

ولقد جنى عبد المؤمن ثمار سياسته هذه فقد دخلت أعداد غفيرة من القبائل والبطون الشمالية فى طاعته، بدليل أنه بعث من مدينة "تاجرا" ثلاث حملات موحدية: الأولى بقيادة "عبد الرحمن بن زجو" وقد سارت فى الشمال الشرقى وهاجمت ثغر وهران وفتحته واستولت على غنائمه، والثانية بقيادة "الشيخ أبى إبراهيم" وقد سارت إلى أرض بنى وانوان واستاقت غنائمها، وخرجت الثالثة بقيادة "يوسف بن وانودين" وسارت إلى جبل مديونة من أحواز تلمسان.

ثم خرج عبد المؤمن فى نفس الوقت حملة رابعة من "تاجرا" إلى بلاد "تيغمرت" من أرض مديونة وخرجت قوة أخرى بقيادة "الشيخ أبى حفص عمر" اينتى ويصلاصن إلى العيون من أراضى قبيلة صنهاجة غربى وجدة[2].

فنحن أمام خمس حملات موجهة ضد المرابطين فى آن واحد وذلك وفقاً لسياسة النفس الطويل أو ما يطلق عليه القدماء سياسة "التفريق" وهو أن يوجه جيوشه إلى أكثر من مكان ليرهب القبائل ويدوخ جيوش المرابطين، وفى نفس الوقت يعرض على القبائل الصلح والدخول فى طاعته، وقد آتت هذه السياسة أكلها فقد كانت قبائل بأسرها تدخل فى زمرة الموحدين. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل انضم كثير من قواد المرابطين إلى جيش عبد المؤمن وأفرد لهم عبد

---

(١) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ج(٢)، ص(١٣٢، ١٣٣)

(٢) عنان، عصر المرابطين والموحدين، ج(١)، ص(٢٤١)

المؤمن مناصب حساسة في جيوشه لما افتقد جيوش المرابطين منعتها وهيبتها، ومن هؤلاء المنضمين للموحدين وأعلنوا توحيدهم، الكاتب الكبير "أبو جعفر أحمد بن محمد بن عطية القضاعي" الذي كان كاتباً لتاشفين بن علي ثم خدم أبا إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف، وقد قلده عبد المؤمن خطة الكتابة وأسند إليه وزارته وفوض إليه النظر في أمورها[1].

ثم انضم من زعماء مسوفة إلى الموحدين: يحيى بن تاكفت، ويرزن بن محمد، ويحيى بن إسحاق المعروف بأنفحمار، حاكم تلمسان، ثم انشق على تاشفين بن علي "بنو ومانو" من بطون زناتة.

ثم انضم إلى جيوش الموحدين: بنو يلومي، وبنو عبد الواد، وبنو ورسفين، وبنو توجين، وكانوا جميعاً من أنصار المرابطين، وقد أكرم عبد المؤمن زعماءهم وضمهم إلى قواته [2].

وفي سنة ٥٤٠هـ وفد على عبد المؤمن "علي بن عيسى بن ميمون" قائد الأسطول المرابطي، وقدم له طاعته ثم عاد إلى الأندلس وأقام الخطبة للموحدين بجامع قادس الذي كان مركز قيادة الأسطول[3].

ولا عجب أن نرى جيوش الموحدين تتدفق أعدادها بانضمام هؤلاء القادة إليهم، وقد كانت تهرع الجنود في ركاب قادتهم تاركة جيوش المرابطين لمصيرها المحتوم، ومن أجل ذلك نرى أن المرابطين قد لجأوا إلى الاعتماد في صراعهم مع الموحدين على فرقة "الروم" إذ نرى "الربرتير" قائدهم يقود هذه الفرقة ويضطلع بمعظم حروبهم ضد الموحدين، مما جعل علياً وأبناءه من بعده يغدقون عليه ويقربونه إليهم. وقد كان النصارى في ظل هذه الرعاية يتعالون على المسلمين ويستأثرون بمعظم العطايا حتى أدى إلى إهمال شأن الكثيرين من القواد ففقد معظمهم الولاء للمرابطين.

---

(١) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة. ت عنان، ج(١)، ص(٢٧٠).

(٢) العبر، ابن خلدون، ج(٦) ص(٢٣١).

(٣) المرجع السابق، ج(٦)، ص(٢٣٢).

ولكن لم تطل هذه المرابطين بتقديرهم «الربرتير» وفرقته من النصارى، إذ لقى مصرعه فى معركة كان يقودها ضد الموحدين وفنى معظم جيشه[1]، وعندما رأى بقية الجند النصارى مصرع زعيمهم وأحسوا بتداعى أركان دولة المرابطين التى يعملون لحسابها تفرقوا ثم غادروا بلاد المغرب إلى بلاد الأندلس، ملتجئين إلى ملك طليطلة يعملون فى رعايته[2].

ومن هنا كانت الهزائم تتوالى على جيش المرابطين الذى أضحى شبحًا هزيلاً كل يوم يزداد سوءًا وضعفًا، بينما كانت الجيوش الموحدية تزداد عددًا وتضاعف من هجماتها ومن وثباتها لتجهز على ذلك الجيش المنهار. ويبدو أن جيش الموحدين قد صار فى أكمل هيئة له تمكنه من تصويب الضربة القاصمة والأخيرة لجيوش تلك الدولة المترنحة، وكانت هذه الضربة موجهة إلى آخر حصن من حصون المرابطين وهو مدينة مراكش التى ضربوا عليها حصارًا استمر تسعة أشهر، ولكن ما عسى أن تفعله جنود قد أعياهم الجهد وأنهكهم الجوع إزاء جحافل الموحدين؟

لقد اقتحم الموحدون هذه المدينة وفتحت أبوابها أمامهم واستولى عليها عبد المؤمن وأسدل الستار على دولة المرابطين، وبفتح مراكش تنتهى المرحلة الثانية من مراحل تأسيس جيش الموحدين.

المرحلة الثالثة: دولة الموحدين الكبرى (المغرب والأندلس)

هو ذلك الجيش الذى استقر تحت إمرة عبد المؤمن بعد فتح مدينة «مراكش» واستيلائه على ملك اللمتونيين فى المغربين الأوسط والأدنى، وجنوب الصحراء ثم بسط به سلطان الموحدين على شبه جزيرة الأندلس التى راسل قوادها الموحدين فى رغبتهم للانضمام إلى جيش الموحدين ومن ثم حنوا لبسط نفوذهم على الأندلس قبل سقوط مدينة مراكش لتستأنف حركة الجهاد ضد النصارى، فى سلسلة من المعارك الصليبية التى اشتعلت نيرانها فى أرض الأندلس آنذاك.

(١) ابن خلدون، المصدر السابق، ج(٦)، ص(٢٣١)

(٢) المصدر السابق، ج(٦)، ص(٢٤٨)

ومما لاشك فيه أن عبد المؤمن بن على هو المؤسس الحقيقي لجيش الموحدين كنظيره يوسف بن تاشفين عاهل المرابطين الذى يعد بحق مؤسس جيش المرابطين. فقد اعتنى عبد المؤمن بجيشه اعتناء عظيما، فاتسع نطاق الجيوش الموحدية وزادت حشودها زيادة هائلة، وذلك بعد أن دانت له سائر قبائل المغرب المختلفة وأخذت تساهم بحشودها فى الجيوش الموحدية، وبالرغم من أن الحشود كان يجرى تنظيمها على أساس قبلى محض، فقد استطاع عبد المؤمن بسياسته تأليف القبائل المختلفة، وأن يجعل منها وحدة عظيمة متناسقة كانت هى عماد الجيش الموحدى.

فقد استطاع عبد المؤمن أن يحشد لفتح المهدية سنة ٥٥٤هـ جيشا جرارا تقدره الرواية العربية بمائة ألف مقاتل ومعهم مثل هذا العدد من الأتباع والسوقة[1]، وفى رواية صاحب الحلل أنه كان يضم خمسة وسبعين ألف فارس وخمسمائة ألف راجل، وكان يضم عدا طوائف الموحدين ومختلف القبائل من زناتة والأغزاز والرماة وغيرهم جموعا من قبائل العرب، وكان ينقسم إلى أربعة جيوش لكل عسكر يوم يختص به مسيره فى كل مرحلة من السحر إلى وقت الغداة وتنزل الجيوش مريحة إلى يوم آخر[2].

وسوف نقدم صورة أخرى تدل على اكتمال جيوش عبد المؤمن والتى بلغت تنظيماتها العسكرية من حيث الضخامة مبلغا لم تعرفه أية دولة أخرى فى المغرب الإسلامى، وسوف يتضح ذلك من خلال استعداده للقتال فى الأندلس حيث أرسل كتبه إلى سائر الجهات والقبائل لاستنفار الناس وحثهم على الجهاد فى سبيل الله، فهرعت إليه حشود عظيمة انتظمت فى جيوشه، وأمر بإنشاء الأساطيل فأنشئ منها مائتا قطعة وقيل أربعمائة، أعد منها فى مرسى المعمورة على شاطئ وادى سبو شمالى شرق سلا مائة وعشرون قطعة، وأعد الباقى فى مختلف ثغور العدوتين المغربية والأندلسية، ثم أمر بإعداد الوفير من العتاد والمؤن والأعلاف، وكان قد أعد منها خلال سنة ٥٥٧هـ أكداسا هائلة فى وادى سبو فى حمى

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج(١)، ص(١٩)

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة، الحلل الموشية، ص(١١٥، ١١٦).

الحسان لشرفه عنده، وجمعت الخيل من سائر أنحاء إفريقية والمغرب، وجلبت كذلك أعداد وفيرة من السهام والرماح القصار والدروع والبيضات والتروس والبنود والأكسية، ووزع ذلك كله على طوائف الموحدين والعرب الوافدين لهم(1).

وفي سنة ٥٥٨هـ خرج عبد المؤمن بجيوشه من مراكش، وسار إلى رباط الفتح وتقدر الرواية العربية قوة جيوشه بما تزيد عن ثلاثمائة ألف فارس من الموحدين والمرتزقة والعرب والبربر، ومن المتطوعة ثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل(2)، وقد ضاقت بهم السهول المجاورة من سلا والمعمورة.

وقد قسمت هذه الجيوش الضخمة إلى أربعة جيوش لتوزع في أرض الأندلس ضد النصارى وفي وقت واحد، وقد سير أولها إلى البرتغال لمقاتلة ملك البرتغال صاحب قلمرية "ألفونسو هنريكيز" والجيش الثاني سيره إلى مملكة ليون وملكها يومئذ "فرناندو الثاني" ولد الإمبراطور "ألفونسو ريموندس" والثالث سيره إلى مملكة قشتالة وملكها يومئذ "ألفونسو الثامن" والرابع سيره نحو مملكة أراجون وبرشلونة وملكها يومئذ "ألفونسو الثاني".

ولكن مرض الخليفة عبد المؤمن ووفاته ثم انشغال الموحدين بأمر الخلافة من بعده لابنه أبي يعقوب يوسف في جمادى سنة ٥٥٨هـ شغل الموحدين عن متابعة الزحف لهذه الجيوش فصدرت الأوامر لها بالانصراف إلى بلادها(3).

ولما اتسع نطاق الغزوات الموحدية في المغرب والأندلس، ولم تعد القبائل البربرية تكفي وحدها لإمداد الجيوش بما تحتاج إليه من الحشود الضخمة لجأت الخلافة الموحدية إلى استمالة طوائف العرب من بني هلال وسليم وزغبة ورياح وغيرهم إلى الانضمام بجيوشهم، وبدأت هذه المحاولة من جانب عبد المؤمن ثم نجح ابنه "أبو يعقوب يوسف" في استمالة هذه العناصر وغيرها بإنعاماته وصلاته ومن ذلك الحين أصبحت طوائف العرب تكون فرقًا في جيش الموحدين، ومما

(1) المراكشي، المعجب، ص (١٣١)

(2) الاستقصا، ج(١)، ص (١٥٨)

(3) عنان، عصر المرابطين، ج(١) ص (٣٩٤، ٣٩٥) نقلا عن ابن صاحب الصلاة

لاشك فيه أنه منذ عهد عبد المؤمن أصبح للموحدين جيش دائم مدونة أسماء رجاله في ديوان الجند وتصرف له الأعطيات والرواتب الشهرية، وكانت هذه الجيوش الدائمة موزعة على أقاليم المغرب وفي الثغور المرابطة بها وذلك للمحافظة عليها سواء في المغرب أو الأندلس إذ اعتاد الموحدون ومن قبلهم المرابطون على أن يقيموا في البلاد المفتوحة مراكز ثابتة في النقاط المهمة التي تحت حمايتهم.

فمن المراكز الحربية التي اتخذها الموحدون قاعدة تنطلق جيوشهم منها في أول أمرهم قاعدة تينمل وقد كانت مقر القيادة الموحدية في ذلك الوقت. ثم اتخذ عبد المؤمن رباط «تازة» وأقام فيه يحارب تاشفين بن علي من سنة ٥٣٥هـ[1]، ثم اتخذ الموحدون من مدينة أزرو التي تقع في قلب فزاز عند منبع نهر وادي أبي رقراق الذي يصب في المحيط الأطلسي عند مدينة سلا معسكراً لهم فكان عبد المؤمن يرسل منها سراياه إلى الجهات المجاورة[2].

ثم بعد استيلائهم على مدينة مراكش اتخذوا منها حاضرة لهم وكانت ترابط فيها أغلب الجيوش الموحدية حيث كانت مركز القيادة العامة وبها وحدات الجيش تخرج منها وتعود إليها، كما كانت تصدر منها أوامر الخليفة وكتبه إلى سائر قواده بالمغرب والأندلس.

وكانت مدينتا سلا ورباط الفتح من أهم مراكز التجمع لجيوش الموحدين سواء الذاهبة منها إلى أفريقية أو تلك التي تقصد العبور إلى الأندلس، كما كانت المنطقة الواقعة شمالاً فيما بين سلا وسبتة تحتوي على مراكز كثيرة متتالية لتخزين المؤن والأقوات اللازمة لإمداد الجيوش الذاهبة والعائدة [3].

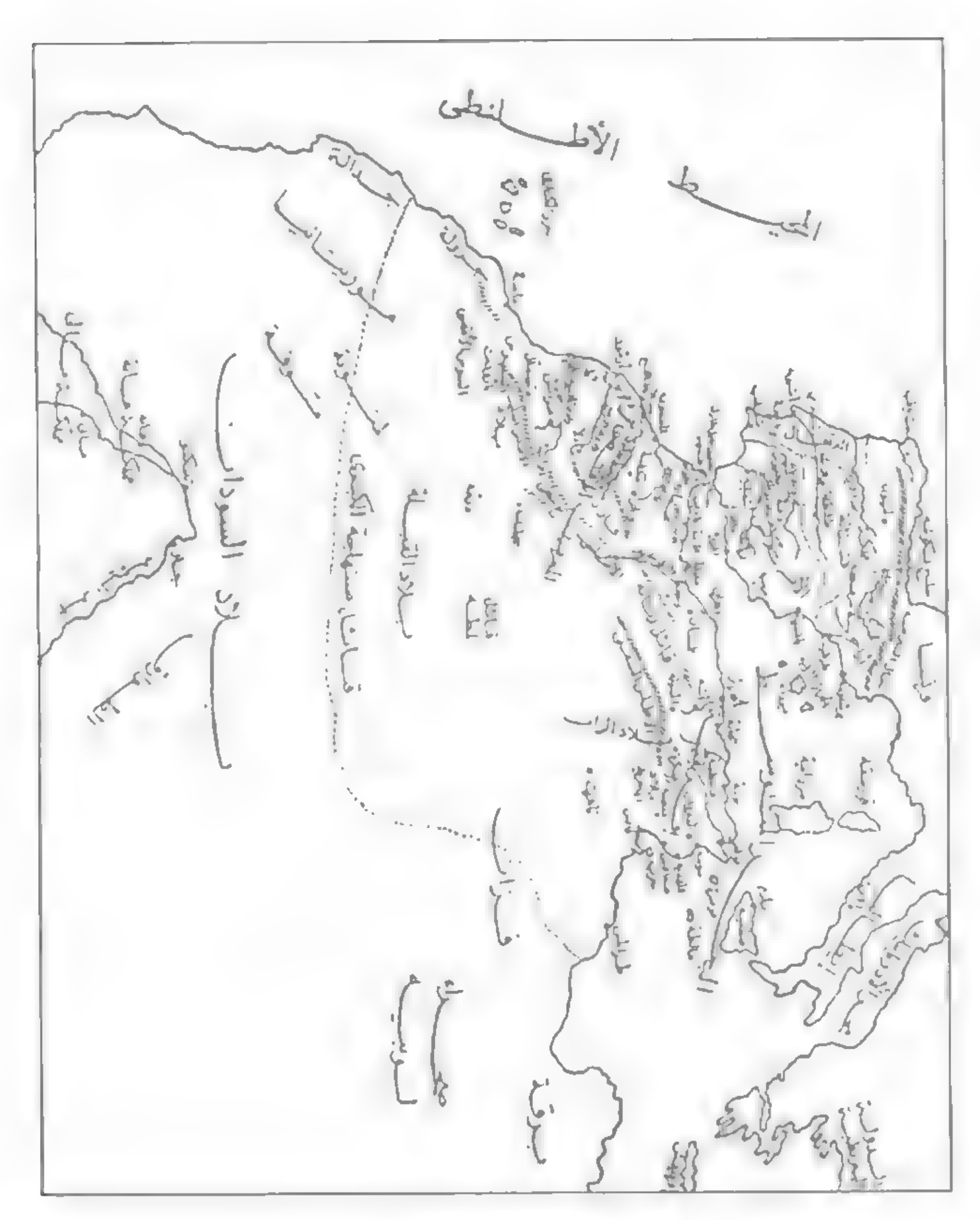
من هذا يتضح أن جيش الموحدين في هذه المرحلة أي في عهد الدولة الموحدية الكبرى قد بلغ شأواً كبيراً في حشده ودقة تنظيمه وبراعة قيادته، فقد كانت تقوده عقلية بارعة أثبتت مهارتها في فن الحرب، فينسب المؤرخون إلى عبد المؤمن بن

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ج(٢)، ص(١٣٤)

(٢) عبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص (١٢٠)

(٣) عنان، عصر المرابطين والموحدين، ج(٢)، ص (٦٣٣)



شكل رقم (٢)

الدولة الموحدية الكبرى عقب وفاة الخليفة عبد المؤمن بن على سنة ٥٥٨هـ

على ابتكار خطة الدفع التي تحدث في ذلك الوقت بسبب خطط الدفع للجيوش الموحدية[١] **كما سنذكر بعد فى أنظمة التعبئة.**

وبعد هذا الجهد العظيم والملك الزاخر واستتباب أمور الدولة لبني عبد المؤمن رأيناه بعدما ترك خلفاءه من بعده جيشاً قوياً جراراً بلغت عدته في بعض الأحيان نصف مليون جندي. فهل استطاع خلفاء عبد المؤمن أن يحتفظوا بهذه الجيوش في **حالتها القوية كما كانت عليها فى عصره؟**

إن المتصفح لتاريخ دولة الموحدين وما حررته من انتصارات وما حل بها من هزائم يستطيع أن يستشف حالة جيوش تلك الدولة في ظل خلفاء الموحدين من بعد عبد المؤمن، إذ استطاع الخلفاء الأقوياء منذ الخليفة الأول "عبد المؤمن" حتى نهاية الخليفة المنصور أن يحتفظوا بحشود مكثفة لجيوشهم تتميز بالضخامة والقوة وكثافة السلاح وكثرة أنظمتها العسكرية، وعلى الرغم من ذلك فقد شاعت ظاهرة الفوضى "القيادية" حيث لم تكن لتلك الجيوش بعد رحيل قائدها الأول قيادة حازمة بصيرة بعواقب الأمور، بل ظهر استئثار الخليفة بالقيادة وعدم استجابته لمشورة الخبراء والمجربين من قادته، وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى الفشل أو الهزيمة الساحقة كما حدث مع الخليفة "أبي يعقوب يوسف" ابن عبد المؤمن الذي فشل في اقتحام مدينة صغيرة محصنة وهي مدينة "وبذة" رغم حشوده الهائلة، فقد كانت تلك المدينة تحميها حامية محلية صغيرة من القشتاليين، فما أسباب هذا العجز وذلك الفشل الذريع؟

يصف ابن صاحب الصلاة لنا الخليفة أبي يعقوب وهو قائد عام المعركة آنذاك وصفاً غريباً، فبعد استمرار المعركة فقد كان ذلك الخليفة يقبع في خيمته مع طلبة الموحدين يناقشهم في بعض المسائل الفقهية غير واعٍ لما يدور في المعركة، لقد استغاث به أبو العلاء بن عزون أن يمده بمدد فلم يأبه لاستغاثته[٢]، كما كان يسود الجيوش الموحدية من التفكك وعدم التناسق بين مختلف عناصر الجيش ما يشير إلى بث الفوضى أيضاً، وقد روت بعض المراجع ما يشير إلى أن العرب الذين رافقوا تلك الجيوش كان عليهم أكبر قدر من تلك التبعة، فقد كانوا يغيرون بعدوهم ويحجمون عن القتال في الساعات الحرجة كما كشفت بعض الحملات عن أسباب أخرى للفشل

(١) الحلل الموشية، ص (٩٨)، أشباخ، تاريخ الأندلس.. ص(٤٤٨، ٤٨٩)

(٢) المصدر السابق ونفس الجزء، ص (٧٧).

منها خلل نظم تموين الجيوش وما ترتب على ذلك من ندرة الأقوات والعلوفات وما كان يصيب الجند من جراء ذلك من ضيق وحرمان وانهيار لقواهم المعنوية.

من هذا تتضح حالة جيوش الموحدين بعد رحيل عبد المؤمن بن علي، فعلى الرغم من كثرتها وضخامة أسلحتها وما تتمتع به من أنظمة إلا أنها لم تحرز توفيقًا في أغلب حملاتها ضد النصارى اللهم إلا في معركة «الأرك» التي أحرز فيها أبو يعقوب المنصور انتصاره الباهر على القشتاليين سنة ٥٩١هـ ١١٩٤م على أن هذا النصر العظيم لم يلبث أن محت آثاره موقعة «العقاب» التي أحرز فيها القشتاليون نصرهم الساحق على جيوش الموحدين بقيادة الخليفة محمد الناصر سنة ٦٠٩هـ ١٢١٢م، والتي أظهرت تفكك الجيوش الموحدية وضياع معنها وهيبتها، وأنها غدت أشلاء متناثرة لايجمعها رابطة أو هدف مشترك. وقد قدرت بعض المراجع الخسائر الفادحة في هذه المعركة إذ قدرها صاحب روض القرطاس بأنه لم ينج من الموحدين إلا واحد من الألف، فقد نادى منادى قشتالة في جموعه بعدم الأسر وضرورة القتل ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره[1]، وقد أيد ذلك صاحب الحلل الموشية حيث يصف هذه الموقعة «بالهزيمة العظمى» التي فنى فيها الكثير من أهل المغرب والأندلس[2].

وفي الحقيقة أن هذه المعركة كانت بداية لاضمحلال الجيوش الموحدية إذ ثبت من خلالها اختلال النظم الاقتصادية وتدهورها حيث حبست العطيات عن الجند وتأخرت عن موعدها فخرجوا للغزو وهم كارهون كما يقول المراكشي بل انهزموا لأول حملة إفرنجية عليهم قاصدين لذلك[3].

وقد كانت هذه الهزيمة ضربة قاضية لقوى الموحدين في المغرب والأندلس، ولم تمضي سوى أعوام قلائل حتى بدأ سلطان الموحدين ينهار في الأندلس وأخذت قواعد الأندلس الكبرى تتساقط تباعًا في أيدي النصارى وذلك في غمرة انشغال أهلها في حروبهم الأهلية كما كانت عليه إبان عصر الطوائف. ولم يكن المغرب بأسعد حظًا من الأندلس فقد هلكت حشود القبائل المغربية وفقدت زهرة شبابها من جراء حروب الموحدين المتصلة ولم يعد في مقدور هذه القبائل أن تقدم الجند

(١) أبي زرع، روض القرطاس، ص (١٥٩)

(٢) الحلل الموشية، ص (١٢٢)

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، للمراكشي، ص (١٨٣)

بلاده للغزو، وليس أدل على ذلك من قول صاحب الحلل الموشية السابق في وصفه لتلك الموقعة «بالهزيمة العظمى».

وإن كان مورد حشد الجنود قد جف ونضب فإن مورد تموين الجيوش هي الأخرى قد نضبت مما ترتب عليه أثره السيئ في تغذية الجيوش الموحدية ومعداتها، إذ كانت خطوط التموين تمتد من أعماق المغرب عبر البحر إلى الأندلس مسافات طويلة، وكان هذا هو أهم أسباب الانحلال على الرغم من وجود قواعد التموين المهمة كما قلنا سابقًا بين سلا وسبتة، فقد كانت جيوش الموحدين تعبر إلى شبه الجزيرة وتتوغل في أراضي العدو وسرعان ما تشعر بالنقص في تموينها وكان هذا النقص يؤدي في بعض الأحيان إلى إحلال نظام الجيش كله وإلى انشغال معظم الجيش بالبحث عن القوت(١).

كما أن من مظاهر الضعف ما حدث للجيوش الموحدية في أواخر عهدها إذ استعانت بالمرتزقة النصارى حيث لجأ الخليفة الموحدي المأمون إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث ليمده بفرقة من الفرسان النصارى ليستعين بها على مقاتلة خصمه «يحيى المعتصم» وانتزاع الملك منه، وقد كانت هذه الفرقة سببًا في ذيوع الشائعات والفتن والاضطرابات، وقد ساءت حالة الجيوش إذ تمزقت مع تمزق كيان دولة الموحدين إذ انقسمت إلى دويلات متناحرة فيما بينها، واستقل الكثيرون عن تلك الدولة مثل بني غانية الذين غزوا ثغور أفريقية وقواعدها الغربية واستمرت الحروب بينهم وبين بقايا الموحدين ثلاثين عامًا أنهكت فيها البقية الباقية من جيوشهم ثم انهارت منعة الدولة فانسلخ عنها إقليم أفريقية وقامت فيه الدولة الحفصية سنة ٦٢٧هـ ثم تبعتها تلمسان التي استولى عليها يغمراسن بن زيان وقومه من بني عبد الواد وأقاموا بها إمارة مستقلة، ثم كانت الضربة القاضية التي كتمت أنفاس تلك الدولة وذلك باستيلاء بني مرين على مراكش سنة ١٢٩٦م من يد آخر سلاطين الموحدين أبي العلا إدريس الملقب بأبي دبوس وبذلك يكون قد انقرض ملك الموحدين.

وقد يتساءل الإنسان عن أسباب انهيار تلك الدولة إذ لم يطل عمرها بالإطالة التي كانت متوقعة لها، فما أسباب ذلك؟

---

(١) عنان، عصر المرابطين والموحدين، ج(٢)، ص (٦٣٩).

١- إرهاب ابن تومرت المغاربة بمهدويته المزعومة:

الهالة الكبرى التي أحاط بها محمد بن تومرت نفسه كزعيم روحي لدولة الموحدين إذ لم يكتف بأن يجعل من نفسه فقيهاً أو داعية وإنما جعل من نفسه الإمام المعصوم والمهدى المعلوم، وادعى نسبه المتواتر عن النبي ﷺ وأوجب على أتباعه الإيمان والاعتقاد بذلك اعتقادا حرفيا وجعله ركناً من أركان تلك العقيدة التي شرعها لهم كما جاء في كتابه أعز ما يطلب؛ حيث تحدث عن المهدي وعلاماته وعن قيام الطائفة التي تقوم آخر الزمان تقاتل في سبيل الحق وأوجب على الناس طاعته، ومن يعصيه فيكون قد كفر وخرج عن الملة، وهذه الحيلة قد وجدت صداها إلى عقول الكثير من المغاربة البسطاء فسرعان ما آمنوا بها وخشوا على أنفسهم عواقب العصيان، ومن هنا كان الجند يندفعون منها بقوة مندفعين بأسباب الخوف وكان بين حين وآخر يجري تمييز بين أتباعه يقتل فيه كل من ظن فيه خيانة أو من ارتاب في أمر دعوته لذا نرى الجميع قد انساقوا ... كما يسوق الراعي قطيعًا من الإبل يتملكهم الخوف والحنق الشديد لابن تومرت ودولته يتمنون الانسلاخ عنه ولكن أنى لهم ذلك؟

٢- ملل المغاربة وتحللهم من تعاليم «ابن تومرت»:

وقد وجد من اعترض على هذا النظام من أئمة العالم الإسلامي مثل الإمام ابن تيمية وغيره حيث كان «ابن تومرت» مخالفاً بذلك لتعاليم الدين، فليس هو المهدي المنتظر كما أنه ليس بالإمام المعصوم، وما كانت هذه الفكرة بعيدة عن أعين تكشف للناس أخطاءها وسرعان ما بدأوا يشكون في أمر تلك الدعوة حتى وجدنا أحد خلفاء الموحدين أنفسهم وهو المأمون بعد أن دخل مراكش وبايعه الموحدون صعد إلى المنبر بجامع المنصور وخطب الناس وقبح المهدي وقال: أيها الناس لاتدعوه بالمعصوم وادعوه بالغوي المذموم، إنه لا مهدي إلا عيسى، ثم أصدر مرسومه إلى سائر البلاد بإزالة اسم المهدي من الخطبة ومن السكة ومحو اسمه من المخطبات، وقطع النداء عند الصلاة بالنداءات البربرية وغير ذلك مما كان العمل جاريًا عليه منذ بداية الدولة الموحدية. ثم قال في وصف ابن تومرت بالمهدي وبالإمام المعصوم: إنما هو نفاق وبدعة وباطل وأنه يجب نبذه والقضاء عليه[1].

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية، ج(١١)، ص (٤٧٦) وما بعدها، البيان المغرب، ص (٢٧١)، روض القرطاس ص (١٦٨).

وبذلك يكون المأمون قد قضى على الأسطورة التي عششت في عقول المغاربة ما يقرب من مائة واثني عشر عامًا منذ أن أعلن "ابن تومرت" مهدويته. ولعل دفع المأمون إلى إلغاء مهدية "ابن تومرت" ما لاحظه من فتور الناس وسأمهم لمبادئ "ابن تومرت" حيث صارت تلك العقيدة لا تجد صداها في نفوس الناس، وهذا التصرف جعل كثيرًا من الناس يدركون ضعف تلك الدولة في فساد عقيدتها مما أضعف ولاء الكثيرين لها.

٣- ضياع فكرة الدعوة والنموذج الأمثل:

لم تتحقق في دعوة "ابن تومرت" الفكرة الإسلامية الصحيحة كما تحققت في دعوة المرابطين سالفة الذكر حيث بشر الناس بفكر مشوه قد أخذ أغلبه عن المعتزلة والأشاعرة وسمى أتباعه بالموحدين ليميزهم عن المرابطين الذين يأخذون بالفقه من الأحكام بينما الموحدون كانوا يؤولون الصفات والذات الإلهية وبعض آيات القرآن الكريم مما جعلهم ينحرفون عن العقيدة، ثم جاء "عبد المؤمن" ونقل تلك الدعوة على الرغم من التواء منهجها إلى نظام دولة ثم ورثها إلى أبنائه فلم يتحقق النموذج الأمثل للدولة كما ينبغي أن يكون، وبذلك لم تكن دولة الموحدين دولة فكرة أو مبادئ، وقد أطاح بتلك المبادئ ما حدث عند بعض المغاربة فكرة التمييز الذي بسببه قتل الآلاف من الأتباع وزوي الكثيرون من المؤيدين للدولة

٤- صراع الدولة مع الخارجين عليها:

لقد أدى الصراع السياسي الذي استحكمت حلقاته بين أبناء "عبد المؤمن" من جهة وأشياخ الموحدين من جهة أخرى، وهم الذين يمثلون أهل العقد والحل حول توارث الخلافة مما أدى إلى الصراع المستمر بين هاتين الطائفتين "الخلفاء، وأشياخ الموحدين" وترتب على ذلك ضعف الإدارة وفوضويتها وعدم دقتها في كثير من المواقف وخاصة مع الجيش كما لاحظناه في حمل تموين الجيش وتعثر خطوط الإمدادات لطول المسافة بين المغرب والأندلس، كما أن قيام الدولة بردع الثوار المحاربين أمثال ابن غانية، والحفصيين وكذلك ثورات الأندلس وثورات بني مرين في المغرب وبني عبد الواد في تلمسان، كل هذا أرهق دولة الموحدين وأرهق أيضًا جيشها الذي ما فتئ يخرج من معركة حتى يدخل أخرى إلى أن ساءت حالتهم المعنوية والمادية.

الفصل الثالث

شروط التجنيد ونظمه فى الدولتين

أولاً: شروط التجنيد:

عرفنا أن الدور الأول للجيش المرابطي نشأ في تلك الرابطة التي أقامها عبد الله ابن ياسين، وكانت شروط التجنيد في هذا الطور بسيطة تتلاءم مع طبيعة تلك المرحلة. فقد كان غاية "ابن ياسين" هو تجميع عصبية أهل لمتونة تحت لوائه وحشد أكبر عدد ممكن من رجال تلك القبائل وقد اتبع معهم أسلوب الترغيب والترهيب.

وكان لايشترط في مريديه سوى اعتناق الإسلام عن عقيدة ثابتة وإيمان سليم ومعرفة تامة بأوامر الدين ونواهيه، وكان حريصًا على أن ينتقي من هؤلاء المريدين من هم أصفى دينًا وأنقى سريرة وأشد ثباتًا على مبادئه، فإذا ما تم له ذلك انطلق بهذه الصفوة المختارة إلى أتون المعارك بدافع من إيمانهم وتقوى شبانهم وشيوخهم.

وكان جيش الرباط لايلتزم بعدد معين من الأفراد في بادئ الأمر، فكل من دخل في الرباط أصبح بدخوله جنديًا يقع عليه عبء الجهاد في سبيل الله دون أن يلزمه أحد بذلك، فقد سرت فكرة الجهاد في نفوسهم مسرى الدماء في العروق، فكان من العار أن يتقاعد المرابط عن الجهاد وإخوته في الإسلام يقاتلون ويستشهدون، وكيف يتوانى عن الجهاد وهو المرابط الذي أعد لذلك، لذا كان التجنيد في عهد الرباط إلزامًا أدبيًا يدفع المرابط للانتظام في الجيش بدافع من دينه وخلقه وبوحي من هدي فقيههم ومعلمهم لايشترط في ذلك سن معينة للتجنيد أو عددًا محددًا من الجنود وإنما كان كل شيء يتم ببساطة تامة فلم يكن قد استعملوا الدواوين بعد ولم يكن لهذا الجيش ظاهرة مميزة له.

وبعدما تولى "يوسف بن تاشفين" قيادة الجيوش واتسع ملكه في المغرب والأندلس وأقبلت عليه حشود القبائل التي خضعت له، نظم ووضع جيشه،

ووضع الديوان وسجلت فيه أسماء الجند، فمن المحتمل أن يكون قد أخذ بشروط القبول فى الجندية التى حددتها الشريعة الإسلامية وتحدث عنها فقه المالكى، وقد حدد لنا ابن رشد أحد فقهاء الأندلس شروط التجنيد فى ست شروط فقال: «لوجوب القتال ست شروط لايجب إلا بها، متى انخرم منها أحد، سقط وجوبه وهى:

١- الإسلام. ٢- البلوغ. ٣- العقل.

٤- الحرية. ٥- الذكورة

٦- الاستطاعة بصحة البدن وما يحتاج إليه من المال»[١].

أما شرط الإسلام فهو ضرورى لأن العقيدة من أهم أسباب النصر. فالمقاتل بدون عقيدة لايمكن أن يقاتل قتالاً مستميتًا، ولايمكن أن يصمد صمودًا عنيدًا فلابد أن يعى المقاتل تعاليم إسلامه وعيًا كاملاً، حتى تتكون لديه عقيدة يستميت من أجلها.

وشرط البلوغ من أهم شروط التجنيد أيضًا، لأن سن البلوغ معناه اكتمال الفتوة وهى لا تتحقق إلا فى سن الشباب.

وإن كانت المراجع التاريخية لم تمدنا بشيء عن سن المحددة فى القبول بالجندية فى عهدى المرابطين والموحدين إلا أننا سنستطيع أن نستشف تلك السن من تصفحنا للتواريخ العسكرية المعمول بها فى الأمم المعاصرة لهم، مع وضعنا فى الاعتبار أن سن التجنيد مسألة عرفية تختلف باختلاف الأقاليم والبلاد على مدى العصور، فمثلاً فى وقتنا المعاصر يجند الشباب المصرى فى الحادية والعشرين أو العشرين تقريبًا، قد تنقص قليلاً أو تزيد بحسب ظروف المجند وظروف التجنيد، بينما يجند الشباب التركى فى سن السادسة عشرة، وكذلك الحال قديمًا فإن سن التجنيد كانت نسبية تختلف من دولة إلى أخرى ومن عصر إلى عصر[٢].

ولكن من الثابت، أن مرحلة البلوغ هى مرحلة الشباب التى يتحمل فيها المقاتل مقاساة الحروب وأهوالها، وفى هذه المرحلة يميل الشباب لإظهار بطولاتهم فى المعارك ويتفاخرون بها.

---

(١) مقدمات ابن رشد، ص (٢٧٦).

(٢) عبد الرؤوف عون ، الفن الحربى، ص(٨٨).

لقد حرصت كلتا الدولتين المرابطية والموحدية على تجنيد الشباب الذى يتميز بالطاقة البدنية والقدرة على القتال، ويتضح ذلك فى اختيارهم حرسًا خاصة من العبيد السود ومن بعض القبائل الذين كانوا يتميزون بالقوة والخشونة، وقد دربوا أعظم دربة، وزودوا بأجود الأسلحة حتى غدوا قوة ضاربة لها خطرها[1] وكانت هذه القوة أشبه بالقوات الفدائية، تدخل المعركة فى وقت حرج فتغير من مصيرها لما تثيره من فزع ورعب فى قلوب الأعداء، وقد كان هذا الحرس قسمًا من أقسام الجيش فلابد أن تكون نفس المواصفات التى اختير بها هذا الحرس منطبقة على باقى أقسام الجيش وبخاصة على فرق الخيالة، فلابد أن يختار لها صفوة الفرسان المدربة على فنون القتال

وإن لم يكن الفارس شابًا قويًا متميزًا باللياقة البدنية الكاملة، فما يصلح أن يكون فارسًا وقد كان لجيش المرابطين ومن بعدهم الموحدين فرق مدربة من الفرسان الشباب لهم القول الفصل فى أغلب المعارك، وقد عرفت فرسان زناته بشهرتها الواسعة فى فنون القتال

ولم يغفل الخليفة "عبد المؤمن" الموحدى، مكانة الشباب فى جيوشه، فأولاهم اهتمامًا بالغًا، فقد جمع منهم نحو ثلاثة آلاف شاب فى قصره ليعدهم إعدادًا جيدًا فدربهم على ركوب الخيل والرمى والسباحة فى بحيرة صنعها لهم خارج بستانه، مع تدريبات حربية أخرى[2] ليكون منهم قوادًا وجنودًا متمرسين على فنون الحرب وذلك لإيمانه بجدوى الشباب وحيويتهم، فهم أقدر الطوائف المختلفة على فهم الأساليب الحربية الجديدة التى كان معمولاً بها ويميل إليها.

أما الشرط الخاص بالحرية، فقد اختلف فيه الفقهاء فهل يصح تجنيد العبد المملوك التابع لسيده أم لا؟ بعض الأئمة يرونه شرطًا ضروريًا، وبعضهم يسقطه كالشافعى وأبى حنيفة فليس شرطًا متفقًا عليه.

أما بخصوص شرط الذكورة فقد عمل به منذ مجئ العباسيين الذين أبطلوا اشتراك النساء فى الحروب كما كان متبعًا فى العصور السابقة[3]، فحرموا الجيش من عنصر فعال يزيد فى عدده ومعنوياته، وهذا منهم انحراف لايقره الإجماع.

---

(١) الحلل الموشية، ص (١٣). (٢) المرجع السابق، ص (١١٤)

(٣) الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ص (٥٦)

وقد استدل ابن رشد في وجوب الذكورة، هو انشغال المرأة بحق زوجها وما أمرت به من التستر والقرار. فقال الله عز وجل: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ [الأحزاب: ٥٩] وقال عز وجل: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ [الأحزاب: ٣٣]

فابن رشد يرى الجهاد فرض كفاية، ولايجب على أصحاب الأعذار، ولايجب على المرأة لأنها مشغولة بحق زوجها، وحق العبد مقدم على حق الله، كما أنها مأمورة بأن تستر جسمها وتقر في بيتها[1].

وإن كان القتال فرض كفاية يحق للمرأة أن تخرج للقتال بعد إذن زوجها، أو بأخذها معه إلى الجهاد ولايكون عليه ولا عليها من بأس في ذلك، وإذا كانت المرأة بغير زوج تشتغل بحقه، فهي والرجل سواء في وجوب الجهاد.. هذا كله إذا لم يهجم العدو هجومًا شاملاً ويمكن للقادرين على حمل السلاح رده، فإذا كان النفير العام وجب على جميع الناس أن يخرجوا للدفاع عن الحوزة[2].

ويبدو أن دولتي المرابطين والموحدين قد عملتا بتعاليم المذهب المالكي الذي يمثله ابن رشد، فلم نر في المراجع شيئًا يثبت اشتراك نسائهم في القتال إلا في حالات قليلة وتعد حالات فردية نادرة.

ومن أمثلة ذلك ما روى عن الفتاة المرابطية «فانو بنت عمر بن ينتيان» وهي فتاة بارعة الحسن والجمال وافرة الجرأة والشجاعة كانت تقاتل الموحدين أمام قصر القصبة في ثياب فارس أثناء حصار الموحدين لمراكش، وكان الموحدون كما يقول البيذق يتعجبون من قتالها، ومن شدة ما أعطاها الله من الشجاعة ولم يعرفها الموحدون حتى قتلت وتبين أنها امرأة في ثياب رجل»[3].

وفي أخريات دولة الموحدين سمعنا عن اشتراك النساء في معركة دارت بين بني مرين وبني عبد الواد سنة ٦٦٦هـ في صراعهم حول اقتسام بلاد المغرب واقتطاعها

---

(١) مقدمات ابن رشد، ص (٢٧٦).

(٢) فتح الباري البخاري ٦/٥٧- ٦٠ طبعة بولاق ١٣٠٠هـ.

(٣) أخبار المهدي بن تومرت، ص (١٠٣)، . نقلاً عن عنان عصر المرابطين، ج(١) ص (٢٦٣).

من أيدى سلطان الموحدين «أبى دبوس» التى أفلت دولة الموحدين على يديه، وقد نشبت المعارك بين الفريقين عنيفة طاحنة وقد مثلت النساء فى الهوادج والمراكب سافرات بين الفريقين يحرضن الرجال على القتال وقد انتهت المعركة بانتصار بنى مرين وهزيمة بنى عبد الواد[1].

ومن هذا الاستعراض لشروط التجنيد الإسلامية نرى أنه كان معمولاً بها فى دولتى المرابطين والموحدين شأنهم فى ذلك شأن الدول الإسلامية. ومن نظام القبول فى الجندية عند المسلمين أنه من أراد الانتظام فى الجندية يقدم طلباً إلى صاحب «ديوان الجند» فهو ينظر فى أهليته للتجنيد ولايكون أهلاً لذلك إلا إذا كان حراً بالغاً، سليماً، مقداماً، فإذا استوفى هذه الشروط قبل ودون اسمه فى دفتر الجيش مع سنه وطوله ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به من غيره حتى لا يحصل لبس فى الأسماء عند استدعائها للمعارك[2].

ومما هو جدير بالذكر أن نشير إلى أنه يوجد تشابه كبير فى نظم التجنيد بين دولتى المرابطين والموحدين ويمكن معرفة ذلك على النحو التالى:

١ - جيش المرابطين فى مرحلة الرباط كان لايشترط فى الانضمام إليه سوى اعتناق الإسلام عن عقيدة ثابتة وإيمان سليم ولايلتزم بعدد معين من الأفراد، فكل من دخل الرباط أصبح بدخوله جندياً من جنود المرابطين، وكذلك كان جيش الموحدين فى مراحله الأولى إبان نشأته فى رابطة ابن تومرت والمعروفة بتينمل إذ اشترط فى المريدين الذين يريدون الانضمام إلى رابطته الإسلام مع إيمان سليم بتعاليم الدين مع تشبع كامل بدعوة ابن تومرت التى يوجب على أتباعه الإيمان بمهدويته وبأنه الإمام المعصوم كما كان يشترط فى المريد توافر الشجاعة والإقدام واللياقة البدنية بغض النظر عن سن أو شروط أخرى لأنه كان فى حاجة إلى تزايد عدد أتباعه.

وقد ركز ابن تومرت على عقيدة التوحيد كشرط أساسى لمن ينضم إليه وقد وضع لهم كتباً يشتمل على كل تعاليمه وطالبهم بحفظ صيغة ذلك التوحيد إذ

(١) ابن خلدون، ج(٧) ص (١٨٠)

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى، جورجي زيدان، ج(١) ص (١٤٤)

يقول: من لم يحفظ هذا التوحيد فليس بمؤمن وإنما هو كافر لاتجوز إمامته ولاتؤكل ذبيحته» فصار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن الكريم وبهذا يكون قد أخضع المصامدة وبلغ من نفسه مبلغًا عظيمًا إلى درجة أنه لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لقام بتنفيذ ذلك[1].

وإن كان ابن ياسين بدا متشددًا في اختيار مريديه بما كان يجريه عليهم من الحدود وتطهير النفس كشرط لدخولهم الرباط، فإن ابن تومرت قد غير من هذه السياسة حيث لجأ إلى سياسة اللين لاجتذاب أنصاره من المرتضين وغيرهم، فلم يشترط تطهير المريد لإقامة الحدود عليه بل أمر أتباعه بأن يهتدوا في نشر الدعوة بحكمة اللين والحسنى، ومن هنا انهالت عليه حشود المصامدة لتنتظم في رابطته، ولكنه بعد ذلك لجأ إلى سياسة العنف بعدما توافرت لديه الحشود إذ لمس من بعض أفرادها تقلبًا وانحرافًا فأمر بإجراء التمييز كما فعل قبيل معركة البحيرة وأعدم منهم الآلاف سماهم «أهل التخليط» كما عرفنا سابقًا.

فمن الملاحظ هنا أن ابن ياسين داعية المرابطين قد استخدم شدته في بادئ الأمر حتى يستقر وضعه ويضمن ولاء أنصاره له وتمسكهم بدعوته، ولاشك أنه كان تصرفًا حميدًا إذ أنه ضمن ولاءهم له ولدعوته أمدًا طويلاً حتى نهاية دولته، أما ابن تومرت فقد استخدم الشدة بعد مرور المراحل الأولى من قيام دعوته فشعر الموحدون بتغير حاد في طبيعة داعيتهم فحنقوا عليه وعلى دعوته وضمروا له الكره الشديد بدليل هزيمتهم الساحقة في معركة البحيرة ولم تكن هذه الهزيمة إلا من جراء حركة التمييز الدموية التي سبق الحديث عنها.

٢- بعد موت الداعيتين ابن ياسين، والمهدي ابن تومرت تحولت الدعوة إلى ملك دنيوي على يد كل من يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وعبد المؤمن ابن علي مؤسس دولة الموحدين، واتخذ كل منهما الدواوين المشرفة على الجيوش والمنظمة لأحوالها المختلفة وأخذت الدولتان بشروط القبول في الجندية كما أوضحنا سابقًا.

---

(١) المراكشي، المعجب، ص (١٢٣).

ثانيًا: نظام التجنيد الجبري والتطوعي:

كان التجنيد في الطور الأول لقيام دولتي المرابطين والموحدين إلزامًا أدبيًا كما قلت سابقًا فكان كل من دخل في رابطتي الداعيتين عُدّ جنديًا ومن ثم يتجه إلى جهود بدافع من نفسه لنيل إحدى الحسنيين، فقد كان لتوجيه الداعيتين أثر عميق في دفع المريدين نحو الجهاد، ويكفينا في هذا المقام قول ابن تومرت عند إثارة مريديه للقتال "أما على الأرض من يؤمن إيمانكم وأنتم العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام "لاتزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى بن مريم ولايزال فيكم الأمر إلى قيام الساعة"[1].

ألا يكفي مثل هذا القول في إلهاب حماس مريديه واندفاعهم جميعًا للقتال خشية أن يقع أحدهم في معرة التخلف ودائرة النفاق؟ لذا لا نعجب إذا بدأت جيوش المرابطين والموحدين بمجموعة قليلة من الأبطال الذين آمنوا بالدعوة ثم ارتفع عددهم حتى وصل إلى عدة آلاف، وكانوا جميعًا جنودًا محشودة للقتال وقد دفعهم جميعًا حبهم وإجلالهم لداعيتهم والرغبة الصادقة في نيل ثواب الله، وما كان هذا إلزامًا عليهم بقدر ما كان دافعًا عقديًا يجعل الرجل منهم يحمل روحه على كفه في سبيل الذود عن عقيدته.

وبعد اتساع ملك هاتين الدولتين في المغرب والأندلس تطلب الأمر تنظيم تلك الجيوش وتجهيزها بصورة جيوش دائمة مستعدة لتوجيهها للقتال في أي جبهة يتطلبها الأمر، فكان من الضروري أن تتوفر لديهم جنود نظامية تمتهن مهنة الجندية ويتقاضون رواتب شهرية من الديوان، ومن هنا ظهر نظام الحشد الجبري أو التعيين إلى جانب النظام التطوعي، وليس هذا نظامًا جديدًا من ابتكارات المرابطين والموحدين بل كان نظامًا متبعًا لدى دول الإسلام سواء في المشرق أو المغرب من قبل، ولكي ندرك هذين النظامين سنتحدث عن كل منهما بصورة مختصرة.

أ- نظام الحشد الجبري: والمعينون بهذا النظام هم الجند النظاميون والمسجلة أسماؤهم في ديوان الجند ويصرف لهم عطاؤهم ورواتبهم من بيت المال فوق م

---

(1) المراكشي، المعجب، ص (١٨٨)

يصرف لهم من أسهم الغنائم، وهؤلاء الجند بطبيعة الحال موقوفون لأعمال الجندية ويحرم عليهم الاشتغال بغيرها.

ومما هو جدير بالذكر أن دولة المرابطين والتي قامت على فكرة الجهاد قد سخرت كل مواردها وجندت كل طوائفها لمعركة الجهاد وهو ما يطلق عليه الحشد الحربي إذ حشد المرابطون أعدادا كبيرة من أهل المغرب غير صنهاجة من البرانس والمصامدة ليقفوا بجانبهم في معارك الجهاد بالأندلس وليتخلص لهم المغرب من تقلب وتمرد هذه القبائل عليهم. ولما فتحت الأندلس رابط فيها جيش مرابطي مقيم قوامه سبعة عشر ألف فارس حسب الأجر يقطعون في المدن بدون مقابل على نفقة بيت المال»[1].

وبجانب الجند النظامي الذي يتقاضى رواتبه من بيت المال كان يوجد نظام الإقطاع في دولتي المرابطين والموحدين فكان أمراء الإقطاع يقطعون أقاليم السلطنة وأراضيها للإشراف عليها والإفادة بدخلها وإعداد الجند منهم وكان من مهامهم تجهيز عدد معين من الجند بحسب قيمة إقطاعاتهم للاشتراك في الحروب دفاعا عن السلطان وعن دولته، وإذا مات هذا الأمير أو عزل كان السلطان وحده هو صاحب الحق في تعيين بدله[2].

ومما يؤكد هذا القول أنه في سنة ٥٢٣هـ عندما علم علي بن يوسف بخروج ابن ردمير لغزو بلاد المسلمين قسط على الرعية مجموعة من السودان يغزون مع عساكر المرابطية وكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم وسلاحهم ونفقاتهم يخرجون ذلك من أموالهم ففعلوا[3].

وكانت هذه الضياع والقرى التي يقطعونها هي بمثابة الأعطيات الجارية والرواتب على كبار القواد من المرابطين وللأشياخ الكبار من كبار الموحدين وقد نص على ذلك «القلقشندي» حيث قال: «إن للأشياخ الكبار الإقطاعات الجارية عليهم، لكل واحد منهم في كل سنة عشرون ألف مثقال من الذهب يأخذها من قبائل

(١) حسين مؤنس، ص(٥٧)، المقري، نفح الطيب، ج(١) ص (١١٩).

(٢) حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج(١) ص (١٣٨ - ١٦٤).

(٣) نظم الجمان، لابن القطان، ص (١٠٩).

وقرى وضياع وقلاع ويتحصل لهم من القمح والشعير من تلك البلاد نحو عشرين ألف وسق[1]

وبناء على ذلك مسح «عبد المؤمن بن علي» أراضي مملكته ثم فرض الحشد الجبري على كل قبيلة عليها أن تقدم ما تجود به من رجال أو بحارة أو خيل، فألزم أهل الثغور أن تقدم البحارة والسفن والمناطق الصحراوية الغنية بالخيل أن تقدم الخيل والفرسان، ثم فرض على الولايات الأخرى أن تقدم الجند المشاة كل بعدد محدد وحسب إمكاناتهم[2].

وقد حرص المرابطون على رعاية أسر شهدائهم ورعاية أهل المحارب في غيبته والإنفاق عليهم من بيت المال، وقد ورد ذلك على لسان علي بن يوسف في رسالته التي قرع فيها قادته وجنده عقب هزيمتهم في أراضي بلنسية (أن من أصيب منكم في حرب أو ابتلي بطعن أو ضرب خلفناه في الأهل والولد ونعده الأثرة والكرامة يدًا بيد فاختاروا لأنفسكم وأعقابكم»[3].

ب- نظام التطوع: المتطوعون هم الذين يلحقون بالجيوش من أهل الأندلس والمغرب عند الجهاد ثم يسرحون وقت السلم، وحظهم من الجهاد هي أسهمهم فقط، ولهم أن يعملوا بمهن الأخرى وقد كان يلحق بالجيوش المرابطية والموحدية أعداد هائلة من هؤلاء المتطوعين تعد بالآلاف، تهرع للقتال والانضمام للجيوش بمجرد سماعهم لنداء الجهاد «ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين، على جهات سمعت منادينا، وتبعت هادينا وانقادت وراءنا أعداد وأمداد، برزوا من كمون»[4] وقد كان للقوات المتطوعة قائد يقودهم في المعركة وكان موضعها غالبًا في مقدمة الجيوش بينما كان أغلب القوات النظامية من المرابطين أو الموحدين يشكلون باقي أجنحة الجيش.

---

(١) صبح الأعشى، ج(٥) ص (٤٢٠)
(٢) روض القرطاس، ص(١٢٩)، أشباخ، تاريخ المرابطين، ج(٢) ص ٢٤٧
(٣) منقولة عن عنان، عصر المرابطين والموحدين، ج(١) ص (٥٤٦)
(٤) رسالة الأمير تميم في فتح أقليش إلى الأمير علي بن يوسف نقلا عن عنان، عصر المرابطين ج(١) ص (٥٣٣)

ثالثًا: نظام تسريح الجند:

من المعروف فى العرف العسكرى أن نظام التسريح نوعان: تسريح مؤقت يهدف إلى إراحة الجند لاستئناف القتال، وتسريح نهائى ينتهى به مدة خدمة الجندى فى الجيش. أما النوع الأول وهو التسريح المؤقت فقد كان معمولاً به عند العرب، منذ أن سنه عمر بن الخطاب، فقد أرسل كتبه إلى القواد والولاة بألا يجمروا الناس فى ثغورهم، وألا يطيل مدة غيبتهم فى غزواتهم حتى يأمن الفتنة عليهم، وعلى نسائهم ويحقق العدالة بينهم، فكان الغازى لايمكث فى الغزو أكثر من أربعة أشهر ثم يستقدم ويرسل مكانه آخر، وكان يسمى الجيش الجديد بجيش البدال[1].

وقد كان هذا النظام معمولاً به فى الأندلس قبل مقدمها للمرابطين والموحدين، فقد كان الخليفة يعقد لواءين لواءً غازيًا، ولواءً آخر مقيمًا، وكان رزق الغازى بلوائه مائتى دينار ويبقى المقيم بلا رزق ثلاثة أشهر، ثم يدال بنظيره من أهله وغيره[2].

ومن الطبيعى أن تأخذ الدولتان المرابطية والموحدية بهذا النظام اقتداء بالرسول ﷺ وخلفائه الراشدين الذين حرصوا على توفير الراحة اللازمة لجنودهم حتى تتجدد طاقتهم.

وقد يتطلب الأمر ذلك؛ فمعارك الجهاد بالأندلس متواصلة وثغور المغرب والأندلس كثيرة ومتعددة تحتاج إلى مرابطين بها على الدوام.

أما عن التسريح النهائى، وانتهاء مدة الخدمة، فلم نقع فى المراجع على سن محددة لها، ولكن الحكم فيها هو بلوغ الجندى النظامى حد الشيخوخة التى تنعدم فيها اللياقة البدنية والمقدرة على تحمل مشاق الحروب، وكان كل من بلغ حد الشيخوخة يسرح من الخدمة العسكرية، ليفردوا مكانًا لجنود آخرين يتميزون بالكفاءة العسكرية.

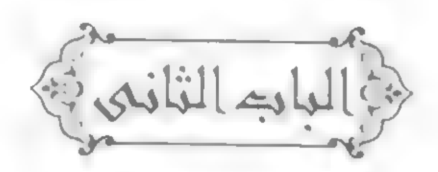
هذا بالنسبة للجنود النظاميين الذين سجلوا فى سجلات الجيش بالديوان، أما بخصوص المتطوعة، فقد كانوا يسرحون بعد انقضاء الغزو مباشرة، ليستريحوا ويباشروا أعمالهم المدنية.

---

(١) عبد الرؤوف عون، الفن الحربى، ص (٨٩).

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة، ج(١) ت عنان ص (١١٠).





تشكيلات الجيوش وأنظمتها وشئونها الإدارية

الفصل الأول: صنوف الجيش وتشكيلاته

الفصل الثانى: النظام الدائم لكتائب الجيوش

الفصل الثالث: الألبسة والألوية والرايات

الفصل الرابع: الشئون الإدارية لجيوش الدولتين



الفصل الأول

صنوف الجيش وتشكيلاته

كانت الجيوش المرابطية والموحدية تتألف من عدة فرق تضم الفرق النظامية والمتطوعة وتتألف هذه الفرق من الرجالة المشاة ويتسلحون بالرماح والحراب والتروس، ومن الرماة من يتسلحون بالسيوف والأقواس والتروس والنشاب، ولكن فرقة من فرق الجيش فصيلة تقذف النفط يعرف رجالها بالنفاطين. كما تحوي الجيوش على فرق من البنائين والعبارين، وهم رماة الحجارة من المقالع. هذا بالإضافة إلى فرق من الفرسان المهرة.

وسوف نتحدث في هذا الفصل عن بعض هذه الفرق وعن مصادرها المختلفة وعن كيفية معاملتها من قبل المرابطين والموحدين.

أولاً: صنوف الجيش المرابطي

فيما يختص بكتائب الجيش المرابطي فإنه كما نعرف كان مقسماً إلى عدة فرق، لكل فرقة قيادتها الخاصة، ومكانتها في المعركة ولها أعلامها المميزة لها، ويبدو أن هذا التقسيم يخضع لاعتبارات قبلية محضة قد لوحظت في معاملة المرابطين لهذه الفرق، فقد كان المرابطون ينظرون إلى الفرق الأخرى على أنهم في مرتبة أدنى منهم، وقد ظهر ذلك واضحاً في تسميتهم لهذه الفرق باسم الحشم أو الأتباع[1]، كذلك لوحظ من معاملتهم لهذه الفرق في المعارك، فقد كانوا يحشدون في مقدمة الجيوش لكي تتحمل الضربة الأولى ثم تتقدم الفرق اللمتونية لتجني ثمار الظفر بعد أن تكون فرق الحشم قد نالت من العدو وأنهكته، وإليك نبذة عن كل فرقة من هذه الفرق.

١- فرقة السودان:

لقد استعان يوسف بفرق من عبيد الصحراء من غانة، وذلك ليتخذ منها حرسه الخاص، وقد زودهم بالسلاح والخيل ودربهم على جميع فنون القتال، وكانت قوة

---

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ج(١) ص(٢٩٣)

هذه الفرقة تقدر بالخمس من العبيد مسلحين بدرق اللمط وسيوف الهند، ومزاريق الزان وقد أثبتت هذه الفرقة كفاءة نادرة في حروبها وولائها للمرابطين، فستكثروا منهم بدليل أن من اشترك منهم في معركة الزلاقة كان زهاء أربعة آلاف[1].

وكانت هذه الفرقة تدخل المعركة في لحظتها الأخيرة لانتزاع النصر من الأعداء فيتركون مكانهم في الساقة وينقضون عليه لإحداث خلل في صفوفه، ويحملونهم على الفرار، وقد وضح ذلك جليًا يوم الزلاقة في الأندلس حينما أمرهم "يوسف بن تاشفين" في اللحظة الحاسمة بالانقضاض في المعترك فاستحثهم وطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها، وأحجمت عن أقرانها، وقد أدرك «الأذفونش» عبد أسود لصق به وقبض على عنانه وانتضى خنجرًا أثبته في فخذه، فهتك حلق درعه وهبت ريح النصر[2].

ويبدو أنه بمرور الوقت صارت لهذه الفرقة أهمية خاصة لا يخلو منها جيش مرابطي تكون شبيهة تمامًا بالفرق الخاصة في عصرنا الحالي تكسب الجيوش منعة وقوة، ومما يثبت ذلك أنه في سنة ٥٢٣هـ عمم يوسف بخروج "ابن ردمير" إلى بلاد المسلمين فقسط على الرعية سودانًا يغزون في العساكر[3].

بل كان في جيوش المرابطين في آخر عهدهم عدد كبير منهم بدليل أنه عند هزيمة هذه الجيوش من الموحدين في «أغمات» قتل منهم ما يقرب من ثلاثة آلاف أسود[4].

٢- فرقة جند الصقلب من النصارى:

وقد اتخذ «يوسف بن تاشفين» أيضًا فرقة خاصة لحرسه من النصارى وقد نمت هذه الفرقة في عهد ولده «علي» حتى أصبحت تؤلف جانبًا كبيرًا في الجيش المرابطي من النصارى المرتزقة، وقد اشتركت هذه الفرقة مع جيوش المرابطين في معارك عديدة.

---

(١) نفح الطيب، ج(٢) ص(٥٣٠)، دوزي، ملوك الطوائف، ص(٢٨٦)

(٢) نفح الطيب، ج(٢) ص(٥٣٠)

(٣) نظم الجمان، ابن القطان، ص(١٠٩)

(٤) المصدر السابق، ص(١١٦، ١١٧)

ويرجع تاريخ هذه الفرقة من النصارى إلى زمن بعيد منذ فتح الأندلس فهم الذين بقوا بعد الفتح تحت حكم الدولة الإسلامية وكانوا يكونون أقليات كبيرة فى القواعد الأندلسية الكبيرة، لذا سموا بالنصارى المعاهدين. وقد كانوا يتمتعون فى بعض الأحيان بنفوذ قوى، واحتل كثير منهم مناصب هامة فى الحكومة والجيش وخاصة فى أخريات الدولة المرابطية.

وقد أشارت بعض المراجع إلى أن أول من استخدم هذه الطائفة فى الجيوش المرابطية هو «على بن يوسف»[1] ولكن يبدو أن أول من استخدمها «يوسف بن تاشفين» خصوصاً بعد ما شاهد من كفاءتهم فى خدمة ملوك الطوائف فمن المحتمل أن يكون قد جلب عدداً منهم بعد أن زال ملكهم، أو ربما وفدت عليه هذه الطائفة للعمل فى خدمة الجيش المرابطى على غرار الجيوش المرتزقة، أو وقعوا فى أسر قواد المرابطين. وقد أشار إلى ذلك «ابن القطان» فقد كان الأمير المرابطى «على بن ميمون» قائد البحر، يرسل الأسرى إلى مراكش ليعملوا تحت لواء المرابطين[2].

وقد ترك المرابطون للنصارى حرية العقائد والشعائر والاحتفاظ ببعض القوانين القوطية، ولهم أساقفتهم وقضاتهم الخاصة بهم.

وقد كانت هذه الطائفة شوكة فى ظهر الدولة المرابطية يحاولون إحداث الشغب بكل الوسائل ويشجعون كل خلاف وثورة، ولم يدخروا وسعاً فى الكيد للمسلمين والتآمر على سلامة أمن الدولة، ومداخلة لنصارى الإسبان، وتحريضهم عليها ومعاونتهم على الإيقاع بها فى كل فرصة سانحة، وقد ظهرت خيانتهم ذروتها حينما عملوا على استدعاء ملك «أراجون» ألفونسو المحارب لغزو الأندلس، ووعده بالانضمام إلى صفوفه، وتموين جنوده، وقام ألفونسو بغزوته مخترقاً بلاد الأندلس فى عهد «على بن يوسف» يعبث فى سائطها، والمعاهدون يهرعون له من كل ناحية، وترتب على ذلك أن عمل «على بن يوسف» على تشريد معظم النصارى وتغريبهم إلى المغرب ودخل بعضهم فى جيشه، ووزع الباقى على مدن المغرب وأفريقية[3]

---

(١) الحلل الموشية، ص(٦١)، المقرى، نفح الطيب، ج(١) ص(١٢٢)

(٢) المصدر السابق، ص(٩٦). (٣) الحلل، ص(٦٦)، أشباخ، ج(٢) ص(٢٣٨).

وقد استعمل «على بن يوسف» هذه الطائفة من النصارى فعين منهم فى بلاطه فرسانا، وأنشأ أيضا منهم فرقة خاصة فى جيشه أسندت إليه خدمات طيبة فى حروبه ضد الموحدين بعد أن أعلنوا توبتهم وعاهدوه على الإخلاص. وقد كان قائد هذه الفرقة رجلاً منهم يسمى «الربرتير» وهذا الاسم يشير إلى منصب قائد الروم[1]، وهذا القائد فارس قطلونى أسره قائد الأسطول المرابطى «على بن ميمون»، وأتى به إلى مراكش ودخل فى خدمة المرابطين والموحدين[2]

ويبدو أن المرابطين قد أحسنوا استخدام هذه الطائفة من الخدم، وقد أغدق عليهم «على بن يوسف» الهبات والأعطيات ليتخذ منهم جند حراسته فى مدن المغرب كما قلنا سابقا، فقد كانت خطته أن يستعين بالنصارى فى ضبط أمن بلاد المغرب لأنهم أقل عرضة للإغراء أو تدبير المؤامرات مع أهل المغرب ثم يستعين بأهل المغرب فى مواصلة حركة الجهاد بالأندلس ليأمن فتنتهم وتقلبهم عليه، وهذه وجهة نظر صائبة ولا شك[3].

٣- فرق الأندلس:

منذ أن افتتح المرابطون بلاد الأندلس عمدوا إلى تجنيد أهلها فى جيوشهم ليشاركوهم معارك الجهاد ضد النصارى، وقد استطاع المرابطون استقطاب أعداد كبيرة من القادة والجند الذين عملوا فى جيوش ملوك الطوائف بعد انتهاء ملكهم. ومنذ ذلك الحين أصبحت فرق الأندلس قسمًا هامًا من أقسام الجيش المرابطى لها مكانتها وأعلامها المميزة لها عن سائر جند المغرب. وكانت طريقة حشدهم للقتال أن يخرج والى كل مدينة على رأس جيش من ولايته ويحمل علمها الخاص.

ويؤلف هذه الفرق الأندلسية جناحًا خاصًا بها عند التعبئة للقتال فكانوا أحيانًا يحشدون فى مقدمة الجيش وذلك لأنهم أعلم بمسالك بلاد الأندلس وأدرى من المرابطين بأساليب قتال النصارى، وأحيانًا يحشدون فى القلب يحفون بقائد الجيش رافعين راياتهم الحمر[4].

---

(١) نظم الجمان، ص(٩٦)

(٢) حسين مؤنس، مجلة معهد الدراسات بمدريد مجلد(٢) سنة ١٩٥٥م

(٣) قيام دولة المرابطين، ص(٣٨١). نفح الطيب... ج(٢) ص(١٢٢)

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث ت العبادى، ص(٢٤٢)

وقد عمل المرابطون هذه الجيوش معتمدة قبلية فيها شيء من العصبية إذ كانت قيادتها الغالب وقفًا على القادة والأمراء المرابطين ولا سيما ذوي القربى منهم مثل الأمير «سير بن أبي بكر اللمتوني» والي إشبيلية، و«محمد الحاج» والي بلنسية، والأمير «أبو محمد مزدلي» والي قرطبة، وهو من أبناء عمومة يوسف وغيرهم كثيرون[1].

وقد استفادت الجيوش المرابطية من جند الأندلس استفادة عظيمة حيث أخذت عنها بعض المؤثرات الحضارية وتخلت عن بعض صفاتها الصحراوية القديمة، وقد ظهر ذلك واضحًا في أنظمة الجيوش وطرق تعبئتها وتسليحها وأشكال الثياب وأساليب القتال.

٤- فرق الإبلية:

كان المرابطون في بادئ الأمر يعتمدون على الرجالة وعلى الفرق الإبلية التي تقاتل على الإبل أكثر من قتالها على الخيل[2]، وبمرور الوقت تمدينت لمتونة بعد احتكاكها بقبائل المغرب والأندلس من ناحية أخرى، فأصبحت جيوش المرابطين تضم طائفة من الفرسان المشجعان، ومع أن المرابطين قد توسعوا في تجهيز طائفة الفرسان إلا أن «يوسف بن تاشفين» أبقى على نظام ووجود الفرق الإبلية حيث كان يستعين بها في معاركه في الأندلس، فكان يتخذ منها صفوف أشبه بالسياج تحدق بمعسكره وتحف به[3] فتحمي مؤخرة الجيش وتؤمن طرق مواصلاته، وأحيانًا يكون لهذه الإبل دور خطير في المعركة إذا كانت تتقدم الصفوف وقد استثارها الجند تثير الرعب في نفوس الفرسان كما كانت تخشاها الجياد وتنفر منها مذعورة، ففي معركة الزلاقة التي خاضها المرابطون في الأندلس (أمر يوسف بعبور الجمال فعبر منها أعداد غفيرة ارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملاً قط ولا خيلهم ألفت رؤيتها، فصارت الخيل تجمح من رؤية هذه الجمال وتفزع لرغائها)[4] وكان فرسان المرابطين يتخذون أحيانًا من هذه الجمال سورًا تحميهم من

---

(١) روض القرطاس، ص(٩١)، ابن خلدون ج(٦) ص(١٨٥).

(٢) الطرطوشي، سراج الملوك، ص(١٧٩).

(٣) المقري، نفح الطيب، ج(٢) ص(٥٢٦)

(٤) المصدر السابق ونفس الصفحة.

سهام الأعداء ويندفعون من خلال صفوفها فيكرون على فرسان الأعداء ثم يعودون ليستتروا بها.

كما كانت تستخدم هذه الإبل بجانب خوضها القتال فى حمل الأقوات والخيام وراء الجيش ثم يتبعها الرعاة وهم يقودون قطعان الماشية من كل صنف[1].

٥- فرق الفرسان:

كان جيش المرابطين فى مراحله الأولى يعتمد على فرق من الإبل كما قلنا سابقًا وتشير المراجع إلى أن يوسف بن تاشفين عندما فتح بلاد المغرب وخطط مدينة مراكش شرع فى تأسيس جيشه وتنظيمه على أسس حديثة كان منها إنشاء فرقة من الفرسان المدربة تحل محل فرق الإبلية، وبمرور الوقت صارت هذه الفرقة عماد الجيش المرابطى وقد تولاها يوسف بن تاشفين برعايته حتى قيل إنها بلغت فى عهده نحو مائة ألف فارس من مختلف القبائل[2].

وهذا الرقم وإن كان فيه شيء من المبالغة والغلو إلا أنه يدل على أن جيش يوسف قد استجاب لدواعى المرحلة الجديدة التى خاضها على بطاح أرض المغرب فترك طابعه البدوى إلى طابع مغربى متمدين، إذ تبين لهم أن فرق الإبل لا تستطيع أن تقف أمام فرق الخيالة والفروسية من قبائل زناتة، فكان لزامًا على يوسف أن يكيف جيشه ويطوره لملاقاة هذه القبائل.

ويبدو أن يوسف بن تاشفين استعان بالفرسان الزناتيين على نطاق واسع فبعد أن خضعت له كثير من القبائل الزناتية أغرى يوسف أبناءها من الفرسان بالانضمام إلى جيوشه وأغدق عليهم الأموال والهبات واستعان بخبرتهم فى تكوين تلك الفرقة[3].

٦- فرق المشاة من الرماة وغيرهم:

ضم الجيش المرابطى أعدادًا هائلة من الجند المشاة المترجلين بالرماح والحراب والتروس من مختلف القبائل، وتشير المراجع إلى أن يوسف بن تاشفين استعان

---

(١) أشباخ، تاريخ الأندلس ت عنان ج(٢) ص(٢٣٦)

(٢) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص(٩١)

(٣) محمد ... ص(٩٦)

الفرق من الرماة بأسلحتهم ونشأت ذاع صيتهم فى شدة الفتك وإتقان الرماية[1].
ويبدو أن هذه الفرق كانت من بلاد المغرب أو من السودان الجنوبى التى ألفت استخدام هذا النوع من السلاح فى حروبهم، فمن المعروف أن سلاحهم كان فى أول الأمر خفيفًا يتناسب مع طبيعتهم البدوية البسيطة فكانوا يتسلحون بدرق اللمط والقنا الطوال والمزاريق المسنونة[2]، قد يحمل الواحد منهم عدة منها ويضرب بها فى آن واحد ويضرب بها فلا يخطئ.

ثانيًا: صنوف الجيش الموحدى

إن هيكل دولة الموحدين كان قريبًا من هيكل دولة المرابطين السالفة الذكر إذ كانت تقوم على أسس قبلية فى الأمور المدنية والعسكرية على السواء، وكانت القبائل التى يتكون منها هيكل دولة الموحدين كما قلنا ينتمى معظمه إلى قبيلة مصمودة بما فيها من القبائل السبع التى سبقت القبائل إلى مبايعة المهدى ثم تسمت بالموحدين وهذه القبائل هى: «هرغة - قبيلة المهدى - وكانت قليلة العدد[3]- قبيلة كومية وهى قبيلة عبد المؤمن - قبيلة تينمل - قبيلة هنتاته - قبيلة حنفيسه - قبيلة جدميوه» ثم انضمت إليهم مجموعة أخرى من قبائل المصامدة القوية مثل: «مسكورة ودكالة وهيلانة وحاحة» وغيرها.

وقد استأثرت هذه القبائل بالمناصب الكبرى والقيادة فى الجيش بينما بقية القبائل كانت أتباعًا لهم، ويكفينا فى ذلك أن نلقى نظرة سريعة إلى تقسيم المهدى لحكومته فيتضح طبيعة ذلك النظام الطبقى الذى هو عماد وأساس الدولة الموحدية، وقد أفرد ضمن هذه الطبقات طبقة للجند وهم الذين ينتمون إلى القبائل الأخرى التى لم تسبق إلى مناصرة المهدى[4].

ثم جاء «عبد المؤمن بن على» وقصر هذه الطبقات إلى ثلاث طبقات أو أصناف بعدما كان قد قسمها المهدى إلى أربع عشرة طبقة. وهذه الأصناف الثلاثة هى:

---

(١) الحلل الموشية، ص(١١).

(٢) الطرطوشى، سراج الملوك، ص(١٧٩)، البكرى، المغرب، ص(١٦٦).

(٣) المراكشى، المعجب، ص(٤٢٣)

(٤) الحلل الموشية ١ ص(٧٩، ٨٠).

الصنف الأول: من بقى على قيد الحياة من صحابة المهدى العشرة وأهل الخمسين وأهل السبعين والسابقين الأولين، أو ممن صلوا خلف المهدى دون التقيد بقبيلة معينة.

الصنف الثانى: الموحدون الذين دخلوا فى الدعوة الموحدية بعد موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ وحتى موقعة وهران ٥٣٩هـ دون التقيد بقبيلة معينة.

الصنف الثالث: وهم الذين دخلوا فى زمرة الموحدين ابتداء من موقعة وهران إلى ما لا نهاية دون التقيد بقبيلة معينة أيضًا[1].

وبهذا التقسيم يكون عبد المؤمن قد كسر شوكة القبائل سياسيًا وقوض النظام الطبقى الذى وضعه المهدى ولكنه تقريبًا أبقى عليه من الناحية العسكرية.

وللموحدين جند من سائر أصناف الناس من العرب والغز والأندلس والروم ومن قبائل المرابطين وغيرهم. وهذه نبذة مختصرة عن كل صنف:

١- الحرس الخليفى:

كان الحرس الخليفى يتألف من العبيد على غرار حرس الأمراء من المرابطين، وفى أواخر عهد الموحدين كان يتألف من الأندلسيين النصارى الإسبان، وقد أسدت هذه الفرقة خدمات جليلة للموحدين فى معظم معاركهم إذ كانت تضطلع بدور الحماية الحصينة لقبة الخليفة الموحدى إذ ما شهد الحرب بنفسه، ففى موقعة «العقاب» التى هزم فيها الناصر الخليفة الموحدى إذ ضربت قبته الحمراء فوق ربوة عالية تتوسط السيط الذى تحتله الجيوش الموحدية ثم دارت العبيد وهم أغلبية الحرس الخليفى حول القبة من كل ناحية وكلها مزودة بالسلاح والعدة، كما ضرب فى نفس الوقت حول القبة الخليفية سياج من الأعمدة وعدة من السلاسل الحديدية الضخمة، وقد وقف جند الحرس وقد شهروا حرابهم فى تجاه العدو فكانت سدًا منيعًا دون اختراقه، وجلس الناصر فى قبته مستندًا إلى درقته ومعه أشياخ الموحدين وربطت فرسه مسرجة أمامه ثم وضعت السناجق والبنود والطبول أمام العبيد تحت إمرة الوزير «أبى سعيد بن جامع»[2].

---

(١) انظر: رسالة الثامنة عشرة من رسائل موحدية ـ ليفي بروفنسال، ص(٥٣، ٥٤).

(٢) روض القرطاس، ص(١٥٩)، أشباخ: تاريخ الأندلس ليفي بروفنسال، ص(٣٦٧).

٢- الجند الصقلب:

وهم الرقيق من أوروبا الذين كان يشتريهم المسلمون ليزيدوا بهم جيوشهم عددا وقوة أو ليكونوا خدما داخل القصور، وقد بلغوا فى القرن الحادى عشر الميلادى عددا هائلاً فكان فى قرطبة منهم فى بعض الحالات خمسة عشر ألفا أو يزيدون، وكان يؤتى من بلاد أوروبا ومن شواطئ البحر الأسود[١].

كما استعانت دولة الموحدين فى آخريات حياتها بالنصارى المرتزقة حيث استعانوا بهم فى مقاتلة خصومهم المنشقين على الدولة حيث بلغت الدولة من الضعف والتمزق شأوا كبيرا، وتروى المراجع أن الخليفة المأمون الموحدى قد لجأ إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث ليبعث فرقة من فرسان النصارى ليعبر بها إلى المغرب ويقاتل خصمه المنشق عليه والطامع فى الحكم، وقد أمده ذلك الملك بفرقة تقدر بخمسمائة فارس مقابل شروط قاسية منها أن يتنازل المأمون عن عشرة من الحصون الإسلامية القريبة لحدوده، وأن تقام فى مراكش كنيسة للنصارى وأن يرد من أسلم منهم إلى إخوانه يتصرفون فى أمره، وأن من تنصر من المسلمين فلا سلطان له عليه[٢].

وفى الحقيقة إن كانت تلك الفرقة قد أسدت إلى المأمون وولده الرشيد بعض خدمات فى صراعهم ضد خصومهم إلا أنهم قد دفعوا الثمن باهظا، فقد أقيمت فى عاصمة دولة الموحدين التى رفعت لواء الجهاد فى سبيل الله كنيسة للنصارى تحت رعاية الفرقة النصرانية ثم شجع على قيام جالية منهم كبيرة قد اتخذت من هذه الكنيسة ملاذاً لقوادهم وجنودهم النصرانيين يدبرون فيه المؤامرات والانقلابات السياسية العسكرية، وقد مكنهم من ذلك ما نالوه من عطف ورعاية فى عهد الخليفة السعيد الموحدى مما حدا بالبابا «إنوسان» الرابع أن يكتب إليه رسالة ينصحه فيها بأن يعتنق النصرانية[٣].

---

(١) ليفى بروفنسال الحضارة العربية فى إسبانيا ترجمة طاهر مكى، ص(١١١).

(٢) روض القرطاس، ص(١٦٧).

(٣) انظر كتاب الخليفة الراضى فى رده على البابا، ص(٥٣٨) من كتاب عنان، عصر المرابطين والموحدين، ج(٢).

٣- الجند العرب:

لما اتسعت دولة الموحدين في عهد عبد المؤمن واتسعت معها في نفس الوقت الحروب بينه وبين النصارى في الأندلس لم تعد القبائل البربرية مصدراً كافياً لتكوين الجيوش الجرارة المطلوبة لمعركة الجهاد ضد النصارى، حينئذ أخذ عبد المؤمن بن علي يستميل العرب الهلالية ليستعين بهم لقهر أعداء الإسلام فقد لمس في هؤلاء الأعراب الشجاعة ورباطة الجأش عندما اصطدم بهم لأول مرة عند افتتحه لمدينة بجاية ثم المهدية واستطاع عبد المؤمن أن يستميلهم إليه بالعفو عنهم تارة وبالإغداق عليهم تارة أخرى حتى أضحى في جيش الموحدين فرقة من العرب الهلالية[1]، وبذلك استطاع عبد المؤمن أن يجندهم في جيشه جنوداً عاملين من ناحية ويأمن عيثهم وإفسادهم وغاراتهم من جهة أخرى غير أن عبد المؤمن لم يطل به أجله ليقودهم في معركة.

ولم تظهر هذه الفرقة في الجيش الموحدي كقوة محاربة إلا في عهد الخليفة الثاني يوسف بن عبد المؤمن الذي بذل جهوداً مضاعفة في سبيل استنفار هؤلاء العرب للمشاركة في الجهاد بالأندلس، وقد طلب من طبيبه الفيلسوف ابن طفيل أن ينظم قصيدة حماسية يثير بها حماسة الهلاليين لحرب النصارى في الأندلس وقد أجادت قريحته بقصيدة هذه بعض أبيات منها[2]

ألا فابعثوها همة عربية	تعز بأطراف القنا والقواضب
الفرسان قيس من هلال وعامر	وما جمعت من ظاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها	بطاعة أمر الله من كل جانب

وقد نجحت هذه المحاولة حيث نضمت طوائف كثيرة من عرب بني هلال وسليم ورعة ورباح وغيرهم إلى الجيوش الموحدية، وأصبحت تكون فرقاً مستقلة بها إذ يوجد منهم في الأندلس خمسة آلاف فارس سوى الرجالة[3].

---

(١) هم قبائل من هلال بني عامر خرجوا من ديارهم بالجزيرة العربية ثم استقروا أولا في صعيد مصر، ثم في تونس، وكانوا مصدر قلق وشغب في شمال أفريقية وكذلك الأندلس، ولهم وقائع مذكورة في كتب التاريخ، ومن وقائعهم استمد القصاص الشعبي ملحمته في سيرة أبي زيد الهلالي سلامة

(٢) مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٣م المجلد الأول

(٣) المراكشي، المعجب... ت العريان، ص(٢٩٥)

بيد أن إسهام العرب الهلاليين في الجيوش الموحدية لم يكن ذا أثر فعال بل كان خطأ عسكريًا فادحًا، فقد كانوا يتميزون بالتمرد والعصيان وعدم إصغائهم لأوامر قادة الموحدين، مما تسبب في خذلان الجيوش الموحدية في كثير من المواقع الحربية في أفريقية والأندلس كما سنذكر بعد.

٤- الجنود الغز:

وهم جنس من الترك، بلادهم في أقصى الشرق على تخوم الصين وقد أشار صاحب صبح الأعشى إلى وجود طائفة من الجنود الترك في جيش الموحدين[١].

ويبدو أن جيش الموحدين كان يشمل أجناسًا أخرى من الأكراد والجراكسة، الذين بعث بهم «صلاح الدين الأيوبي» لقتال «أبي يعقوب المنصور الموحدي»، في صحبة «تقي الدين عمر بن شاهنشاه» أخي «صلاح الدين الأيوبي»، الذي قاد الحملة إلى المغرب، ثم عدل عن مشروعه، حينئذ قام قائدان من قواد بني أيوب بمواصلة هذا المشروع وهما: (شرف الدين قراقوش)، (إبراهيم بن قراتكين) وقد سارا نحو المغرب ثم افترقا ليحقق كل منهما مأربه[٢].

وقد أشار «التجاني» أن غزو هذين القائدين إنما كان دافعه حب المغامرة والطمع في المغنم، ولكن إذا ما سلمنا برأيه هذا، لوجدنا أن هذا الرأي لا يتمشى مع منطق الأحداث، إذ أن دخول الأيوبيين للمغرب لا يمكن أن نفسره في ضوء أعمال المغامرة، يقوم بها بعض الجند، وإنما يفسر على أنه حدث هام أعد له صلاح الدين وكون له مجلسًا شوريا اتخذ فيه هذا الرأي[٣].

ولكننا لابد أن نتعرف على السبب الخفي وراء هذا الغزو الذي حدا بصلاح الدين أن يرسل هؤلاء الجنود نحو بلاد المغرب.

إنه سيتضح هذا الهدف إذا ما تعرفنا على نوايا وخطط الموحدين نحو مصر وهذا أمر قد كشفت عنه بعض الروايات العربية المعاصرة فيقول المراكشي وهو معاصر لعهد المنصور إنه قد بلغه أن المنصور صرح للموحدين بالرحلة إلى الشرق،

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج(٤) ص(١٦٦).

(٢) رحلة التجاني، ص(١١١- ١١٤) - حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسي، ج(٤) ص(٦٢٩).

(٣) المصدر السابق ونفس الصفحة.

وأنه كان يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ويقول نحن إن شاء الله مطهروها ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات[١].

ويتحدث الرحالة ابن جبير وهو أيضًا كان معاصرًا للمنصور في رحلته عن صدى الدعوة الموحدية بمصر حيث تطلع الجميع بقدوم الموحدين وتملك البلاد وأن بعض فقهاء مصر قد أعد خطبة ليلقيها بين يدي المنصور الموحدي إذا ما تم له ذلك[٢]، بل كانت فكرة غزو مصر أملاً يراود المهدي ذاته حيث إنه قال لبعض أصحابه إنه منتظر اليوم الذي يرى فيه الموحدين أمراء يستخلفون سلطانهم في المغرب[٣].

إذن قد تبين مما تقدم أن فكرة غزو الموحدين لمصر ترجع إلى ما قبل عهد المنصور وربما زادت إلحاحًا في عهده، ولم لا؟ وقد حقق المنصور مجدًا أثيلا وانتصارًا رائعًا في معركة الأرك الشهيرة، بل ربما يكون حدوه لذلك اقتداءه بالفاطميين الذين خرجوا من المغرب وكونوا خلافة لهم في مصر.

فمن المحتمل أن يكون أمراء مصر قد علموا بهذا المخطط فأرادوا أن يقبضوا على زمام المبادرة في أيديهم، فكلف «صلاح الدين» بعض كبار شخصياته بالتوجه إلى بلاد المغرب، واتخاذ مراكز نفوذ لهم بها، وذلك حتى تكون هذه المراكز خط الدفاع الأول لدول وإمارات الشرق في وجه الأطماع الموحدية، وكانت غزوة قراقوش على المغرب هي إحدى هذه الخطوات التي بدأ الأيوبيون يتخذونها.

وكان وصول قراقوش بجنوده حوالي سنة ٥٦٩هـ، ومنذ هذا التاريخ كان لهم شأن في تاريخ أفريقية في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع وحالفوا عرب بني هلال وأغاروا على الأطراف الشرقية لمملكة الموحدين ففتحوا كثيرًا من المعاقل واستولوا على كثير من البلاد. ثم انضم الغز والعرب إلى بني غانية ضد الموحدين في سلسلة من المعارك كان آخرها حرب «بجاية» التي هزم فيها «علي بن إسحاق الميورقي» آخر دعاة المرابطين ومن معه من العرب والغز، وقد استأمن الغز بعد هذه

---

(١) المعجب، ص(١٦٠)، ١٣٣٢هـ

(٢) رحلة ابن جبير نشر الدكتور حسين نصار القاهرة ١٩٥٥ ص(٥٣، ٥٤)

(٣) المراكشي، المعجب، ص(١٦٤)

وقعة أبي يوسف المنصور، فحببهم إلى من قضوا وسيرهم إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم وشدة بأسهم[1].

ويروى المراكشي أن الخليفة المنصور قد أكرم هؤلاء الغز وأفاض عليهم بهباته وعطياته، وأقطع أعيانهم إقطاعًا كإقطاع الموحدين أو أوسع[2].

٥- الجند الأندلسي:

لقد اعتمد الموحدون على قوات الأندلس اعتمادًا كبيرًا في معارك الجهاد بالأندلس، كما اعتمد عليهم المرابطون من قبل. وقد كانت القوات الأندلسية تؤلف قسمًا خاصًا من الجيش الموحدي ويحملون أعلام إشبيلية، وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها.

وقد تميزت هذه القوات بشجاعتها ودقة دربتها وخبرتها الكبيرة في قتال النصارى، ويبدو أن الموحدين صاروا يعتمدون على هذه القوات اعتمادًا كليًا بخلاف المرابطين فإنهم كانوا يحشدونهم في الحروب متوجسين من غدرهم يقظين لما يدور بينهم، فكانوا دائمًا يحشدونهم في مقدمة الجيوش مع بعض فرق المتطوعة لتصطلي بالضربة الأولى لجيوش النصارى هادفين من ذلك مراقبة هذه الفرق وعدم فرارها، ثم يتقدمون هم لجني ثمار الظفر حسبما تملي عليهم ظروف المعركة، وقد قصروا قيادة هذه الفرق على القواد المستوثقين وذوي قرابتهم بينما الموحدون تركوا قيادة فرق الأندلس لقائد أندلسي مقرب إليهم، فقد كان قائدهم في معركة "وبذة" التي فشل فيها الخليفة أبو يعقوب يوسف الموحدي "أبو العلاء بن عزون".

ويبدو أن مدار نصر الموحدين أو هزيمتهم كان يتوقف على رضا هذه الفرقة أو سخطها بجانب العوامل الفنية الأخرى، ففي معركة الأرك التي أحرز فيها المنصور نصره على النصارى الإسبان إنما كان بفضل استشارته لقواد الأندلسيين الذين أخلصوا له الرأي والمشورة وتحقق له النصر[3].

(١)، (٢) المعجب - تحقيق العريان، ص(٣٦٦).

(٣) روض القرطاس، ص(١٤٧)

وعلى النقيض من ذلك في موقعة العقاب التي منى فيها الخليفة الناصر بهزيمة ساحقة ضاعت معها منعة الجيوش الموحدية، فقد كان من عوامل الهزيمة وأسبابها هو انشقاق أهل الأندلس وحنقهم على الخلافة الموحدية، وبخاصة خليفة الناصر الذي قتل القائد الأندلسي «ابن قادس» وصهره كما أهان وزير «أبو سعيد بن جامع» وزير الناصر القواد الأندلسيين الآخرين حيث هددهم بالطرد من الجيوش.

٦- الجند المرابطون:

توالت الاضطرابات بدولة المرابطين منذ ظهور المهدي ابن تومرت بدعوته واحتكاكه بهم في سلسلة من المصادمات المسلحة ثم انهيار قوى المرابطين وشغلهم عن إصلاح حال الأندلس، فتأججت نار الفتنة بالمغرب واتصلت الحروب وغلت الأسعار، وعم الجدب، وقلت المجابي، ووجه كثير من حماة الأندلس إلى عدوة المغرب، ونقل معهم كثير من أسلحتهم وعددها، وقد انتهزها النصارى فرصة سانحة، فزادت ضرباتهم على جبهاتهم حينما عجزوا بعجز المرابطين عن الدفاع عنها(١)، وكان هذا من أعظم ما تأيد به «عبد المؤمن بن على» على المرابطين وهو قيام أهل الأندلس عليهم واضطراب أمور القيادة وتضارب الأوامر إلى حد جعل رعاياهم يسخرون منهم(٢)، وكثر اعتداء الجند في المدن على حريات الأفراد وأموالهم مما جعل الأندلسيين يسارعون بالانضمام إلى الموحدين(٣).

وإزاء هذه الاضطرابات والغش في صفوف المرابطين كانت أحوال الموحدين في نمو وتطور حيث سارع كثير من جنود المرابطين للانضمام إلى جيوش الموحدين، فيحكي لنا ابن خلدون أنه عندما أجمع عبد المؤمن على غزو بلاد المغرب في غزوته الطويلة منذ سنة ٥٣١هـ إلى ٥٣٤هـ وهي التي انتهت بالفتح والاستيلاء على المغربين، حيث خرج عبد المؤمن من تينمل وخرج تاشفين بن على بعساكره يحاذيه في البسائط، وكان المرابطون يفرون منه إلى عبد المؤمن(٤).

---

(١) الحلل الموشية، ص(٨٩)

(٢) المصدر السابق، ص(٩٩)

(٣) اشباخ، تاريخ الأندلس ترجمة عنان، ج(٢) ص(٢٣٨)

(٤) تاريخ ابن خلدون، ج(٦) ص(٢٣٠)

واستطاع عبد المؤمن بفطنته ودهائه أن يستميل إليه الكثير من كبار قواد المرابطين ومن هؤلاء القواد الذين انضموا إليه "يحيى الصحراوى" اللمتونى النازع إليه من إيالة تاشفين بن على، وقد أحسن عبد المؤمن تلقيه وعينه على رأس جيش لمقاتلة الثائر فى ماسة[1].

وضم إليه أيضاً قواد "تاشفين بن على"، "ابزار بن محمد المسوفى" وعقد له (عبد المؤمن بن على) على حروب اللمتونيين فى الأندلس[2] ويبدو أن كثيراً من قواد المرابطين كانوا يهرعون إلى العمل فى الجيوش الموحدية إما بدافع الإغراء وجزالة الأعطيات، وإما لخوفهم من سوء العاقبة إذا ما ظلوا يعملون فى جيوش أوشكت مملكتها أن تتداعى وتترنح.

وكان آخر هؤلاء القواد الكاتب الكبير "أحمد بن أبى جعفر بن عطية" كاتب "أبى إسحاق بن على" بمراكش. وقد شمله عفو عبد المؤمن فيمن شملهم، وقد سكنه عبد المؤمن أولاً ثم ارتفع عنده مكانة فاستوزره وصار من أعظم الوزراء والقواد المقربين إليه[3].

وأخيراً نرى معظم جنود المرابطين وقوادهم قد انتظموا فى سلك الجيش الموحدى عقب فتح مراكش، ما عدا فئة من المرابطين فى الأندلس كان يقودها "يحيى بن غانية" القائد العام للجيوش المرابطية بها ومن بعده أخوه "محمد" الذى ظل على ولائه للمرابطين حتى دخلوا أخيراً فى دعوة الموحدين.

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ج(٦) ص(٢٣٢).

(٢) المصدر السابق ونفس الجزء، ص(٢٣٤).

(٣) المصدر السابق ونفس الجزء، ص(٢٣٣).

الفصل الثانى

النظام الدائم لكتائب الجيش

من المعروف أن الدقة والنظام هما الدعامتان الأساسيتان اللتان تستقيم بهما الجيوش، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بتقسيم الجيوش إلى وحدات صغرى لكى يسهل الإشراف عليها. وهذا ما يعبر عنه العسكريون المعاصرون «البناء التنظيمى أو الهيكل التنظيمى» للقوات المسلحة، وهو على شكل هرم قاعدته العريضة تضم الوحدات على المستوى التنفيذى، ثم يتدرج البناء الهرمى لأعلى حتى قمة التنظيم حيث القيادة العامة. وهذا ما نراه فى جيوشنا الحديثة التى تتألف من القيادة العامة[1] فى قمة الهرم ثم يليه باقى تنظيمات الجيش التى تنقسم إلى ألوية ثم تنقسم الألوية إلى كتائب وتنقسم الكتائب إلى سرايا، ثم تنقسم السرايا إلى فصائل، ثم تنقسم الأخيرة إلى جماعات تشتمل كل منها على عشرة جنود تقريبًا.

فهل عرف المرابطون والموحدون هذه التشكيلات، وهل كانت جيوشهم تجرى على نظام معين يسهل الإشراف عليها؟ هذا ما سنعرفه خلال هذا الفصل..

أولاً: تشكيلات جيوش المرابطين

لم تمدنا المراجع بشيء بهذا الخصوص بالنسبة للمرابطين، وإن كانت قد أشارت إلى ذلك بالنسبة للموحدين ولكن بالدراسة المتأنية وبالمقارنة لبعض النصوص يمكننا أن نقف على نظم تشكيلات جيوشهم.

فمن المعروف تاريخيًا أن منطقة المغرب قد تأثرت بعدة حضارات مختلفة وقد تطورت حضارته ضمن دائرة العروبة والإسلام، محتفظة على مر العصور بروحها الشرقية الخالصة، وتطورت إلى جانبها حضارة أخرى هى حضارة الأندلس التى استمدت روحها من تراث الشرق الذى نقله الفاتحون والمهاجرون إليها.

ومع أن للوضعية الجغرافية بعض الأثر فى تكييف العقلية بنوع ما وصبغ الإنتاج الفكرى ومظاهر الحضارة بها، إلا أنه ظلت الحضارتان الأندلسية والمغربية شرقيتين

---

(١) لواء جمال الدين محفوظ، مدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، ص (٤٣٥)

بعد أن تعاقبت نحواً من ثلاثة قرون أي منذ عهد المرابطين إلى عهد المرينيين تحت إشراف عاصمتي مراكش وفاس[1]. فقد كان تأسيس مدينة مراكش تدعيماً لمراكز المرابطين بالمغرب، ثم كان استيلاؤهم على مدينة فاس سبباً في اختلاطهم بالحضارة الأندلسية. بل لقد اتسمت معظم كبريات المدن المغربية بالميسم الشرقي حتى شبه المؤرخون فاس بدمشق، والرباط بالإسكندرية، ومراكش ببغداد.

ومن الضروري أن تكون دولة المرابطين قد تأثرت في أنظمتها العسكرية ببعض أنظمة دول الشرق، وخصوصاً لدينا نص يدل على اتصال «يوسف بن تاشفين» بالعباسيين وطلب ولاءه لهم بعدما توطد حكمه في المغرب والأندلس. فقد أوفد «ابن عبد الله المغربي» إلى المستظهر بالله الخليفة العباسي يطلب منه توليته على المغرب ويقلده مراسم الحكم والإمارة. فعاد إليه بعهد الخلافة على المغرب بشرط استشعار زيهم في لبوسه ورتبته وخطبه فيه بأمير المسلمين[2]. لذا اتخذ المرابطون السواد شعاراً لهم في ملابسهم وأعلامهم اقتداء ببني العباس. فلا يستبعد أن يكونوا قد اقتبسوا منهم أيضاً بعض نظمهم العسكرية وتشكيلات جيوشهم.

وقد كان تنظيم الجيش في مرحلته الأولى في طور الرباط سهلاً فكانت أعداده قليلة يسهل جمعهم عن طريق المنادي كما يسهل عليه خطابهم وتنظيمهم ولكن «ابن ياسين» كان محباً للنظام وتسلسل القيادة فقد عين ثلاثة من القواد في عصره، ويبدو أنه قسم أتباعه إلى عشرات على كل عشرة عريف.

وفي عهد يوسف تضخمت أعداد الجيوش بما انضم إليها من القبائل. فليس من المعقول أن يعيش هذا العدد الضخم على غير تنظيم ثابت يجتمعون له عند الاصطفاف، وعند الخروج للتمرينات وعند الانصراف منها، وعند التعبئة للقتال والاشتراك فيه، إذن لابد أن يكون هناك إشراف دقيق ونظام أكيد لهذه الجيوش.

وقد تردد لقب «أمير» في شمال أفريقية. وقد تلقب به أول أمير من المرابطين، كالأمير «يحيى بن إبراهيم الجدالي»، والأمير «يحيى بن عمر اللمتوني»، والأمير «أبي بكر بن عمر اللمتوني» وكان الأمير يقود الجيش ويخوض به المعارك ويقود به

(١) عبد العزيز بن علي، مظاهر الحضارة المغربية، ح (١) ص (١٤٣).

(٢) محمد عثمان المراكشي الجامعة اليوسفية، ص (٤٧)، ابن الأثير الكامل، ح (٨) ص (١٤٣).

ما يزيد على عشرة آلاف من الجنود ثم بعد رحيل الأمير أبي بكر إلى الصحراء قاد يوسف نصف الجيش ثم عين أربعة قواد عقد لكل منهم على خمسة آلاف من قبيلته[١].

وقد ظهر لفظ «عريف» في الأندلس عند وصف ابن الخطيب لجند غرناطة، ومن المرجح أن المرابطين والموحدين كانوا قد أخذوا به في تشكيلاتهم حيث قال ابن الخطيب: (والبربري منهم ينقسم إلى أقطاب ورؤوس، ويرجع أمرهم إلى رئيس على رؤسائهم وقطب لعرفائهم)[٢] وكان العريف يرأس عشرة رجال ويبدو أن هذا العدد كان متعارفًا عليه لدى معظم الجيوش في ذلك الوقت، ففي تقسيم المهدي وتنظيمه لأتباعه أنه قسمهم إلى عشرات وجعل على كل عشرة من هذه العشرات نقيبًا[٣].

وعرف النقيب في الدولة الموحدية بتونس بدلالة قريبة من هذه الدلالة العسكرية إذ جاء في مسالك الأبصار أنه إذ كتب كتاب إلى النواحي المختلفة من المملكة لبعض نوابها جهز مع من يقع عليه الاختيار من النقباء أو الوصفان[٤].

إذن نستطيع القول إن تشكيل جيوش المرابطين اتخذ تقريبًا نفس تشكيلات وتنظيمات الجيوش الإسلامية المعاصرة لهم حيث تقسم الجنود إلى عشرات ثم مئات ثم ألوف ثم عشرات الألوف، وكان رؤساء هذه الجماعات من رتب متفاوتة أصغرها العريف ثم النقيب أو الخليفة، ثم القائد، ثم أمير الجيش.

وإذا ما تصفحنا الأنظمة المعمول بها في الجيوش البيزنطية والغربية آنذاك لعرفنا أن النظام المرابطي كان قريبًا منها بل أشد قربًا من أنظمة الجيوش العربية العباسية.

وقد أشار الدكتور «أومان» في كتابه «تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى[٥]» إلى التنظيم الدائم للجيش الرومي كالآتي:

---

(١) روض القرطاس، ص (٨٨، ٨٩)

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة. ت عنان، ص (١٤٢)

(٣) الحلل الموشية، ص (٧٩).		(٤) صبح الأعشى، ج (٥) ص (١٤٨).

(٥) أومان، ص (١٩٣)، جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج (١) ص (١٣١، ١٣٢)، نعمان ثابت الجندية في الدولة العباسية، ص (١٢٣)

- القائد العام «بطريق»	يرأس	۱۰۰۰۰جندى
- طورماخان	يرأس	٥٠٠٠ جندى
- دانجرى	يرأس	۱۰۰۰ جندى
- القومس	يرأس	۲۰۰ جندى
- القمطرخ	لم يذكر عدده	
- الدمرداخ	يرأس	۱۰ جنود

ويوجد تنظيم آخر كان معمولاً به زمن العباسيين رواه لنا المسعودى وهو تنظيم يخص طائفة «العيارين» وهم جنود متطوعون ظهروا فى الدولة العباسية وكان كالآتى[۱]:

۱- الأمير: القائد الأعلى ويرأس عشرة قواد - وجنده ۱۰۰۰۰ جندى.

۲- القائد: يضم عشرة نقباء ويرأس ۱۰۰۰ جندى.

۳- النقيب: وتحته عشرة عرفاء وجنده ۱۰۰ جندى.

٤- العريف: وتحته عشرة من الجنود تقريبًا.

وكان جيش الأيوبيين والمماليك يقوم على التقسيم العشرى بحيث ينظم أمراء الجند بشكل متدرج فيلقب أكبرهم بمقدم «ألف»، ويليه «أمير أربعين»، ثم أمراء «العشرات»، ثم «الخمسات». وكان هذا التنظيم متبعًا عند السلاجقة أيضًا قبل استيلائهم على بغداد سنة ٤٤٧هـ[۲].

وبنظرة متأنية إلى هذه الأنظمة جميعها ندرك أن الدولة العباسية قد أخذت بنظم الدولة البيزنطية، وبدهى أن تتأثر جيوش المغرب والأندلس بذلك التقسيم فتكون تنظيمات وتشكيلات الجيوش المرابطية على هذا النسق أو قريبة منه.

---

(۱) مروج الذهب للمسعودى ط١٩٤٨م ج (٣) ص(٤١١)، محمد فرج، المدرسة العسكرية الإسلامية، ص (٢٨٦).

(٢) حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام، ج(٤) ص(٣٦٢)

ثانيًا: تشكيلات جيوش الموحدين

ويبدو بمرور الوقت أنه قد حدث تعديل فى بعض أنظمة وتشكيلات الجند فى جيوش الموحدين إذ تعددت فيها الأنظمة حتى صارت أشبه بالنظم المدنية وإن كانت قريبة فى جوهرها من الأنظمة السابقة مع تعديل فى أسماء الرتب والألقاب. وربما يرجع السبب فى ذلك إلى النظام الطبقى الذى قامت عليه دولة الموحدين وتأثرها بالتقسيمات الشيعية والمتصوفة من جهة وانفساح أجلها فى المغرب والأندلس عن دولة المرابطين شيئًا ما من جهة أخرى. مما جعلها تصطبغ بصبغة مغربية أكسبتها خصوصية فى نظمها العسكرية. وهذه نبذة سريعة عن رتب وطبقات جيش الموحدين.

الطبقة الأولى: لقب شيخ:

من الرتب العسكرية الشائعة والمترددة فى عصر الموحدين لقب «الشيخ» وهى وظيفة معروفة فى غرب العالم الإسلامى، وقد استخدم فى الأندلس للدلالة على وظيفة عسكرية مهمة عرفت «بشيخ الغزاة والمجاهدين» أى رئيسهم وقائدهم[١].

وكان «الشيخ» أيضًا لقبًا لموظف مهم فى دولة الموحدين بتونس وكان يوصف أحيانًا «بالشيخ المعظم»، وكان الشيخ المعظم من كبار الموظفين ويعتبر صاحب الوظيفة الثانية فى الدولة إذ كان بمثابة نائب السلطان وكان يتولى عرض الموحدين وأمورهم على السلطان[٢].

ووجد فى دولة الموحدين فى المغرب رتبتان من الأشياخ هما:

الأشياخ الكبار: وهم يؤلفون الطبقة الأولى من طبقات جند الموحدين كما فى تونس، وهم من بقايا أتباع المهدى بن تومرت ويمكن اعتبارهم بمثابة أمراء الألوف بمصر[٣]. ورتبة أمراء الألوف يطلق عليها «أمير مائة مقدم ألف» وهى رتبة حربية خاصة بأرباب السيوف ويقصد بهذه التسمية المركبة وظيفة واحدة يكون فى خدمة حاملها مائة مملوك، وهى فى نفس الوقت مقدم فى الحروب على ألف جندى.

---

(١) صبح الأعشى، ج (١١) ص (١٩ - ٢١).
(٢) نفس المصدر، ج (٥) ص (١٣٩)
(٣) نفس المصدر والجزء، ص (١٣٨)

وكانت أصحاب تلك الرتبة أعلى مراتب الأمراء فى عهد السلاجقة بالشرق إلى عهد المماليك بمصر[1]، وكذلك الحال فى بلاد المغرب آنذاك.

الأشياخ الصغار: وهم يؤلفون الطبقة الثانية من الجند[2] وكانوا يشبهون طبقة أمراء الطبلخانات فى مصر فى دولة المماليك، إمرة كل منهم فى الغالب أربعون فارسًا وقد سموا بهذا الاسم لأحقيتهم فى دق الطبول على أبوابهم كما يفعل السلطان وأمراء المئات لكن على صورة مصغرة، ويبدو أنهم كانوا يسمون أمراء الطبلخانات تمييزًا لهم عمن هم أقل منهم رتبة وليس لهم طبلخانات[3].

وهناك طبقات أخرى أوردها لنا صاحب الأعشى بالإضافة إلى الطبقتين السالف ذكرهما.

الطبقة الثالثة: الوقافون:

وهم قوم لهم خاصية بالسلطان يسكنون معه فى القلعة بمنزلة الأمراء الخاصكية وهم طبقتان: وقافون كبار، ووقافون صغار، وكلهم يقفون بين يدى الخليفة فى أوقات جلوسه إذا جلس فى الناس[4] يحملون السيوف والرماح والدرق[5].

الطبقة الرابعة: عامة الجند المغاربة.

الطبقة الخامسة: الجند من قبائل العرب.

الطبقة السادسة: الصبيان:

وهم جماعة من الشباب تشبه المماليك الكتابية[6] بالديار المصرية يكونون فى خدمة السلطان، وقد أطلق المهدى ابن تومرت هذا الاسم على تلاميذه الأوائل، وقد روى لنا «البيذق» ما يدل على ذلك فقال: (فلما كان يوم من الأيام دخل علينا المعصوم وقال لنا: أين الصبيان؟ فقلنا: نحن حاضرون قال: ما منكم أحد غائب؟ قلنا: كلنا حاضر.... إلخ)[7].

---

(١) السلاح فى الإسلام، عبد الرحمن زكى، ص (١٠).
(٢) صبح الأعشى، ج (٥) ص (١٣٨).
(٣) السلاح فى الإسلام، ص (١٠).
(٤) صبح الأعشى، ج (٥) ص (١٣٨).
(٥) المصدر السابق ونفس الجزء، ص (٢٠٧).
(٦) المصدر السابق.
(٧) أخبار المهدى ابن تومرت، ص(٦٤).

الطبقة السابعة: الجند من الإفرنج:

ويعبر عنهم بالعلوج وهم من خاصة السلطان لا يفصل إلا إليهم[1]، ويبدو أنهم كانوا من الفرنج المقربين إلى السلطان.

هذا هو النظام المتبع في دولة الموحدين على ما يبدو بالإضافة إلى تقسيم طبقة الجند إلى نقباء يقود كل نقيب عشرة عرفاء، ويرأس العريف عشرة جنود، وتتمثل رتبة الأمير في الأشياخ الكبار، والقائد في الأشياخ الصغار، ومعنى هذا أن نظام الموحدين متشابه مع نظام المرابطين في رتب النقباء والعرفاء، بينما الاختلاف في رتبة أمير فيسمى عند الموحدين شيخ كبير، والقائد يسمى عندهم شيخ صغير، مع اختلاف في عدد الجنود التي يقودها كل منهما.

وينفرد نظام الموحدين بوجود الوقافين والصبيان عن جيوش المرابطين ويبدو أن السبب في ظهور طبقة الوقافين يرجع إلى حرص الموحدين على نظام أبهة الملك وعظمته، وهذا ما تفعله كثير من الدول وهو ما يسمى في العرف العسكري الحديث «الحرس الجمهوري أو الملكي» الذي يظهر فخامة الدولة ورفعتها في أعين الأمم الأخرى، ولم يكن المرابطون في حاجة إلى ذلك فهم قوم صحراويون بعيدون عن زخرف الحياة وزينتها، فقد درجوا على الخشونة في العيش وعاشوا على فكرة الجهاد الخالصة لله.

أما طبقة الصبيان فهي طبقة الشباب التي كانت دولة الموحدين توليهم رعاية فائقة وتتعهدهم بالتربية والنشأة العسكرية الخاصة كما عرفنا من خلال لقاء المهدي ابن تومرت بهم، كما أن عبد المؤمن بن على قد اعتنى بالصبيان عناية فائقة حيث أعد لهم بحيرة في بستانه وطفق يعلمهم السباحة وركوب الخيل ويدربهم على أعمال الفروسية وليس هذا بغريب، فإن هذا النظام مطبق في أغلب البلاد المعاصرة لدولة الموحدين مثل تدريب شباب المماليك الكتابية للديار المصرية وإن كان هذا الاسم «الصبيان» قد أطلقه المهدى على تلاميذه فإنه انسحب بعد ذلك ليطلق على هذه الطبقة من الشباب والتلاميذ.

---

(١) صبح الأعشى، ج (٥) ص (١٣٩)

الفصل الثالث

الألبسة والألوية والرايات

يتناول هذا الفصل الحديث عن زى الجند وملابسهم والحديث أيضاً عن الألوية والرايات وشارات السلطان الخاصة به، كما يتحدث عن الموسيقى التى كانت تصاحب الجيش، واستعراض الجند قبل المعركة ثم السير إليها وأخيراً الحديث عن الحرس الخاص للملوك والخلفاء.

أولاً: زى الجند

كان من أهم ما يميز لباس جند المرابطين هو ذلك اللثام الذى كانوا يتلثمون به وقد أصبح علماً لهم، فتسموا باسم «الملثمين»، لأنهم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم[1] ويرتدون هذا اللثام ليلاً ونهاراً[2]، فى أوقات العمل والراحة واليقظة والنوم[3]، بل أصبح اللثام ضرورة حتمية لا يعرفون بعضهم بعضاً، إلا به فإذا قتل منهم رجل فى معركة وزال قناعه لم يعرفوه إلا إذا وضع على وجهه اللثام[4].

ويعد لبس اللثام فى نظرهم مفخرة يمدحون به لذا كان شعارهم أن يتلثموا دائماً لا يمتاز شيخهم عن شابهم بل ونساؤهم من رجالهم لشدة شكيمتهم، وقد كانت العرب تميل لإظهار الشيخ بمظهر الشباب الجلد فى الحروب واقتفى الملثمون تلك شيمهم فى تغيير السمات، فلا يعتبر الفرد مكتمل الرجولة إلا إذا ارتدى لثامه، وقد مدح لثامهم الكاتب الشاعر «أبو محمد بن حامد» وأثبت نسبهم إلى حمير فى شعره فقال[5]:

قوم لهم شرف العلا من حمير	وإذا انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا إحراز كل فضيلة	غلب الحياء عليهم فتلثموا

---

(١) الاستقصا ج(٢) ص (٣).

(٢) ابن الأثير الكامل، ج (٩) ص (٢٦٠).

(٣) قيام دولة المرابطين، حسن أحمد محمود، ص (٤٩)

(٤) المصدر السابق والصفحة.

(٥) الجامعة اليوسفية، محمد عثمان، ص (١٣)

وقد اختلف المؤرخون في تفسير حمل اللثام فقال بعضهم: إنه ناشئ من حاجتهم إلى حماية أفواههم من سفو الرمال، ويستشهد أصحاب هذا الرأى بقول الملثمين على غيرهم: إنهم «أفواه الذبان»[1]، ولكن هذا الرأى ضعيف بدليل أنهم يتلثمون عند الأكل والنوم ويشير صاحب الاستقصا[2] إلى أن اللثام كان خدعة حربية ليضيقوا على عدوهم، فقيل إن قومًا من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيأخذون المال والحريم فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زي رجال إلى ناحية ويجلسوا هم في البيوت متلثمين في زي النساء فإذا أتاهم العدو ظنوهم نساء خرجوا عليهم، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم ومن هنا التزموا اللثام تبركًا به.

ويذهب بعض من المؤرخين إلى أن اللثام يرجع إلى أصول دينية وسحرية قديمة حافظ عليها الملثمون إلى اليوم ويتضح ذلك في استعمال الطوارق[3] اللثام في عصرنا الحالى[4].

مما سبق يبدو لنا أن الملثمين قد ارتدوا اللثام أول الأمر لاتقاء سفو الرمال وقيظ الصحراء، ثم أصبح عادة متوارثة حرص عليها جيل الأبناء، فعلته الخواص منهم تشبهًا بحمير التى كانت تتلثم لشدة الحر والبرد فكثر ذلك حتى أصبح تفعله عامتهم[5].

واللثام كما وصفه لنا البكرى أنه يستر الوجه كله فلا تبدو منه إلا محاجر العينين[6]، واللثام عبارة عن قطعة من القماش المصبوغ يختلف لونه تبعًا لمكانة صاحبه، فالأشراف يرتدون لثامًا مغايرًا للثام الحشم والعبيد، ومما يثبت ذلك أن «ابن عبدون» الذى تولى الحسبة في الأندلس في عهد المرابطين قد اشترط أن يكون لثام الحشم مخالفًا للثام الأشراف فقال: (وإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهابونهم ويأتون أبوابًا من الفجور كثيرة بسبب اللثام..)

---

(١) البكرى، المغرب ص(١٧٠).　　(٢) الاستقصا، ج(٢) ص(٤)

(٣) الطوارق المعاصرون هم سلالة شعوب ملثمين قديمًا ويعتنقون نفس الملابس التى كان يلبسها الملثمون في العصور الوسطى

(٤) قيام دولة المرابطين، ص(٤٩).　　(٥) الاستقصا، ج (٢) ص(٤)

(٦) المغرب للبكرى، ص(١٧٠)

وقال: (إن عبيد المرابطين إذا تلثموا وجب أن يكون ذلك بعلامة يعرفون بها مثل أن يتلثموا بخمار أو مآزر)[1].

ويبدو أن طبقة الأشراف اتخذت اللون الأسود لوناً للثامهم، وفرض على العبيد أن يكون البياض لون لثامهم بدليل أن الطوارق وهم سلالة المرابطين في المغرب في عصرنا الحاضر صنفان: صنف يرتدي اللثم السود، وهؤلاء هم النبلاء وصنف يرتدي اللثم البيضاء وهؤلاء هم العبيد[2].

وكان الرجال يرتدون إلى جانب تلك اللثم المآزر والعمائم، وكانت العمائم من الملبوسات التي حرص عليها الصنهاجيون، وقد غالى ملوك صنهاجة في لبسها واتخذوا عمائم شبه مذهبة يغالون في أثمانها تساوي العمامة الواحدة خمسمائة إلى ستمائة دينار أو تزيد، وكانوا يعممونها بأتقن صنعة فتظهر كالتيجان وكان ببلادهم صناع لذلك يأخذ الصانع على تعميم كل عمامة منها دينارين أو أزيد[3].

ويبدو أن هذه العمائم كانت تجلب إليهم من بلاد السودان يحملها تجار مياسير على الجمال الحاملة للنحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والمآزر والعمائم[4].

وكان المرابطون يخصصون الحروب بالعمائم بدليل وصف ابن الخطيب لمعركة الزلاقة قائلاً: (وحان وقت الزوال من اليوم والحروب قائمة وقد اختلطت عمائم المرابطين ببيضات الروم)[5].

وقد قدم لنا صاحب صبح الأعشى وصفاً كاملاً لزي الجند والسلطان فهم يتعممون بعمائم طوال من الكتان ويعمل فوقها إحرامات يلفونها على أكتافهم ويتقلدون السيوف تقليداً بدوياً، ويلبسون الخفاف في أرجلهم وتسمى عندهم الأنقة كما في أفريقية، ويشدون المهامز[6] فوقها ويتحدون المناطق وهي

---

(1) ابن عبدون التجيبي - رسالة في الحسبة، ص(218).

(2) قيام دولة المرابطين، ص(51).

(3) الاستبصار في عجائب الأمصار مؤلف مجهول، ص(129).

(4) الشريف الإدريسي بلاد المغرب، ص(176)   (5) تاريخ المغرب العربي، ص(244).

(6) المهاميز: مفردها مهماز وهو حديدة تكون في مؤخرة الخف «مختار الصحاح».

الموحدين، ويعبرون عنها بالمصمتات من فضة أو ذهب وزنة بعث كل مصمتة منها ألف مثقال ولكنهم لا يشدونها إلا في الحروب أو يوم التمييز وهو يوم عرضهم على السلطان، ويختص السلطان بلبس البرنس الأبيض الرفيع لا يلبسه أحد من الجند غيره[1].

ونفهم من وصف القلقشندي أن هذا هو الزي السائد لبلاد المغرب في عصر الموحدين وإن كان قريب الشبه من زي المرابطين لتقارب الفارق الزمني بينهم واندماج العادات والتقاليد بين شعوب هاتين الدولتين.

وقد حدد لنا ابن صاحب الصلاة ما تقدمه الدولة الموحدية للجندي المحارب من كسوة التمييز، فقد كان كساء الفارس عند الموحدين عبارة عن طقم كامل من عفارة وعمامة وكساء وقسطة وشقة[2].

أما لباس جند أهل الأندلس فهو مختلف عن لباس أهل المغرب من المرابطين والموحدين وذلك لقربهم من النصارى واحتكاكهم بالنصارى في الحروب المستمرة بينهم، لذا نراهم يتزيون غالبًا بزي النصارى المجاورين لهم فسلاحهم مثل سلاح أعدائهم ويتركون العمائم ويرتدون أقبية كأقبية النصارى، وكذلك أعلامهم وسروجهم والكثير منهم من يحمل طيلسانا ولكن لا يضعه على رأسه إلا الأشياخ المعظمة منهم، ويرتدون غفائر من الصوف الأحمر والأخضر، أما اليهود فقد اختصوا باللون الأصفر منها[3].

وقد أعطانا ابن الخطيب وصفًا لهيئة جند الأندلس بزيهم الحربي في معرض حديثه عن جند غرناطة فقال: (زيهم في القديم شبه زي أعدائهم من جيرانهم الإفرنج في الحروب فيلبسون الدروع السابغة ويرتدون البيضات ويتسلحون بالسلاح الثقيل فلا يظهر منهم سوى أعينهم ويحملون الترسة العريضة ويمتطون خيولا أصيلة)[4].

---

(١) القلقشندي، ج(٢) ص(٢٠٣، ٢٠٤)

(٢) عنان - عصر المرابطين والموحدين، ج(٢) ص(٦٣٧)

(٣) شكيب أرسلان - الحلل السندسية، ج(١) ص(٢٥٧، ٢٥٨)

(٤) ابن الخطيب - الإحاطة ت عنان، ج(١) ص(١٤٢)

ويبدو أن هذا الوصف كان معمولاً به زمن المرابطين والموحدين لأنه حدث فيه ثمة تغيير في عصره حيث يشير إلى ذلك قائلاً: ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا إلى الجواشن المختصرة والبيضات المرهفة والسروج العربية[1].

ولا غرابة في أن يتشبه أهل الأندلس بزي النصارى الحربي الذي يخوضون به الحروب وهم دائمو الاحتلاط بهم. وقد ذكر لنا الطرطوشي وصفاً للباس ابن رذمير قائد النصارى على لسان جندي يسمى (اسعداره) قد عسكر به برى الروم ويعمس في معسكره ثم صعد إلى القلعة ابن دميرة فالتقاه شاب في السلاح مكفن في الحديد لا يظهر منه إلا عيناه فجعل يتحسسه ويترصد غرته إلى أن أمكنته الفرصة فحمل عليه فطعنه في عينه فخر صريعاً[2].

ولا عجب أن يتشبه زي الأندلسيين بزي النصارى في استخدام السلاح الثقيل كلبس الدروع السابغة والبيضات والسيقان والأذرع الحديدية.

الاهتمام بنظافة الجند وصحتهم:

وقد اهتمت الدولتان المرابطية والموحدية بالصحة العامة لرعاياها وخاصة الجنود فهم درع الدولتين، عملاً بالمبدأ القائل: «العقل السليم في الجسم السليم». وفي القرآن والسنة نرى النظافة الشخصية والصحة العامة أمراً أساسياً لتطهير الجسم وبدنه، فقد ورد في الأثر: «النظافة من الإيمان» لذلك نرى الإسلام يهتم بالوضوء والاستحمام واستعمال السواك، والسنة الشريفة تقرر على المسلم أن يغتسل مرة على الأقل في الأسبوع وعلى الأخص يوم الجمعة والاغتسال في مناسبات معينة بعد الجنابة والجماع كما قررت غسيل الميت وتعليم الأبناء السباحة. ومما لا شك فيه أن المرابطين والموحدين كانوا يعملون بكتاب الله وسنة رسوله وقد كانوا يرتادون الحمامات للاغتسال والتنظيف، وذكر المقري أنه كان بمدينة قرطبة ثلاثمئة حمام[3]، ويوجد في المغرب الآن كثير من هذه الحمامات التي يعنى بها الأهالي ويؤمونها بصفة دائمة. وقد كانت هذه الحمامات جماعية وترجع إلى

(1) ابن الخطيب- الإحاطة، ج(1) ص (142).
(2) سراج الملوك للطرطوشي، ص(145).
(3) نفح الطيب، ج(1) ص(256-259).

عصور قديمة، وقد خلف الإدريسى وصفًا رائعًا لطائفة أهل ... وجمال مظهرهم فقال: (وهم أخلاط من البربر المصامدة يلبسون الأكسية من الصوف وعلى رؤوسهم الشعور الكثيرة ويهتمون بها ويخضبونها كثيرًا وذلك أنهم يصبغونها فى كل جمعة بالحناء ويغسلونها أيضًا مرتين بالبيض وبالطين الأندلسى، ويحتزمون فى أوساطهم بمآزر صوف يسمونها أسفاقس)[1]

هذا هو الجندى المسلم الذى يعمل بتعاليم دينه وشرعه والذى يأمره أن يكون نظيفًا دائمًا وسوف تتضح تلك الصورة حين نقارن بين الجند الإسلامى وجند النصارى. وسوف نضرب مثلاً لكبيرهم وزعيمهم ألفونسو السادس الذى عرف المسلمون بقذارته وعفونته، فهذا وصف وارد فى كتاب "الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام حيث دخل جماعة من فرسان المسلمين فى الأندلس عليه، فوجدوه يمسح الكرى عن عينيه، ثائر الرأس خبيث النفس وجعلوا ينظرون إليه وهو ينفث ثغامة رأسه، فما نسوا دفر أظماره ودرن أظفاره[2]

وقد اهتم الموحدون بنشر العلوم الطبية وفتح المستشفيات لعلاج المرضى، فقد روى المراكشى أن يعقوب المنصور الموحدى أنشأ بالمغرب "المارستان" فى مدينة مراكش وكان يتفقده بعد صلاة الجمعة ويعود المرضى بنفسه[3].

وقد اهتمت الدولتان المرابطية والموحدية بتزويد الجيوش بالممرضين والأطباء سواء فى المعسكرات التى ترابط فيها الجنود إذ كانت معسكرات كبيرة أشبه بالمدن فلابد أن يكون بها الأطباء المعالجون للمرضى من الجنود[4]. وقد يصطحبون الأطباء معهم فى الساقة عند خوض المعارك، ففى معركة شنترين التى هزم فيها الموحدون أصيب الخليفة "أبو يعقوب يوسف" بجراح خطيرة فالتف حوله أطباؤه "ابن زهر وابن قنبل وابن قاسم" والخليفة محمول على محفة يعالجونه ويضمدون جراحه ولكنه فارق الحياة متأثرًا بتلك الجراح[5] سنة ٥٨٠هـ.

---

(١) الإدريسى - المغرب، ص(٩٢)

(٢) نقلا عن عبد الهادى شعيرة - المرابطون تاريخهم السياسى، ص(١٠١)

(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص(٢٨٧، ٢٨٨)

(٤) تاريخ التمدن الإسلامى، ج(١) ص(٢٠٧، ٢٠٨)

(٥) عنان - عصر المرابطين والموحدين، ج(٢) ص(١٢٧)، البيان المغرب، ج(٣) ص(١٣٧، ١٣٨)

ثانيًا: اللواء والراية وشارات السلطان الخاصة به

من أخص الخصائص التى تميز الجيوش نشر الألوية وقرع الطبول والنفخ فى الأبوق والقرون، والسبب فى ذلك هو أن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب ويتملك المحارب نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت فى القتال، هذا علاوة عن أن هذه الأمور تعد من مظاهر أبهة الملك وعظمة السلطان تتباهى بها الأمم حتى فى عصرنا الحاضر.

وبعد أن توطد سلطان "يوسف بن تاشفين" فى المغرب والأندلس شرع فى الاتصال بالخلافة العباسية كما أشار عليه جمع من الفقهاء حتى تكون ولايته صادرة من الخليفة وتجب طاعته على الكافة. وقد تم له ما أراد حيث جاءه رد الخليفة وأقره على بلاد المغرب، ووافته الخلع والأعلام والتقليد[1] كما أشرنا سابقًا.

وقد اتخذ المرابطون السواد شعارًا لهم فى ملابسهم وأعلامهم اقتداء ببنى العباس[2]، ويبدو أن المرابطين قد اتخذوا هذا اللون شعارًا لهم من قبل اتصالهم بالخلافة العباسية فيروى لنا "يوسف أشباخ" أن المعتصم صاحب المرية قد ارتدى ثوبًا أسود بهدف التقرب من المرابطين عندما دخلوا شبه الجزيرة الأندلسية لمحاربة النصارى فى معركة الزلاقة[3].

ومن المرجح أنهم لم يستقروا على هذا اللون فقد تعددت ألوان الرايات عند المرابطين بخلاف البند أو العلم الكبير إذ كان يرفع على مركز القيادة. أما الرايات التى كانت على الوحدات والقبائل فقد تعددت ألوانها وقد وشيت بالذهب وتحدوها من الحرير الخالص[4]. فتروى المراجع أن الجيش المرابطى المخصص لشبه الجزيرة الأندلسية كان مكونًا من وحدات خاصة تحمل أعلام المدن التى تنتمى إليها

---

(1) ابن الأثير -الكامل، ج(8)، ص(143).

(2) العبادى- دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص(10)، الجامعة اليوسفية، ص(74)، أشباخ- تاريخ الأندلس ج(2) ص(233) ترجمة عنان.

(3) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين عنان... ج(2) ص(95).

(4) ابن خلدون المقدمة، ص(288)، عبد الله الجرارى- الغاية من رفع الراية، ص(10، 11).

فكان لاشبيلية علم ولقرطبة علم ولغرناطة علم ولمرسية علم ومرسية علم وغيرها[1]

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى ذلك الخلط الذى يقع فيه كثير من المؤرخين حيث لم يفرقوا تفرقة دقيقة بين الراية واللواء، فأطلقوا كلاً منهما على الآخر بلا تحديد ولكن من المراجعة الدقيقة لبعض النصوص يمكننا أن نفرق بينهما من ناحيتين

أ - أن اللواء يكون كبيراً أبيض اللون وفى داخله كتابة وقد يطلق عليه بند، فقد جاء فى المختار من صحاح اللغة «مدة بند» أن البند هو العلم الكبير، وهو لفظ فارسى معرب وجمعه بنود، بينما الراية تكون مختلفة الألوان، وقد لوحظ من النصوص المختلفة فى بعض المراجع أن المؤرخين يذكرون الألوان مع الرايات ولم يذكروها مع اللواء أو البند، ويشيرون إلى الكتابة التى تكتب عليه ومن البدهى أن الكتابة تظهر واضحة فى البياض لا فى الألوان المختلفة.

ب - إن البند أو اللواء هو الرمز العام للجيش ويرفع على مركز القيادة العامة، أما الرايات فتكون صغيرة دالة على الوحدات والقبائل التى يتألف منها الجيش، وقد جاء فى وصف ابن الخطيب لجيش «تاشفين بن على» عندما اعترض جيش النصارى بناحية بطليموس (فكانت هناك البنود البيض الناسقات من الحرير مكتتبة فيه بالذهب بعض الآيات بأعلى دائرة يسمونه العلم المنصور، يحمل دائماً بين يدى السلطان فى القلب ومعه وجوه المرابطين[2].

أما الوحدات الأندلسية فتحمل رايات حمر مزخرفة، وكان أبطال الجنحين من أهل الثغر عليهم الرايات المرقعات بالعربات المجزعات، أما المقدمة التى تحتوى على مشاهير زناتة ولفيف الحشم فعليهم الرايات المصعدت والأعلام المركشة[3].

وقد اختار الموحدون اللون الأخضر كى يظهروا ميلهم للدولة العلوية[4]، وقد

(١) عنان تاريخ المرابطين، ج(١) ص (٤١٩)، صبح الأعشى، ح(٥)، ص (٢٠٦)

(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة المجلد الأول ت عنان، ص(٤٦٠)، أعمال الأعلام القسم الثانى ت العبادى ص(٢٥١)

(٣) المصدران السابقان ونفس الصفحات

(٤) حسن على حسن رسالته فى الدكتوراة، ص(٥٩)- أشباخ - تاريخ الأندلس، ح(١) ص(٢٤٠)، قيام دولة المرابطين ص(٢٣٦)

اهتموا بالبنود والرايات لدرجة أنه كان لجيش الدولة رايات متعددة حتى أنهم كانوا يعلقون راية على رأس كل مائة جندي حيث كان يتقدم كل هذا البند أو اللواء الأبيض المكتوب عليه (لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا غالب إلا الله)[1]، كان من اهتمام الموحدين بالأعلام ظهور وظيفة صاحب العلامات ومهمته الإشراف على الأعلام السلطانية وبيوت الطبل[2].

وعلى الرغم من تعدد هذه الرايات فإن الموحدين قد قصروا الطبول والبنود على السلطان وحظروها على من سواه وجعلوا لها مراكب خاصة تتبع أثر السلطان في مسيره، وقد كانت أعلام الموحدين تتوزع بالسعة، الأوسط منها أبيض وهو اللواء وإلى جانبه بقية الرايات ذات الألوان المختلفة منها الأصفر والأحمر والأخضر غير أعلام القبائل، فلكل قبيلة علم خاص بها مكتوب عليه بعض الكتابات البسيطة مثل (لا إله إلا الله، أو الملك لله) وما أشبه ذلك. هذا وعند رفعها تكون مصحوبة بدق الطبول وأصوات البوقات والنفير[3].

ويبدو أن هذا التنفس في أمر الرايات جاء بعد توطد ملك الموحدين وظهورهم، ويحكي لنا صاحب «نظم الجمان» أن المهدي قال لأتباعه عندما هالهم قدوم أعدائهم من المرابطين رافعين راياتهم بألوانها المختلفة: لا تهولنكم هذه الخرق وارفعوا أنتم ما لديكم من الثياب فعن قريب تصير هذه العلامات كلها لكم، فرفعوا أزرهم وأكسيتهم وأرديتهم ونحو ذلك، ثم أفاء الله عليهم علامات أعدائهم[4] ثم اتخذ المهدي لواء أبيض يكون رمزًا لجيشه كتب على أحد وجهيه (الواحد الله، محمد رسول الله، المهدي خليفة الله) وكتب على الوجه الآخر (وما من إله إلا الله، وما توفيقي إلا بالله، وأفوض أمري إلى الله)[5] وكانت تسمى العلم السعدي[6].

---

(١) [illegible] الغاية – من رفع الراية، ص(١٢).
(٢) صبح الأعشى، ج(٥) ص(١٣٩).
(٣) المصدر السابق، حسن الباشا – الفنون الإسلامية، ص(٢٤٣).
(٤) ابن القطان – ت محمود علي مكي، ص(٢٨).
(٥) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.
(٦) القلقشندي – صبح الأعشى، ج(٥) ص(١٤٣).

ثالثًا: الموسيقى

الموسيقى عنصر هام من عناصر رفع معنويات الجنود وإثارة هممهم فى القتال لذا لا نرى جيشًا محاربًا فى قديم الزمان أو حاضره يغفل هذا العنصر الفعال فى إلهاب حماسة الجند سواء بالغناء أو قرع الطبول أو أصوات الأبواق أو الموسيقى. فقد كانت من عادة العرب فى حروبها أن تقدم من يتغنى أمام الموكب بالشعر فتجيش همم الأبطال وقد كانت زناته تقدم شاعرًا أمام الصفوف يتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسى، ويبعث على الاستماتة ويسمون ذلك الغناء «تاصوكايت»[1] باللهجة المغربية.

وقد استخدمت الجيوش المرابطية والموحدية الطبول إذ كانت الجيوش تخرج إلى الحرب تحت قرع الطبول وصوت الأبواق[2]، وقد قدم لنا صاحب الحلل الموشية وصفًا لهذه الطبول الكبيرة التى كانت تضرب عند السفر أو الحرب فهى طبول مستديرة الشكل يبلغ دورة الواحدة منها خمسة عشر ذراعًا من خشب أخضر اللون مذهب الحافة وكان يسمع صوته على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع فى يوم لا ريح فيه[3].

وكان لطبول المرابطين صوت هائل إذا قرعت اهتزت لها الأرض وتجاوبت الآفاق وارتاع العدو، وقد أذهلت هذه الطبول أهل الأندلس من النصارى لأنهم لم يتعودوا سماعها من قبل، وقد لعبت هذه الطبول دورًا بارزًا فى معركة الزلاقة فعندما خرج الموقف أمر يوسف بدق الطبول فأحدثت دويا عاليًا ثم هجم على محلة ألفونسو محدثة مضرمًا فيها النيران فارتبك العدو وارتعدت فرائصه لقرع هذه الطبول، وحقق عاهل المرابطين نصرًا مؤزرًا فى هذه الموقعة.

وقد خصص المرابطون للطبول وظيفة يسمى القائم عليها «صاحب العلامات» فقد كان من مهامه دق الطبول عند ركوب السلطان فى المواكب ويكون مكانه عادة هو وفرقته خلف الأعلام و يتقدمهم السلطان وتأخذ فرقة الطبل أوامرها من فارس عن يمين السلطان[4].

---

(١) ابن خلدون المقدمة، ص (٢٨٧)

(٢) حسن أحمد محمود الدكتور - قيام دولة المرابطين، ص(٢٨٠)

(٣) الحلل الموشية، ص (١١٦).

(٤) القلقشندى - صبح الأعشى، ج (٥) ص (١٤٦)

وقد استعملت الطبول لتحميس الموحدين لفتح مدينة، وكذلك استعملت للأساطيل البحرية وكان لها فرق خاصة وطبول معينة تميزها عنها، وكانت تستعمل عند الرحيل، وعند بدء المعركة وعند كل إجراء عام يجب أن يقوم به الجند وعند الانسحاب أيضًا. فقد كان من عادة الموحدين عند تحرك جيوشهم أن يبدأ المسير عقب صلاة الصبح على صوت طبل الرحيل[1]، وفي غزوة وبذة التي أخفق فيها الخليفة أبو يعقوب بنفسه، عقد مجلس حرب للتشاور مع قادته فتقرر الانسحاب فأمر بحرق البرج المصنوع لقتال النصارى وسائر الآلات التي صنعت معه، وفي الصباح ضرب الطبل الكبير إيذانًا بالرحيل[2].

رابعًا: استعراض الجند والتدريبات

إن الحرب عادة تحتاج إلى نوع معين من الرجال يتميزون بقدرات خاصة ولا يتأتى هذا إلا بممارسة التمرينات البدنية والتدريبات القتالية.

وكان التدريب يقوم على ألعاب الفروسية والإقدام التي كانت ممثلة في المبارزة بالرمح والرمي بالسهام وسباق الخيل. وكان الخليفة يخرج أحيانًا إلى مكان التدريب للإشراف عليه بنفسه.

ومن المحتمل أن المرابطين قدموا خدمات للتدريب والفروسية لجنودهم لأنه من المعروف أن الفروسية شرط أساسي في حياة المرابط وشرط في التربية الإسلامية التي أوضحها الرسول غاية الإيضاح وعممها. فقد روي عنه ﷺ أنه كان يشجع المسلمين على الرمي فيقول: «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه المحتسب في عمله الخير، والرامي به، والممد به. فارموا واركبوا وإن ترموا أحب إلى من أن تركبوا»[3].

ولا يعقل أن يخوض الجيش المرابطي معارك قبل استعدادات وتمرينات يومية لفرسانهم وجنودهم، ولم يثبت دوام التمرينات البدنية في جيوش المرابطين تلك

(1) الحلل الموشية، ص (116).

(2) عنان- عصر المرابطين والموحدين، ج (2) ص (79).

(3) ابن القيم الجوزية - الفروسية طبعة دار الكتب، ص (16).

الاستعراضات الكبرى التي تقدم لهذه الجيوش قبل خوض المعارك فابن يوسف بن تاشفين، قبيل خوض معركة الزلاقة قد استعرض جنده على حصن لرقة فرأى منه ما يسره فقال للمعتمد بن عباد: هلم لنجتنيه من الجهاد وقصد العدو، وكان عدد الجنود الذين حشدوا سبعة آلاف فارس فيما عدا الكثير من الرجالة(1).

ومن المسلم به أن عظمة العرض ودقته لدليل على كثرة التدريبات الحربية، فيحكي لنا صاحب الحلل الموشية أن تاشفين بن علي قد استعرض جنده بمدينة «تلمسان» - ويبدو أنه كان آخر عرض لجيوش المرابطين - وعندما برز الجيش عجب الناس من كثرة عددهم وتكاملهم في الزينة حتى زعموا أنهم لم يروا مثل تلك الجيوش حسنًا ولا جمالاً وعدة وكمالاً(2).

أما فيما يتعلق بدولة الموحدين في تربية شبابها تربية حربية، فقد أولتهم عنايتها وفائق رعايتها إذ أقاموا لهم حلقات التدريب الشاق، وبين أيدينا نص يثبت أن «عبد المؤمن بن علي» كان يعنى بتدريب الحفاظ من دولته، فقد جمع منهم ثلاثة آلاف يدخلهم في كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل قصره فيأخذهم يومًا لتعليم الركوب ويومًا للرمي بالقوس ويومًا للعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه(3).

من هذا يتضح أن الموحدين أنشأوا المدارس الحربية لكي تحفظ الروح العالية فيهم وتعاون على إخراج القادة الأكفاء والمحاربين البواسل. وكان يجمع لهم الفتيان بالألوف وبالأخص من قبيلة «مصمودة» ترعى بينهم وحدة الجنس فيدرسون آثار المهدي وتعاليمه ثم يدربون على استعمال صنوف السلاح وعلى فنون ركوب الخيل والسباحة، ويدرسون كل ما يتعلق بالحصار والسحر والقتال ويتبارون في السباق ورمي الحراب والقتال بالقوس. وقد أقيمت بجوار مراكش بركة وضعت فيها القوارب والأفلاك وسفن الحرب الصغيرة يتعلم فيها الطلاب التجذيف وقيادة السفن وكل ما تطلبه الحرب البحرية من فنون ومهارة.

وكان هؤلاء الفتيان الذين يسمون بالحفاظ يعرضون من وقت لآخر أعمالهم وبراعتهم أمام الخليفة وكان التعليم على نفقة الحكومة الموحدية(4).

---

(1) دوزي ملوك الطوائف، ص (٢٨٨ - ٢٩٠).

(2) الحلل الموشية، ص (٩٨).

(3) المصدر السابق، ص (١١٤)

(4) المصدر السابق، ص (١١٤).

وإذا كانت الجيوش المعاصرة تقيم من آن لآخر مناورات حية لجيوشها لتدريبهم على جو المعارك وليستشعروا جوها في أنفسهم، فإن الموحدين قد حرصوا أيضًا على إقامة تلك المناورات، وكانت تمثل حربًا بين فرق الجيوش المختلفة، وكان من عادة السلطان في الحربيات أن يركب بعد العصر في معسكره ويذهب إلى نهر، ثم يخرج إلى مكان فسيح من الصحراء فيقف به على مرتفع من الأرض وتتطارد الخيل قدامه وتتطاحن الفرسان وتمثل الحرب لديه، وتقام صفوفها على سبيل التمرين حتى كأن الحرب حقيقية ثم يعود في موكبه إلى قصره وتتفرق العساكر(1).

وكان يتم هذا غالبًا قبيل كل حرب فمثلاً أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن يستدعي الجنود من الموحدين وعرب أفريقية ويلتقي معهم في مكان واسع بمراكش وتمثل الحرب أمامه خير تمثيل، حيث تضرب القبة الخليفية الحمراء وسط الفحص وتقرع الطبول ويحمل الفريقان من الجند كل على الآخر حملة مبارزة ورياضة، فيصول ويجول الفريقان ويبدع كل منهم في حركته(2). وقد حرص خلفاء الموحدين على استعراض جيوشهم قبل خوض المعارك فنرى عبد المؤمن حريصًا على إقامة هذه الاستعراضات مثل الاستعراض العسكري الذي أقامه بالقرب من وهران، وكذلك عندما وصل بجيوشه صوب ضجة ليعبر منها إلى الأندلس أقام استعراضًا أيضًا لجيشه، وأصبحت إقامة الاستعراضات هدفًا حرصت عليه القيادات الموحدية لتظهر جيوشها بمظهر لائق ترهب به الأعداء وتقوي من معنويات جنودها. وسوف نقدم وصفًا لما كان يجري في هذه الاستعراضات العسكرية لجيوش الموحدين من خلال استعراض الخليفة أبي يعقوب يوسف لجيشه في فحص مراكش حيث يقوم صاحب المخزن بتوزيع الدروع والبيضات والرماح والأسلحة والكسى والأعلام على الجنود، وفي اليوم المحدد لإجراء العرض يتجمع الجند والحشد من الطلبة عند باب السدة، وفي هذا المكان تنظم الصفوف قبيلاً قبيلاً وسلاحًا سلاحًا تتقدمهم الطبول العديدة، وعندما تكتمل الصفوف يسير الخليفة

---

(1) القلقشندي - صبح الأعشى، ج (5) ص (205).

(2) عنان- عصر المرابطين والموحدين، ج (2) ص (63) نقلاً عن ابن صاحب الصلاة

ممتطيا صهوة فرسه الأشقر ويلي حصانه وزيره سائرا على قدميه لصق ركابه يشير عليه فيما يعن من الأمور، وفي ساقة الخليفة يسير إخوته ومن ورائهم حملة البنود وأكابر الدولة يحمل كل منهم علماً وعليه درع سابغة ثم يتبعهم سائر الجند من الحشم والصقالبة والعبيد، وقد ينتهي هذا العرض بمناورة بين صفوف الجيش ثم يأمر الخليفة بانتهاء العرض وانصراف الجند[1].

خامسًا: الحرس الخاص

مما لا شك فيه أن ظهور الحرس الخاص للسلطان أمر مرتبط بالتمدين والتأثر بتيارات النهضة الحضارية، فمنذ ظهور قوة المرابطين في دور الرباط لم نسمع عن حرس خاص لأمراء المرابطين الذين تربوا في مهاد الصحراء وتم تكوينهم وتربيتهم في رابطة بن ياسين أمثال يحيى بن إبراهيم الجدالي، ويحيى بن عمر اللمتوني، وأبو بكر عمر اللمتوني، الذين تولوا قيادة جيوش الملثمين في أطوارها الأولى. ولم يكن لزعيمهم الروحي ابن ياسين حرس خاص به. ومن المحتمل أن يكون يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين هو أول من اتخذ حرسًا خاصًا به متأثرًا في ذلك مما كان يفعله ملوك المغرب من قبله إذ كانوا يتخذون حرسًا خاصًا لحمايتهم. وتشير المراجع أنه في سنة ٤٦٤هـ بعد أن وصل أبو بكر عمر إلى الصحراء وترك نصف جيش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين ابن عمه، أن يوسف هذا اشترى جملة من عبيد السودان ما يناهز ألفي عبد وأركبهم فرسًا فغلظ بذلك حجابه وعظم ملكه[2].

وقد كان من السهل على دولة المرابطين الحصول على حاجتها من العبيد بالشراء، وقد كانت تمتد حدود هذه الدولة من حوض السنغال في الجنوب حتى البحر المتوسط في الشمال متوغلاً في بلاد السودان الجنوبي. ولم يكن يوسف بن تاشفين مبتدعًا في هذا الأمر فقد كان أمراء المغرب يستعملون فرقًا من هؤلاء السود يتخذون منهم حرسًا خاصًا يدينون لهم بالولاء، فقد استعان بهم الأغالبة ثم بنو زيري[3] من بعدهم. وكان يوسف أحيانًا يستعين بالعلوج وهم من النصارى

---

(١) عنان- عصر المرابطين والموحدين، ج (١) ص (٩٢). (٢) الحلل الموشية، ص (١٣)

(٣) حسن أحمد محمود الدكتور - قيام دولة المرابطين، ص (٣٧٩)

المعاهدين الذين اعتنقوا الإسلام حيث كونوا منهم فرقة في حرسه الخاص كان عددها مائتين وخمسين فارساً تقريباً[1]، كما قد سبقا تسهر على شخصه[2]. وكان هؤلاء الجنود من المرتزقة قد لعبوا هذا الدور في خدمة ملوك الطوائف بالأندلس من قبل، فلما أعجب بهم ابن تاشفين جلب عدداً منهم وأحاطهم بعطفه وصلاته وأنعم على من امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة بالهبات من الخيل والثياب والسلاح[3] كما أن هناك مجموعة من الوزراء كانوا نصارى وأسلموا واندرجوا في حرس السلاطين وعن هذا الطريق وصلوا إلى مواضع نفوذ في جيوش المرابطين أمثال "أرضون بن أبي النعيم"، و"أبي السرور مفرج" و"أبي القاسم بن رضوان بنجاش"[4] وكانت هذه الفرق مزودة بالسلاح والخيل ومدربة على جميع فنون القتال ويتألف سلاحهم من سيوف الهند ومزاريق الزان ودرق اللمط.

ولم يقتصر دور هذه الفرق على حراسة السلطان فقط بل كانت تلازمه في معاركه وحروبه للدفاع عنه والدخول في المعركة في لحظاتها الأخيرة لتغليب كفة الميزان وانتزاع النصر[5] من الأعداء، كما حدث في موقعة الزلاقة وقد سبق الحديث عن ذلك.

وفي دولة الموحدين كان للحرس الخليفي المكون من الجند العبيد ونخبة من الجند البربر كبير شأن، فقد كانوا يصطحبون الخليفة في سفره وغزواته، فمتى ضربت القبة الحمراء التي يرابط فيها الخليفة - كما عرفنا سابقاً - أحيطت بالسلاسل الحديدية ويحف بها الحرس الخليفي يحملون الرماح الطويلة، وكان الخليفة متى رأى قواته خلال المعركة في حاجة إلى العون كان يقود الساقة بنفسه وفيها الحرس الخليفي ليشد أزر قواته.

وقد أثبت الحرس الخليفي ولاء وإخلاصاً لقادتهم من الموحدين فعندما يتحرج الموقف ويستعر لهيب المعركة كانوا يستميتون في الدفاع عن قبة الخليفة الموحدي ويكونون سياجاً صلباً يمنع وصول الأعداء إليها، وكان أحياناً يخترق العدو هذ

---

(1) الحلل الموشية، ص (١٣).
(2) النباخ- تاريخ الأندلس، ج (١) ص (٧١)
(3) المصدر السابق، ج (٢) ص (٢٣٦).
(4) لويس سيكودى لوثينا- الوثائق العربية الغرناطية، ص (٩٥).
(5) نفح الطيب، ص(٥٣٠)، دوزى ملوك الطوائف، ص (٢٨٦).

السياج والسلاسل الحديدية التي تحف بالقبة الخليفية فتقع الكارثة ويفنى أغلب الحرس دفاعًا عن الخليفة، كما حدث في موقعة العقاب التي هزم فيها الخليفة الناصر الموحدي. فقد ضربت قبته الحمراء فوق ربوة عالية تحيط بها الجيوش الموحدية ودار الحرس الخليفي حولها من كل ناحية شارعين رماحهم وسهامهم نحو الأعداء، وأحيطت القبة بعد ذلك بسلاسل من الحديد، وفوقها العلم المنصور الأبيض. وقد استطاع النصارى أن يخترقوا السياج الحديدي تحت وابل من سهام وحراب العبيد حيث كانت هجماتهم عنيفة، وقد صمد الحرس الخليفي أمام هجماتهم مدافعًا عن الخليفة، وقتل في هذه المعركة ما يقرب من عشرة آلاف عبد[1].

وتقدم لنا الرواية العربية، وصفًا لموكب السلطان وحرسه الخاص في ولاية المغرب الأقصى في عهد الموحدين، على غرار ما تفعله الأمم الحديثة من اتخاذ حرس الشرف عند السفر أو استقبال ضيف كبير فيحتفل به احتفالاً رسميًا حيث **يصطف حرس الشرف لتحيته.**

ويتكون ذلك الحرس من حملة الأعلام التي تتقدم الموكب فيحمل أحدهم العلم الأبيض المسمى «بالعلم المنصور» الذي يكون دائمًا بين يدي السلطان، ومنها أعلام دونه مختلفة الألوان، ويسير في موكب السلطان أيضًا ثلاثة من خاصة وصفائه، أو من أبناء خدم سلفه يحملون سيفًا ورمحًا ودرقة، أما أكابر قواده من علوجه الفرنج ورجاله من الأندلس فيحملون الأطبار ويعبرون عنها «بالطبرزينات» ويسيرون خلفه وأمامه. ويسير في موكبه أيضًا خمسون رجلاً مشاة يحملون رماحًا طوالاً وقصارًا مشدودي الأوسط بيد كل واحد منهم رمحان، رمح طويل والآخر قصير، وهو متقلد مع ذلك السيف. وتقاد أمام السلطان خيول عليها سروج مخروزة بالذهب وركبها من ذهب، كل ركاب زنته ألف دينار، وعليها ثياب سروج من الحرير مرقومة بالذهب ثم تدق الطبول وينفخ في الأبواق خلف ساقته[2].

وكان يستخدم هذا الموكب في خروج السلطان سواء في السفر أو الحرب أو عند الجلوس للمظالم مع تغيير بسيط. فعند الجلوس للمظالم يجلس حول السلطان

---

(1) روض القرطاس، ص (159).

(2) صبح الأعشى، ج (5) ص (207)

ثلاثة من كبار أشياخ الموحدين وربما عشرة للرأى والمشورة، ويجلس معهم وزير الجند إن كان من رتبة الأشياخ وإن لم يكن كبيرا وقف بإزاء أولئك الثلاثة، ثم يقف وراءه خمسون وقوفا يبلغون أوامر السلطان، فإذا أمر بأمر بلغه وزير الجند لمن يقف وراءه ويبلغه الآخر لآخر حتى ينتهى إلى من هو خارج الباب، وهؤلاء الخمسون يسمون "الموقفين الكبار"، وهناك جماعة تسمى "الموقفين الصغار" وهى أقل رتبة من الخمسين بأيديهم السيوف خشية السلطان[١] كما قلنا سابقا.

وقد ذكر صاحب صبح الأعشى وصاحب نظم الجمان وصف لموكب السلطان عند خروجه للسفر، ويبدو أنه وصف لموكب الخليفة الموحدى نفسه، فكان من عادة الموحدين إذا تحركوا أن يتقدموا أمامهم لواء أبيض مع عدد من الرجالة يكون بينهم وبين الأمير مقدار ربع ميل، ويكون الأمير متقدما على الناس خلف اللواء المذكور فى جملة حرسه وشيوخ الموحدين والمقربين إليه، ثم تتبع الرايات الطبول والعسكر المعروفون بالساقة[٢].

وإذا ما ركب السلطان ركب إلى جواره فارسان من الشيوخ الكبار عن يمين ويسار، ويمشى بالقرب من السلطان رجلان مقلدان سيفين أحدهما يمسك بركابه الأيمن والآخر يمسك بركابه الأيسر، ويلى الرجلين جماعة من أكابر دولته يمشون حوله بالسيوف وبأيديهم عكاكيز، وربما مشى فى هؤلاء قاضى الجماعة، وأمام هؤلاء نفر من الموحدين أقرب للسلطان بسيوف ومزاريق ثم العبيد السود. ويقال لهم "جفوة" بأيديهم حراب فى رؤوسها رايات من حرير وهم لابسون جبابا بيضا متقلدون السيوف[٣].

وإذا تحركوا فلا يزال القرآن يقرأ بين أيديهم بالغدو والعشى ماداموا هم ركبانا فكلما قرأوا حزبا منه وقف السلطان ودعا وأمَّن وزير الجند على دعائه ويؤمن الناس على تأمينه، فإذا فرغ تابع قراءة القرآن طلبة الموحدين جملة وهم سائرون ثم شيئا من الحديث ثم يقرأون تواليف "ابن تومرت" فى العقائد بلسانهم وباللسان

---

(١) القلقشندى- صبح الأعشى، ج (٥) ص (١٤٤، ١٤٥).

(٢) نظم الجمان، ص (١٢٨).

(٣) صبح الأعشى، ح (٥) ص (١٤٦).

العربي. فإذا فرغوا وقف الخليفة وبسط يديه بالدعاء كما سبق حتى يصل إلى منزله في خيمته[1].

من هذا العرض يتضح أن دولتي المرابطين والموحدين قد استعملوا الحرس الخاص وقد ظهر الحرس الخاص في دولة المرابطين على يد مؤسسها العسكري «يوسف بن تاشفين». وكذلك الأمر في دولة الموحدين فإن الحرس الخليفي قد ظهر على يدي عبد المؤمن بن علي مؤسس تلك الدولة العسكرية.

ولم يثبت أن الداعيتين «عبد الله بن ياسين» المرابطي، والمهدي «ابن تومرت» الموحدي. أن اتخذ أحدهما حرساً خاصاً، فقد كانا في قلوب أتباعهما محفوفين بالرعاية لا يجرؤ أحد من أتباعهما أن يرد عليهما قولاً أو يعصي لهما أمراً، وكانا لابد أن يظهرا بمظهر الزهد والعزوف عن مظاهر الحكم حتى يثق فيهما تبعهما.

ولعل في حديثنا هذا عن الحرس الخاص بدولتي المرابطين والموحدين يكون فيه رد كاف على الدكتور «أومان» لدى زعم أن العرب (لم يتمكنوا من تجنيد جيش ثابت معد للجهاد، ولم يعرفوا مزايا التدريبات والتنظيمات العسكرية وإنما كان حرس الخلفاء هو الجيش المعد للجهاد، وباقي الجيش كان يتألف من أخلاط أخرى تبغي الجهاد من أجل المغانم، أو من جنود الأقاليم والأمصار)[2].

وقد تعرض لهذه النقطة أيضاً المؤرخ «جوستاف لوبون» حيث قال: (والخليفة كملوك ذلك العصر، لم يكن صاحب جيش دائم، وكانت تقوم بالمحافظة عليه كتيبة قليلة من الحراس، وإن كان يستطيع أن يجند كل شخص قادر على حمل السلاح من رعيته)[3].

أليس في حديثنا عن الحرس الخاص ما يدحض زعم هؤلاء المتطاولين على حضارتنا والذين يحاولون إطفاء وهج منارها الساطع الذي ظل يسطع بنوره قروناً طويلة يهدي قادة القرون الوسطى من دول الغرب، ويعلمها دروساً من فنونها العسكرية الإسلامية بالمغرب والأندلس.

---

(١) عبد الواحد المراكشي - المعجب في تلخيص أخبار المغرب - تحقيق العريان، ص (٢٢٧)

(٢) Ahistory of the art of war. p 209.

(٣) حضارة العرب تعريب زعيتر، ص (٢٩٥)

الفصل الرابع

الشئون الإدارية لجيوش الدولتين

الأعطيات الإطعام الإسكان الدواوين

أولاً: الأعطيات

كانت للجيوش المرابطية والموحدية أنظمة مالية وإدارية تختص بالإشراف على شئون الجند من حيث الأعطيات والرواتب الجارية.

وقد كان النظام القبلي أساس جيش الخلافة المرابطية والموحدية، وكان نظام التطوع يقوم بجانب الحشد الجبري، فظهر نوعان من أنظمة الجندية هما الجند النظامي وهم الموقوفون على الجهاد ويتقاضون أعطياتهم، ومنهم من الديوان. أما النوع الثاني وهو جند متطوعة وهم الذين يلتحقون بالجيش وقت الحرب فقط ويسرحون وقت السلم، وحظهم من الجهاد هو أسهمهم فقط.

وقد كان يتم حصر أسماء المحاربين في ديوان الجند لصرف أعطياتهم المقررة، الأمر الذي جعلهم يحاربون وهم مطمئنون حيث الرواتب والأقوات كانت تسلم إلى ذويهم بصورة منتظمة.

وكان الفارس المرابطي سواء في المغرب أو في الأندلس يتقاضى خمسة دنانير مرابطية من الذهب في الشهر غير نفقة الحملة وعلف فرسه، وكان من ظهر منهم شجاعته وتفوقه يعهد إليه بولاية موضع ينتفع بفوائده[1].

هذا بالإضافة إلى الرواتب الجارية الخاصة بالأمراء بحضرة السلطان من اللحم والتوابل والخبز والعليق والزيت، وكان لأعيانهم الكسوة وقد جرت عادة السلطان أن ينعم على أمرائه بالخيول[2].

أما أرزاق جند الموحدين كما وردت في الرواية المغربية عن مملكة المغرب فكان كالآتي:

---

(1) الحلل الموشية، ص(57 - 59).

(2) د/ حسن الباشا - الفنون الإسلامية، ج (1) ص (165).

١ - الأشياخ الكبار من الجند، وكان يجرى لهم الإقطاعات حيث يعهد لكل منهم بولاية بعض القرى أو الضياع أو القلاع، ويتحصل منها كل سنة ما يقرب من عشرين ألف مثقال من الذهب بالإضافة إلى كميات هائلة من حبوب القمح والشعير وما يكفى خيله ودوابه. ويجانب الإقطاع كان يجرى عليهم الإحسان من السلطان فى رأس كل سنة يمنح فيها كل شيخ حصانًا بسرجه ولجامه، وسيفًا ورمحًا، وبقجة قماش تحتوى على ثوب مقطع سكندرى أو قطعتين من الجوخ وثوبين أبيضين من الكتان من صنع أفريقية، وإحرامًا شاميًا طوله ثمانون ذراعًا، وربما زيد الأكابر على ذلك وربما نقص منه حسب مكانة هذا الشيخ إن كان من أتباع المهدى أو مقربًا من السلطان[١].

٢- الأشياخ الصغار: لهم من الإقطاع والإحسان نصف ما للأشياخ الكبار من الحصان والسرج والملجم والسيف والرمح والكسوة، ومنهم من لا يلحق هذه الرتبة فيكون أنقص.

٣- الطبقات الأخرى: من الأشياخ فهى على طبقات حسب التقرب من السلطان، فالمقرب منهم ينال ستين مثقالاً، من الذهب كل شهر وما دون ذلك فى الرتبة يتحصل على ثلاثين مثقالاً، وتتناقص هذه القيمة إلى أن تنتهى إلى أقل الطبقات وأجرها ستة مثاقيل فى كل شهر للجندى الواحد[٢].

فضلاً عن ذلك فقد كانت الدولة الموحدية تقيم المراسيم والاحتفالات ولا سيما فى ازدهار الدولة وقوتها، حيث تقام المآدب للطعام وتوزع الأسلحة والكسوة التى تمنح من قبل السلطان للفارس.

وكان كساء الفارس عبارة عن طقم كامل من عفارة وعمامة وكساء وقسطة وشقة[٣]، هذا علاوة عن مبالغ من النقود الذهبية تسلم إلى القادة والأعيان تصل أحيانًا إلى المائتى دينار، لكل واحد منهم، كما أغدق الموحدون العطاء لأشياخ الجند من العرب فقد يصل الواحد منهم إلى عشرين دينارًا[٤].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج (٥) ص (٢٠٤، ٢٠٥)

(٢) نفس المصدر السابق، نفس الجزء، ص (٢٠٥)

(٣) عفارة: ثوب ينسب إلى قبيلة عفارة من همدان (المختار الصحاح) مادة عفر، قسطة: وهى نصيب من القماش دون حياكة

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى، ج (٥) ص (٦٣٩)

وقد تجرى هذه الإقطاعات عدة مرات فى كل معركة عقب عملية التمييز التى كانت تتم فى أول الأمر بصورة تعسفية بقصد استبعاد الخصوم أو المارقين أو إعدامهم وتطهير صفوف الجيش منهم، فيبقى بعد ذلك الصفوة من الجند وكان يقوم بإجراء هذا التمييز ديوان خاص به يسمى ديوان التمييز، يجرى قبل كل غزوة ويعمل به زمام من قبل الخليفة ثم يقرن بالإقطاعات والبركات على الجند الذين غزوا.

ومن هنا يتضح مدى ثراء دولة الموحدين وزيادة مواردهم المالية حيث أغدقوا على جنودهم بالأموال والهبات الأخرى، ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا يريدون استقطاب قادة الجند المرابطين وجنودهم إلى جيوشهم ليستعينوا بهم فى معركة الجهاد بالأندلس، ويلاحظ أيضًا أن صرف هذه الأعطيات كان يتم على نطاق قبلى حيث روعى الترتيب القبلى والقرب من السلطان.

ثانيًا: الإطعام

كانت جيوش المرابطين بإطعام الجند وقد خصص لذلك وظيفة عسكرية خاصة تسمى "صاحب الطعام"[1] يشرف على طعام الجند وإعداد الطعام لهم فى المعسكرات بأوقات منظمة.

ويبدو أن المرابطين لم يحتفلوا فى أول أمرهم بهذه المرتبة لأنه من المعروف أن اللمتونيين كانوا صحراويين لا يعرفون الحرث ولا الزرع ولا الخبز وإنما لهم الأنعام الكثيرة فيعيشون من لبنها ولحومها، لذا كان يقدم لهم اللحم مطحونًا محتفًا عليه الشحم المذاب ويأكلونه ويشربون عليه اللبن ويكفيهم هذا طيلة اليوم[2].

وأحيانًا كانت تقدم لهم وجبة مستحبة عند أهل مدينة "نول" وهى من قديد العسل والسمن وهو عبارة عن حنطة مقلوة مدقوقة تعجن على النار بقدر متساو من السمن والعسل متوافر بالمنطقة، فإذا أكل المرء الكف وشرب فوقه لبن كفاه ذلك طول النهار وكانوا يستحبون أيضًا شرب الزبيب المنقوع فى الماء[3].

---

(١) صبح الأعشى، ج (٥) ص (١٣٧)

(٢) الاستبصار، ص (٢١٣)، المغرب لأبى عبيد البكرى، ص (١٧٠).

(٣) شعيرة - المرابطون و تاريخهم السياسى، ص (٢٠)

ويبدو أنه عند خروج الجنود للمعركة كان كل جندي يحمل طعامه بنفسه حيث كانت تقام سوق كبيرة للجيش يشتري منها كل جندي طعامه، لأننا نجد في بعض تعليقات المؤرخين عقب هزيمة الجيوش ما يشير إلى أسباب الهزيمة من قلة المؤن والزاد وغلاء الأسعار فى سوق الجيش، واختفاء الزاد والعلف[1].

ولما تقدمت الجيوش المرابطية والموحدية، واختلطوا بشعوب الأندلس من المحتمل أن يكونوا قد حملوا الطباخين إلى جيوشهم، وتعلموا أصنافا من الطعام. وقد قدم لنا القلقشندي وصفا لمائدة سلطان المغرب، يبدو أنها كانت على عهد الموحدين حيث كان من عادة سلاطينهم أن يجلس كل يوم فيدخل عليه الأشياخ الكبار فيسلمون عليه ثم تقام لهم الموائد وعليها أطعمة مختلفة الأشكال والأنواع بالإضافة إلى الحلوى المصنوعة من العسل والزيت وأخرى من السكر، فيأكلون ثم يتفرقون إلى أماكنهم لمشاهدة التدريب على فنون الحرب[2].

ثالثًا: الإسكان

كان المرابطون والموحدون إذا افتتحوا بلدا أقاموا معسكرا ثابتا فى بعض ضواحيه ليقيم فيه الجند لحراسة أهل ذلك البلد من التمرد عليهم، وكانت هذه المعسكرات بمثابة محطات استراحة على أطراف الطرق الصحراوية حتى تم إنشاء معسكرات دائمة.

وكانت هذه المعسكرات المؤقتة عبارة عن مضارب خيام فى أول الأمر، وكانت تصنع من الكتان أو الصوف أو القطن، وكانت هذه الأخبية مختلفة الأحجام ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة فى الثروة واليسار.

وكانت العساكر كثيرة العدد متباعدة المنازل متفرقة الأحياء، ويصعب جمعهم أو النداء عليهم، لذا فكروا فى جمع هؤلاء الجند فى خيام متقاربة يسهل الإشراف عليهم[3].

---

(1) الحلل الموشية [illegible] ص (91)، [illegible] ج (1) ص (53)، [illegible] المرابطين والموحدين، ج (1) ص (231)

(2) صبح الأعشى، ج (5) ص (205)

(3) ابن خلدون - المقدمة ص (298، 299)

ومرور الوقت أصبح المعسكر كمدينة عامرة بالمنازل، فبعد أن كانوا ينزلون بخيامهم المتباعدة المساحات على غير نظام يصعب على القائد تجميعهم أو ندائهم أصبحت الخيام تقام في صفوف متقاربة منظمة يجمعها جميعاً ساحة واحدة يحيط بها سياج من الخشب يمنع الناس من الاختلاط بهم، ويفصل هذا السياج بين فسطاط القائد وفساطيط الجند.

ثم بمرور الوقت تحول هذا المعسكر المؤقت إلى معسكر دائم يضم فرق الجند المختلفة بعائلاتهم ويحوي الكتاب والفقهاء والأطباء وأصحاب الخيول والأتباع وغيرهم، ثم تطور هذا المعسكر إلى مدينة كبرى تعتبر مركزاً عسكرياً دائماً ترابط به الجنود متأهبين للغزو عند إصدار الأوامر لهم[1].

ومن المعسكرات المؤقتة التي تحولت إلى مدن أو قواعد عسكرية ثابتة مدينة «تاكرارت» بالقرب من مدينة «تلمسان» لتكون معسكراً لجنود يوسف بن تاشفين، ومدينة «بني تاودا» التي بناها المرابطون لمراقبة قبائل بني عمارة ثم كان اختطاط مدينة «مراكش» التي نزلها المرابطون في أول الأمر بالخيام لتكون نزلة لجيوش المرابطين وقد أداروا عليها سوراً من الخشب وبنى فيها يوسف مسجداً وقصبة لخزن أمواله وسلاحه، ثم توافدت عليها جموع الملثمين حتى صارت بعد ذلك عاصمة المرابطين، بعدما كانت معسكراً بسيطاً لمراقبة قبائل المصامدة في جبل درن.

ثم اتخذ المرابطون من جزيرة الخضراء معسكراً لجنودهم لعبورهم من المغرب إلى الأندلس، وقد استولى عليها «يوسف بن تاشفين» من «ابن عباد» ثم شرع في بناء أسوارها وترميم أبراجها، وحفر الخندق حولها وشحنها بالأطعمة والأسلحة ورتب فيها عسكراً من نخبة الرجال وأمكنهم بها[2]. ومن المراكز العسكرية الثابتة أيضاً في بر العدوة المغربية مدينة «سبتة» تتجمع فيها الغزوات المرابطية ليعبروا منها إلى الأندلس.

وكذلك كانت سلا ورباط الفتح - كما عرفنا سابقاً - من مراكز تجمع الجيوش الموحدية سواء الذاهبة منها إلى أفريقية أو تلك التي تقصد العبور إلى الأندلس هذا

---

(1) ابن خلدون المقدمة، ص (٢٩٨، ٢٩٩).

(2) الحلل الموشية، ص (٣٣، ٣٤)

بالإضافة إلى عدة مراكز حربية أخرى منتشرة فى جميع أرجاء الدولة المرابطية وكذلك الموحدية فى المغرب والأندلس.

وكانت هذه المراكز العسكرية الدائمة تضم عادة:

أ- ثكن: لإسكان الجند بقادتهم، وكان عدد الأخبية التى تغطى كل ثكنة يختلف بحسب القيمة التعبوية والإستراتيجية للمدينة التى ترتبط الثكنة بها.

ب- **إصطبلات**: لحبس الخيل، ومرابط تربط بها.

جـ- **مستودعات**: ومخازن لحفظ تجهيزات الجيش وأسلحته ولوازمه، تتوزع منها على مفارز الجيوش المرابطية التى على مقربة منها.

د- ديوان: هو سجل خاص يضبط أسماء الجند وعددهم وأعطياتهم فى كل مدينة وكان يشرف عليها كاتب مختص

النظم الإدارية فى الجيوش «الدواوين»

أولاً: جيوش المرابطين:

لقد اتخذ يوسف بن تاشفين الدواوين سنة ٤٦٤هـ- ١٠٧١م، يقول ابن عذارى:

فدون يوسف سنة ٤٦٤هـ الدواوين ورتب الأجناد وطاعته البلاد[1]، وكان من هذه الدواوين ديوان الجند وديوان الغنائم ونفقات الجند[2].

وقد اتخذ أمراء المرابطين وزيراً عسكرياً لرئاسة ديوان الجند، يشرف على كل ما يتعلق بشئون الجيش، ويتضح ذلك حينما اتخذ "يوسف بن تاشفين" صهره "سير بن أبى بكر" وزيراً له[3]، ثم استوزر بعد ذلك قائد الحشم "ينتان بن عمر"[4]، وقد يرجع تولى القادة العسكريين منصب الوزارة فى دولة المرابطين إلى اشتغال المرابطين بفكرة الجهاد واتصال المعارك فى المغرب والأندلس[5]، وقد استحدثت عدة دوائر ألحقت بديوان الجند لكى تتولى الاهتمام بالشئون الإدارية منها:

---

(١) ابن عذارى، ج(٤) ص(٢٣)

(٢) الحراوى- تقدم العرب فى العلوم والصناعات، ج(١) ص(١٥٣)، وانظر رسالة الدكتوراة المقدمة من حسن على حسن ص(١٦٥)

(٣) الحلل الموشية ص(١٢). (٤) الدكتور/ العبادى-دراسات فى تاريخ المغرب، ص(١٥٤)

(٥) د/ حسن على حسن رسالته للدكتوراة، ص(١٠٤، ١٠٥)

أ- ديوان العطاء والنفقات: لضبط أعطيات الجند ونفقاتهم.

ب- ديوان الإطعام: للاهتمام بقضايا الطعام ومتعلقاته[1].

ج- ديوان السلاح: يشرف على تسليح الجيش وإعداد السلاح اللازم لخدمة المعارك.

د- ديوان المراسلات: وذلك لتأمين إرسال أوامر الخليفة إلى قادة جيوشه وعماله وتلقى تقاريرهم عن حالة هذه الجيوش ومتطلباتها.

وكان المغاربة والأندلسيون يسمون حامل البريد «الرقاص» كما جاء فى مذكرات «عبد الله بن بلكين»[2]. وكانت تخرج الرسائل من حاضرة الدولة «مراكش» إلى القادة والفقهاء فى أغلب الولايات أو ترد منهم إلى حضرة السلطان بمراكش كالرسالة التى بعث بها الأمير «على بن يوسف» إلى «أبى محمد بن أبى بكر» بعد هزيمة القلعة، والرسالة التى أرسلها إلى الفقهاء والوزراء والأعيان ببلنسية عند نزول ابن رذمير عليها وغيرها من الرسائل.

ويبدو أن نظام البريد فى دولة المرابطين لم يحظ باهتمام من ولاة الأمر، فقد كان سعاة البريد يحملون الأهالى نفقاتهم من زاد وعلوفات لخيولهم وينزلون بأفنية الكثيرين منهم فيتلفونها، ويحملونهم الكثير من العناء والنفقات، مستعينين برهبة السلطان وقوة السلاح، لذا فإن عبد المؤمن بن على قد غيّر من نظمه ووضع أنظمة جديدة للسعاة سوف نعرفها فيما بعد عند الحديث عن بريد الموحدين.

واستطاع المرابطون عن طريق ديوان البريد أن يربطوا ولايات الدولة وأقاليمها بعضها ببعض، فسهل الاتصال بين القيادة العامة فى مراكش وبين القواد فى الولايات المختلفة فى المغرب والأندلس[3].

هـ- كتاب الجيش: وقد اتخذ المرابطون الكتاب لمعاونتهم فى تسجيل المكاتبات الخاصة بشئون الدولة وكانوا عادة يتخذون من كتاب الأندلس، لما كانوا عليه من خبرة عظيمة فى مجال الأدب والبلاغة.

---

(١) صبح الأعشى، ج (٥) ص (١٣٧).

(٢) مذكرات عبد الله بن بلكين، التبيان، ص (١٤٨).

(٣) روض القرطاس، ص (٩١)، ابن خلدون، ج (٦) ص (١٨٥) فى تقسيم مملكة المرابطين إلى ولايات.

ومن كتاب المرابطين «عبد الرحمن بن أسبط» الأندلسي كاتب «يوسف بن تاشفين» والذي لعب دورًا هامًا في تدخل يوسف في شئون الأندلس واستجابته لصريخ ملوك الطوائف، فقد كان يقوم بدور المستشار له نظرًا خبرته وإجادته للغة العربية ولسان البربر، فهو الذي أشار عليه بمطالبة ابن عباد بالتنازل عن أرض الجزيرة الخضراء لتكون مركزًا لتجمع جيوش المرابطين في الأندلس[1].

وقد تولى الكتابة في دولة المرابطين بعد ذلك مجموعة من ألمع الكتاب وأقدرهم منهم محمد بن سليمان بن قصيرة المعروف بأبي بكر بن القصيرة، والرئيس العالم أبو عبد الله بن أبي الخصال والكاتب المؤرخ الكبير أبو بكر ابن الصيرفي.

و- صاحب العلامات: ومهمة صاحبها هي الإشراف على الأعلام السلطانية وبيوت الطبل التي كانت تشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات[2] وكان من مهمته أيضًا الوقوف على بيوت الطبل عند ضربها في كل نية وتولى أمرها في السفر ثم الاحتياط عليها في الحرب وحث العسكر على الإقدام والمبارزة[3].

ز- صاحب المخزن: ومهمته حفظ الأموال والخلع ويتفرع منه عدة وظائف منها خازن السجلات والدفاتر، وخازن الغلات وخازن الكسوة وخازن السلاح وخازن البنود وخازن الديوان الذي يتفرع منه خازن ديوان الإنشاء والمراسلات وخازن ديوان الجيش والرواتب[4].

ويبدو أن معظم هذه الدوائر قد استحدثت بعد قيام دولة المرابطين واحتكاكها بمراكز الحضارة المغربية والأندلسية ثم اتصالها بالدولة العباسية والتي استشعروا بشعار لونها، وإن كانت المراجع التي أرخت لهذه الدولة لم تذكر شيئًا ذا بال عنها إلا أنها غدت واضحة جلية في نظم الموحدين الذين اكتسح خلفهم وأدخلوا الكثير من النظم في جيوشهم

---

(١) الحلل الموشية، ص (٣٢)

(٢) القلقشندي- صبح الأعشى، ج (٤) ص (١٣)

(٣) د/ حسن الباشا - الفنون الإسلامية، ج (١) ص (٢٤٣)

(٤) صبح الأعشى، ج (٥) ص (٣٧)

ثانيًا: جيش الموحدين:

ديوان العسكر: ويعد أول ديوان أقيم في جيش الموحدين وأقدمها على الإطلاق توكل إليه شئون الجيش ويرأسه وزير من أبناء الشيوخ[1] وهو المردود إليه الحديث في أمر الجند، وهذا الديوان يختص بالجند المقاتلين والمعبئة حيث يتم إحصاء أسمائهم ومعرفة حاجاتهم من كل النواحي[2]، ويتفرع من هذا الديوان عدة دوائر تنظم أمور الجيش الإدارية والمالية كما سنوضح بعد.

ويشترط في وزير الجيش أن يكون ملمًا بالشئون العسكرية حربًا على عادة تلك الدولة التي قامت على فكرة الجهاد والغزو في سبيل الله وهي فكرة قائمة ومستمدة من دولة المرابطين سالفة الذكر. فعبد المؤمن بن علي قد استوزر أحمد بن حفص بن عطية الذي كان كاتبًا لإسحق بن علي بن تاشفين، وبعد أن عفا عنه استكتبه أولاً وعندما ارتفع صيته استوزره ثم قاد العساكر وجمع الأموال[3].

وفي عهد المنصور كان وزير الجيش «أبا يحيى بن أبي حفص الهنتاتي» وهو الذي قاد الجنود وتولى قيادة المعركة المشهورة «الأرك» حيث قام بتنظيم الجنود وإعدادهم لخوض المعركة وحقق بهم نصرًا مؤزرًا[4].

ويتفرع من هذا الديوان - ديوان العسكر - عدة فروع تشرف على إدارة الجيش وتسيير أموره من الناحية المالية والإدارية، وهذه الفروع منها ما استحدثته دولة الموحدين ومنها ما أبقى عليه من نظام دولة المرابطين، وقد تشابهت في مهامها على ما يبدو، ومن أهم الفروع المستحدثة:

١- كاتب ديوان التمييز: قد عرفنا فيما سبق ذكره أن من عادة الموحدين أن يجروا تمييزًا لجنودهم قبل القيام بالمعركة لاستبعاد العناصر المارقة التي لا تدين بالولاء لهم، وكل من مر بهذا التمييز سجل في سجل خاص سواء في العاصمة أو النواحي[5] وكان كاتبه «أبو عبد الله بن محسن»[6] وكان يسمى كاتب ديوان التمييز ويقوم بصرف أعطيات ورواتب الجنود المقررة لهم.

---

(١) صبح الأعشى، ج (٥) ص (٣٧).

(٢) دكتور حسن على رسالة الدكتوراه، ص (١٦٦).

(٣) ابن خلدون ج (٦) ص (٢٣٣).

(٤) ابن عبود- تاريخ المغرب، ح (٢) ص (١٣٤).

(٥) د/ حسين مؤنس، عقد بولاية العهد، ص (١٥٠)

(٦) د/ حسن على حسن رسالته، ص (١٦٧) نقلا عن ابن صاحب صلاة المن بالإمامة.

٢- وزير استقبال جند الروم: لقد ظهر هذا المنصب في أواخر العهد الموحدي وهو منصب وزير يقوم فيه صاحبه بمراسلة ملوك الروم والعمل على إنزال جنودهم في البلاد وتضييفهم والترجمة عنهم[1]، وقد وضع هذا المنصب منذ أيام الخليفة المأمون الذي توصل إلى عقد حلف مع فرناندو الثالث ملك قشتالة لكي يمده بعدد من الفرسان النصارى لمساعدته في حروبه ضد منافسه في الخلافة "يحيى المتصر"[2] كما قلنا سابقاً، وقد كان هذا الاتفاق في أوائل سنة ٦٢٦هـ - ١٢٢٨م ومن ذلك التاريخ نشاهد أن النصارى الإسبان أصبح لهم وزير موحدي مهمته استقبال هؤلاء الجند وأمرائهم وسفرائهم والعمل على رعايتهم

ومن الفروع التي أبقى عليها الموحدون وتشابهت في مهامها وأنظمتها مع أنظمة دولة المرابطين وقد سبق الحديث عنها عند الحديث عن نظم هذه الدولة وهي

١- صاحب الطعام.

٢- صاحب العلامات.

٣- صاحب المخزن.

٤- صاحب ديوان السلاح.

٥- كتاب الجيش.

٦- صاحب ديوان المراسلات.

وقد أدخل الموحدون بعض التعديلات في نظم بعض هذه الفروع كالآتي:

أ- ديوان كتاب الجيش: كان كتاب الجيش في الدولة المرابطية هم الذين يتولون كتابة المراسيم السلطانية بينما في دولة الموحدين أصبح لديها كتاب مختصون بديوان العسكر يطلق عليهم كتاب الجيش خلاف كتاب ديوان الإنشاء، ومن كتاب الجيش في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن رجل يعرف بالكباشي وهو كاتب ذائع صيته، "وأبو الحجاج يوسف المرامي"، من أهل مدينة شريش بالأندلس، وأبو جعفر أحمد بن منيع[3].

---

(١) البيان المغرب، ج (٣) ص (٢٣٤). (٢) المصدر السابق، ص (٢٦٤، ٢٦٥)

(٣) المراكشي- المعجب- ص(٢٤٤، ٢٦٤، ٣١٢)

وكان يلحق بديوان الكتابة كتب التوقيعات والظهائر وكل ما يمهر بالعلامة. وكانت العلامة السلطانية لدى خلفاء الموحدين "الحمد لله وحده" يكتبها السلطان بخط غليظ في رأس المنشور، فقد أنشدت حفصة بنت الحاج الركونية في أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي

من على بطرس[1]	يكون للدهر عدة
تخط يمناك فيه	الحمد لله وحده[2]

وكانت نفس العلامة عند السلطان الناصر الموحدي حيث أنشده بعض الشعراء أبيات من الشعر وردت فيها هذه العلامة[3]

ب- صاحب المخزن: أحدث الموحدون في هذه الوظيفة تعديلا وتطويرا فقد أعطوا صاحبها سلطات واسعة في السهر على تحصيل الأموال العامة ثم إنفاقها في الأوجه المشروعة لها ومراقبة العمال والمشرفين ومحاسبتهم والقبض عليهم[4]، وأطلق الموحدون على هذه الوظيفة صاحب الأعمال المخزنية أو متولي أعمال المستخلص، وكان له وكلاء وفروع في سائر المدن الكبرى يسمون بالمشرفين. وكان المشرف بدوره حارسا على المال وقطعه ويشرف على الأموال الحبسية والمحافظة عليها وتحصيل ما يتعلق بها من مختلف أبواب الدخل كالسهام السلطانية في الغنائم وغيرها[5].

وكان يشرف على هذه الدواوين المالية وزير من أرباب السيوف يعرف بوزير المال وهو المتحدث في أمر المال[6]، وكان يطلق عليه "متولي أشغال البرين" المغرب والأندلس، وكان الخليفة يختار له كبير الوزراء، فقد أسند الخليفة المنصور هذا المنصب إلى كبير الوزراء أبي زيد بن يوجان[7]

---

(1) الطرس: الصحيفة المختار، الصحاح مادة طرس.

(2) نفح الطيب، ج (2) ص(430) طبعة أولى سنة 1302هـ

(3) المصدر السابق ونفس الصفحة.

(4) البيان المغرب، ج (3) ص (131، 202، 237).

(5) المصدر السابق، ص (201، 227).

(6) صبح الأعشى، ج(5) ص (137) وما بعدها.

(7) البيان المغرب، ج (3) ص (201، 236).

وليس بغريب أن تضطلع الحكومة الموحدية بالقيادة العسكرية على نحو ما تفعله الدول الحديثة الآن في حالة الحرب المستمرة إذ تضع لها استراتيجية عليا شاملة تهدف إلى توجيه جميع إمكانيات الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية نحو تحقيق تلك الاستراتيجية وهي الغاية السياسية للحرب، ومعنى ذلك أن القوات المسلحة ليست إلا أداة واحدة من أدوات الاستراتيجية العليا لتحقيق الأهداف العليا للدولة.

جـ- ديوان الرسائل: ويسمى القائمون به «الرقاصين» وهذا المصطلح كان شائعًا في المغرب والأندلس[1]، ويحكى عن عبد المؤمن بن علي أنه أصلح من شأن هذا الجهاز، فقد أصدر أوامره بأن تقوم الدولة بتزويد الرقاصين بالمؤن والعلف والدواب، ثم أوصى بأن يتخير له أهل المقدرة والثقة على أن تحدد لهم الأوقات الكافية لتوصيل رسائلهم حسب مسافات مراحلهم وأن يحاسبوا إذا ما تهاونوا في ذلك أو تأخروا عن المواعيد المحددة لهم[2]

وبذلك يكون قد قضى على الفساد الذي كان عليه هذا الجهاز إبان أواخر عصر المرابطين إذا كانوا يرهقون الأهالي بنفقاتهم ويطالبون بعلف دوابهم ويحلون ببساتينهم فيخربونها كما عرفنا سابقًا.

(١) نظم الجمان، ص (١١٦، ١١٧)

(٢) انظر رسالة عبد المؤمن إلى الطلبة والكافة بالأندلس، عنان، عصر المرابطين والموحدين، ج(٢) ص (٥٥٢)



أسلحة القتال فى الجيشين

الفصل الأول: أسلحة القتال الهجومية

أولاً: أسلحة قتال خفيفة

ثانيًا: أسلحة قتال ثقيلة

الفصل الثانى: أسلحة القتال الدفاعية

أولاً: وسائل دفاع خفيفة

ثانيًا: وسائل دفاع ثابتة



الفصل الأول

أسلحة القتال الهجومية

فى حديثنا عن أسلحة القتال فى جيوش المرابطين والموحدين نود أن نشير إلى أننا لم نجد فيها جديداً يميزها عن بقية أسلحة جيوش المشرق المهم إلا فى أسلحة القتال الدفاعية، لذا فإننا نراها امتداداً لأسلحة المشرق ولا غرابة فى ذلك لأن الأسلحة التى فتحت المغرب والأندلس جاءت مع رحلها من ناحية الشرق. ونظرا لندرة المراجع فى تلك الحقبة التاريخية فقد استعنا ببعض المراجع التى تخصصت فى دراسة الأسلحة بنوع عام وإن كان هناك ثمة اختلاف يميز أسلحة المرابطين والموحدين فسوف نشير إليه فى مكانه[1].

كانت أسلحة الجيش المرابطى فى عهد "يوسف بن تاشفين" خفيفة تمثل البداوة، وتتألف من درق اللمط وسيوف الهند، والقنا الطوال، والمزاريق المسنونة[2]، ولما طال مقام المرابطين بالأندلس والتحموا بالفرنجة وجدوهم يعتمدون اعتماداً مطلقًا على التسليح الثقيل، فلم يغفلوا هذه الناحية، وطفقوا يسلحون فرقهم بالتروس، ويسجون الدروع السابغات ويلبسون البيضات، واستعان يوسف أيضًا بفرق من الرماة بالسهام والنشاب، ذاع صيتها بشدة الفتك وإتقان الرماية[3]، ثم جاء الموحدون وملكوا زمام الأمر بجيوش هائلة قد تألفت من أبناء قبائل المغرب وبلاد الأندلس. فكيف كان تسليح هذه الجيوش وماهى أسلحة القتال التى كانوا

---

(١) من المراجع التى نعتمد عليها للبحث فى دراسة أسلحة القتال بعضها من المشرق العربى والبعض الآخر من المغرب العربى مثل: الحلل الموشية، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب لأبى عبيد البكرى، سراج الملوك للطرطوشى، نزهة المشتاق للإدريسى، نفح الطيب للمقرى، وهذه المراجع أشارت إلى هذه الأسلحة إشارات عابرة تدل على وجودها فى جيوش المرابطين والموحدين، أما المراجع التى تخصصت فى شرح نوعية الأسلحة وكيفية استعمالها: السلاح فى الإسلام لعبدالرحمن زكى، الفن الإسلامى فى صدر الإسلام لعبدالرؤوف عون، آثار الأول للحسن بن عبدالله، الجندية فى الدولة العباسية لنعمان ثابت، المساجد والقصور للدكتور السيد عبدالعزيز سالم - المخصص لابن سيده.

(٢) حسين مؤنس الثغر الأعلى، ص (١٤١)، الحلل، ص (١١)، البكرى فى المغرب، ص (١٦٦).

(٣) الاستقصا، ج (٢)، ص (٢٥).

يحاربون بها" لقد كانت أسلحة جيوش الموحدين هى نفس أسلحة الجيوش المرابطية تقريبًا، فعناصر الجيش الموحدى هى أغلبها عناصر الجيش المرابطى، فكان الراجل أو الفارس ينضم إلى الجيوش الموحدية بفرسه وأسلحته.

فأسلحة الجيشين متشابهة وواحدة، فالمشاة يتسلحون بالسيوف والأقواس والتروس والنشاب، والفرسان يتسلحون بالرماح والسيوف والدبابيس، مع توافر أدوات الدفاع كالدروع والتروس والخوذ وغيرها. وكل هذه الأسلحة كانت متوافرة بالمغرب والأندلس على مر العصور وهى نفسها التى استعملها المرابطون ومن بعدهم الموحدون، وإن كان ثمة خلاف بينهما فقد كان فى كيفية استعمال السلاح وطرائقهم فى القتال كما سنعرف فى باب فن القتال فيما بعد.

وقد رأينا تيسيرًا للبحث والدراسة أن نقسم أسلحة القتال إلى قسمين كالآتى:

١- أسلحة خفيفة: يستخدمها الجندى الواحد بمفرده كالقوس والرمح والسيف.

١- أسلحة ثقيلة: يشترك فى استخدامها أكثر من جندى وتحملها فى الميدان حيوانات النقل كالمنجنيق والدبابة والعرادة وسلم الحصار... إلخ.

أولا أسلحة قتال خفيفة

وهى على ترتيب استعمالاتها فى المعركة كالآتى: القوس والسهم، الرمح والسيف، الخنجر والدبوس والفأس، وذلك بأن يكون القتال أولا تراشقًا بالسهام عن بعد، ثم تطاعنًا بالرماح عند المبارزة واقتراب الصفوف، ثم تصافحًا بالسيوف عند الاختلاط، ثم تضاربًا بالأسلحة البيضاء، وخلسًا بالخناجر عند الالتحام والاختلاط، وهذا ما فهمناه من وصف الطرطوشى[1] لصفة اللقاء مع العدو، وسوف نتناول ذلك بالتفصيل فيما بعد فى باب (التنظيم التكتيكى للمعارك).

١- القوس والسهم:

القوس هو عبارة عن عود من شجر صلب يحنى طرفاه بقوة ثم يشد بينهما وتر من الجلد أو العصب الذى يكون فى عنق البعير، وتصنع القسى فى أرض المغرب من عود قوى يسمى «القصب الشرقى»، وقد يتخذون أوتارها من ذلك القصب

---

(١) سراج الملوك، ص(١٧٩)

أيضا كما هو معمول به في أرض السودان أو من خيوط مفتولة أو شرائط جلد[1].
وعند الرمي بالقوس على الرامي أن يمسك وسطه باليد اليسرى ثم يثبت السهم في وسط القوس بيده اليمنى ثم يشده شداً قوياً إلى أن يصل مساوياً لمرفقه الأيمن بكتفه مصوباً نظره إلى الهدف، ثم يترك وتر القوس من أصابعه فيندفع إلى وضعه الأول دافعًا أمامه السهم نحو الهدف المراد[2].

أما السهم أو النشاب فهو من مستلزمات القوس، فالقوس للرامي كالبندقية والأسهم كطلقاتها، والسهم عبارة عن عود رفيع من شجر صلب في طول الذراع تقريبا، ينحت ويسوى ثم يفرض فيه حدود دائرية ليركب فيها الريش ويشد عليها بالجلد المتين، أو يلصق، ثم يركب في قمته نصلاً من حديد مدبب له سنتان في عكس اتجاهه ويجعلانه صعب الإخراج إذا نشب في الجسم ويصنع عادة من خشب الصنوبر الخفيف أو من قصب الشركي[3].

وقد حرصت قادة الجيوش المرابطية والموحدية على الإكثار من صنع السهام وحملها في المعارك، لدرجة أنه كانت تؤلف لها فرق خاصة تسمى النبالة أو النشابة أو الرماة، وقد كان لهذه الفرق مراكزها المحددة في المعركة لا تبرحها، فإذا قرب العدو رشقه الرماة بالنشاب، ويبدو أنهم كانوا يستعينون بالرماة من أهل غانة والسودان فقد كان لهم حذق بالرماية وهم يرمون بالسهام المسمومة[4]، وكانت أغلب القسي والسهام من أرض السودان[5].

وقد أكثر المرابطون من حمل السهام إدراكًا لأهميتها ودورها في المعركة، فقد لعبت سهام المرابطين في معركة الزلاقة دورًا بارزًا إذ كانت السهام والمزاريق تسدد إلى الخيول بدلاً من الفرسان، من بعد ومن قرب حتى صار كل فارس مسيحي مشغولاً بفرسه يجر عنانه والخيول واقفة على أقدامها الخلفية[6]، وبذلك شغل الفرسان عن المعركة وأصابتهم الحيرة والاضطراب فكانوا صيداً سهلاً للمسلمين.

---

(١) الإدريسي - نزهة المشتاق، (المغرب وأرض السودان)، السلاح في الإسلام، ص (٤٨)
(٢) النويري، نهاية الأرب، ج (٦)، ص (٢٢٣)، الفروسية، ابن القيم، ص (١٠١).
(٣) عن السلاح في الإسلام، ص(٣٣)، عن وصف السهم وأجزائه في المخصص لابن سيده، ص(٥١، ٦٩)، ج(٦)
(٤) البكري - المغرب، ص (١٧٧- ١٧٩).
(٥) الإدريسي - المغرب وأرض السودان، ص(٥).
(٦) نفح الطيب، ج(٢)، ص(٥٣٠)، نقلا عن ابن خلكان.

وقد أكد هذه الحقيقة الأستاذ محمد عبدالله عنان إذ يقول أن سهام المرابطين في معركة الزلاقة كانت كثيرة للغاية، ومن دلائل ذلك أن أي سائح إذا حفر الأرض بيديه يمكنه أن يحصل على سهم[1].

وللسهم عدة استعمالات كانت شائعة في حروب المشرق الإسلامي ومغربه منذ عهد بعيد، ومن استعمالاته أنه كان يستعمل أداة للتخاطب يكتب عليها راميها ما يشاء ثم يرميهـا داخل الأسوار حفظًا للأسـرار، وكان يستعمل أيضـا في تحطيم الروح المعنوية للمحاصرين، فقد كان يكتب في ورقة مربوطة به من عبارات التهديد ما يجعل العدو تنهار معنويته ثم يميلون إلى الاستسلام، وبالتالي كان المحاصرون حينما يطلبون الأماكن يكتبون في ورقة ما يريدون ويرمونه بالسهم إلى الخارج[2].

وقـد تطورت صناعة القسى بمرور الوقت، فـقد صنع المسلمـون في العصور الوسطى من الأقـواس آلات مـركبـة، واصطنعوا أيضًا لرمـى السهـام دروبًا من المجانيق توضع في الواحدة منها عدة سهم وترمى عنها بالأقواس[3]، فتنطلق دفعة واحدة مثل المدافع الرباعية المضادة للطائرات في عـصرنا الحاضر حيث تنطلق منها المقذوفات الأربعة في لحظة واحدة.

٢- الرمح والحربة:

من أسلحـة المرابطين والموحـدين الرماح والحـراب وقد أعطانا البكرى وصفـا للرماة وأسلحتهم في جيش المرابطين في مهده الأول، وكان معظم قتالهم مترجلين يقفون على أقدامهم صفا بعد صف، يكون بأيدى الصف الأول منهم القنا الطوال وما يليـه بأيديهم المزاريق يحمل الرجل الواحد منهـا عدة يزرقهـا فلا يكاد يخطئ ولا يشوى[4].

وكان المحـاربون يتخـذون رماحهم من فـروع الأشجار الصلـبة خاصـة قصب الشركى كما قلنـا عن القوس، وهذا القصب منتشر في المغرب ويشبه البوص بعد أن يسويه ويركب في رأسه نصلاً من الحديد ولرأس الرمح «سنانه» أنواع منها:

---

(١) عنان - عصر المرابطين والموحدين، ج(١)

(٢) تاريخ الطبرى، ج(٤)، ص(٢١٦)، الفن الإسلامى فى صدر الإسلام، ص(١٤١)

(٣) عبالرحمن زكى - السلاح فى الإسلام، ص(٤٨)

(٤) الحلل الموشية، ص(١٠، ١١)، البكرى- المغرب، ص(١٦٦)

الشعب والعريض والرفيع والمستوى والمموج[1]، ومن الرماح المشهورة الخذف، وهي قناة طويلة في رأسها حربة أو حربتان مستقيمتان وحربة عوجاء تستعمل في الطعن أو النقب أو جر العدو عن بعد وخصوصًا عند الهجوم على الأسوار والحصون[2].

وكان للرمح أطوال مختلفة تتراوح بين الأربع أذرع والخمس والعشر ومنها فوقها والرمح الطوال كانت خاصة بالفرسان حيث تساعدهم الخيل على حملها والعمل به عند اللقاء. أما الرماح القصيرة والتي لم تبلغ أربع أذرع فإنه يطلق عليها حراب أو نيازك أو مزاريق أو المطارد وكلها أسماء لشيء واحد[3]. وقد ورد في مختار الصحاح عن المزاريق مادة زرق "المزراق هو الرمح القصير"، وكان الجندي المرابطي يجمع عدة مزاريق يلقيها دفعة واحدة على هدفه فلا يخطيء أو ينحرف.

أما الرمح القصار فقد كانت تستخدم في حالتين هما

الأولى عند مطاردة الهاربين فإذا ما شد أحدهم على فرس ربما يفوته وأدرك أنه سيسبقه بمسافة لا تمكنه من الطعن برمحه الطويل عندئذ يستعمل النيزك وهو أقصر من الرمح، فإذا الفارس الهارب قد فاته رماه بالحربة عن بعد، **أما الثانية** إذا هاب الفارس مخالطة عدوه لقوته فإنه يرمي بالحربة عن بعد ولا يطعن بالرمح[4].

وقد اهتم المرابطون كما قلنا بمزاريق الزان المسنونة وغيرها وقد كانوا يسلحون بها فرقهم الخاصة من العبيد السودانيين وكانت هذه الفرق بمثابة الفرق الخاصة في وقتنا الحاضر إذ يدخلون المعركة في اللحظة المناسبة التي يراها القائد لانتزاع النصر[5]، وقد كان هؤلاء العبيد يتميزون بقوة الطعن، فقد طعن عبد من فرقة تاشفين بن علي الخاصة قومس الروم فأخرج الرمح من وراء ظهره وأسقطه من فوق حصانه[6].

---

(1) عبدالرحمن زكي - السلاح في الإسلام، ص(٢٨)
(2) البستاني - دائرة المعارف، ج(١٦)، ص(٦٩٩)
(3) عبدالرحمن زكي - السلاح في الإسلام، ص(٢٨).
(4) عبدالرؤوف عون - الفن الحربي.
(5) المقري - نفح الطيب، ج(٢)، ص(٥٣٠).
(6) ابن الخطيب - تاريخ المغرب، ص(٢٥٩).

٣- السيف:

السيف سلاح ذو حد يضرب به باليد، وهو أشهر الأسلحة البيضاء التى يفضلها المسلمون، وقد اشتهرت عدة بلاد ومدن بصناعة السيوف فى العالم الإسلامى منها: طليطلة، سرقسطة فى الأندلس، وقد ظل طراز السيف المستقيم هو الشائع استخدامه فى العالم الإسلامى إلى حوالى القرن الثالث عشر تقريبًا، ثم بدأ يستعمل السيف المقوس ذو النصل الواحد[1].

وكانت تكتب على بعض نصول السيوف آيات قرآنية أو عبارات تشيد بقوة السيف وصولته وتنقش على بعضها الزخارف الطريفة كالسيوف التى أهداها «يوسف ابن تاشفين» لابن عمه الأمير «أبى بكر بن عمر» عند اقتسام الجيوش بينهما، وكالتى أهداها الخليفة الموحدى إلى السلطان «صلاح الدين الأيوبى»[2] فكلها سيوف محلاة بالنقوش والكتابة.

٤- الخنجر:

ويطلق عليه المدية أو الجنبية وهى تثبت فى حزام توضع فى الجنب، ولها أشكال متنوعة انتقل استعمالها من الجزيرة العربية إلى مراكش وألبانيا وتركيا وغيرها، ولنصل الجنبية حدان، وعند الالتحام يطعن به حنسة، ويبدو أن فرق الحرس الخاص كانت مسلحة به، بدليل أن العبد الأسود الذى التصق بالأدفونش انتضى سلاحه وأثبته فى فخذه، فهتك حلق درعه وظنه خنجراً[3].

٥- الدبوس:

وهى آلة حربية من حديد عرفها القاموس المحيط بقوله: الدبوس هو هراوة مدملكة الرأس فى طرفها كتلة صغيرة. وجاء ذكره فى أكثر كتب التاريخ الإسلامى وكانت تستعمل فى تهشيم الخوذة المعدنية، يحملها الفرسان فى السروج تحت أرجلهم، وكانت تعرف أولا بالعمد[4]، وقد ذكرها الإدريسى ضمن أسلحة

---

(١) عبدالرحمن زكى - السلاح فى الإسلام، ص (٣٣)

(٢) السلاوى - الاستقصا، ج(٢)، ص(١٦٣).

(٣) المقرى - نفح الطيب، ج(٢)، ص(٥٣٠)

(٤) عبدالرحمن زكى - السلاح فى الإسلام، ص(٢٦)

المغرب، وكانوا يتخذونها من شجر الأبنوس، ولقد اشتهر أهل أودغشت بصناعة هذه الدبابيس[١].

٦- الفأس أو البلطة «طبر»:

وهو سلاح له رأس نصف مستدير يركب في قضيب من حديد أو خشب بحيث يكون النصل مدببًا من ناحية، رقيقًا مشحوذًا كالسكين في الناحية الأخرى، وقد يحفر على قضيبه النقوش الإسلامية أو العبارات الدينية[٢]، وفي حالة ركوب السلطان تكون فرقة «الطبر دارية» حوله عن يمينه وشماله، مستعدة لضرب من يتقدم نحوه بغير إذن كما سبق في القول عن موكب السلطان الموحدي[٣].

٧- الأطاس:

هو سلاح شبيه بالخنجر وفيه عوجاج يجعله قريب الشبه من المنجل لأنه مقوس، وكان شائعًا استعماله في المغرب، يتسلح به الحرس الخاص الأسود يستعمله وقت الالتحام، وقد كان جديدًا على الإسبان النصارى بدليل أن الملك الإسباني في موقعة «الزلاقة» ظنه منجلاً، ولكنه ليس بمنجل بل هو سلاح الأطاس، أو الطاس كما يسميه أهل المغرب[٤]

٨- الأمداس:

وهو سلاح جمهور البربر وهي عبارة عن عصا طويلة مشدة بعصي صغار ذوات عرى في أواسطها تدفع بالأنامل عند قذفها[٥]

٩- السباط:

وتسمى «السريقات» ويطلق عليها أهل الأندلس «ذنب الفأر» وتصنع من جلد حيوان يسمى «الجفو» بمدينة «قلنبوا» ببلاد السودان، ومن هناك يحمل إلى جميع الآفاق[٦].

---

(١) الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص(٥)

(٢) السلاح في الإسلام، ص(٣٩). (٣) صبح الأعشى، ج(٥)، ص(٢٠٧).

(٤) الحلل الموشية، ص(٤٢، ٤٣)، ابن الخطيب - تاريخ المغرب العربي، ص (٢٤٣).

(٥) ابن الخطيب - الإحاطة المجلد الأول تحقيق عنان، ص(١٤٢).

(٦) الاستبصار في عجائب الأمصار، ص(٢١٨).

هذه هى الأسلحة الخفيفة التى يحملها الفارس الواحد أو الراجل فى المعركة فى عصرى المرابطين والموحدين، وكانت دائمًا تحفظ فى خزائن السلاح مقادير هائلة من هذه الأسلحة، وقد أنشئت مصانع للسلاح فى كثير من قواعد المملكة لصناعة القسى والنشاب والخوذات والدروع والسهام وغيرها من الأسلحة اللازمة للهجوم والدفاع، وفى بعض الروايات أنه كان يصنع فى مملكة الموحدين فى عهد عبدالمؤمن بن على كل يوم عشرة قناطير من السهام[١].

ثانيًا: أسلحة قتال ثقيلة

آلات الحصار:

من الفنون الحربية التى برع فيها مسلمو إسبانيا بناء القلاع والحصون على قمم الجبال والتلال لحماية الوديان والمضايق مما يجعلهم يجيدون حروب الحصار. وقد كان المرابطون فى أول عهدهم صحراويين غير ملمين بفنون الحصار، بدليل فشلهم فى حصار حصن «لبيط»[٢] بعد نصرهم العظيم فى معركة الزلاقة. ويبدو أنهم تعلموا هذا الفن وأتقنوه بعد فتحهم للأندلس واستقرارهم بها.

وقد ظهرت دلائل هذا الاهتمام وإتقانهم لفن الحصار فى حصارهم لمدينة «شنترين»[٣] واستيلائهم عليها فى عهد «على بن يوسف».

أما الموحدون فقد برعوا فى فن الحصار وفاقوا المرابطين فى هذا المضمار حتى أن أكثر المدن منعة كانت تتحطم أمام سلاح الحصار الموحدى، وقد كان الموحدون يستعملون أسلحة متنوعة فى الحصار فأحيانًا يستعملون الحراقات والمنجنيقات والعرادات والدبابات وسلالم الحصار، أو يطلقون المياه الغزيرة فى قوة وعنف فتزيل كل ما يقابلها من مبان وغيرها.

---

(١) الاستقصا، ح(١)، ص(١٥٨)

(٢) حصن «لبيط» يقع فى شرق الأندلس وهو قلعة حصينة كانت تستوعب حامية يتراوح عدد رجالها ما بين (١٢، ١٣) ألف مقاتل، وكانت عصابات القشتاليين تغير من هذا الحصن على المناطق المجاورة. وقد ركز فيه ألفونسو السادس نشاطه بعد هزيمته فى معركة الزلاقة - انظر الدكتور/ السيد عبدالعزيز سالم فى المغرب الكبير، ح(٢)، ص (٧٢٨)

(٣) هى مدينة بالأندلس فى شمال شرقى من أشبونة على الشاطئ الأيسر من نهر تاجة وقد افتتحها الأمير «سير بن أبى بكر اللمتونى» قائد المرابطين، وظلت بأيدى المسلمين إلى أن استردها ألفونسو السادس ملك قشتالة عام ٥٤٣ هـ، انظر المعجب، ص(٩٠ - ٩٣)

وكان عبدالمؤمن بن على نفسه يجيد فن الحصار، ففى حصار مدينة «فاس» التى قاومت أسوارها المنيعة جيوشه مدة طويلة، نرى عبدالمؤمن يستعين بمياه النهر التى أمر بحفظها فى خزانات ضخمة ثم يطلقها دفعة واحدة على الأسوار[1]. وهى نفس الفكرة التى استخدمها الجيش المصرى فى إزالة الساتر الترابى المرتفع قرابة العشرين متراً بخراطيم المياه ولدى تقدمه اليهود على الضفة الشرقية لقناة السويس وذلك فى حرب العاشر من رمضان، السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م

وكذلك نرى عبدالمؤمن يحرق أبواب مدينة وهران بالنيران المحرقة المصحوبة بقذف الآلات، ويفتح مدينة المهدية بحيلة مماثلة، وذلك بتحطيم جدرانها القوية التى بلغ عرضها ما يسع سير فارسين متحاذيين عليه[2]. وتمثل هذه المهارة الفنية الحربية الفتح عبدالمؤمن مدينة مراكش التى لم تقف أسوارها المنيعة عقبة أمامه عند فتحها.

وعلى هذا النحو سقط فى أيدى الموحدين كثير من القلاع فى أضيق المغاوز الجبلية فى المغرب والأندلس، وذلك بفضل آلات الحصار الضخمة التى كانت تقذف كتلا هائلة من الحجارة والكرات الملتهبة من الحديد والنفط

ومن الطبيعى ونحن بصدد دراسة هذا نحن أن نتعرض لأسلحة وآلات الحصار، التى كانت مستعملة لدى جيوش الدولتين ويطلق عليها الأسلحة الثقيلة لأنها تمتاز بالضخامة فتحمل على الجمال والبغال، وتحتاج إلى عدة جنود فى إدارتها والعمل بها عند القتال، وهى نفس الأسلحة التى كانت متبعة فى جيوش المشرق إبان عصر المرابطين والموحدين.

١ - المنجنيق والعرادة:

ومن الطبيعى أن المرابطين قد عرفوا المنجنيق والعرادة بعد خروجهم إلى الأندلس، ففى حصار حصن «لييط» نصب المسلمون على النصارى المجانيق والعرادات بعد حصارهم مدة طويلة، وقد اشترك المرابطون فى حصار هذا الحصن مع الأندلسيين

(١) ابن أبى زرع - روض القرطاس، ص(١٢٣).

(٢) ابن الأثير، ج(١١)، ص(٩٢)

وقد أشار إلى ذلك شاهد عيان فى هذه الفترة وهو «عبدالله بن بلكين» وقد علل فشل قوات المسلمين فى افتتاح هذا الحصن لاختلاف كمستهم بالرغم من استعدادهم لهذا الحصار[1]

وفى حصار المرابطين لمدينة طليطلة فى عهد «على بن يوسف» فى عبوره الثانى للأندلس للجهد بها، قد ضربوا أسوارها بالمجانيق ضربًا شديدًا، وحاولوا حرق بعض أبراجها ولكنهم فشلوا أمام حصانة أسوارها فرفعوا الحصار عنها بعدما نجح النصارى فى إحراق آلات حصارهم الثقيلة[2].

وفى سنة ٥١٤هـ، نفذ أمر على بن يوسف إلى البلاد الأندلسية، بإحياء المجانيق والآلات الحربية، وقد روى لنا ابن عذارى أن المرابطين بعد صنع هذه الآلات كانوا يجرون عليها تجارب بالرمى بها[3].

وكان الموحدون يهتمون بصنع المجنيقات، ففى سنة ٥٧٩هـ أمر الخليفة «أبو يعقوب يوسف» بصنع عشرة مجانيق جربت بالرمى بعد صنعها أمامه فى منطقة البحيرة خارج مراكش، استعدادًا لغزوة «شنترين» فى الأندلس[4].

وهذا السلاح شديد النكاية بالأعداء بعيد الأثر فى قتالهم، فبحجارته تهدم الحصون، وبقنابله تحترق الدور والمعسكرات فهو شديد الشبه فى أيامنا هذه بمدفعية الميدان الثقيلة.

والعرادة آلة أصغر من المنجنيق تلقى بها الحجارة على أبعاد طويلة وقد تستخدم العرادة فى رمى السهام دفعة واحدة إلى المسافات البعيدة التى لا تصل إليها رميات الأقواس، فكانت توضع فيها عدة سهام كبار ثم يرمى بها مرة واحدة[5]، وبمرور الوقت أطلقت عرادة على عربة المدفع[6]. ومن المجانيق أنواع مختلفة منها

---

(١) مذكرات عبدالله بن بلكين - التبيان، ص (١١٨)

(٢) روض القرطاس، ص (١٠٥)، الحلل الموشية، ص (٦٢)، ابن خلدون، ج(٢)، ص (١٨٨)

(٣) ابن عذارى - البيان المغرب- نقلا عن عنان عصر المرابطين، ج(١)، ص(٨٢)

(٤) المصدر السابق، ص (١٢٩، ١٣٠)

(٥) جورجى زيدان - تاريخ التمدن الإسلامى، ج(١)، ص (١٥٦ - ١٥٩)

(٦) السلاح فى الإسلام، ص (٤٠)

١- نوع لرمى السهام إذ توضع فى المنجنيق الواحد عدة منها ترمى إلى مسافات بعيدة وبقوة خارقة.

٢- نوع لرمى الحجارة الضخمة لهدم الحصون.

٣- نوع لرمى قدور النفط والكرات المشتعلة من النار.

٤- نوع لرمى العقارب أو سلاسل الرمام وغيرها من الرمم العفنة[١]

ومنها الكبير ومنها الصغير، ومنها ما يشد باللوالب والأقواس ومنها ما يدار شبه الدولاب إذا دار فيها الرجال رفعت السهام، فإذا تركت رمت وقذفت، وقد يكون لرمى سهاما أو حجارة أو قدور النفط أو العقارب والرمم، فإن كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص وإن كانت من السوائل كالنفط وغيره اتخذوا له كفة كالنفس علقوها بسلاسل[٢]، وبمرور الوقت تعلم المسلمون فى طرق الوقاية من المنجنيق[٣]

الرمى بالنار اليونانية «البارود»:

أخذها العرب عن الروم، ويرجع فضل اختراعها إلى «كالينوس» البعلبكى السورى[٤]، والذى نقلها إلى القسطنطينية، وبقيت موادها وتركيبها مجهولاً مدة طويلة حتى أطلع عليها العرب وهى مزيج من الكبريت وبعض الصموغ والدهون يقذف به من أسطوانة نحاسية إما على هيئة سائل مشتعل، أو على هيئة كرات مشتعلة[٥].

وقد استخدمها المرابطون، ففى حصار قلعة «شنترين» وهى من أحصن المعاقل للنصارى وأقواها على المسلمين نرى أن المسلمين قد رموها بالنار الحامية عن طريق المنجنيقات حتى أحرقوها، كما ورد فى رسالة «ابن عبدون» فى فتح المرابطين لهذه القلعة[٦].

---

(١) السلاح فى الإسلام، ص (٥٩).
(٢) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة، جورجى زيدان - تاريخ التمدن.
(٣) انظر طرق الوقاية فى كتاب عبد الرؤوف عون - الفن الحربى، ص (١٦١)، الجندية فى الدولة العباسية لثابت ص(١٥٨).
(٤) السلاح فى الإسلام، ص (٥٩)، تاريخ الجيوش جورج كاستلان.
(٥) نعمان ثابت - الجندية فى الدولة العباسية، ص(١٤٦).
(٦) انظر هذه الرسالة فى المعجب للمراكشى، ص (٩٠، ٩١).

ولم تكن تلك النيران بغريبة على نصارى الإسبان فقد كان استعمالها شائعًا في عصر ملوك الطوائف، فيروى «عبدالله بن بلكين» في مذكراته خلال حصار حصن «لبيط» أن ابن صمادح أتى بنفيل أقامه وخرق به السور فأصابه من الحصن قبس من نار فأحرقه[1].

أما عن استخدام المواد المفرقعة والتي تطورت عن استخدام النار اليونانية فقد أخذ الأوروبيون عن المسلمين هذه المواد المكونة من ملح البارود والكبريت والفحم. وقد دحض المستشرق الألماني «جورجي يعقوب» الرأي القائل بأن القديسة «بربارة» اخترعت هذا المسحوق حين أغار «الوندال» على أفريقية واستخدمته للمرة الأولى حتى أصبحت هذه القديسة شعارًا لفرق المدفعية عند كثير من الأمم حتى اليوم[2].

ولدينا من النصوص ما يثبت أن أهل المغرب قد عرفوا البارود واستخدموه قبل الأوربيين فإن أهل مراكش قد استخدموا الأسلحة النارية في محاربتهم «سرقسطة» سنة ١١١٨م[3] بل أن تلك النيران وما صحبتها من المواد المفرقعة قد تطورت في آخر عهد الموحدين. وتشير كتب العرب التاريخية بصراحة إلى استخدام تلك الأسلحة، فنرى الموحدين في «لبلة» حين حاصرها النصارى يطلقون على القوات النصرانية المحاصرة آلات تقذف الحجارة والحديد والمفرقعات ويصحبها دوى يشبه دوى المدافع البدائية[4].

وقد فتكت هذه الآلات بالجيش المحاصر وأرغمته على إطالة الحصار أكثر من تسعة أشهر، ولكن الموحدين اضطروا إلى تسليم المدينة للقشتاليين سنة ٦٥٧هـ-١٢٥٧م. وقد أثبت «ابن خلدون» أن العرب قد استخدموا البارود في معارك «سجلماسة» سنة ٦٧٢هـ - ١٢٧٣م في أواخر حكم الموحدين «إذ نهض أبو يوسف يعقوب ابن عبدالحق» من بني مرين بعساكره من أهل المغرب، مع جمع

---

(١) مذكرات عبدالله بن بلكين - التبيان، ص (١١٨)

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن، تاريخ التمدن الإسلامي، ج(١)، ص(٢٠١)

(٣) جورجي زيدان - تاريخ التمدن الإسلامي، ج(١)، ص(٢٠١)

(٤) عنان - عصر المرابطين والموحدين. ج(٢)، ص (٤٩٣)

رماة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر ثم نصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى حديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة أدهشت المحاصرين حيث سقطت عليهم كتلاً منها على حين غفلة فأحدثت فيهم رعبًا وخوفًا، ثم بادروا إلى اقتحام البلدة[١].

٢- الدبابة والضبر:

الدبابة آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال فيدبون إلى الأسوار لينقبوها وهي شبه برج متحرك له أحيانًا أربعة أدوار، أولها من الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من الحديد، ورابعها من النحاس الأصفر، ويتحرك هذا البرج على عجلات تصعد إلى طبقاته الجنود لنقب الحصون وتسلق الأسوار، وقد عرف الفرس استخدام الدبابات وأخذها عنهم العرب، ثم أتقنها الأمويون ثم العباسيون ثم انتشرت في بلاد المغرب والأندلس، عن طريق تأثرهم بألوان الحضارة المشرقية من جهة وباحتكاكهم بالنصارى الذين عرفوا هذه الأسلحة من جهة أخرى. ففي حصار النصارى «السرقسطة» صنعوا أبراجًا من خشب تجري على بكرات وقربوها من أسوارها ونصبوا عليها العرادات وعشرين منجنيقًا[٢].

وقد أتقن الموحدون هذا النوع والذي يثبت تفوقهم على المرابطين في فن الحصار واستعمالاتهم للآلات الثقيلة التي كانت تعني منها أمنع مدن النصارى وقلاعهم.

وطريقة العمل بها هي أن يدفعها الجند أمامهم (متخذين منها ساترًا يحميهم من سهام الأعداء، حتى إذا ما اقتربت من السور ألصقوها به، ويعمل الجند الذين بداخلها على نقض جزء من السور، ثم يسندونه بقطع من الخشب حتى لا ينهار عليهم ويكررون ذلك ثم يشعلون في الخشب النار فينهار السور تاركًا فجوة كبيرة يمكن للجند الدخول منها[٣].

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ج (٧)، ص (١٨٨).

(٢) روض القرطاس، ص (١٠٦).

(٣) آثار الأول - الحسن بن عبدالله، مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء، ص (٢١٤).

ويتعاون المنجنيق مع الدبابة في عملية اقتحام الحصون حيث يقوم المنجنيق بحرق المواقع وهدم التحصينات ثم يأتي دور الدبابة وهو الاقتحام من نقاط الضعف التي أحدثها المنجنيق.

وكان المسلمون يغطون أسقفها باللبود أو بالجلود المشبعة بالخل حتى لا تكون عرضة للاحتراق إذا ما رماها الأعداء بالنار من فوق الأسوار.

وقد توصل المسلمون إلى عدة طرق لمنع دبابات العدو من التقدم وذلك بأن يحفروا خندقًا حول قلعتهم فيمنع تقدمها، أو يحفروا الخندق ثم يردموه بالتراب فتتقدم الدبابة فتغوص عجلاتها في التراب عندئذ يخرج منها المقاتلة فتتلقفهم سهام المسلمين[1]

أما الضبر فهو عبارة عن خشب مغطى بالجلد يتقدم خلفه أو تحته الرجال للاقتراب من الحصون من أجل القتال، والضبور مثل رؤوس الأسفاط[2] يتقى بها في الحروب، وهي قريبة الشبه من الدبابة ويبدو أن الفرق بينهما أن الضبر يستخدم في الانسحاب أو عند الاقتحام لخفة حركته عن الدبابة[3].

٣ - رأس الكبش وسلم الحصار:

رأس الكبش آلة من خشب وحديد، ويجرونها بنوع من الخيل فتدق الحائط فينهدم. وأصل الكبش دبابة لها رأس في مقدمتها مثل رأس الكبش، ويتصل هذا الرأس في داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال تجرى على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها، ويتعاون الجنود الذين يتحصنون في داخل الدبابة، وجنود آخرون استتروا بدروع الدبابة ووقفوا خلفها ليتعاون كل هؤلاء على ضرب السور بها حتى يخرقوه[4]. أما سلم الحصار فهو آلة من آلات الحصار لا غنى عنها يساعد الجنود على اعتلاء الأسوار، وفتح مغاليق الحصون، وكان السلم يتخذ

---

(١) عبدالرءوف عون - الفن الحربي - ص (١٦٩، ١٧٠)

(٢) السفط واحد الأسفاط وهو كالجوالق أو كالقفة، مختار الصحاح مادة سفط

(٣) السلاح في الإسلام، ص (٣٨)

(٤) المصدر السابق، ص (٤٨، ٤٩)

أحيانًا من الحبال تشكل على هيئة سلم له خطاف، ترمى على شرفات السور تتعلق به وبمرور الوقت صارت السلالم تصنع من الأخشاب والحديد مرتفعة بارتفاع السور تقريبًا على شكل سلم فوق الإطفاء يرتقيها الرجال بعد أن يسندوها إلى السور ثم صار السلم يصنع على قاعدة خشبية كبيرة تساعد على إثباته، وأحيانًا كان يقام عليه سلمان ينتقيان في النهاية العلوية ليثبت كل منهما الآخر، وجعلوا لهذه القاعدة بكرات أو عجلات ثابتة ليسهل بها نقله[1].

وقد وصف لنا صاحب الحلل حصار الموحدين لمدينة مراكش واعتلاء أسوارها بالسلالم حيث أمر عبد المؤمن بعمل السلالم لارتقاء السور، ثم قسمها على القبائل، وأحدقوا بالمدينة، فدخلت هنتاتة من جهة باب وكالة، ودخلت صنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين، ودخلت هسكورة وغيرها من جهة باب آخر فتسنموا الأسوار ودخلوا البلد بالسيوف سنة ٥٤١هـ، وانتهى ملك دولة الملثام[2]

(١) الفن الحربي، ص(١٧٣).

(٢) الحلل الموشية، ص (١٠٤، ١٠٥).

الفصل الثانى

أسلحة القتال الدفاعية

تنقسم وسائل الدفاع إلى قسمين:

أ- آلات متحركة يحملها الجندى الواحد لحماية نفسه فى المعركة كالدرع والخوذة والترس، وهى آلات خفيفة.

ب- آلات ووسائل ثابتة يشترك الجند فى إعدادها أو يقوم بها طوائف العمال والفعلة كحفر الخندق، ونشر حسك الحديد وإقامة الجدران والموانع وبناء الحصون والقلاع والثغور

أولاً: وسائل دفاع خفيفة

لقد كان المرابطون صحراويين فى أول عهدهم بالملك كانوا لا يحفلون بزيهم العسكرى الذى تتباهى به عامة الجيوش من لبس الدروع والخود واستعمال التروس إلا بعض آلات الدفع الخفيفة وهى: درق اللمط، وبعض التروس وهى آلات دفاعية بسيطة تختلف عن وسائل الدفاع التى يستعملها الأندلسيون والنصارى و لإسبان، وقد يثبت ذلك احتقار شعوب «الطوائف» فى الأندلس لمنظر المرابطين من بنى ديبهم حين عبروا للجهاد فى معركة الزلاقة، فقد جاء فى رسالة «يوسف ابن تاشفين» إلى صاحب المهدية، ذكر فيها وصف دهشة أهل الأندلس لجنده قال: «فهرع الناس من كل أفق إليهم متعجبين من هيئاتهم، محتقرين لزيهم ونغماتهم لا يروعهم منهم شىء، حاشا الخيل والدرق، والكل استصغرهم والجميع منهم احتقرهم، وقدروا أنهم طعم للسيف وغرض للحتوف، وهدف للرماح ونهب للسلاح»[1].

ولما طال مقام المرابطين بالأندلس اقتبسوا كثيراً من أسلحة ملوك الطوائف والإسبان وتسلحوا بسلاح جيرانهم الإفرنج، واستعملوا وسائل دفاع ثقيلة متمثلة فى الدروع السابغات والتروس القوية ولبس البيضات وحمل الأسنة العريضة[2].

---

(١) عبدالهادى شعيرة - المرابطون، تاريخهم السياسى، ص (١١٠)

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة، المجلد الأول - ت. عنان، ص (١٤٢)

وهذه نبذة عن بعض آلات الدفاع المتحركة والخفيفة التي تستعمل وسائل دفاع في الجيوش المرابطية والموحدية وكلها أسلحة تقليدية كأسلحة الدفاع في الجيوش المشرقية إبان عصرهم.

١ - الدرع:

من آلات الوقاية وهو عبارة عن قميص ينسج من حلق حديدية رفيعة متداخلة بعضها في بعض، فإذا نسجت حلقة داخل حلقة سميت «مفردة» وإذا نسجت حلقتين داخل حلقتين سميت «مضاعفة»، وحلقاته توصل بمسامير تسمى «العلائل» بحيث تشبه الشبكة التي يلبسها رجال الفرسان فوق أكتافهم[١].

والدرع نوعان:

أ- درع سابغة: وهي التي تغطي البدن بأكمامها الطويلة حتى الأنامل وتمتد لتصل إلى نصف الساق ومعها «المغفر» الذي يغطي الوجه و«البيضة» التي تغطي الرأس والقفا. ولابس هذه الدرع يكون مغطى بالحديد لا يبدو منه إلا محاجر العينين وهذا -كما يبدو- لباس غالبية جند النصارى كما ذكر لنا الطرطوشي عن لباس «ابن رذمير» (الذي كان شاكاً في السلاح مكفناً في الحديد لا يظهر منه إلا عيناه)[٢].

ومن المحتمل أن يكون المرابطون والموحدون قد تسلحوا بهذا الزي الثقيل، والدرع السابغة كانت تلازم القادة وحملة الأعلام وأهل الخطر في الحروب كالفرسان في أغلب فرقها.

ب- درع بتراء: وهي القصيرة التي بلا أكمام بحيث تصل إلى أسفل الركبة أو فوقها بقليل، وهذه ضعيفة الحماية للابسها لأن كل أطرافه معرضة لضربات السيوف وطعنات الرماح، لذا كان من مهارة الفارس أن يتحرى الأماكن المكشوفة والمفاصل من عدوه. وقد زود الأقدمون فرسانهم بنصائح منها «لا تضرب الخصم

---

(١) انظر السلاح في الإسلام، ص (٢٦)، الفن الحربي، ص (١٧٨) وما بعدها

(٢) سراج الملوك، ص (١٤٥).

إلا فى المكان الذى لا سلاح فيه، وعليك بالأطراف، فقليل الجراح فيها كثير، ولا تضيع الضرب فى الدرق أو التروس، فربما نبا السيف أو نشب أو التوى»[1].

ومع تأمين الدرع لصاحبها فإن إصابته قد تكون من نقطة واهية فيها أو من فتحة سيئة، أو عند انكشافها عنه فجأة كما حدث مع «ابن ردمير» الطاغية الذى كان مكفنًا بالحديد ولا يظهر منه إلا عيناه، فترصده «سعدارة» إلى أن أمكنته الفرصة فحمل عليه وطعنه فى عينيه فخر صريعا، وكالعبد الأسود الذى التصق بألفونسو فى معركة الزلاقة، وقد انتضى خنجرا وتحين ثغرة فرأى فى درعه نقطة واهية فهتك بعض حلقته وأثبت خنجره فى فخده كما سبق الحديث عنه.

والزغفة هى نوع من الدروع اللينة الواسعة المحكمة ويبدو أنها كانت منتشرة بين جنود المرابطين كما ورد فى رسالة «ابن طاهر» إلى «ابن عبدالعزيز»[2].

وهناك الجواشن التى تغطى الصدر فقط بلا ظهر ولا أكمام وهى عبارة عن ألواح صغار من الحديد أو من القرن أو الجلد تلبس حول الجزء الأوسط من الجسم فوق الثياب[3]. ويبدو أن هذا النوع كان يقبل عليه معظم جنود المرابطين لإظهار بطولتهم، وإياسًا لأنفسهم من الفرار لأن ظهورهم تكون مكشوفة وعرضة للسلاح، وقد عرفنا سابقًا مدى دهشة أهل الأندلس لظهور المرابطين بأسلحتهم الدفاعية الخفيفة[4].

ويبدو أن هذه الجواشن والزغف كانت سلاحًا للمشاة والرماة فقد كانوا يتخففون من الحديد لتتحقق لهم خفة الحركة وحرية العمل وللدروع ملحقات منها:

أ- الخوذة: وهى مصنوعة فى الأصل من الجلد ثم صنعت من المعدن بعد ذلك وهى أيضا من السرد الذى يسمح منه الدروع على قدر الرأس وتلبس تحت القلنسوة[5].

---

(١) الحسن بن عبدالله -آثار الأول- مخطوط بالمتحف الحربى ورقة (١٦١)

(٢) د.مؤنس، مجلة الدراسات الإسلامية بمدريد مجلد (٣) سنة ١٩٥٥م ص (١٣٥)

(٣) عبدالرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص (١١٨)

(٤) ابن الأبار - الحلة السيراء، ص (٩-٢)

(٥) السلاح فى الإسلام، ص (٥٦)، الفن الحربى، ص (١٨٤)

ويتدلى تحت البيضة جزء منه على توجه خميته، وقد يكون المغفر سابغا من الخلف أيضا بحيث يغطي القفا[1]، وكان بعض الفرسان يلبسون فوق البيضة العمامة العربية أو القلنسوة.

وقد كان المرابطون يخوضون الحروب بالعمائم، وقد وصفهم ابن الخطيب في معركة الزلاقة حيث قال: «وجاء وقت الزوال من اليوم والحرب قائمة وقد اختلطت عمائم المرابطين ببيضات الروم»[2]

ب- البيضة: وهي الخوذة من الحديد أو الفولاذ مبطنة ببعض المواد اللينة كالقطن وغيره، وتلبس لوقاية الرأس، وأعلى الخوذة يسمى «قونس» وتنتهي بزرد يطرحه الجندي على ظهره وهي مدببة من أعلى حتى لا تؤثر فيها ضربات السيوف[3].

جـ- الأذرع والسيقان والأكف: وهي من مكملات الدرع وبها يكون الفارس قد أخفى بدنه بالحديد. وما كان هذا ليثقله لأن فرسه كان يحمله عنه، وقد أخذ فرسان المرابطين عن النصارى هذا اللباس الثقيل من الحديد بعدما نزحت جيوشهم إلى شبه جزيرة الأندلس واختلطوا بالأندلسيين واحتكوا بأعدائهم من النصارى.

٢- الترس: هو صفحة من الفولاذ مستديرة يحملها المقاتل في اليد ويتلقى بها ضربات السيوف أو السهام أو الرماح. ولكل سلاح ترس يناسبه، وكانت للترس أسماء شتى عند العرب منها: الحجفة والدرقة والمجن وكانت تصنع من الخشب المغطى بالجلد الفاسي، وإن كان صاحب القاموس قد عرف الحجفة بأنها ترس من جلد الإبل أو البقر ليس فيها خشب ولا سيور من الجلد أو العصب[4]، ولكن يبدو أن هذا الجلد كان مشدودا على خشب أو نحوه يقويه ويشد قوامه[5]، ثم صارت تصنع من الحديد والفولاذ. وأصبحت للتروس أنواع كل بحسب بلده، ومحلة صناعته ومن أهمها: الترس الدمشقي والعراقي والغرناطي.

---

(١) الفن الحربي، ص (١٨٤).

(٢) تاريخ المغرب العربي، ص (٢٤٤).

(٣) السلاح في الإسلام، ص (٢٣).

(٤) القاموس مادة «ترس»، السلاح في الإسلام، ص (١٦).

(٥) الفن الحربي، ص (١٨٦).

وقد أفاضت المراجع فى الحديث عن درق اللمط التى كانت مشهورة بين جند الملثمين من فرق الحرس الخاص «عبيد» أو «المشاة» وغيرها. وهى تصنع فى مدينة «نول» مركز الدرق اللمطية، وقد اختصت قبيلة لمطة بصناعة هذه التروس، وقد ذكر الإدريسى وصفاً لأهمية تلك التروس اللمطية فقال: «مدينة نول مدينة كبيرة، وعليها قبائل لمتونة ولمطة وبهذه المدينة تصنع الدرق اللمطية، التى لا شىء أبدع منها، ولا أصلب منها ظهراً، ولا أحسن منها صنعاً، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة محملها، وبهذه المدينة قوم يصنعون السروج واللجم والأقتاب المعدة لخدمة الإبل»[1].

وتصنع هذه الدرق من حيوان يسمى «اللمط» وهو دابة دون البقر لها قرون دقائق حادة لذكورها وإناثها، وكلما كبر الواحد منها طال قرنه حتى يكون أكثر من أربعة أشبار، وأجود الدرق وأعلاها ثمناً ما صنع من جلود العواتق منها وهى التى طال قرنها وكبر سنها[2]. ومن البديهى أن المحارب لا يستغنى مطلقاً عن ترسه فكما أن السيف لا يفارق يمينه فإن الترس لا تفارق يساره عند القتال أو ظهره عند حمله فى السلم.

ثانيًا: وسائل دفاع ثابتة

الخنادق　　الحسك الشائك　　الحصون والأسوار　　الثغور

كلمة عامة:

لقد عرف عن مسلمى الأندلس بصفة عامة براعتهم فى بناء القلاع والحصون على قمم الجبال والتلال لحماية الوديان والمضايق، وإجادتهم لحروب الحصار، وقد فرض عليهم هذا النوع من الحرب طبيعة البلاد التى عاشوا فيها بسحبها ووديانها ومضايقها، وكذلك عناد الإسبان الأصليين الذين لم يستهدوا أبداً فى استعادة وطنهم، وقد لمسنا ذلك فى حروب ملوك الطوائف للنصارى الإسبان والذين كانت أغلب حروبهم دفاعية فقط، إلى أن جاء المرابطون الذين نهجوا مذهب الدفاع

(١) الشريف الإدريسى - المغرب وأرض السودان- نزهة المشتاق، ص (٥٩)

(٢) البكرى - المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص (١٧١)

أيضًا في أغلب حروبهم وخاصة في أواخر عهدهم اللهم إلا بعض الحالات الهجومية كحصارهم لمدينة «شنتريس» واستيلائهم عليها، مع ما لاقوه من آلام الحصار ومتاعبه.

وقد عرفنا أيضًا أن المرابطين في أول أمرهم لم تكن لهم دراية بفن الحصار فكيف يتأتى لهم وهم قوم صحراويون لم يكن لهم بفن الحصار عهد؟

ومن المحتمل أنهم أتقنوا هذا الفن بعد استيلائهم على سلطان ملوك الطوائف واحتكاكهم بالنصارى المحاربين لهم، وقد عبر عن ذلك صاحب الحلل الموشية (أن «يوسف بن تاشفين» شرع في بناء الأسوار ورم ما تقوض من الأبراج، وحفر الخنادق حولها وشحنها بالأطعمة والأسلحة ورتب فيها عسكرًا انتقى من نخبة رجاله وأسكنهم بها)[1].

وقد اضطر عاهل المرابطين الأول إلى تعميم هذا النظام في العدوتين المغربية والأندلسية راميًا من وراء هذا أن يقر السكينة في ربوع البلاد، ويضرب بيد من حديد على من تسول له نفسه من القبائل الخروج على حكمه وطاعته ويراقب منها القبائل المتمردة عليه.

وقد أقام «يوسف بن تاشفين» وأمراء المرابطين من بعده عددًا من القلاع والحصون، كانت مبثوثة في كل أرجاء المغرب الأقصى وخصوصًا حول المنطقة الجبلية في الجنوب والشمال وفي المغرب الأوسط وفي أطراف الصحراء حتى إن البيذق عد منها ما يقرب من عشرين حصنًا كما سنعرف بعد.

إذن يمكننا أن نقول إن «يوسف بن تاشفين» هو أول من وضع أسس هذا النظام الفني في خطط الدفاع المرابطية. ثم ازداد هذا النظام كثرة وإتقانًا في عهد ابنه «علي» فقد روى المؤرخون أنه استعان ببعض الأندلسيين في إقامة سلسلة من القلاع الحصينة خوفًا من خطر الموحدين، لأنه أدرك أن تلك الحصون التي ابتناها أبوه غير كافية، ففي سنة ٥١٦ هـ، أمر «علي بن يوسف» رجلا من أهل الأندلس يعرف «بالفلاكي» وكان من قطاع الطرق وقد تاب، فعفى عنه وقدمه على العساكر

---

(١) الحلل الموشية، ص (٦٧، ٦٨).

وطلب منه أن يحصن ثغور مراكش، وأول ما صنع له كانت حصون ضبط بها ثغرات جبل درن الذى وقع بسببها الخوف من نزول الموحدين إلى البسائط وبذلك منعهم من الهبوط إليها، ثم اشترك الفلاكى مع بعض قواد المرابطين الآخرين مثل «ميمون بن ياسين» فى بناء سلسلة من الحصون لحماية المناطق المحيطة بمدينة مراكش من ناحية السهول الجنوبية، وحتى تتحد قواعد تنفذ منها القوات المرابطية إلى السوس حيث كان يحتمى ابن تومرت[1].

ثم شرع «على بن يوسف» فى بناء الأسوار حول المدن، ومن هذه الأسوار سور مدينة مراكش سنة ٥٢٠هـ، والذى أنفق فيه سبعين ألف دينار من الذهب عندما لاحت نذر «المهدى ابن تومرت»[2].

وكان هذا العمل عام «التحصينات والمنشآت الدفاعية» سواء أكان فى المغرب أو الأندلس حيث أرسل «على بن يوسف» كتابه إلى الأندلس بوجوب بناء الأسوار فى مدنها الكبرى فتم تعتيب غرناطة وقرطبة، وفرضت ضريبة تسمى «المعتب» وهى إتاوة الدار على سائر أهل الأندلس[3].

من هذا يتضح أن المرابطين ابتداء من أواخر «على بن يوسف» قد التزموا بخطط الدفاع نظرا لظروفهم التى يمرون بها، لذا أكثروا من تشييد القلاع والحصون وبناء الأسوار إلا أننا نلاحظ وفقًا لخططهم الدفاعية هذه أنهم كانوا يجيدون الامتناع بالقلاع ويحيدون تحصيناتها ويرهقون المحاصرين لهم.

وإذا ما قارنا مهارتهم فى الامتناع بالحصون والدفاع عنها بمقدرتهم فى الهجوم والحصار لاتضح لنا أنهم لم يكونوا على حظ كبير بفن الحصار والهجوم وقد يرجع السبب فى ذلك أن دعامة قوتهم كانت ترتكز إلى الفرسان أكثر من المشاة وهم أقل براعة فى فن الحصار.

أما فيما يتعلق بالموحدين فإنهم كانوا يمتازون بمهارتهم فى فن الحصار وتفوقهم على المرابطين فى هذا المضمار، وكانت أمنع الأسوار والتحصينات تتحطم تحت

(١) نظم الجمان ت. مكى، ص (٨٥، ٨٦) - الحلل الموشية، ص (٨٣)

(٢) الحلل الموشية، ص (٧١)

(٣) عنان - عصر المرابطين والموحدين، ج (١) ص (١١٥)

ضربات آلاتهم المدمرة، وقد تتضح ذلك فى حصارهم لوهران والمهدية بأفريقية وطرش وحصن القصر، وشلب وشنترين، وهذا ما سنتناوله فى الحديث عن الحصون فيما بعد.

أما من حيث وسائل الدفاع الثابتة التى كانت متبعة فى جيوش المرابطين والموحدين فهى:

١ - حفر الخنادق:

الخنادق من أهم وسائل الدفاع القديمة والحديثة، فقد كانت الجيوش تقوم بحفرها حول مدنهم وحصونهم للدفاع عنها من الخلف، وتكون مانعًا لهم من الغدر والمفاجأة من جانب العدو، وكثيرًا ما نصح القواد بالتزام الخندق خوفًا من مداهمة الأعداء لهم، فصاروا إذا نزلوا ليلا فى موقع خندقوا حول عسكرهم تركين للمرور ما بين بابين أو أربعة أبواب متحصنين بالخسور والخنادق المائية.

وقد حرصت القيادة المرابطية على إقامة الخندق فى معظم حروبهم وتحركاتهم فإذا أناخوا بمحلة خندقوا عليها خشية المفاجأة لهم بالليل، وإن وجدوا عدوهم خندق على جيشه، ضربوا خندقا حول خندقه ليشعره بدوام الحصار فييأس من فكه ويبادر بالتسليم، وقد أشار إلى ذلك «أبو بكر الصيرفى» شاعر لمتونة وأهل الأندلس فى قصيدته التى مدح بها تاشفين بن على والتى أمده فيها بعدة وصايا وتحذيرات فى سياسة الحروب فقال[1]:

يا تاشفين أقم لجيشك عذره ... بالليل والقدر الذى لا يدفع

أهديك من أدب السياسة ما به ... كانت ملوك الفرس قبلك تولع

إلى أن يقول:

خندق عليك إذا ضربت محلة ... سيان تتبع ظافرا أو تتبع

وبمرور الزمن أصبح حفر الخندق ضرورة لازمة يحفرونها حول المعسكرات الدائمة وحول المدن والثغور ذات المراكز الإستراتيجية الهامة. ثم دخلت على

---

(١) ابن خلدون - المقدمة، ص (٣٠٨).

الخنادق كثير من التحصينات فصدروا يبنون عليها الخدر العلية ويحفرون حول المدينة أكثر من خندق، ويبنون على كل خندق سورا، وفي حالة الخوف يحفرون حول الخندق حفائر يغطي بالقصب والقصبان والتراب لتكون شراكا لخطوات الأعداء[1].

أما عن طرق اقتحام الخندق فإن حيلها كثيرة وكانت شائعة في أنظمة الحصار في معظم جيوش العالم الإسلامي شرقه وغربه، ومن أراد معرفة ذلك فليرجع إلى كتاب «آثار الأول» للحسن بن عبدالله.

٢- الحسك الشائك:

الحسك في اللغة العربية هو نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم، وورقه يشبه ورق الرجلة، والحسك من أدوات الحروب الدفاعية يتألف من قطع حديد ذات شعب تطرح حول المعسكرات أو أمام الخيل لعرقلتها، وكان لحسك الحديد شأن خطير في الحروب القديمة، ففي التاريخ شواهد مختلفة تذكر أن كثيراً من الجيوش قد نجت من خطر التطويق أو استيلاء العدو عليها. وقد استعمله الإغريق والفرس والعرب والروم[2].

وقد ثبت عن العرب إجادتهم هذا النوع من وسائل الدفاع، وكان له صناع يقومون بصناعته وتحمل على الدواب ثم تلقى في الطرق والأماكن التي يتوقع قدوم العدو منها، وقد أبان لنا «نعمان ثابت» حالات استخدام الحسك في الجيوش في حالات ثلاث هي:

الأولى: إذا نزلت الجيوش أرض العدو يحفرون حول عسكرهم خندقاً ثم ينثرون الحسك الشائك حوله، تاركين ممرات متعارفاً عليها بين الجنود على غرار ما تفعله الجيوش المعاصرة من زرع القنابل وبث حقول الألغام حول المعسكرات.

الثانية: وقد يستخدم في حصار الأعداء وتضييق الطرق عليه، وذلك عندما يريد الجند المهاجم إخراج الجند المحاصرين من قلاعهم فيناوشونهم ويتظاهرون

---

(١) الحسن بن عبدالله، آثار الأول، ص (٢١٥)

(٢) السلاح في الإسلام، ص (٢٢)، وانظر ميخائيل عواد - مجلة المجمع العلمي العراقي، ج (١)، ج (٢) من المجلد العشرين عام ١٩٤٥م - استعمال الحسك في الحروب القديمة

بالفرار، فإذا خرجوا من حصنهم وراء المهاجمين صيغوا عليهم الحسك وأجبروهم أن يعودوا من طريق قد زرعوه بالحسك فيرتكون، فتتلك منهم سيوفهم وبهذا يكون الحسك سلاحًا معاونًا لأسلحة الجيش.

الثالثة: وقد يلجأ القائد إلى زرع الحسك الشائك خلف جنوده ليجبرهم على الثبات أمام العدو وعدم الفرار[1].

٣- القلاع والحصون والأسوار:

كان المرابطون في أول عهدهم قومًا صحراويين يتخذون حصونهم من قطعان الإبل الضخمة التي كانوا يسوقونها معهم في الحروب، يتحصنون بها وتكون سياجًا يحيط بمعسكرهم إذا أناخوا في مكان ما.

وبعدما تدفقت جيوش المرابطين من الصحراء صوب المغرب وتم لهم السيادة عليه كان من الضروري بناء عدة قلاع وحصون تحت تشرف القبائل التي تم إخضاعها وذلك لمراقبتهم وردع كل حركة تقوم بها هؤلاء القبائل من التمرد والعصيان أو الثورة على المرابطين.

ومن القلاع والحصون التي ابتناها المرابطون في مستهل عهدهم إبان صراعهم مع قبائل المغرب: «تيلبلا» بالقرب من سجلماسة، دار الحجر بمراكش[2] «تاكررت» بالقرب من تلمسان في المغرب الأوسط لحراسة قبائل الزناتيين والدفاع عن الحدود الشرقية للدولة، ولم يكتف المرابطون بحصن تاكررت على تلك الحدود بل بتنوا على ساحل تلمسان عدة حصون أخرى منها: حصن تاكرمت، وحصن مرسية، وحصن تاونت، وحصن أبي جنون، وحصن كاربيوا[3].

ثم ابتنى المرابطون سلسلة من الحصون والقلاع لإحكام التدابير الدفاعية حول مراكش وجبال درن وغيرها، ومن القلاع التي أقامها المرابطون لرد هجوم الموحدين: بنى تاودا - أمرجو - تاسغيموت.

---

(١) الجندية في الدولة العباسية، ص (١٦٤).

(٢) الحلل الموشية، ص (٦، ١٣).

(٣) البكري المغرب، ص (١٧٧- ١٨٠).

وقلعة بنى تاودا، من القلاع المرابطية الأصلية التى بنيت خصيصاً لمراقبة سكان الجبال فى منطقة الريف. وهى تقع على الطريق الموصل إلى جبال غمارة فى واد فسيح مليء بالخيرات(١).

أما قلعة «أمرجو» فهى جنوبى قلعة تاودا تقع على مرتفع من الأرض يشرف على وادى ورغة المتفرع من وادى سبو، وقد بناها المرابطون لمراقبة سكان منطقة الريف أيضا لكثرة ثوراتهم وتمردهم، وقد أشار إلى هذا الحصن صاحب الاستبصار فهو مبنى بالحجارة والجير ولا يقدر أحد على هدم شيء منه إلا بالمشقة(٢)

وهذه القلعة من أروع أمثلة العمارة الحربية فى المغرب فى عصر المرابطين وقد تم بناؤها فى عهد «يوسف بن تاشفين»، ويلاحظ فى بناء هذه القلعة تداخل التقاليد المحلية مع التأثيرات الأندلسية التى تدفقت إلى المغرب فى عصر «على بن يوسف» والتأثيرات الإسبانية المسيحية التى حملها النصارى المرتزقة فى الجيش المرابطى.

وتتضح التأثيرات المسيحية فى الأبراج المستديرة الشكل وفى السور الأمامى والقلعة على شكل متعدد الأضلاع، وقد ابتنى المرابطون على سورها الخارجى اثنى عشر برجاً نصف دائرية لتدعمه وتقويه موزعة فى زوايا السور، ويخترق أسوارها ثلاثة أبواب، وفى داخل القلعة ترتفع قصبة صغيرة مستطيلة الشكل ترتكز فى أركانها أبراج نصف دائرية وينفتح فى سورها بابان(٣).

وقلعة «تاسغيموت» من القلاع التى أقامها المرابطون لمدافعة خطر وعدوان الموحدين، وقد قام ببنائها «ميمون بن ياسين» بالاشتراك مع رجل من أهل الأندلس يعرف بالفلاكى(٤)، كما قلنا، وتقع هذه القلعة على بعد ثلاثة كيلو مترات جنوبى شرقى مراكش وعلى بعد عشرة كيلو مترات شرقى أغمات.

وقد أحسن المرابطون اختيار موقع هذه القلعة فهى على سطح هضبة أطرافها ذات أجراف وعرة شديدة الانحدار يصعب على المغيرين ارتقاؤها ثم أدير على

---

(١)، (٢) الاستبصار ص (١٩٠).

(٣) Terrase L'art Hispano Mauresque P.226

(٤) الحلل الموشية، ص (٨٣)، نظم الجمان. ت مكى، ص (٨٥، ٨٦)

حول الهضبة سور يتبع تعرجاتها، وتتوسط هذه القلعة وادى أغمات أيلان المتفرع من وادى تسيفت الأعلى. لذا كان الغرض من إنشائها هو حماية عاصمة المرابطين «مراكش» من غارات الموحدين. وكانت تقيم بهذه القلعة حامية مرابطية من مائتى فارس وخمسمائة من المشاة من قبيلة هزرجة[1].

وقد ذكر الدكتور حسن أحمد محمود أسماء ثلاثة وعشرين قلعة شيدت فى العصر المرابطى[2] فإذا ما سلمنا بصحة هذه الرواية فستكون قريبة من رواية البيذق والتى عدد فيها من قلاع المرابطين ما يقرب من عشرين حصنًا منبثة فى أرجاء البلاد[3].

وقد عرفنا أن كل حصن يرابط فيه تقريبًا مائتان من الفوارس وخمسمائة من الرجالة، فتكون القوة المرابطة فى هذه الحصون والحارسة لقبائل بلاد المغرب أربعة آلاف وستمائة فارس، ومن المشاة أحد عشر ألفا وخمسمائة راجل، وهذه القوة كافية لقمع حركات القبائل المغربية وتمردها.

فإذا ما أضفنا هذا العدد إلى عدد الجند المرابطين فى الأندلس وقوامه سبعة عشر ألف فارس موزعة على حصون أشبيلية وقرطبة وغرناطة وشرق الأندلس والثغور المتاخمة لأراضى العدو[4] فتكون قوة الفرسان المرابطة فى قلاع وحصون الجيش المرابطى كله تقريبًا واحدًا وعشرين ألفا وستمائة فارس، بأرزاقهم ورواتبهم من ديوان الجند.

ومن البدهى أن هذه الحصون كلها قد آل ملكها للموحدين، بعضها قد سلم بسهولة، والبعض الآخر تحصن بها المرابطون إلى أن دهمهم الموحدون بآلات حصارهم القاسية.

واهتم الموحدون بإنشاء عدد كبير من القلاع والحصون فى بلاد المغرب، تأثر أغلبها بالمؤثرات الأندلسية التى غزت كل مجالات الفنون والعمارة إبان ذلك العصر كما حدث فى الحقبة التاريخية للمرابطين من تأثر فى هذا المجال.

---

(١) نظم الجمان، ص (١٩٣)، البيذق، ص (١٢٨).

(٢) قيام دولة المرابطين، ص (٤٦١).

(٣) أخبار المهدى ابن تومرت، ص (١٢٨، ١٢٩).

(٤) الحلل الموشية، ص (٥٦، ٥٧).

ومن الخلفاء الموحدين الذين اهتموا بالبناء الحربي «عبد المؤمن بن علي، وأبو يعقوب يوسف، والمنصور، والناصر» أما عبدالمؤمن بن علي فينسب إليه بناء سور تاكررت في تلمسان سنة ٥٤٠هـ[1] ثم أمر ببناء حصون جبل الفتح سنة ٥٥٥هـ[2].

وبنى يوسف يعقوب بن عبدالمؤمن قصبة أشبيلية[3] واستحضر لها عرفاء أهل الأندلس وعرفاء مراكش وفاس ٥٦٧هـ

وفي عهد المنصور أقيم حصن الفرج بأشبيلية، وفي عهد الناصر تم بناء سور مدينة فاس الذي كان قد هدمه جده عبدالمؤمن بن علي في سنة ٥٤٠هـ[4]

ثم تم إنشاء مجموعة تحصينات في أواخر عهد الموحدين دفعًا لخطر الاسترداد الأسباني، ومن هذه التحصينات برج الذهب بأشبيلية، وسورها الأمامي المعروف بالحزام البراني، وقد تم إنشاء ذلك في عهد الخليفة «أبي العلاء إدريس» الموحدي[5] وحصون الموحدين كثيرة منتشرة في أرجاء الدولة، ومما يلفت النظر حقًا أن معظم حصونهم كانت مزودة بتحصينات طبيعية رهيبة وسوف نتخذ حصنًا واحدًا كمثال يدل على تلك الحاسة الاستراتيجية في اختيار أصلح المواقع التي تقام عليها الحصون.

حصن المهدي ابن تومرت بتينمل:

وهو الحصن الذي نشأ فيه دعوته واشتد ساعدها، ومنه خرجت جيوشه للحرب والقتال ثم العودة إليه. وقد اهتم مؤرخو المسلمين بوصف منعة ذلك الحصن وقوته مثل الإدريسي، وابن الخطيب، وابن الخماد، وصاحب الحلل الموشية وغيرهم. ويوجد هذا الحصن بمدينة «تينمل» بلدة المهدي. وهي مدينة حصينة بما وهبها الله من مناعة طبيعية، فهي تقوم على الضفة اليسرى من وادي نفيس عند مدخل

---

(١) القرطاس، ص (١٢٣)

(٢) المصدر السابق، الحلل الموشية، ص (١١٨)

(٣) المراكشي، ص (٢٩٢)

(٤) القرطاس، ص (١٢٣)

(٥) السيد عبدالعزيز سالم، العمارة الحربية بالأندلس، دائرة معارف شعب عدد: (٦٤، ١٥٦، ١٥٨)

لسهل الأعلى الذى يضيق فى بعض مواضعه للغاية وتستند هذه المدينة من الشمال على جبل ومن الجنوب على الوادى الذى تنتصب فى ضفته المقابلة أجراف متوعرة شديدة الانحدار، أما الجهة الشرقية والغربية لهذه المدينة فهما طريقان موصلان إليها يتحكم فيهما الموحدون أعظم تحكم فى منع الغارين للوصول إلى المدينة، وأوسع طريق فيهما يمشى عليه الفارس وحده ثم يضيق حتى إلى درجة تجعل الفارس ينزل عن فرسه، وقد صنعوا مرحلة من هذا الطريق من الخشب إذا أزيلت عدة حافات منها أغلق الطريق فى وجه عابره. ولم يكتف أصحاب المهدى بذلك بل أحاطوها بالأسوار ثم بنوا على قمة جبلها حصنًا يكشف ما وراء الجبل[1]

ومن مزايا ذلك الحصن وتلك المدينة أنها تشرف على عدة طرق هامة مؤدية إلى بلاد المغرب فهى تقع فى طريق «تارودنت» السوس إلى مدينة أغمات وريكة ويبدأ من المحيط فى أقصى السوس، ثم يمر مع الشرق حتى يصل إلى حصن نفوسه ثم يحاذى طرابلس[2]، وقد روعى فى اختيار مكان هذا الحصن أن يكون متوافرًا به الثمار والزرع والمياه وأن يساعد على إقامة حياة لساكنيه إذا ما حوصروا مدة طويلة.

التحصينات والنظم الدفاعية فى المدن الأندلسية

لقد تميزت أكثر المدن الأندلسية التى أسسها المسلمون بصفة حربية بحتة مما يدل على أنها أسست للدفاع عن بعض المناطق المحيطة بكل مدينة. وأسماء هذه المدن يعبر بجلاء عن هذه الصفات مثل: قلعة جابر، القليعة، قلعة أيوب، قلعة رباح، حصن الفرج، حصن القصر... إلخ.

الأبراج والأسوار الأمامية:

كان النظام المتبع قبل المرابطين أن تدعم الأسوار أبراج تتوزع فى السور على مراحل مختلفة، كما كان يحيط بهذه الأسوار، أسوار أخرى أمامية، وتخترقها

---

(١) انظر فى وصف مدينة تينمل وحصنها نظم الجمان، ص (٩٥)، الحلل الموشية، ص (٨٣)، الإدريسى فى نزهة المشتاق، ص (٦٤).

(٢) الإدريسى - المغرب وأرض السودان، ص (٩٣)

أبواب تيسر اتصال المدينة بخارجها، كما كانت تقام قلعة أو قصبة فى أشد أجزائها ارتفاعا تدافع عن المدينة فى حالة الهجوم من أعلى، وغالبا ما تستند هذه القلعة إلى جزء من أسوار المدينة ليسهل على حاميتها الفرار فى الوقت المناسب.

على أن تحسينات كثيرة أدخلت فى النظام المعمارى لبناء الأسوار الأندلسية فى عهد المرابطين من سنة ١٠٩٠ - ١١٤٥م نتيجة حتمية للظروف السياسية التى كانت تحيط بهم وقتئذ، وقد وضعوا نصب أعينهم دفع التقدم الذى أحرزه النصارى فى عهد ألفونسو السادس عند توسعه فى حركة الاسترداد القومى.

إذن ما هى التحسينات التى أدخلها المرابطون فى بناء الأسوار بالأندلس؟ لقد ابتكر المرابطون نظامًا جديدًا فى تخطيط الأسوار، ذلك أنهم عمدوا إلى الإكثار من الزوايا الداخلية والخارجية بالسور بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة منكسرة.

وميزة هذا النظام أن يترك الجند أعداءهم يتقدمون داخل إحدى الزوايا، ثم يندفعون عليهم من أعلى الأسوار على الدروب فيفتكون بهم فتكًا ذريعًا[1].

ويبدو أن هذا النظام قد حقق أهدافه العسكرية التى صنع من أجلها، ففى حصار الموحدين لمدينة «مراكش»، أكثر المرابطون من عدد الرماة فى الممرات الأولى، واستطاع ابن همشك أن يحكم خطته التى فك بها الحصار وانهزم الموحدون[2]. وقد عدد صاحب الحلل الموشية هزيمة الموحدين أمام المرابطين فى بسائط مراكش وحول أسوارها ما يقرب من أربعين هزيمة[3]، وربما كان السبب فى هذه الهزائم راجعًا إلى هذه النظم من الأسوار.

ويتشكل السور فى أعلاه من درب يسير عليه المحاربون ويسمونه أحيانًا بـ«ممشى السور» وشرفات يقذفون منها سهامهم، ودورات يحتمون خلفها، والدورات كتل قائمة تنتهى بشكل مخروطى، ويتخلل جسم الدورة فتحات تساعد المحارب على النظر إلى أسفل دون أن تصيبه أسهم الأعداء.

---

(١) السيد محمود عبدالعزيز سالم - المساجد والقصور، ص (١٣٥).

(٢) الحلل الموشية، ص (٨٥)

(٣) المصدر السابق، ص (٨٦)

وقد تبقى من أسوار المدن الأندلسية عدد كبير مازال سليمًا في أكثر أجزائه كما هو الحال في أسوار غرناطة والمرية وقرطبة وأشبيلية وطليطلة وشريش وصالحة وبطليوس[1].

الأبراج:

من الأبراج الشائعة في الأندلس، البرج المضلع أو كثير الضلوع ويبدو أنه كان تقليدًا رومانيًا، أخذه المسلمون عنهم. فقد كان البرجان الملاصقان لباب قرطبة بمدينة قرمونة مثمنًا شكلهما، وأبراج مدينة «فريجوس» مسدسة الشكل[2].

وقد تأثر المرابطون والموحدون بصفة خاصة بالعمارة الرومانية، فشيدوا أبراجًا مسدسة الشكل كالبرج المسدس المعزول في حصن العقاب[3] بالقرب من جيان، والبرج المطل على قنطرة القاضي بغرناطة[4].

وقد استعمل الموحدون البرج المثمن على نحو منتظم في بناء أبراجهم «البرانية» وهذا تعبير أندلسي عن الأبراج الخارجية عن نطاق السور. وما لبث أن شاع هذا النوع في المدن التي تقع على الحدود بين المسلمين والنصارى مثل مدينة قصرش وبطليوس.

كما استخدموا أبراجًا مؤلفة من اثنى عشر ضلعًا كما هو الحال في برج «أسبانتا دروس» ببطليوس وبرج الذهب بأشبيلية، وفي مدينة لبلة برج كثير الأضلاع يعرف ببرج الذهب، وقد شاعت الأبراج المثمنة في الأندلس كما نشاهدها اليوم في مدينة شريش وشنترية[5].

البرج البراني:

وهو تصميم إسلامي من ابتكارات الموحدين قصد به تدعيم الستارة لأنه يقع بعدة خارج الستارة، ويربطه بها ستارة أخرى تسمى «قورجة» في المصطلح المغربي

(1) المساجد والقصور، ص (136).

(2) المصدر السابق، ص (138- 140).

(3) انظر موقع هذا الحصن في معركة الارك الموحدية في الباب الخامس.

(4) المساجد والقصور، ص (136).

(5) المساجد والقصور، ص (138- 140).

والقورجة تطلق على أسوار متفرعة من الأسوار الأساسية وتنتهى بأبراج برانية لتغلق الطريق أمام المهاجمين، وتلك الأبراج تقع عادة فى أضعف أجزاء السور.

ويبدو أن الموحدين قد لجأوا إلى هذا النوع من الأبراج لتفادى خطر المسيحيين على المدن الأندلسية، ومن أمثلة هذا النوع من الأبراج، أبراج قصبة بطليوس وحصن القصر اللذان يرجعان إلى عصر الموحدين

وقد تتخذ هذه الأبراج شكل المربع أو الشكل المثمن كما هو الحال فى أبراج قصبة الموحدين ببطليوس وأسوار مدينة أستجة وقلعة جابر[1].

ولكن البرج البرانى المثمن يمتاز عن البرج البرانى المربع بأنه أكثر مناعة وأكثر حصانة إذ أن جوانبه ضعف جوانب البرج المربع حيث يمكن المدافعين من التحرك فى كافة الاتجاهات والزوايا.

وإن كان البرج المستدير أفضل من هذين النوعين، على الرغم من أن الموحدين لم يستعملوا الأبراج المستديرة، وذلك راجع إلى سهولة بناء الأبراج المربعة والمثمنة بالملاط والأحجار عن بناء الأبراج المستديرة.

وقد شاع بناء هذه الأبراج الأخيرة فى شمال أفريقية فى قلعة «أمرجو» و«الرباط» وهما من عصر المرابطين[2].

ومن أمثلة الأبراج البرانية بأشبيلية برج الذهب، وبرج الشرفة، وبرج «اسبنتا بروس» ببطليوس، ويرتبط برج الذهب، بستارة أساسية عن طريق قورجة لم يتبق منها اليوم أى أثر، وأصبح البرج منعزلاً عن حافة بهو الوادى الكبير[3].

السور الأمامى «الحزام البرانى»:

هذا النظام مقتبس من الأنظمة البيزنطية، فقد دفعت الحروب المستمرة بين المسلمين والنصارى إلى عنايتهم بالعمارة الحربية ليحكموا تحصيناتهم الدفاعية فكانت مدنهم محصنة تحصيناً محكماً، وكانت أسوار هذه المدن تتألف من ستارة

(١) المساجد والقصور، ص (١٤٠)

(٢) المصدر السابق، ص (١٤١)

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (١٤٢)

أساسية تدور حول الحصن أو المدينة ثم سور أمامى آخر أقل من السور الأساسى، ويحيط هذا السور الأمامى بالأبراج ويدور حوله حفير أو خندق.

وقد نال هذا النظام المعمارى إعجاب المسلمين بالأندلس فأقبلوا عليه وقد بدأ العمل به منذ زمن المرابطين بشمالى أفريقية كما هو الأمر فى قلعة «أمرجو»[1]. ويبدو أن الموحدين قد شعروا بأهمية السور الأمامى الذى اقتبسوه من النصارى إذ أن السور الأمامى يمنع العدو والمهاجم من شن هجومه مباشرة على الأسوار الأساسية الرئيسية ويعطل من تقدمه نحو فتح الثغرات التى يمكنه أن ينفذ منها داخل المدينة.

ومما يثبت اهتمام الموحدين بهذا النظام والعمل به، ماقام به الخليفة «أبو يعقوب يوسف» من تحصين قلعة جابر التى تعد بمثابة المركز الأمامى الدفاعى لمدينة أشبيلية بنوع من هذه الأسوار.

كما أنه شيد الأسوار الأمامية لقصبة بطليوس المنيعة، ويغلب على الظن أن الموحدين أقاموا الأسوار الأمامية فى جيان وشريش والجزيرة الخضراء وبسطة ولوشه منتقة.

أما سور أشبيلية الأمامى فقد شيده الخليفة «أبو العلا إدريس المأمون» ابن أبى يعقوب يوسف سنة ٦١٨هـ - ١٢٢١م، وحفر حوله خندقًا، وقد تبقت من هذا السور الإشبيلى أجزاء هامة منه[2].

الأبواب ذات المرافق:

من الطبيعى أن يتخلل الأسوار أبواب تصل داخل المدينة بخارجها، وكان النظام المتبع فى هذه الأبواب هو النظام البيزنطى وهو عبارة عن عقدين متقابلين، أحدهما ينفتح إلى الداخل والآخر ينفتح إلى الخارج، وقد ابتدع المرابطون نوعًا آخر من هذه الأبواب ذات المرافق، ونعنى بذلك أن الممر الواصل بين فتحتى الباب ينحنى بزاوية قائمة فى شكل المرفق. وتمتاز هذه الأبواب بوضع عقبات وراء الانحناء

---

(١)، (٢) المساجد والقصور، ص (١٤٢).

الممر أمام المهاجمين بتلك الانحناءات ومن هذه الأبواب ذات المرافق بابان يوجدان بمدينة غرناطة وبرجمان إلى عصر المرابطين[1].

أما الموحدون فقد عقدوا من هذا النظام إذ أنشأوا أبوابًا مرافقها مزدوجة وأخرى ذات ثلاثة مرافق ولم يسقفوا هذه الممرات حتى تتح الفرصة للجند بالإشراف من علٍ على المهاجمين، وقذفهم بالنبل والنيران الإغريقية ويصبونها عليهم صبًا. ومن هذه الأبواب أيضا بابان ببطليوس

أما الأبواب ذات المرافق الثلاثة فتوجد بمراكش، مثل أبواب قصبة الأودية برباط[2] وهي من بناء يوسف بن تاشفين، وقد اتخذها عبد المؤمن بن علي دارًا له فأدار أسوارها وبني مسجدها ومدرستها وأجرى إليها الماء من نحو عشرين ميلاً[3].

وسوف نأخذ مثالاً لهذه الأبواب ذات المرافق المعقدة من بناء الموحدين وهو ذو قيمة دفاعية كبرى هو باب الرواح بمدينة رباط الفتح التي اختطها أبو يعقوب يوسف على المحيط الأطلسي وأكملها المنصور. وهذا الباب مبني من قطع حجرية متوسطة الحجم، ويؤلف الباب نظامًا دفاعيًا شديد الإتقان حيث بني له برجان مربعان يحميان مدخله وممرات داخلة إلى المدينة على أن يمشي في ممر ذي مرفقين وعندما يجتاز السائر هذا المدخل يصل إلى الساحة الأولى وهي دهليز مربع الشكل تعلوه قبة مضلعة قائمة على حوفات مقببة بأنصاف قبوات متعارضة، ويتصل بهذا الدهليز المربع ثاني مربع الشكل أيضا يعلوه قبة نصف كروية، ويؤدي هذا الدهليز بدوره عن طريق ممر إلى دهليز ثالث، مكشوف من أعلى يتعرض عنده المهاجمون لقذائف المدافعين بأعلى سطح الباب، ويتصل هذا الدهليز الثالث بدهليز رابع تعلوه قبة نصف كروية ينتهي منها الداخل إلى المدينة، وكان من الطبيعي أن يتعين لإقامة هذه الأبواب ذات المرافق المزدوجة زيادة سمك البناء[4].

---

(١) المساجد والقصور، ص (١٤٣)

(٢) المصدر السابق، ص(١٤١)

(٣) مظاهر الحضارة المغربية - عبدالعزيز بن عبد الله، ص(٢٨)

(٤) السيد عبدالعزيز سالم - وسائل الدفاع الإسلامي في العصور الوسطى، مجلة الجيش عدد (٨٢)، ١٩٥٨م، والمساجد والقصور، ص (٤٣)

٤- نظام الثغور والرباطات:

من التدابير الدفاعية الدائمة إقامة الثغور والرباطات، وهي المواقع الحصينة أو القلاع التي تقع على حدود الدولة الإسلامية وذلك إما لدفع العدو وصد غاراته أو لاتخاذها قاعدة انطلاق لمهاجمة العدو وفتح بلاده .

والمثاغرة أن يقيم الجند الرسميون في الثغر، وقد كان سكان الثغور يشكلون خط «المخافر الأمامية» للدولة فيتناوبون مراقبة العدو والتصدى له.

أما الرباطات فهي الأماكن التي يرابط فيها المسلمون جهاداً في سبيل الله بدون أي أجر أو نفع مادى كرباط عبد الله بن ياسين.

وكانت الثغور الأندلسية تجرى على سنن الثغور في كل عصر، وقد حرصت الدولة الإسلامية على اتخاذ مدن محصنة ثغرية عند الحدود، وكانت الدولة هي التي تبنى هذه الثغور على نفقتها وتبنى بها مخازن للجند ويكون البناء في المدن الثغرية عملية مستوجبة للحراسة المعدلة خوفاً من غارة أو بيات من العدو.

ومن نماذج العمارة الثغرية الحربية رباط «المنستير» القائم إلى الآن في تونس قرب المهدية وهو من بناء قائد عباسي جاء إلى أفريقية في مهمة عابرة وهو «هرثمة بن أعين»[1]، أحد قواد الخليفة المأمون، وهو نفسه الذي بنى رباط «طرسوس» في شمال الشام وجنوب شرقي آسيا الصغرى. فهل أقام المرابطون ومن بعدهم الموحدون جبهة ثغرية؟ كان من البدهي أن يخلقوا لأنفسهم هذه الجبهة، وخاصة أن دولتهم قامت على أسس راسخة من العقيدة زكتها روح الجهاد التي أشعلها في نفوسهم زعيمهم الروحي «ابن ياسين» مؤسس الرباط فكيف يكونون هم المرابطين ولم يكن لهم جبهة ثغرية؟

إذن من الضروري أن يخلقوا لأنفسهم هذه الجبهة، لكي يظفروا باحترام الرأي العام ولتكتمل شخصيتهم الإسلامية وليرتفعوا إلى مستوى التقاليد الإسلامية .

وقد تحملت دولة المرابطين هذا العبء منذ قيامها وكانت جبهتهم الأولى في الجنوب حيث كان قائدها الأمير «أبا بكر عمر اللمتوني» منذ أن ترك الشمال لابن

(١) البكري - المغرب، ص (٣٦).

عمه يوسف، فقد رحل إلى الصحراء حيث تقع حدوده الإسلامية السودانية عند النيجر فكان ينشر الإسلام ويحببه لأهالي الصحراء الذين انحرفت عقائدهم، وقد لعبت قوافل التجارة دوراً هامًا في نشر الإسلام في تلك البقاع.

وبعدما اكتملت ليوسف سيادته على المغرب كان لابد له من جبهة أخرى في الشمال ليواجه أعداءه النصارى، فكان أمامه جبهتان إما جبهة صقلية وإما جبهة الأندلس. ومن الطبيعي أن تكون جبهة الأندلس هي أقرب الجبهتين إليه بل هي الجبهة التقليدية، والتي اتجه إليها من قبله الزناتيون والأدارسة

وقد فرضت الظروف على المرابطين هذا الاختيار، فقد ضغطت النصارى على ثغور الأندلس فكان لزامًا عليهم أن يحضروا لنجدة إخوتهم في الدين الذين استصرخوهم لنجدتهم

وقد صادف هذا الاستصراخ هوى في نفس يوسف بن تاشفين إذ تاقت نفسه للعبور إلى شبه الجزيرة فأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر بها.

ثم أمر بعبور جيشه إلى سبته ونزوله بالجزيرة الخضراء حسب نصيحة كتبه عبدالله بن أسبط.

وعندما شعر ابن تاشفين بمراوغة ابن عباد في تسليم الجزيرة أرسل جندًا بقيادة ابن عائشة وأمره باحتلال الجزيرة عنوة، فالتقى بالراضي بن المعتمد وقال له: «وعدتمونا بالجزيرة ونحن لم نأت لأحد بلدة ولا ضرر سلطان إنما أتينا للجهاد فإما أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا وإلا فالذي تقدر عليه فاصنع»[1]

لذا يمكن لنا أن نقول إن المرابطين حتى ولو لم يستصرخهم ملوك الطوائف لكانوا متجهين حتمًا بحكم مذهبهم الديني وبحكم مذهبهم السياسي لاتخاذ جبهة ثغرية للجهد بالأندلس.

وبعد نصر الزلاقة رجع يوسف وترك بالأندلس قوة مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل أقاموا في الثغور والتزموا بأعمال الجهاد، وقد أسندت قيادة هذه القوة إلى قائد مرابطي هو «سير بن أبي بكر» كما قلنا سابقًا، وقد التزمت هذه القوة بأعمال

---

(١) الأمير عبدالله بن بلكين - كتاب التبيان، ص (١٠٣)

شاغرة، ندلل على تلك الرسالة التي وجهها سير بن أبي بكر إلى الأمير يوسف يشكو من ترف ملوك الطوائف قائلا: «إن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو، وملازمة الحرب والقتال في أضيق عيش وأنكده، وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد عيش وأطيبه»[1].

ظروف الجبهة بالأندلس:[2]

كانت بلاد الأندلس مقسمة إلى قسمين هما:

١- القسم الشمالي: تقوم فيه ممالك مسيحية ثلاث هي مملكة قطلونية، ومملكة أرجونة، ومملكة قشتالة.

٢- القسم الجنوبي: وهو الأندلس الإسلامية والحدود الفاصلة بينهما تتبع مجرى نهر التاجة من منبعه إلى مصبه، ولا تكاد تبتعد عنه ثم تتجه إلى الحدود من بعد منبع نحو الشمال إلى مستوى سرقسطة ثم تجري الحدود من شمالي سرقسطة بقليل نحو الشرق مع تقويس يسير حتى تتصل إلى البحر المتوسط عند مدينة طرطوشة.

وقد قسم المسلمون خط الحدود الطويل هذا إلى أقسام هي:

أ- القسم الشرقي: يعرف باسم الثغر الأعلى لأن الجبهة هنا ترتفع عن خط التاجة وتتوغل نحو الشمال من قونقة إلى كتندة إلى سرقسطة ثم تمتد على جبهة ثنية غربية شرقية أهم ثغورها سرقسطة وإفراغة ولاردة.

ب- القسم الأوسط: ويسمى الثغر الأوسط، وأهم ثغوره من الشرق إلى الغرب قنبش وقلعة رباح وماردة وبطليوس.

جـ- القسم الجنوبي: وهو الثغر الجنوبي وأهم ثغوره شنترين. والعادة في الثغور أن تكون ثابتة لا تكاد تتعدل إلا لظروف استراتيجية ملحة وبسبب ضئيلة، وهذا الثبات هو هدف الثغور، لأنها إنما تقام بعد نهاية كل فتح لحمايته لا للتوسيع فيه، فقد كان المسلمون كلما حققوا فتحاً اتخذوا له ثغوراً أمامية تحتشد فيها جنود

---

(1) المقري - نفح الطيب، ص (٥٣٢).

(2) [illegible]، تاريخهم السياسي، ص (١٠٤ - ١١١)، د/ عبدالله علام- الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، ص (١٤٤) وما بعدها.

مثاغرون، يثاغرون فيها بصفة مستمرة، ومن ورائهم بلد يشارك جنده في حماية الثغور على شكل غزو يسمى «صائفة» أو «شاتية»، فإذا تجاوز الغزو الثغور ودخل أرض العدو فيكون ذلك سعيًا وراء هدف محدد دون قصد توسعي لنشر الإسلام أو الدعوة إلى مذهب معين. ومن أمثلة ثبات الثغور تلك الثغور الفاصلة بين أرض طبرستان وأرض الجبل والديلم عند بحر قزوين[1]، فإن هذه الحدود ظلت ثابتة ثباتًا مطلقًا، إلى أن دخلها بعض العلويين اللاجئين فنشروا فيها الإسلام والمذهب العلوي الزيدي فكان ذلك مقدمة لدخول الجبل والديلم أرض الإسلام ولقيام دولة بني بويه.

إذن وظيفة الثغور وظيفة دفاعية أساسها الدفع لا التوسع، ويشمل الدفع منع أي تشكيل عدائي قرب الحدود أو أي تحصين يمكن أن يكون منحًا يتحصن فيه العدو قرب حدود المسلمين، وأي تحصين يمكن أن يتحكم في قلاعهم الثغرية، ويشمل الدفاع أيضا إقرار الهيبة في نفوس الأعداء حتى لا تحدثهم أنفسهم بالاعتداء على حدود المسلمين.

والمهمة التاريخية التي قامت بها الثغور الإسلامية مهمة حضارية هي العمل على خلق علاقات سلمية ثقافية تجارية دينية بين أرض الإسلام وأرض الحرب وتحويل ما يمكن تحويله من نظام أرض الحرب إلى أرض العهد.

وقد تحولت بعض الثغور نتيجة لهجوم الأعداء، فمثلا أزاحت أسرة مقدونية بيزنطية الحدود الإسلامية ودفعها نحو الجنوب في أيام الدولة الحمدانية.

وكان قد وقعت إزاحة للحدود الإسلامية في الأندلس مما أدى إلى دفعها نحو الجنوب على أيدي ملوك النصارى الإسبان أيام ملوك الطوائف، وكان أبرز ملوك النصارى الذي تعهد حركة الاسترداد هو «ألفونسو السادس» صاحب قشتالة.

فأول إزاحة تمت كان سقوط قاعدة «طليطلة» التي جاشت من أجلها نفوس أهل الأندلس طويلاً، والتي تمخضت عن قدوم المرابطين إلى شبه الجزيرة الأندلسية نصرة لإخوانهم في الدين. ثم شاء القدر بعد أن استقرت الجيوش المرابطية بالأندلس أن تفجع الأمة الأندلسية مرة أخرى بفقد قاعدة جديدة من قواعدها العظيمة هي «سرقسطة» قاعدة الثغر الأعلى.

---

(١) المرابطون، تاريخهم السياسي، ص (١٠٤ - ١١١)، د/ عبدالله علام- الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبدالمؤمن بن علي، ص (١٤٤) وما بعدها.

وقد دأب المرابطون على ترك الثغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسيين لكونهم أخبر بأحوالهم وأدرى بلقاء العدو وشن غاراته، ولم يمكنوا أحداً من ولايتها سواهم مع الإحسان إليهم[1].

وقد اهتم المرابطون بهذه الثغور وأمدوها بالخيل إمداداً دائماً فكانوا كلما وصلتهم خيل من العدو بعثوا بها إلى أهل الثغور[2].

سقوط «سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى»:

ومن تتمة الحديث عن الثغور أن نعرج في حديثنا عن تلك السقطة العسكرية التي منيت بها الجيوش المرابطية، ألا وهي سقوط «سرقسطة» في أيدي النصارى وسوف يتناولها البحث من الناحية العسكرية فقط.

فقد كانت سرقسطة مقراً لزعامة الأسر العربية متمثلة في بني هاشم التجيبيين ثم في خلفائهم من بني هود، حتى قدم المرابطون، فكانت سرقسطة آخر القواعد التي ستفلت من أيديهم.

وكانت سرقسطة تحتل موقعاً استراتيجياً وقومياً، مهماً ولعل عاهل المرابطين الأول «يوسف بن تاشفين» قد أدرك أهمية ذلك الموقع فعمل جاهداً على أن يحسن استغلاله استراتيجياً. فقد أوصى ابنه علياً عند بيعته بأمر الخلافة من بعده بثلاثة أمور منها: أن يهادن بني هود أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلاً بينه وبين النصارى وأن ينشئ جيشاً مرابطياً ثابتاً قوامه سبعة عشر ألفاً من الفرسان توزع على ممالك وثغور الأندلس، وأن يعهد إلى الأندلسيين بحراسة الحدود النصرانية فهم أكثر خبرة بأحوال النصارى وأكثر دربة على قتالهم من المرابطين[3].

ومن هذا يتبين لنا موقع سرقسطة الاستراتيجي والقومي الذي شعر به مبكراً هذا القائد المرابطي، فمن الناحية الاستراتيجية كان موقع سرقسطة بعيداً عن وسط الأندلس ومركز الحكومة الرئيسية كما أن موقع سرقسطة الحصين على الضفة اليسرى لنهر إبرو ومناعة أسوارها العالية قد تساعد الخارجين على تحدي الحكومة المركزية

---

(1) حلل الموشية، ص (١٦٠).
(2) المصدر السابق ونفس الصفحة.
(3) حلل الموشية، ص (٥٦ - ٦٠).

بقرطبة في وسط الأندلس، وكانت من ناحية أخرى حاجزًا طبيعيًا بين أراضي المسلمين وأراضي النصارى.

أما من الناحية القومية فإن وقوع مملكة سرقسطة المسلمة بين الممالك النصرانية التي تحيط بها وإمارة برشلونة من الشرق، ومملكتي أراجون ونافار «البشكنس» من الشمال، ومملكة قشتالة من الغرب، فإن هذا الموقع يحتم عليها أن تتبع نحو جيرانها النصارى سياسة خاصة يغلب عليها طابع السلم والمهادنة والملق، والخضوع أحيانًا في صورة أداء الجزية، وبالإضافة إلى ذلك كان ملوك سرقسطة يستخدمون في جيوشهم كثيرًا من النصارى المرتزقة بل كانوا أحيانًا يعتمدون على التحالف مع ملوك النصارى.

وقد شعر المرابطون منذ أن حلوا بالجزيرة بهذا المركز الحساس الذي تحتله سرقسطة في قلب هذا المعترك من الإمارات النصرانية المتوثبة عليها، فجاءت وصية أمير المسلمين يوسف لابنه علي بأن تكون سرقسطة حاجزًا بين المرابطين والنصارى. وتقدم لنا الرواية العربية تفاصيل مختلفة عن حوادث حصار النصارى لهذه المدينة لسنا في حاجة إليها إلا بالقدر الذي يوضح مدى خلل طرق التموين ومراكزها، ومدى تقصير الإمدادات اللازمة لجيوش المرابطين والمتصفح لأحداث تلك القاعدة الثغرية الهامة سيتأكد من ذلك التقصير الذي كان سببًا من الأسباب التي أدت إلى سقوطها.

وقد شجع سقوط سرقسطة «ألفونسو المحارب» أن يتابع ظفره بفتح ما بقي من قواعد الثغر الأعلى ومعاقله، فاستولى على طرسونة، وبرجة، ثم فتح حصن الاجون ومالن، وماجيون، وأبيلا[1] وغيرها. ولعل تهاوي وسقوط تلك الحصون يبرز مدى الخسارة الكبيرة لسقوط سرقسطة، وهذا بلا شك يعد كبوة واضحة وذلة كبيرة في جبين تاريخ المرابطين العسكري. وقد يغفر لهم ذلك ما أحرزوه بعد ذلك من انتصارات بعد الزلاقة مثل نصر «اقليش» سنة ٥٠١ هـ و«إفراغة» سنة ٥٢٨هـ. وبهما استطاع المرابطون أن يحافظوا على أغلب رقعة الوطن الأندلسي من أن تتردى في أيدي الأعداء ولكن إلى حين.

أما الموحدون فقد ورثوا تلك الثغور عن المرابطين بعدما استقر أمرهم في المغرب والأندلس.

---

(١) عبد الله علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، ص (١٤٤) وما بعدها.

وقد اهتم الموحدون بهذه الثغور وأمدوها بجند المرابطة والخيول، وقد بلغ من اهتمام عبدالمؤمن بهذا الأمر أنه حفظ حدود مملكته ومسح جميع أراضيها وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية، وعن خواصها وثرواتها وغلاتها. وكان يهدف بذلك إلى تقرير الضرائب الواجبة على كل ولاية، ومن جهة أخرى أن يتخذ من هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه اللازمة حشده فى ثغور مملكته. فكان على الثغور فى المغرب والأندلس أن تقدم البحارة والسفن وعلى المناطق الصحراوية الغنية بالخيل أن تقدم الفرسان والخيول ودواب الحمل، وعلى الولايات الأخرى أن تقدم الجند من المشاة والسلاح من كل درب على نسبة سكانها، فمراكش تقدم ٤٠٠ بحار وثغرها ١٥٠، وكل من طنجة وسبتة ومرسى عريف ووهران، ومرسى حنين ١٠٠ بحار وتقدم الأندلس ٨٠٠ بحار، وتحشد معظم هذه القوى فى ثغور مملكة الموحدين[1].

وعلى الرغم من أن الموحدين قد ورثوا هذه الثغور عن المرابطين وشحنوها بالرجال والسلاح والخيول إلا أنهم لم يحرزوا مثلما أحرز المرابطون من انتصارات وتوفيق، فكم عبرت جيوش الموحدين إلى الأندلس مزودة بالعدة والعدد ومع ذلك لم يحالفهم النصر فى أغلب حملاتهم، فتحطمت حملة الخليفة «أبى يعقوب يوسف» ضد القشتاليين تحت أسوار وبذة سنة ٥٦٧هـ - ١١٧٢م، وفشلت حملته الثانية ضد البرتغال تحت أسوار شنترين سنة ٥٨٠هـ - ١١٨٤م، وهلك الخليفة فى هذه الحملة ولم يحالفهم الحظ فى الانتصارات إلا فى معركة «الأرك» بقيادة المنصور ضد القشتاليين سنة ٥٩١هـ - ١١٩٥م.

وكما حدث إزاحة لبعض الثغور المرابطية فى الأندلس حدثت أيضاً هذه الظاهرة فى أخريات دولة الموحدين عقب هزيمتهم فى موقعة «العقاب» سنة ٦٠٩هـ - ١٢١٢م، فلم يمض على هذه الهزيمة سوى بضع سنين حتى انهار سلطان الموحدين بالأندلس وانتقصت حدود مملكتهم ووقع كثير من الثغور فى أيدى النصارى وخاصة قواعد الأندلس الكبرى، فقام ألفونسو التاسع ملك ليون بانتزاع قواعدها الغربية: ماردة وبطليوس، سنة ٦٢٧ هـ وغيرها، ثم قام «فرناندو الثالث» بانتزاع

---

(1) أشباخ - تاريخ الأندلس، ج(٢) ص (٢٤٧).

قرطبة سنة ٦٣٣ هـ. ثم يستولى ملك أرجون على الجزائر الشرقية وعاصمتها «بلنسية» سنة ٦٣٦ هـ حتى انحصر ملك المسلمين فى الأندلس فى مملكة غرناطة.

حركات المرابطة فى الثغور المغربية:

لقد عرف أهل المغرب الرباط، ولعل أول عهدهم به يرجع إلى زمن الفتح الإسلامى، ففى القرن الأول الهجرى كان رباط «شاكر» وهو رباط معروف عند المؤرخة «بسيدى شكير» على ضفة وادى تنيس جنوبى مراكش، وشاكر أحد أتباع «عقبة ابن نافع الفهرى» بناه يعلى بن مصلين أحد رجال رجراجة السبعة الذين يقال إنهم وفدوا على الرسول بمكة -وإن كانت تلك الرواية تحتاج إلى تدقيق- فأسلموا وعادوا إلى المغرب ينشرون الدين الإسلامى، وقد جدد المولى محمد بن عبدالله هذا الرباط سنة ١١٧٨ هـ - ١٧٦٤م.

ويرجع السر فى قيام حركة المرابطة بسواحل المغرب إلى أن تلك السواحل ظلت بعد الفتح الإسلامى تتعرض لغارات الأسطول البيزنطى من قواعده فى «صقلية» و«سردانية»، وجنوب إيطاليا، لذا فقد كان المسلمون يرابطون فى هذه الأربطة كلون من ألوان الجهاد ليصدوا غارات الأعداء ويظفروا بالشهادة، وقد فهم هذا الدور الكبير القائد الكبير «عقبة بن نافع» عندما قرر بناء رباط القيروان حيث قال «نريد أن نقربها من البحر ليجتمع أهلها الجهاد والرباط»، ثم قال: «إننى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها صاحب البحر، لكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا تقصر فيه الصلاة فأهلها مرابطون».

وبمرور الوقت أصبح للرباطات هدف آخر فى شمال أفريقية حيث إنها جمعت بجانب الهدف الحربى هدفًا آخر دينيا حيث نشأت هذه الرباطات كرد فعل سلبى ضد المذاهب الجديدة التى تختلف مع المذهب السنى كالمذهب الشيعى والخارجى وغيرها. لذا فضل الكثيرون خوفًا على فساد العقيدة أن يرحلوا إلى الرباطات وينقطعوا إلى العبادة وتلقين العلوم الدينية، وبدا خرجت الرباطات عن وظيفتها الأولى وهى إيواء الجند المدافعين عن الثغور ورد أساطيل الغزاة المغيرين، وبدأ الناس يقصدون الأربطة ليس للجهاد فحسب بل لتلقى العلم أيضا. وتوافد العلماء

من كل فج ينهلون من مواردها العلمية، ومن العلماء الذين ذاع صيتهم: أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد الحضرمي المشهور باللبدي، وأبو الحسن اللواتي وغيرهما.

وكان أغلب هذه الأربطة تتخذ من مذهب مالك دستورًا لها ومنهلها الذي لا ينضب حتى قيل إن: «قصور ربط المرابطين بساحل إفريقية دار مالك لكثرة ما فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك».

وتوافد أهل التقى والورع إلى الأربطة منقطعين إلى العبادة فارين بعقيدتهم حتى اشتهر الكثيرون منهم مثل: عبدالرحيم بن عبد ربه الزعبي، وأبو سعيد بن إسحق الكلبي، الذي كان يقضي بياض نهاره بسواد ليله في البكاء خوفًا من الله وحسرة على ما فرط من ذنوب وأغلق على نفسه بابه حتى مات. ثم تحولت تلك الأربطة من التزهد وتدريس العلم إلى مراكز حربية للذود عن مذهب مالك ضد المذاهب الأخرى لما لهذا المذهب من قبول عند المغاربة.

وقد انتشرت حركات المرابطة هذه انتشارًا واسعًا حتى توغلت في السواحل ووصلت إلى المحيط الأطلسي وأوغلت في قلب بلاد السوس ووصلت إلى أطراف الصحراء، وعملوا على نشر الإسلام في تلك البلاد ومحاربة البدع والفساد والمذاهب الأخرى. ومن أشهر رباطات المغرب الأقصى رباط «تازة»، رباط «وادي ماسة»، رباط «تيطنفطر» في بلاد أزمور، ورباط «سلا» على البحر، ورباط «المنقطعين للعبادة» قرب فاس، ورباط «هرغة» ببلاد السوس، ورباط «أصيلا» ورباطات أخرى في أقصى السوس.

ومن الأربطة الهامة التي قامت في تلك البلاد رباط «نفيس» الذي أقامه «وجاج بن زللو اللمطي» الذي كان له أكبر الأثر في تشكيل حياة دولة المرابطين، ففي ذلك الرباط تعلم ودرج «عبدالله بن ياسين» مؤسس دولة المرابطين الذي نهل من مورد أستاذه وتلقى علوم الدين على يديه

وعلى شاكلة رباط نفيس قام رباط السنغال الذي أنشأه الفقيه «عبدالله بن ياسين» تلميذ وجاج ابن زللو، إذ كان المرابطون يتلقون فيه العلم ويتعبدون ويتطلعون إلى الجهاد في سبيل الله والقضاء على عناصر الفتنة في شمال المغرب.

رباط ابن ياسين

من الأربطة الهامة التى قامت فى ربوع تلك البلاد هو الرباط الذى أنشأه الفقيه «عبدالله بن ياسين»، وعلى ما يبدو كان على شاكلة رباط «نفيس» الذى أقامه «وجاج بن زللو»[1] الذى تعلم فيه «عبدالله بن ياسين» ونظرا لأهمية ذلك الرباط فسوف نتناوله من عدة وجوه

موقع الرباط. عندما وفد «عبدالله بن ياسين» إلى ديار «جدالة» ليعلمهم الدين ويفقههم فى العلم لم يجد قبولاً من رجال هذه القبائل إذ أخذهم بتعاليم الدين الصحيحة التى تتنافى مع ما ألفوه من حياة الفساد والضلال، وعندما رأوه ينتقص من حقوقهم الخيرة ويضع حداً لجبروتهم سخطوا عليه وآذوه وطردوه، وقد أشار البكرى إلى ذلك: «فقام عليه فقيه منهم اسمه «الجوهر بن سكن» مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما «أيار» وللآخر «أينتكو» فعزلاه من الرأى والمشورة وطردوه وهدموا داره[2].

وقد اختلفت المراجع فى الجهة التى اتجه إليها «ابن ياسين» فبعضها يرى أن «ابن ياسين» خرج مستخفياً من قبائل «صنهاجة» إلى أن وصل إلى أستاذه «وجاج ابن زللو» فقيه «السوس» الذى كان قد أرسله إليه وكان يترقب ظهور خصمه عن كثب، وقد سمع منه شكواه فعاتبهم «وجاج» على ما كان منهم إلى عبدالله وأعلمهم أن من خالف أمر عبدالله فقد فارق الجماعة وأن دمه هدر وأمر «عبدالله» بالرجوع إليهم[3].

وربما بقى «ابن ياسين» بديار «جدالة» نزولاً على رغبة أميرها «يحيى بن إبراهيم» الذى آزره ووقف بجانبه وتمسك به وقال له «إنى لا أتركك تنصرف إنما أتيت بك لأنتفع بعلمك فى خاصة نفسى ودينى وما علىّ من ضل من قومى»[4]

ومن هنا فكر «عبدالله بن ياسين» أن يبتنى رباطا يأوى إليه هو وصاحبه يتعبدان ويؤهلان نفسيهما للدفاع والجهاد على شاكلة رباط «نفيس» الذى تتلمذ فيه «ابن ياسين» ثم اتجها معا إلى جزيرة نائية ليقيما فيها رابطة.

---

(١) البكرى - المغرب، ص (١١٢)، قيام دولة المرابطين

(٢) المغرب، ص (١٦٥).

(٣) المغرب، ص (١٦٥)

(٤) ابن أبى زرع - القرطاس، ص (٧٨)

وقد كان «يحيى بن إبراهيم» المختص في اختيار موقع هذا الرباط لأنه أدرى بمسارب أرض قومه واختيار أصلح المواقع له.

وقد اختلفت المراجع في تحديد الموضع الذي بنى فيه «ابن ياسين» رابطته[1]، ويمكن حسم هذا الخلاف لو نظرنا إلى الهدف الإستراتيجي لبناء الرباط، فالرباط يبنى عادة في المناطق التي تتعرض للغزو إذ يتطلب الأمر حشد القوى لقصد الجهاد ورد الاعتداء، لذا من المرجح أن تكون هذه الجزيرة التي قصدها «ابن ياسين» وأتباعه تقع في «السنغال الأدنى» الفاصل بين أرض «السودان» والمجال «الملثمي». ومما يقوى هذا الرأي أن «ممالك الزنوج» الواقعة إلى جنوب «حوض السنغال» تغير على مضارب الملثمين باستمرار وتهدد طرق القوافل، وقد كان الملثمون والزنوج يتبادلون الاستيلاء على مدينة «أودغشت» مرات عدة، لذا تعين على «عبدالله بن ياسين» أن يتخذ «نهر السنغال» الفاصل بين مضارب الملثمين ومضارب الزنوج مستقرا لرابطته، بهدف نشر الإسلام والجهاد في سبيله في تلك البلاد ومحاولة رد غارات الزنوج[2].

وقد استند «عبدالله» في ذلك إلى عصبته حيث إن الأطراف الجنوبية لقبيلة «جدالة» كانت تمتد حتى حوض السنغال فهي قوة يستطيع أن يلجأ إليها إذا ما فكر الزنوج في العدوان على الملثمين

وهنا يظهر تساؤل آخر عن السبب في اختيار هذه الجزيرة مقرًا للرباط. والإجابة واضحة إذا ما تأملنا وصف «ابن أبي زرع» لهذه الجزيرة، فهي جزيرة تتسع لأعداد هائلة من المرابطين التي فاق عددها الألف رجل، وتتوفر فيها المياه العذبة والنباتات والأشجار وصيد البحر، وهذا ما يساعد على إقامة الحياة في هذا الرباط[3]، وهي حياة مستقلة يعتمد فيها رجال المرابطين على أنفسهم في تحصيل الرزق من مأكل ومشرب ومسكن. هذا بالإضافة إلى موقعه الآمن والحصين فهو في أدنى «حوض السنغال» في منحنى «نهر النيجر» الذي يخترق بلاد «سيغو» و«تمبكتو» عند مروره بأرض «السودان».

---

(1) انظر حسين مؤنس مقدمة رياض النفوس، ص (٢٦)، ابن خلدون العبر، ج(٦) ص (١٨٣)، ابن أبي زرع- روض القرطاس، ص (٧٩).

(2) حسن أحمد محمود -قيام دولة المرابطين، ص (١٢٦).

(3) روض القرطاس، ص (٧٩)، الاستقصا، ج(١) ص (٨).

- شكل الرباط وبناؤه: لم تقدم لنا المراجع وصفًا خاصًا لشكل الرباط الذى أقامه «ابن ياسين»، ولكن يمكننا أن نستخلص وصف هذا الرباط من عدة أوصاف لمرابط أخرى كانت قائمة فى المغرب، ولعلنا نوفق فى إعطاء صورة ولو قريبة لشكل بناء ذلك الرباط.

ويبدو لنا أن «عبدالله بن ياسين» حينما ابتنى رابطته أقامها فى أول الأمر من خيام وكانت تزداد أعدادها بازدياد عدد الداخلين فى الرباط، ثم بعد مرور الوقت لا يستبعد أن يكون «ابن ياسين» قد جعل رباطه على شاكلة رباط «نفيس» الذى تعلم فيه فى بلاد المغرب، وقد نحرى أن يكون حصنه مكينًا يدافع منه المرابطون عن أنفسهم، ويتيح لهم لونًا من المعيشة الملائمة لحياة ذلك المعسكر كما يهيىء لهم الانصراف للتعبد والتنسك.

وقد قال «البكرى» فى وصف مربط ومحارس مدينة «سوسة» بالمغرب الأقصى «وخارج مدينة سوسة محارس وربط ومجامع للصالحين، وداخلها محرس عظيم كالمدينة مسور بسور متقن يعرف بمحرس الرباط، وهو مأوى للأخيار والصالحين»[1].

كما نفهم من وصف المراجع القديمة أنه أقيم بالرباط بيوت منتظمة من الحجر، وطواحين لطحن الغلال، ومراحل للماء، كما يوجد حصن عالى البناء وأنه قد يكون مكونًا من طابقين، كما يوجد فى الرباط مسجد جامع، ويوجد فى الرباط أيضا ربض واسع وفى وسط الربض حصن ثان كبير كثير المساكن والمسجد والمبانى العالية، كما تتوافر الحمامات اللازمة للنظافة[2].

وهكذا من الوصف السابق نستنبط أن ذلك الرباط لابد أن يتوافر فيه المسجد لإقامة الصلاة، ثم الأراضى الخصبة لزراعتها وفلاحتها، والحمامات اللازمة للاستحمام والتنظيف، ووفرة المياه اللازمة للشرب والمعيشة، كما أنه ينبغى أن توجد المساكن الصالحة لسكنى المرابطين وكذلك القصاب لتخزين الأقوات والسلاح، وحصن يحتمى به المرابطون عند الخطر، ثم يحاط هذا كله بسور قوى تفتح منه أبواب متعددة يمكنهم التحكم فيها.

---

(١) البكرى: المغرب، ص (٣٦)

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة، وكذلك ابن حجر، ص (٢٤٣ - ٢٨٧)



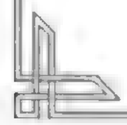
الباب الرابع

نظم التعبئة فى جيوش الدولتين

الفصل الأول: التدابير التحضيرية للقتال الهجومى

الفصل الثانى: المعركة الهجومية وسير القتال

الفصل الثالث: ما بعد المعركة





الفصل الأول

التدابير التحضيرية للقتال الهجومي

تمهيد: ما المراد بنظم التعبئة؟

التعبئة مصطلح عسكري، أطلقه المؤرخون القدامى من العرب على تنظيم الجيوش وصف الكتائب في المعركة أو قبلها، فتعبير «عبأ» عندهم مساوٍ لتعبير «نظم». أما كلمة «التعبئة» في الاصطلاح العسكري الحديث معناها حصر كل القوى الموجودة في الدولة وقت الحرب، وعمل مقارنة بين الجيش المقاتل وكافة المواد اللازمة له، سواء أكانت تموينية أو غيرها استعدادًا للقتال، وتوفيرًا لكافة مستلزماته، وذلك بحصر الكفايات وتوجيه كل إلى الناحية الخاصة به حيث لا ينقص الجيش المحارب شيء.

ونحن بصدد دراسة حشد القوات وكل ما يلزمها للقتال سواء أكان ذلك قبل المعركة أم خلالها، لأن دخول المعركة قد يبدأ قبل المعركة بوقت طويل. وهذا الفن كما عرفه العسكريون يمر بمرحلتين: **الأولى**: مرحلة ما قبل المعركة وهي التدابير التحضيرية للقتال الهجومي ويطلق عليها في الاصطلاح العسكري كلمة «الاستراتيجية». **الثانية**: وهي مرحلة الاشتباك الفعلي مع العدو، ويظهر فيها فن تحريك القوات، والتنسيق بينها خلال المعركة وطريقة تنظيمها في حالتي الهجوم والدفاع ويطلق على هذه المرحلة مصطلح «التكتيكة»[1].

التدابير التحضيرية للقتال الهجومي
«التنظيم الاستراتيجي للجيوش»

وهي التدابير التي يتخذها القواد في الفترة التحضيرية التي تسبق اشتباكهم مع العدو وهي حسب تسلسلها الزمني: حشد القوى، المسير للقتال، حياة المعسكر، دراسة أحوال العدو، وضع الخطة، توزيع الواجبات، الرسالة قبل الحرب.

وسوف نتناول هذه الأمور بالتفصيل في الجيوش المرابطية والموحدية.

---

(1) العقيد محمد فرج، المدرسة العسكرية، ص (٢٢٧)، واللواء محمد جمال الدين محفوظ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، ص (٤٣٤)

أولاً: حشد القوى:

كان من عادة المرابطين والموحدين أن يخرج الأمراء والخلفاء للمعارك بأنفسهم وإذا ما حدثت ظروف لا تسمح لهم بالخروج لقيادة المعركة، كان يبقى بالعاصمة لإدارة دفة الحكم، وتنظيم حركة الجيوش وإمدادها بكل ما تحتاجها من الجند والعتاد، وكانوا يبعثون مكانهم قوادًا يثقون بقدرتهم القيادية وشجاعتهم الفائقة، وذلك بأن يدعوه إليه ثم يعقد له لواء على رمح طويل، كما حدث مع «أبى بكر عمر» شيخ لمتونة، فقد عقد له «عبدالله بن ياسين» اللواء وسماه «أمير المسلمين» وحث قومه على الجهاد معه وسماهم «المرابطين»[1].

وكان من عادة القدماء أن يغرسوا لواء الجهاد أمام المسجد ليراه الجميع فيسارعون بالانضمام إليه، وكان مرسوم تعيين القادة عند العباسيين، أن يرسلوا اللواء والخلعة إلى الولاة عند تعيينهم، فإن كان الوالى حاضرًا ألبسوه خلعة القيادة، وإن كان غائبًا بعثوا له بكتاب ومعه نفس الخلعة[2] ولابد أن المرابطين قد نهجوا نهجهم لأنهم كما عرفنا يستظلون بظل الخلافة العباسية.

فإذا ما خرجت الجيوش المرابطية والموحدية، دعا داعى الجهاد فتهرع المطوعة من كل فج للالتحاق بالجيوش، كما حدث فى موقعة «أقليش» التى قادها الأمير «تميم ابن يوسف»، فقد جاء فى رسالته التى أرسلها للأمير «على بن يوسف»: «ومررنا بطاعة أمير المسلمين، ونصر الدين، على جهات سمعت منادينا، وتبعت هادينا، وانقدت وراءنا أعداد وأمداد برزوا من كمون، وتحركوا عن سكون، وأنخنا بثغر بياسة، وقد توافد الجمع ملء البصر والسمع»[3].

وقد عرفنا سابقًا أن أمراء المرابطين أعادوا نظام الإقطاع إلى الأندلس على ما كان عليه قبل «المنصور بن أبى عامر»[4] فكان على كل وال أن يعد الجند ويجهز

---

(١) ابن الأثير - الكامل، ج (٩) ص (٢٣٢)

(٢) نفس المصدر السابق، ج (٥) ص (١٤٤)

(٣) المخطوط رقم (٤٨٨)، الغزيرى المحفوظ بمكتبة الاسكوريال لوحة رقم (٥٤ أ- ٥٨ب)، نقلاً عن عنان - عصر المرابطين والموحدين، ج (١) ص (٥٣٣)

(٤) الطرطوشى - سراج الملوك، ص ([illegible])

عدداً معيناً كل بحسب قطاعيته ومكيبيته، للاشتراك فى الحروب دفاعاً عن النفس. فكان الأمير أو الخليفة يوجه أوامره إلى الولاة فيحشدون ما تقرر عليهم من الجند فى الجيش العام[1].

وقد عرفنا من قبل أن النظام القبلى هو أساس حشد الجيوش المرابطية والموحدية بالمغرب، فتقدم كل قبيلة ما تعين عليها من الفرسان والرجالة عند الاستنفار العام. وكان نظام التطوع يقوم كذلك إلى جانب نظام الحشد الجبرى، فتحشد أعداد كبيرة من الجند على سبيل التطوع دون تكليف رسمى، ويسمى هؤلاء بالمطوعة

ولم يقتصر الحشد على الرجال فقط، بل كانوا يستحشدون الخيل والعدد والأسلحة والرماح، والسيوف والدروع والتروس والكسى، وتوزيعها على الجند والفرسان وفق نظام معين كما عرفنا سابقاً. فقد وردت فى رسالة الأمير «على ابن يوسف» إلى الوزراء والقواد فى بلنسية عند نزول ابن رذمير عليها «واعلموا أنه قد نفدت الآن كتبنا ثانية إلى ولاة أعمالنا كلأهم الله وإياها تأمرهم بتسريب الأقوات وتعجيل إنفاذها نحوكم من كل الجهات، وسيرد عليكم منها الكثير الموفور لأقرب الأوقات»[2].

وكان من عادة الموحدين عند حشد جنودهم أن يجروا تمييزاً لجنودهم فتستبعد العناصر غير المرغوب فيها، ثم تجرى الإنعامات والبركات على من ظفر بالتمييز وقبل الاشتراك فى الحرب، وقد خصص للتمييز ديوان خاص يسمى «ديوان التمييز» كما عرفنا سابقاً.

وقد بدأ التمييز فى بداية الدولة الموحدية إجراء تعسفياً لاستبعاد الخصوم أو المرتابين أو إعدامهم وتطهير صفوف الجيش منهم، ثم تطور هذا الإجراء بمضى الزمن، وأصبح ينصرف إلى اختيار الصفوة من الجند.

ومن الأمور المطلوبة لحشد القوى، هى عملية التوجيه المعنوى لكل أفراد الأمة حيث كان يأمر الوعاظ على المنابر، والقادة فى الثكنات، والرؤساء فى أحياء المدن،

---

(1) حسن الباشا - الفنون الإسلامية، ج (1) ص (164).

(2) المخطوط رقم (488)، الاسكوريال، نقلا عن عنان - عصر المرابطين والموحدين، ج (1) ص (543).

أن يشرحوا الظروف التي تمر بها الدولة، حتى يتم تنسيق وتوجيه جميع إمكانيات الدولة السياسية والاقتصادية والعسكرية نحو تحقيق الغاية السياسية للحرب.

ثانيًا: المسير إلى القتال:

كان الجند المرابطي عند تحركهم ينتظمون كما لو كانوا على وشك خوض المعركة[1]، وذلك ليأخذوا حذرهم وحيطتهم، وليكونوا مستعدين لرد أي هجوم جانبي أو خلفي يقوم به العدو، وكانوا يقسمون جيوشهم إلى ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة وساقة، ويحافظ على هذا التنظيم عند النزول والإناخة في أي مكان ما[2].

وقد عرف عن الموحدين أيضا أثناء تحركاتهم حذرهم وحيطتهم ودقة نظامهم، وقد وصف لنا صاحب الحلل طريقة سير الجيش الموحدي حيث به يبدأ السير عقب صلاة الصبح على صوت طبل الرحيل الذي كان يضرب ثلاث ضربات، فإذا ركب الخليفة، اجتمع حوله الأشياخ والأعيان ويسير على بعد منه مائة فارس، ويتقدم أمامه مصحف عثمان الذي صنع له هودج يحمل فيه على أحد الإبل وعلى الهودج أربع علامات حمر، ويتبعه الخليفة، ومن ورائه أولاده ثم البنود والطبول فالوزراء، وأكابر الدولة، وتسير الجيوش على ترتيبها دون تزاحم فإذا كان وقت النزول أنزلت كل قبيلة في منزلها وعلى ترتيبها، لا يتعدى أحد طوره، ولهم رتب معلومة، وكان في محلته جميع الصناع، وكل ما يحتاج إليه، كأن المسافر معه مقيم[3].

ومتى حط الجيش رحله، أقيم معسكر في منتهى النظام، وأقاموا حول معسكرهم خندقًا تصعب مهاجمته، ويحقق لهم ميزة دفاعية بحيث لا يؤتى إلا من وجهة واحدة.

---

(١) أشباخ - تاريخ الأندلس.. ترجمة عنان ح (٢) ص (٢٣٦)
(٢) نقلا عن الاستقصا ح (٢) ص (٣٨)، والمقرى - نفح الطيب، ح (٢) ص (٥٢٨) وما بعدها.
(٣) الحلل الموشية، ص (١١٥، ١١٦)

ثالثًا: مراكز القيادة العامة ونقاط التجمع:

من المعروف أن «مراكش» كانت عاصمة الدولة المرابطية والموحدية، وقد اختار عاهل المرابطين هذه المدينة لتكون نزلة لعسكره، ونقطة مراقبة أمامية تقع على مشارف جبال الأطلسي ترقب تحركات قبائل مصمودة وترصد لها[1]. وهذا يدل على حاسة استراتيجية عظيمة وخبرة فائقة بهذا الفن حيث استطاع عاهل المرابطين أن يعرف أنسب المواقع لإقامة المدن والمعسكرات التي تكفل له سرعة توجيه قواته إلى أية جبهة ينبعث منها الخطر.

وقد كانت «مراكش» مركز القيادة العليا لهاتين الدولتين تصدر منها الأوامر بالكتب مع الرسل إلى القواد والنواب وترابط بها الجيوش على استعداد تام لتلبية الأوامر الصادرة إليه بالغزو في أية جهة.

ولدينا شواهد عديدة على عظمة حاسة الاستراتيجية لدى «يوسف بن تاشفين» تتضح في حسن اختياره لمراكز تجمع جيوشه وقواته، ومن هذه المراكز مدينة سبتة التي اتخذها مركزًا لتجمع القوات المرابطية يعبرون منه إلى الأندلس، وذلك في كل عبور أو جواز[2].

وقد اتخذها ابنه «علي» من بعده مركزًا لتجمع جيوشه أيضا، فعندما عبر إلى الأندلس للمرة الثانية في جيوشه الجرارة كان عبوره من سبتة في الخامس عشر من محرم سنة ٥٠٣ هـ - ١١٠٩م، وسار إلى غرناطة وأقام بها مدة إلى حين تلاحقت به حشوده وتأهبت متطوعته وجنوده.

وكما اتخذوا من سبتة مركزًا لتجميع جيوشهم بعدوة المغرب، اتخذوا أيضًا من «الجزيرة الخضراء» مركزًا لتجمع الجيوش بعدوة الأندلس، وقد كانت هذه من أملاك «ابن عباد»، وتنازل عنها للمرابطين عند عبورهم للأندلس[3].

وكانت غرناطة هي قاعدة الحكم المرابطي في الأندلس بعد قرطبة، وفيها مركز القيادة العامة للقوات المرابطية، وإليها يرد الرسل بكتبهم من العاهل المرابطي، ومنها

(١) الحلل الموشية، ص (٥٢).

(٢) المصدر السابق، ص (٣٢).

(٣) المصدر السابق ونفس الصفحات.

تخرج الجيوش المرابطية وتلحق بها جيوش الولايات الأخرى حسبما يصدر لها الأمر، ويبدو أن موقع هذه المدينة كان استراتيجيا هاما، فصادف هوى في نفوس المرابطين فاتخذوها مركزاً لعملياتهم الحربية، ولا أدل على ذلك من قول ابن عطية للمرابطين في مرض موته وقد عول عليهم للاستمساك بدعوتهم: «الأندلس درقة، وغرناطة قبضتها، فإذا جشمتم يا معشر المرابطين القبضة، لم تخرج الدرقة من أيديكم»[1].

وقد كان «عبدالمؤمن بن علي» كنظيره السابق «يوسف بن تاشفين» يتمتع بحاسة استراتيجية فائقة، فقد أدرك أهمية جبل طارق الذي هو أحد مفاتيح البحر المتوسط، فعمد إلى تحصينه وإحالته إلى قاعدة أمامية للدفاع عن المغرب والأندلس.

وكان لابد له من مراكز تجمع لقواته، فوقع اختياره على مدينتين هما: سلا ورباط الفتح، ليكونا مركزين لتجمع الجيوش الموحدية سواء الذاهبة منها إلى أفريقية أو تلك التي تقصد العبور إلى الأندلس.

وقد اتخذت الحكومة الموحدية «أشبيلية» قاعدة لحكمهم، وإن كان عبدالمؤمن قد أمر أن تنقل العاصمة إلى قرطبة لتكون مستقراً لجيوشه، وكانت حجته في ذلك أنها موسطة الأندلس، إلا أن الخلفاء الموحدين فيما بعد قد نقلوا مركز قيادتهم إلى أشبيلية وجعلوها مقراً لجيوشهم لعدة أسباب استراتيجية، منها بعدها عن خطر قشتالة الذي بدأ يزداد شيئاً فشيئاً، ووقوعها على طرق مواصلات لاتصالها بالبحر عن طريق مصب نهرها فيه، ووفرة مواردها وخيراتها لاتصالها بوادي الشرف.

رابعًا: فن تحريك القوات وتوجيهها:

أما عن توجيه القوات من مركز القيادة، فقد كان للمرابطين والموحدين مهارة فائقة في توجيه قواتهم بطريقة حاسمة ومنظمة تدل على قيادة بصيرة ودقة متناهية، فقد كانت جيوشهم تتحرك صوب أهدافها في وقت واحد للاستيلاء على شبه الجزيرة الأندلسية من أيدي ملوك الطوائف

---

(١) ابن الخطيب - الإحاطة - تحقيق عنان، ج (١) ص (١٠٤).

وإن كان «يوسف بن تاشفين» على هذا المستوى الرائع في توجيه قواته فإن حفيده «تاشفين بن علي» قد نهج نهجه في تحريك قواته وحسن إدارتها، وقد ظهرت مهارته في هذا المضمار في فترة الصراع العنيف مع الموحدين منذ أن تولى قيادة الجيوش المرابطية سنة ٥٣٣هـ، وإن كانت الحروب التي دارت بينهما في هذه الفترة لا ترقى إلى مستوى المعارك المنظمة إذ كانت أقرب شيء إلى ما يسمى في عصرنا الحاضر **بحرب العصابات**.

ولنقف الآن أمام عقليتين مدبرتين قد اشتد الصراع بينهما في هذه الفترة وهما عقلية «عبدالمؤمن بن علي» قائد جيوش الموحدين، والأمير «تاشفين بن علي» ولي عهد المرابطين الذي أخذ على عاتقه مطاردة الموحدين واستئصال دعوتهم. وقد ركزت الحديث عن هذه الفترة التي تولى فيها تاشفين قيادة الجيوش المرابطية لأنه في عهده تحول الصراع بين الجبهتين تحولاً خطيرًا واتخذ تكتيكًا خاصًا في تحريك دفة القتال يتناسب وطبيعة تلك المرحلة وامكانيات كل منهما، ويمكن أن نطلق على حروب هذه المرحلة **حروب السهول والصحارى**.

وتتضح معالم ذلك الصراع الذي احتدم بين المرابطين والموحدين فيما تتميز به طبيعة كل من الجبهتين، فجبهة الموحدين أغلب رجالها من القبائل الجبلية لذلك كانوا أقدر من المرابطين في حرب الجبال، بينما جبهة المرابطين صحراوية يجيد رجالها **حرب السهول**.

وقد لجأ عبدالمؤمن إلى خطة جديدة بعد حصار عنيف من المرابطين فني فيه الكثير من جيوشه، ففي سنة ٥٣٣هـ خرج عبدالمؤمن بجيشه إلى جبل «تاجاوطت» المطل على أرض قبيلة «جحجة» الواقعة غرب «تيملل»، وذهب إليه «تاشفين» على رأس جيش، وعسكر بموضع استراتيجي هام يعرف «تيزغورة» وحاصر الموحدين بالجبل نحو ستين يومًا حتى فنيت جميع أقواتهم، وأشرفوا على الهلاك والفناء، وقد وصف البيذق هذه الشدة حيث إنه كان من جنود الموحدين المحاصرين. كان المرابطون يصرخون في وجوه الموحدين قائلين (اصعدوا إلى

السماء، أو غوصوا إلى الأرض[1]، فيجيبهم عبدالمؤمن بقوله تعالى: ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴾ [الطلاق: ٧] ويتجه إلى الموحدين مرددا قوله تعالى: ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] ولما تيقن عبدالمؤمن بأنه لا مفر من فك الحصار، أمر جنوده المحاصرين بفك الحصار بالسيوف، وخرج الموحدون وقد أنهكهم الجوع ونالهم الضعف فتلقفتهم سيوف المرابطين تحصدهم من كل جانب.

وهنا أدرك عبدالمؤمن أنه لابد من تغيير خطته تبعًا لتغيير المرابطين خططهم حتى لا يكون فريسة لجيش تاشفين الغني برجاله وعتاده وتموينه، فيا ترى ما هي خطة التحرك الجديدة؟

لقد كانت خطته هذه المرة أن تدور المعارك على قمم الجبال ويروع الجيش المرابطي الذي لا يجيد الصعود إليها والحرب فيها، فخرج عبدالمؤمن في غزوة كبرى سنة ٥٣٤هـ من تينمل بقصد التجول في أنحاء مملكة المرابطين بالمغربين الأقصى والأوسط، وإخضاع القبائل للدعوة الموحدية.

وقد أنفق في جولته هذه أكثر من سبع سنوات متصلة، وقد أظهر في هذه الغزوة ضربًا من الحيل وبعد النظر والمهارة الحربية مما أنهك بها جيش المرابطين واعتراه الضعف والوهن حيث استعمل معه ما يسمى في الحروب الحديثة «سياسة النفس الطويل» التي يرمي من ورائها تدويخ فريسته.

فقد خرج أولا جهة الشرق من تينمل ثم اعتدل وسار في وسط المغرب ثم اتجه شمالا ثم شرقًا، متخذًا من الجبال بيوتًا وحصونًا، فإذا ما انتهى إلى واد أرسل إلى القبائل بعض سراياه تدعوهم إلى التوحيد، فإذا استجابت ودخلت في طاعتهم، استعانوا بمالها ورجالها، وإن أبت اغتصبوا أموالها ووزعوها على أنفسهم غنائم حرب، وعندما تنبه المرابطون إلى هذه الخطة التي رسمها عبدالمؤمن تعقبوهم، وساروا بإزائهم في السهول.

---

(١) البذق - أخبار المهدي، نشر ليفي بروفنسال، ص (٨٦)

وحقيقة الأمر أن عبدالمؤمن قد نجح في خطته هذه فقد ثبت حسن اختياره لأصلح المواقع التي يعسكر فيها جيشه موجهًا جنوده أفضل توجيه، فكان الموحدون يلتزمون السير في الجبال ليتحصنوا بها، بينما كان المرابطون يكتفون بالسير في السهول وليبسطوا إزاء الموحدين ظانين أنهم سوف يقضون عليهم بهذا الحصار، ولكن كان الموحدون يتحركون في مجال أوسع حر الحركة يستعينون بالقبائل الجبلية التي تمدهم بضروريات الحياة ولا يهبطون إلى السهول إلا عند الضرورة القصوى ليغتنموا شيئًا يقتاتون به، إذا لم يجدوا شيئًا من القبائل الجبلية وذلك في غفلة من جيش المرابطين، فيقول البيذق: «ثم هبطنا لموقع يقال له تاحوريت ثم خرج منا جمع فهزم تاحوريت وقيل نغنمها»[1]. وقد صدقت هذه الخطة أيضًا إزاء تغيير الأحوال المناخية التي تؤثر على سير المعركة وتغير مجراها، فقد اتجه الموحدون إلى أرض غياثة شرقي فاس، ثم استقروا في جبل عفرا وعسكر المرابطون بالسهل قريبًا منهم في مكان يسمى «النواظر».

وفي هذا الوقت اشتد برد الشتاء، وعصفت الرياح، وهطلت الأمطار غزيرة فأغرقت السهول والمدن فمات كثير من الناس وفقد الجيشان كثيرًا من الجنود، ولكن خسارة المرابطين كانت أفدح، لأنهم كانوا يعسكرون في السهول ففقدوا الأقوات والوقود[2] وبنفس خطة التزام الجبال تم لعبد المؤمن افتتاح مدينة فاس، ومكناسة وكذلك عاصمة المرابطين مراكش.

وإذا كانت هذه الفترة الحرجة في تاريخ المرابطين والموحدين - هي في حقيقة الأمر فترة بداية للموحدين ونهاية للمرابطين - قد تميزت بالصراع الحاد بين جيشي هاتين الدولتين، إلا أنه من الملاحظ أن قيادة الموحدين في هذه الفترة كانت تتميز بالدقة والحزم والمهارة في توجيه القوات، في الوقت الذي خلا فيه المعسكر الآخر من قائد محنك بصير بتوجيه القوات في هذه الأونة، فليس من الجدارة أن نقارن «عبد المؤمن» «بتاشفين بن علي» أو بأخيه «إسحاق بن علي»[3]، ولكن من

---

(١) أخبار المهدي، ص (٨٨).

(٢) المصدر السابق، ص (٩٠، ٩١).

(٣) لما توفي تاشفين بن علي جعل المرابطون أمرهم من بعده لأخيه إسحاق بن علي وكان صبيًا ودخل عليه =

الإنصاف يمكن أن نقارن «عبد المؤمن» بنظيره «يوسف بن تاشفين» فكلاهما قائدان تميزا بفكر عسكرى منظم وعقلية مدبرة على أعلى مستوى فى الفن الاستراتيجى.

وإذا كانت الجيوش المرابطية قد فقدت العقلية المدبرة والجديرة بتوجيه الجيوش فى أواخر عهد دولتهم، فمن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن الجيش الموحدى لم يتمتع بقيادة حكيمة إلا فى عهد «عبد المؤمن بن على»، وبعض خلفائه. فقد كانت تعتريه عدة ثغرات تعرضه من آن لآخر إلى وقوع الكوارث المؤلمة، منها فوضى القيادة التى عانت منها الجيوش الموحدية بعد رحيل عبد المؤمن عنها بالرغم من حشودها الهائلة.

وقد كانت هزيمة شنترين أكبر دليل على تخبط القيادة العسكرية الموحدية بقيادة الخليفة «أبى يعقوب يوسف» للجهاد بالأندلس. فقد أمر الخليفة باجتماع شيوخ الموحدين والعرب والقادة فى مؤتمر عام وخرج إليهم ولده وأبلغهم أن أمير المؤمنين يطلب رأيهم ويستشيرهم فى أمر توجيه هذه الحملة، هل توجه إلى أفريقيا، أم توجه إلى الأندلس؟ فكان رأيهم بالإجماع أن توجه إلى الأندلس لغزو النصارى والجهاد فى سبيل الله، فأبدى الخليفة ارتياحًا لهذا الرأى[1]

ومعنى ذلك أن الخليفة حين خروجه من مراكش لم يكن لديه رأى حاسم فى شأن الغزوة التى ينوى القيام بها، وهذا فى ذاته يكشف لنا جانبًا من ارتباك الخطط العسكرية لدى الموحدين، وأنهم فقدوا الخاصة الفنية فى توجيه القوات والتى أصبحت تتحرك بدون هدف.

ولدينا مثال آخر على تخبط القيادة الموحدية وعدم قدرتها على تخير أصلح الجبهات لتوجه إليها قواتهم. فقبل معركة العقاب نرى الخليفة الناصر كتب إلى الشيخ «أبى محمد بن أبى حفص» يستشيره فى الغزوة فنهى عليه، فخالفه الناصر، إذ لم يكن له خطة موجهة مرسومة حينئذ فنراه مضطربًا مترددًا يريد أن يقاتل فى بلنسية بسبب تغلب العدو عليها، ثم يصل إلى أشبيلية ويستقر بها، ثم يستعد

= الموحدون مراكش سنة ٥٤٢ هـ بعد حصار استمر أحد عشر شهرًا، فقتلوه صلبا، وبه انقرضت دولتهم

(١) ابن أبى زرع - روض القرطاس، ص (١٣٩)

المعروف، ثم يرجع إلى شنتبية ثم يقصد بلاد الأذفونش فيفتتح قلعة شلنطره ثم يصير إلى الموضع المعروف بالعقاب[1] وهنا مني فيه بهزيمة ساحقة قتل فيها أغلب جيشه.

خامسًا: صيانة الأسرار العسكرية وإخفاؤها عن العدو:

إن كتمان السر في أي عمل عسكري ضرورة لازمة حيث يتطلب للقائد التكتم والسرية التامة في تحركات جيوشه، وعدم تسرب أية معلومات عنه إلى عدوه حتى لا يستفيد منها، وتضيع عليه فرصة كان في انتهازها مصلحة له ولجيشه

ولاشك في أن ثرثرة القادة وانطلاق ألسنتهم من أفدح وأخطر العيوب التي يجب تجنبها وعدم الوقوع فيها. ومن هنا جرت العادة قبل خوض المعارك أن يهيئ القائد الأذهان إليها، ليمكنه أن يكتم عن الناس سرها، ويحاول معرفة الكثير من أسرار عدوه، بل إن نصره أو هزيمته يتوقفان على مدى معرفته لقوات عدوه وستر أسرار قواته عنه.

وقد عرف القادة من المرابطين والموحدين كتمان السر في معظم حروبهم فكانوا يخفون مقاصدهم أحيانًا كثيرة، بل كانوا يوهمون الناس بالاتجاه إلى وجهة ما، وإذا به يغير مساره إلى وجهة أخرى ليفاجئ عدوه قبل أن يستعد له.

ويكفي لنتبين مدى كتمان السر في الجيوش المرابطية أن نتتبع عملية استيلاء المرابطين على شبه الجزيرة الأندلسية، واستنقاذها من أيدي ملوك الطوائف، وقد كانت هذه العملية تتطلب سرية تامة لإخفاء هدف هذه الجيوش وتحركاتها وعدم تسرب أية معلومات عنها، حتى لا تقع جيوشهم بين فكي رحى معركة ضارية تكون ملوك الطوائف أحد فكيها والنصارى الفك الآخر، وكان لزامًا عليهم أن يأمنوا غدر النصارى لهم إذا ما انشغلوا بمحاربة ملوك الطوائف ولا يطعنوهم من الخلف.

إذن بات الأمر يحتاج إلى خطة عسكرية حكيمة، محاطة بالسرية التامة وأغلب الظن أنه لم يعرف هذه الخطة وهذا المقصد سوى قواد "يوسف" الكبار. وقد تجمعت قواته في سبتة ثم عبرت المضيق مرة واحدة، وبقي هو مقيمًا بها

---

(1) تاريخ ابن خلدون، ج (٦) ص (٢٩٤).

يترقب أخبار جيوشه الأربعة التي زحفت إلى الأندلس في وقت واحد فكيف كانت خطته؟

لقد كانت خطته مبنية على السرية التامة والتي أوصى بها قواده، بأن يخفوا ما في نيتهم من تحرش بملوك الطوائف بل أمرهم بمصانعتهم والترفق معهم حتى لا تنكشف أغراضهم، وكان في نفس الوقت يترصد هؤلاء الملوك ويرقب مسلكهم عن كثب، وأمر قواده بألا يدعوهم للمشاركة في الجهاد كما فعل في المرات السابقة

وتنفيذًا لخطته أمر قواده بالإقدام على غزو طليطلة وحصارها، ليوقع الرعب في قلوب النصارى على ألا يشتبكوا معهم في معركة فاصلة، إنما القصد هو إرهابهم فلا يفكرون في طعنهم من الخلف عند انشغالهم بمحاربة ملوك الطوائف. وبالفعل حقق القواد المرابطون الخطة كاملة فأطبقوا على طليطلة وحاصروها وعاثوا في أرجائها وقطعوا أية صلة بين النصارى وملوك الطوائف، ولما تم لهم ذلك وتمكنوا منه، شرعوا ينفذون خطتهم الحقيقية التي جاءوا من أجلها

وكان أول ما بدأوا به خطتهم من ملوك الطوائف هو صاحب مملكة غرناطة، ثم بدأوا يزحفون على المرية ومالقة والمنكب، وقضى بذلك على ملك بني زيري، ثم توجه القائد «سير بن أبي بكر» إلى أشبيلية لمنازلة ملكها «المعتمد بن عباد» أكبر ملوك الطوائف وخلعه عن عرشه، كما اقتحم الأمير «أبو عبد الله محمد بن الحاج» أسوار قرطبة واستولى عليها بعد مقتل «المأمون بن المعتمد». ودخلت قوات المرابطين قرمونة، ورندة ثم المرية، وبعد أن تفرغ «سير بن أبي بكر» من أمر «ابن عباد» زحف إلى بطليوس مملكة المتوكل واستولى عليها، وقد حدث هذا كله في الوقت الذي كانت فيه قوات «داود بن عائشة» تستولي على السهلة والبونت ومرسية وغيرها. واستطاع يوسف بن تاشفين بفضل تكتمه لأسراره العسكرية أن يهزم ملوك الطوائف في آن واحد ويحاربهم في أربع جهات بعد أن أمن غدر النصارى من أن يلتقوا بقتالهم مع هؤلاء الملوك أو يطعنوه من الخلف.

وإذا كانت الجيوش المرابطية قد عرفت السرية وصيانة أخبارها العسكرية فإن الجيوش الموحدية كانت هي الأخرى حريصة على كتمان أسرارها العسكرية فقد كان «عبد المؤمن بن علي» أحد القواد الذين تميزوا بالمكر والمهارة في كتم أخباره

العسكرية ورسم الكمائن وإخفاء الوجهة التي يقصدها، ويتضح ذلك في فتوحات عبد المؤمن بشمال أفريقية وعلى الأخص عند فتحه لمدينة بجاية مملكة بني حماد الزيريين والتي أراد أن يسارع بضمها إلى مملكته لتكون مقراً له يحارب منه النصارى النورمان في مدينة المهدية، فقد عاثوا فساداً في الثغور الأفريقية على طول سواحل ليبيا وتونس وأوشكوا أن تمتد أيديهم إلى بجاية، لم يكن أمام «عبد المؤمن» من سبيل في إنقاذ هذه الثغور من أيدي هؤلاء النصارى غير الاستيلاء على مملكة بني حماد التي تفصل بين مملكته وبين أفريقية «تونس».

وهناك عامل آخر لا يقل أهمية عن العامل الأول وهو أن عبد المؤمن خشي أن يتخذ المرابطون المتمردون عليه من بجاية مقراً لمقاومته، وقد أكد هذا الاعتبار أن النصارى بالأندلس قد تحالفوا مع «محمد بن مردنيش» وصهره «ابن همشك» وبني غانية الذين أسسوا مملكة قوية بجزر البليار «ميورقة ويابسة» بهدف إضعاف الموحدين والقضاء عليهم بالمغرب والأندلس. لهذه العوامل كلها صمم عبد المؤمن على ضم بجاية إلى مملكته.

فكيف كانت خطته إزاء هؤلاء الأعداء جميعًا من النصارى والنورمانديين وحلفائهم المرابطين المتمردين عليه، وكذلك أهل بجاية من بني حماد؟

إذن يتطلب الأمر خطة عسكرية تنفذ بمنتهى الدقة على أن تحاط بالسرية التامة لكل تحركاته، وهذا ما حدث بالفعل.

لقد أحاط عبد المؤمن حملته إلى بجاية بالسرية التامة، ولكي يضلل أعداءه فيما يتجه إليه، أذن للوفود الأندلسية التي كانت قد طلبت منه الإذن في لقائه، بأن تتقدم إليه لتقابله بمدينة سلا، ثم أخذ يزود هذه الوفود بالنصائح، وبعد أيام اتجه إلى مدينة سبتة موهمًا أنه سيعبر إلى الأندلس تحقيقًا لرغبة هؤلاء الوفود الآنفة الذكر، ولكنه اتجه إلى الشرق بجيوشه فجأة وأمر مناديه أن ينادي في الناس "يا أيها الناس من تكلم منكم بكلام معناه إلى أين هذا السفر كان جزاؤه السيف"[1] ثم سار مسرعًا نحو بجاية واستولى في طريقه إليها على جزائر بني مزغان - التي

---

(1) الحلل الموشية، ص (112).

متخذيا مدينة جرنو الحانية -وقد فر حكمها، ثم زحف عند قومس بني بحاية التي استسلمت له دون مقاومة[1].

هذه بعض الأمثلة تبين أهمية تكتم الأسرار العسكرية والتى تعتبر من أهم المبادىء العسكرية التى تكفل النصر للعاملين بها .

سادسًا: بث العيون وأعمال التجسس:

من المعروف في النظم العسكرية، أن أعمال التجسس لازمة لكل جيش سواء أكان ذلك في مرحلة التنظيم الاستراتيجي «مرحلة ما قبل الحرب» أو في مرحلة التنظيم التكتيكي «قيام الحرب»، لأن القيادة الناجحة هي التي تدرس ظروف المعركة قبل أن تخوضها لتضع خطة محكمة تكفل لها النصر، وهذه الخطة لا توضع وضعًا ارتجاليًا، وإنما توضع على أسس مدروسة، ومعلومات صحيحة عن عدد العدو ونوع سلاحه وأسلوبه في القتال وخططه الذين يعتمدون عليه خلال المعركة، وكذلك معرفة طبيعة الأرض التي سيلتقي فوقها مع عدوه هل هي مستوية أم جبلية؟ هل هي صحراوية أم زراعية؟ هل بها أنهار يجب أن يوضع في الاعتبار اجتيازها؟ هذه المعلومات كلها كان يقوم بجمعها الجواسيس وتقدم إلى القائد الذي يقوم برسم خطته بناء عليها، لذا وجب أن تكون هذه المعلومات صحيحة وسليمة وبقدر صحتها وسلامتها يكون نصره أو هزيمته.

وقد عرف المرابطون والموحدون قيمة أعمال التجسس في حروبهم، فكان من عادتهم إذكاء العيون في غزواتهم وقبلها، ونعتقد أنه ما من حرب قاموا بها إلا كانت خططهم وحركاتهم وفقًا للمعلومات التي جمعتها العيون عن أعدائهم، وإلا فكيف تتأتى لهم الانتصارات الباهرة التي أحرزوها على أعدائهم في معاركهم الكبرى ضد النصارى؟ ففي معركة الزلاقة أذكى المعتمد عيونه في محلات المرابطين خوفًا عليهم من مكايد الأدفونش إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد، وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل إن الرجل من المرابطين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج (١١) ص (٦٠)

أو حاجة إلا وجد ابن عباد مطيفًا بالمحلة، بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات[1].

بل لقد قام الجواسيس بدور رئيسي في هذه المعركة فقد قاموا بجمع معلومات هامة كان لها اعتبارها في رسم الخطة التي سيواجه بها المسلمون النصارى، فإن هذه المعلومات قد نبهت المسلمين إلى الحيطة والحذر من غدر ألفونسو ومخادعته لهم فيروي لنا صاحب الروض المعطار، أن القواد المسلمين قبل الاشتباك في هذه المعركة قد أذكوا عيونهم داخل محلات النصارى ثم رجعت إليهم بأخبار هامة، فقد قالوا: «استرقنا السمع فسمعنا الأدفونش يقول لأصحابه: ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ، وذوي بصائر في الحروب، فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه واهجموا عليه، واصبروا فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة»[2].

وبعد ذلك بعث ابن عباد الكاتب «أبا بكر ابن القصيرة» إلى السلطان يوسف يعرفه بذلك، وفعلاً قام يوسف برسم خطته على هذه المعلومات التي جمعها الجواسيس، فترك ابن عباد يتحمل الصدمة الأولى حيث هجم عليه الأدفونش بكل جموعه وأحاطوا به من كل جهة، واستعرت الحرب، واشتد القتال في أصحاب ابن عباد، وانتهز يوسف فرصة انشغال الأدفونش بابن عباد، فأمر بعض قواده أن يمضي بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها نارًا[3]. ولقد حرص يوسف أشد الحرص على أعمال التجسس هذه لما لها من قيمة كبرى في رسم خططه الحربية والتي أضحى يعتمد عليها اعتمادًا كبيرًا، فعندما انتهت معركة الزلاقة، وشاهد من ملوك الطوائف تقاعسهم في جهاد النصارى، وموالاتهم لهم، فبات يصمم لهم أن يقصيهم عن كراسي ملكهم ولكنه يجهل الكثير عنهم وعن ظروف جبهتهم الحربية وأسرارهم العسكرية، فقرر أن يبث العيون في بلاد

(١) المقري - نفح الطيب، ج (٢) ص (٥٢٨) نقلاً عن صاحب الروض المعطار.

(٢) المقري - نفح الطيب، ج (٢) ص (٥٢٩).

(٣) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

الأندلس لتجمع له معلومات وافية عنهم، فبدأ يوسف يراسل المعتمد فى أن يستأذنه فى رحال صلحاء رغبوا فى الرباط فى الأندلس، ومجاهدة العدو فى بعض الحصون المتاخمة للروم، فأذن له المعتمد بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس «المتوكل» صاحب الثغور[1].

وقد جهز يوسف من خيار صحابته رجالاً انتخبهم وأمر عليهم رجلاً من قرابته يسمى «بلجين» وأسر إليه ما أراده، فعبر بلجين المذكور البحر ومجموعته إلى شبه الجزيرة واستقروا بها مدة، درسوا خلالها مسالك البلاد وطبيعة أهلها وقاموا بمراقبة ملوك الطوائف ورصد تحركات جيوشهم وإحصاء أعدادها وعددها، وأرسلوا ما جمعوه من معلومات إلى يوسف بن تاشفين الذى رسم على ضوئها خطته فى خلع هؤلاء الملوك وهذا ما يطلق عليه فى العرف العسكرى الحديث «الطابور الخامس»[2].

ويبدو أن أعمال التجسس لم تجد رعاية من أمراء دولة المرابطين بعد رحيل عاهلهم الأول «يوسف بن تاشفين» الذى أولى أعمال التجسس هذه جل عنايته واهتمامه، وأكبر دليل على ضعف أعمال التجسس بعد رحيله تلك الغزوة الكبرى التى قام بها ألفونسو ملك «أراجون» للأندلس وفاجأ بها المرابطين بناء على تحريض النصارى المعاهدين فى أول شعبان سنة ٥١٩هـ - ١١٢٥م.

فقد استطاع هذا الملك أن يخترق الأندلس من الثغر الأعلى حتى شاطئ البحر المتوسط دون أن تستطيع قوة مرابطية أن تقف فى سبيله.

ويخيل لى أن عيون المرابطين لم يجدوا رعاية أو تشجيعاً أو حساباً من المسئولين وذلك لانغماس أمراء الدولة فى الترف والنعيم وتدهور الأحوال الداخلية لهذه الدولة، مما جعل عيون الأعداء تنشط فى جمع معلوماتهم وإرسالها لملوك النصارى، وقد قام بهذه المهمة الخطيرة فى هذه الأونة الخرجة النصارى المعاهدون الذين يعيشون فى ظل الحكومة الإسلامية، ويتمتعون برعايتها على حين أنهم لم يشعروا نحوها بذرة من الولاء.

---

(١) عبدالواحد المراكشى - المعجب، ص (١٩٩، ٢٠٠)

(٢) المراكشى - المعجب - تحقيق محمد سعيد العريان، ص (٥٠٠)

وإن ظهور قـوة الموحدين بالمغـرب واستـفحال أمرهم، قد يكون له دلالة على ضعف أعمال التجسس فـى أواخر عهد المرابطين، لأنه لو لم تكن على هذا النحو لنشط المرابطون فى القضاء على تلك القوة الجديدة التى أصبحت فى تزايد مستمر وما حلت بهم الهزائم المتـتالية والتى كثيرًا ما وقع فيهـا جيش المرابطين فريسة فى شباك «عبدالمؤمن بن على».

وغنى عن القول أن الموحـدين قد أولوا أعمال التـجسس اهتمـامهم، ويبدو أن عبدالمؤمن عاهل الموحدين الأول كان حـريصًا عليها نظرًا لصـراعه المرير مع دولة المرابطين وحاجته المستمرة لمعرفة أسـرارهم العسكرية وتحركات جيوشهم وترصدهم له، وقد نجح فى ذلك نجاحًا فائقًا، فقـد استطاع أن يستميل إليـه أعدادًا هائلة من جواسيس المرابطين أغراهم بالمال وقـربهم إليه مع مجـموعة القـواد والجنود الذين تركوا الخـدمة فى الجيـوش المرابطية وانضمـوا إلى جيوش عبـدالمؤمن وجمـعوا له المعلومات عـن جيوش المرابطين، فكان يرسـم خططه وفق هذه المعلومات أو يغير منها كمـا رأينا فى حرب السهول والصـحارى. ويقابل جحـافلهم بخطط عسكرية جديدة كخطة المربع الذى أضحى عماد فنه فى القتال ليتغلب به على تفوق المرابطين فى سلاح الفرسان، ويصمد بأعداده أمام حشودهم التى كانت تفوقه عدة وعددًا.

وكما حدث فى أواخر عهد المرابطين من ضعف فى أعمال التجسس فقد حدث ذلك أيضًا فى أواخر دولة الموحدين بعد رحيل خلفائها الأقوياء، بدليل أننا نشاهد سلسلة من الهـزائم منيت بها الجـيوش الموحدية مثل إخفاقهم فى حـصار وبدة وهزيمتهم فى مـعركة شنتـرين والكارثة التى حلت بالجيـوش الموحدية فى موقـعة العقاب، وإذا دل هذا علـى شىء فإنه يدل على ضعف أعمال الـتجسس فى هذه الدولة بعد رحيل عبد المؤمن عنها.

سابعا: الرسالة قبل الحرب:

كـان من عـادة المرابطين والموحـدين أن يوجـهـوا رسـائلـهم إلى من يريدون محاربتهم قبل خوض القتال مـعهم، عملاً بتعاليم الإسلام الحنيف، يدعونهم أولا

إلى الإسلام لأنهم إنما يقاتلون الكفار ليدخلوا من الكفر إلى الإسلام لا إلى الغلبة[1]، فإن رفضوا الدخول فى الإسلام فرضت عليهم الجزية فإن رفضوا دفعها، كان السيف هو الفاصل بينهما.

وتشير الرواية الإسلامية إلى أن يوسف بن تاشفين قبل معركة الزلاقة أرسل إلى ألفونسو كتاباً يخيره فيه بين ثلاث: إما أن يعتنق الإسلام، أو يؤدى الجزية لأمير المرابطين، فإذا أبى الاثنين فعليه أن يبدر بالأهبة للقتال. وأنه أى أمير المرابطين القوى عبر بنفسه إلى أسبانيا ليوفر على ملك النصارى هذا العناء وليلقاه بنفسه، وقد شاء الله أن يجمع بينهما فى ميدان واحد، ومن جملة ما جاء فى الكتاب «بلغنا يا أدفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا، وقد عبرنا إليك، وقد جمع الله فى هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال»[2].

وكان لهذه الرسالة عاقبتها السيئة على نفس ألفونسو، فعندما قرأها ألقاها على الأرض مغضباً، وقال للرسول: اذهب إلى مولاك وقل له إننا سنلتقى فى ساحة الحرب.

وتشير بعض الروايات إلى أن الأدفونش أرسل رده لكتاب يوسف جاء فيه «إنى ما كنت أتوقع أن يصل الحد بالمسلمين على هذه المقترحات الجارحة، ومع هذا فإن لدى جيشاً فى استطاعته أن ينزل العقوبة على هذه الوقاحة من الأعداء»[3]

فطلب يوسف من أحد الكتاب أن يرد عليه، ولما سمعه يوسف رآه رداً مطولاً فاكتفى بأن يكتب فى حاشية كتاب الإمبراطور هذه العبارة: «الذى يكون ستراه» وبعث إليه بهذا الرد[4].

---

(١) مقدمات ابن رشد، ص (٢٦٦)

(٢) ابن خلكان، ج (٢) ص (٤٨٣)، نفح الطيب، ج (٢) ص (٥٢٧)، الحلل الموشية ص (٣٥)، الاستقصا، ص ١١٤، مع خلاف بسيط فى العبارات بين مختلف الروايات

(٣) دوزى - ملوك الطوائف، ص (٢٩٨)

(٤) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة، وهذا الرد يذكرنا برد الخليفة هارون الرشيد على كتاب الامبراطور «نقفور» ملك الروم

وكانت رسالة يوسف الأولى للأدفونش تشير إلى مضمون رسالة قد بعث بها الأدفونش إلى ابن عباد، يرمى من ورائها أن تدور رحى معركة على أرض المسلمين صيانة لبلاده وليتمكن من الانسحاب إذا ما دارت عليه دائرة البوار، وقد جاء فى كتابه لابن عباد: «إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده، وخاض البحور، وأنا أكافيه العناء فيما بقى، ولا أكلفكم تعبًا، أمضى إليكم وألقاكم فى بلادكم رفقًا بكم وتوفيرًا عليكم»[1].

ثم قال لخاصته وأهل مشورته: إنى رأيت إن مكنتهم من الدخول إلى بلادى يناجزوني فيها وبين جدرها، وربما كانت الدائرة علىّ يستحكمون البلاد ويحصدون من فيها غداة واحدة، ولكنى أجعل يومهم معى فى حوز بلادهم، فإن كانت علىّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون ذلك صونًا لبلادى وجبرًا لمكاسرى وإن كانت الدائرة عليهم، كان منى فيهم وفى بلادهم ما خفت أنا أن يكون فى وفى بلادى إذا ناجزونى فى وسطها[2].

ولم يخف ذلك على القائد المحنك «يوسف بن تاشفين» فقد عزم إليه السير وعجله بالمسير إليه ليجبره على أن يكون اللقاء فى أرضه، وهذه نظرية استراتيجية من أحدث النظريات فى الحروب الحديثة، وذلك أن يجبر القائد عدوه بأن تكون المعركة على أرضه حفظًا على أمن بلاده وسلامتها من التخريب والعدوان، وهذا ما شاهده فى الحروب الحديثة مثلما عملت إسرائيل فى معركة سنة ١٩٦٧م فإنها حرصت على أن تكون المعركة خارج حدودها حفظًا على أمنها وسلامتها.

وقد كان رد القادة والخلفاء المسلمين بالغًا أثره فى نفوس الأعداء حيث يتميز بالبلاغة والاختصار الشديد، فالخليفة يعقوب المنصور قد أجاز جوازه الأول إلى الأندلس وأحرز نصرًا على المسيحيين مما جعل الأدفونش يطلب هدنة خمس سنوات فأجابه إلى طلبه، ولكن ألفونسو لم يكد يسترد قوته حتى نقض الهدنة وكتب إلى يعقوب المنصور كتابًا يطلب أن يتنازل الخليفة له عن بعض الحصون والمدن بالأندلس، ومما جاء فى هذا الكتاب: «اللهم باسمك فاطر السماوات

---

(1) المقرى – نفخ الطيب، ج (٢) ص (٥٢٨) نقلا عن صاحب الروض المعطار (٢).
(2) المصدر السابق ونفس الصفحة.

والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح، أما بعد، فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب، ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال أمر الرعية وإخلادهم إلى الراحة وأنا أسومهم بحكم القهر، وإخلاء الديار، وأسبي الذراري، وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذ أمكنتك القدرة[1].

فلما تسلم يعقوب المنصور هذا الكتاب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه من قوله تعالى: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧] ثم ذيل هذه الآية القرآنية بهذه الكلمات «ما ترى لا ما تسمع»[2].

---

(١) السلاوي: الاستقصا، ج (٢) ص (١٦٦، ١٦٧).

(٢) السلاوي، ج (٢) ص (١٦٧).

الفصل الثانى

المعركة الهجومية وسير القتال

«التنظيم التكتيكى»

١- مجلس الحرب:

وإذا كان القائد قد أعد نفسه للمعركة، فجهز جيشه وأعد أفراده المقاتلين وزودهم بالسلاح الضرورى لخوض المعركة، وقد جمع المعلومات الكافية عن عدوه ورجاله وعددهم وعتادهم وتسليحهم، وأسلوب قتالهم، وعن مكان المعركة وظروفها، فإذا تم له ذلك فإن دخوله المعركة يتطلب اتخاذ خطوة هامة هى تقديره للموقف العسكرى، هذا التقدير الذى ينتهى عادة بوضع الخطة التى سيتبعها الجيش خلال القتال(١).

والمتتبع لتاريخ الحروب المرابطية والموحدية، يلاحظ أن رسم هذه الخطط لم ينفرد بها القائد العام بنفسه، فقد حرصت كل من القيادتين على الاستفادة من خبرة القواد الذين يعملون فى جيوشهم.

وقد كانت قواد الفرق المختلفة وولاة الأقاليم من رجال لمتونة يجتمعون بالأمير فى هيئة مجلس حرب للمشاورة فى مختلف الشئون العسكرية، ولاتخاذ خطة موحدة فى معركة الجهاد(٢).

وقد كان يوسف بن تاشفين على الرغم من براعته فى رسم الخطط العسكرية لا يقدم على عمل إلا بعد مشورة. وقد أخذ برأى أصحابه ومن بينهم كاتبه «عبد الرحمن بن أسباط» الأندلسى، فى كيفية معاونة «ابن عباد» ضد النصارى، فأشار عليه ألا يعبر إلى الأندلس قبل إخلاء حصن الجزيرة الخضراء، وبهذا يملك موضعاً تشغله حامية مخلصة، وتبقى فى كل وقت على اتصال دائم بأفريقية(٣).

وفى معركة الزلاقة نجد يوسف قد اجتمع بقيادة الجيوش الأندلسية والمغربية واشتركوا جميعاً فى رسم خطة مشتركة لمحاربة ألفونسو، وكانت مدينة «بطليوس» هى مكان الاجتماع

---

(١) [illegible]، المدرسة العسكرية الإسلامية، ص (٣٠٦).

(٢) [illegible]، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، ج(٢) ص(٢٣٤).

(٣) [illegible]، ج(١) ص (٧٦).

وقد نهج الأمراء المرابطون بعد رحيل يوسف هذا النهج، فلم ينفردوا بأنفسهم في رسم خطط الحروب، بل كانوا يحرصون كل الحرص على أن يشركوا نخبة من قوادهم الأكفاء المعروفين بالحنكة والتجربة العسكرية. ففي موقعة «أقليش» نرى قائد المرابطين الأمير «تميم» يستعين بقواده في رسم خطة القتال لمواجهة النصارى كما جاء في رسالته التي أرسلها إلى أمير المسلمين «على بن يوسف» بعد فتح مدينة «أقليش»(1)

وقد كان تاشفين بن على أيضاً قائداً محبوباً من قادته وجنده، فلم يقدم على عمل عسكري إلا بعد مشورة من خاصته وقواده، ففي غزوة «حمل القصر» اجتمع الروم في جيوش كثيرة فاستحضر الأمير تاشفين زعماء المرابطين والقبائل الأخرى، ونظر ما عندهم في لقاء عدوهم. وقد تفاهموا جميعاً في وضع خطة مشتركة حققت النصر على النصارى الإسبان(2)

وكان الخليفة الموحدى أيضاً قبيل نشوب المعركة يعقد مؤتمراً حربياً لوضع خطة الغزو، ويستمع فيه إلى آراء قواده، فعندما أراد عبد المؤمن أن يغزو افريقية شاور الشيخ أبا حفص وأبا إبراهيم وغيرهما(3)

وقد امتازت القيادة الموحدية بحرصها على استمالة قادة الأندلس والأخذ بمشورتهم وآرائهم في مؤتمر الحرب. وقد دلت التجارب على سلامة آراء هؤلاء القواد: فقبيل معركة الأرك عقد الخليفة المنصور مجلس حرب للتشاور ووضع خطة الحرب، وقد كان لقواد الأندلس رأى حصيف في رسم خطة القتال، فقد أشار أبو عبد الله بن صناديد كبير قواد الأندلس بأن تبدأ المعركة باشتباك سائر حشود الأندلس وقبائل العرب وسائر قبائل المغرب من زناتة والمصامدة وغيرهم وجند المطوعة وأن ينتظر الخليفة في المؤخرة ومعه جيوش الموحدين من الاحتياط والعبيد والحشم في موضع مستور، وقد أسفرت المعركة عن انتصار الموحدين،

---

(1) رسالة الأمير تميم نقلاً عن عنان عصر المرابطين والموحدين، ج(1) ص (536)

(2) ابن الخطيب- الإحاطة- تحقيق عنان، ج(1) ص (456)

(3) تاريخ ابن خلدون، ج(6) ص (234)

فيها، وإن كانت الأخرى فعندئذ يبادر الخليفة في قواته إلى لقاء العدو، وليحمي ظهور قواته المشتبكة، ويكون العدو حينئذ قد خمت قواه فيكون النصر للمسلمين، وقد أعجب الخليفة بهذا الرأى وقرر اتباع هذه الخطة[1].

من هنا يتضح أن وضع خطة الحرب ضرورة حتمية تتحرك بها الجيوش قبل خوض المعارك، وبقدر ما كانت الخطة سريعة وقائمة على التشاور والتفاهم مع كبار القواد، بقدر ما كانت ناجحة ومحققة للظفر والانتصار.

٢- دور الطلائع فى المعركة «دوريات الاستطلاع»:

لقد أدرك قادة المسلمين دور الطلائع فى المعارك، فكانوا إذا نزلوا بأرض العدو، يقدمون بعض الفرسان طليعة لهم ليختبروا أرض المعركة ويعرفوا مواقع العدو، ويجمعوا المعلومات الهامة عنها، ويضمنوا أيضًا سلامة الطريق الذى سيسلكه جيش المسلمين من كمين معد له، أو أى عائق يعوق تقدمه، وهذا ما يطلق عليه فى العرف العسكرى الحديث «دوريات الاستطلاع» بهدف الاتصال الدائم بالأعداء، والقيام بأعمال التجسس، ويتم هذا غالبًا فى بداية المعركة.

وإذا كانت الطلائع فى العصر الحديث تقوم بأعمالها مستخدمة السيارات والطائرات ومحصنة بسلاح خفيف ليسهل رجوعها للجيش بسرعة، فإن المسلمين قديمًا كانوا يحملون الطلائع على سوابق الخيل، الجيدة الحوافر والظهور ويرسلونهم متخففين من كل ثقل يعوقهم، ولم يزودوا بسلاح سوى قوس وجعبة بها عشر نشابات أو عشرون وقد سمطوا حقائبهم خلفهم[2].

وقد قدم لنا الهرثمى وصفًا لعدد الطلائع وطبيعة عملهم، فهو يرى بألا تقل الطليعة عن ثلاثة: أحدهم يأتى بالخبر، واثنان يتقدمان إلى العدو بحيث يكون بينهما مسافة ميل فى تقدمهما ليحفظ كل واحد منهم ظهر صاحبه، وينصح لهم بأن يكون تطلعهم على المرتفعات وألا تجرى خيلهم على الأرض التى يثور غبارها ولايدخلون أكثر من ثلثى الطريق بينهم وبين عدوهم[3].

---

(١) روض القرطاس، ص (١٤٧).

(٢) الهرثمى: مختصر فى سياسة الحروب ورقة (٣٤)

(٣) المصدر السابق ونفس الصفحة.

وقد حرص القادة المرابطون والموحدون على أن يختاروا لطلائعهم فرسانًا عرفوا بالنجدة وخفة الحركة، مع سرعة البديهة. حيث كانوا يخصصون فرقة من جيوشهم يقدمونها أمامهم للاستطلاع حذرًا واحتراسًا من مغبة كمين أو هجوم مفاجئ. وكانوا لاينزلون منزلا إلا بعد إذكاء العيون ومعرفة المكان ودراسته جيدًا، ثم تحصينه بالحرس والخنادق، وكان الجيش لايتقدم إلى موقع آخر إلا إذا أخبرتهم الطلائع بسلامة الطريق والمنطقة التى سيرحلون إليها.

وقد لعبت الطلائع الإسلامية فى معركة «الزلاقة» دورًا حاسمًا ورائعًا، فقد حذرت المسلمين من غدر الأذفونش بهم، ودرأت عنهم مغبة مفاجأته لهم، فقد بث المسلمون طلائعهم تجاه معسكر النصارى ليرقبوا تحركاتهم وتقدمهم، ورجعت الطلائع تخبر أن العدو يشرف عليهم صبيحة يومهم وكان يوم الأربعاء، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم، فلما علم الأذفونش باستعداد المسلمين رجع إلى أعمال المكر والخديعة، وأجل موعد المعركة، فعاد الناس إلى محلاتهم[1]

ثم لجأ الأذفونش إلى رسم خطة غدر بالمسلمين ليفتك بهم على غرة فأرسل إلى ابن عباد يحدد يومًا للمعركة، فقال فى رسالته التى أرسلها له «غدًا يوم الجمعة وهو عيدكم، والأحد عيدنا، فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت»[2]

وقد فطن «ابن عباد» إلى حيلة الأذفونش وعرف أنه يريد الفتك بالمسلمين يوم الجمعة وبالفعل جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة «الأذفونش» وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة، ثم تلاحق بقية الطلائع متحققين من تحرك الأذفونش والروم على أثرها، والناس على طمأنينة فبادر ابن عباد للركوب وبث الخبر فى العساكر[3].

ويبدو أن طلائع المرابطين كانت على قدر كبير من المهارة وخفة الحركة، ففى عام ٥٢٤ هـ خرج العدو ليعيث ويحرب فى أراضى المسلمين، وقد غنم منها

(١) نفح الطيب، ج(٢) ص (٥٢٨) نقلاً عن صاحب الروض المعطار

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة

(٣) المصدر السابق، ص (٥٣٠)

وسبوا سبيًا عظيمًا، وقد بلغ الخبر الأمير تاشفين فأخذ فى أعقاب العدو، وقصد ناحية بطليوس ونجدة ونبرة فى ألف من الجند الرجل ومشهور الأبطال، وقد قامت الطلائع بدور حاسم فى الالتحاق بالعدو، فقد تجشمت كل ذروة وثنية، ثم أرشدوا تاشفين إلى فلاة تقرب بطليوس، وهو المكان الذي سيضطر العدو للمجيء إليه. فكمن فيه، ثم أذكى «تاشفين» طلائعه نحو العدو فأقبلت هذه الطلائع منذرة بإقبال العدو والغنيمة فى يده قد ملأت الأرض، ودارت معركة ضيق فيها المرابطون الخناق على النصارى، فهزموا وانتصر تاشفين واسترد غنائم المسلمين[1].

وكانت من مهام الطلائع أيضًا حراسة المحلة بالليل، ففى موقعة أقليش يقول تميم فى رسالته إلى أمير المسلمين «على بن يوسف»: «إلى أن حجز الظهير بيننا وبين الليل حجزه، فعدنا إلى محلتنا، وكانت ثم الأحراس للمحلة طلائع تحرس جنباتها وتدرأ آفاتها»[2].

وعندما استولى الخليفة المنصور الموحدى على قلعة رباح عقب انتصاره فى موقعة الأرك عين لقيادتها «أبا حجاج يوسف بن قادس» وهو من أنجاد الفرسان وقادة الأندلسيين، وكان يسهر على حمايتها ويدفع عنها فى سبعين فارسًا[3].

وقد تقوم الطلائع بعمل خطير وهو تأمين سلامة الجنود واحتلال الممرات المهمة فى الجبال الوعرة لتقطع الطريق على الأعداء. فعندما عبرت الجيوش الموحدية نهر الوادى الكبير، واتجهت جنوب بياسة، اختار الخليفة بعض الفرسان من خيرة أنجاده من الطلائع، وطلب منهم أن يحتلوا ممرات جبال الشارات المؤدية إلى بياسة وأبدة، ومنها ممر لوسا الوعر الذى تستطيع أن تحميه قوة صغيرة، وتمنع جيشًا كبيرًا من جوازه. وقد قامت هذه القوة من الطلائع باحتلال ذلك الممر، وأمنت عبور الجيش الموحدى بها، حتى نزلت الجيوش كلها فى البسيط الواقع تحت هذا الممر، وقد اعتزم الخليفة الناصر أن يصمد فى هذه الأماكن للقاء النصارى[4].

---

(1) ابن الخطيب- الإحاطة- تحقيق عنان، ج(١) ص (٤٦٠).

(2) رسالة تميم نقلا عن عنان عصر المرابطين والموحدين، ج(١) ص (٥٣٦)

(3) روض القرطاس، ص (١٥٧).

(4) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج(١) ص (٣٠١).

وإدراكاً لأهمية دور الطلائع في المعركة سنقف أمام وصية الكاتب «أبي بكر الصيرفي» للتاشفين بن علي ينصحه باستخدام الطلائع ويحسن اختيارهم من أهل الشهامة، ويحذره من كذبهم وخداعهم في قصيدته المشهورة منها[1]:

وتوق من كذب الطلائع أنه　　لا أرى للكذاب فيما يصنع

٣- اختيار موقع المعركة:

إن المتتبع لدراسة المعارك الحربية الظافرة في التاريخ يجد أن حسن اختيار موقع المعارك كانت من الأسباب الرئيسة في الظفر والانتصار، فبقدر توفيق القائد ومهارته في اختيار أصلح المواقع التي ستدور عليها معركته بقدر ما يصيب فيها من نجاح وتوفيق، لأنه يتطلب أن يكون الموقع حصيناً يضمن سلامة جيشه في حالتي الدفاع والهجوم.

ولم يغفل المرابطون والموحدون تلك الحقيقة الهامة، فكثيراً ما كانوا يحصنون مواقعهم بالجبال، يسندون إليها ظهورهم، وبالأنهار وفروعها يحتمون بمنعطفاتها وبالبحيرات والمستنقعات تحيط بهم، بحيث لايقاتلون عدوهم إلا من جهة واحدة أو جهتين.

ولما كانت منطقة بلاد المغرب الأقصى جبلية فقد التزمت القيادات المرابطية والموحدية بقاعدة الاحتماء بالجبال والانحياز إلى المرتفعات لحماية الجيوش وتأمين سلامتها.

ونستطيع أن نقول بحق أن القيادات المرابطية والموحدية آمنت بجدوى الموانع الطبيعية وأهميتها، وخصوصاً أن بلاد المغرب والأندلس يكثر فيها تلك الموانع الطبيعية من وديان وجبال وهضاب وبحيرات، فكانوا دائماً يعسكرون في تلك الأماكن الاستراتيجية متخذين فاصلاً أو ستاراً أو مأمناً لظهورهم مع حرصهم في الاستحواذ على الأماكن التي يتواجد بها الماء حتى لايهلكون عطشاً ويصمدون لحصار طويل.

---

(١) ابن خلدون المقدمة، ص (٣٠٨)، الحلل الموشية، ص (٩٧)، وإن كان صاحب الحلل ينسب هذه القصيدة إلى: «أبي زكريا بن العربي»

وقد عملت القيادات العسكرية فى تلك الجيوش بمبدأ عسكرى يعتبر من أعظم المبادئ التى تعمل بها القيادات العسكرية المعاصرة، وهو أنهم اعتادوا أن يقاتلوا فيدافعوا عن أدنى حجر من أرضهم، فإن انتصروا لم يصعب عليهم التقدم، وإن كانت الأخرى تفرقوا فى الشعاب والوديان التى يعرفون مسالكها فيمكن لهم أن يتسربوا ويتجمعوا مرة أخرى يؤازر بعضهم بعضًا.

وسوف نتعرض الآن لدراسة بعض المعارك المرابطية والموحدية لنستدل على مهارة هؤلاء القواد فى اختيار أصلح المواقع لمعاركهم الحربية، ونعرف كيف كان القائد يحمى ظهور قواته ويختار لقلب الجيش جبلاً أو أرضًا صلبة، وأنهم كانوا ينظمون قواتهم ويشكلونها طبقًا لظروف أرض المعركة إن كانت مستوية أو جبلية أو صحراوية أو زراعية، وكذلك كيف كان هؤلاء القواد يقدرون أثر الجو فى العمليات الحربية، لأن الجهل بطبيعة الجو يؤدى بالجيش إلى هزائم ساحقة. لهذا كانت القيادات تهتم بدراسة المناخ وطبيعة الجو، وتوضع هذا موضع الاعتبار عند وضع الخطة. ففى معركة الزلاقة أثبتت القيادات المشتركة من المرابطين والأندلسيين مهارة فائقة فى اختيار أصلح المواقع لإدارة دفة القتال عليها، فقد كان أمامهم موقعان: إما أن يتقدموا صوب مدينة قورية على نهر تاجة ثم ينقضوا منها على مدينة طليطلة فيضربوا عليها الحصار ثم يردوها إلى المسلمين. وإما أن يتحركوا صوب بطليوس فى الشمال الغربى لمدينة أشبيلية(1).

ولكن العبقرية العسكرية المرابطية التى تقود الجبهة المتحالفة من حشود المغرب والأندلس، لم تعمد إلى المغامرة، وتتقدم صوب طليطلة رأسًا، ولكنه اختار من بطليوس مسرحًا لمعركته مع النصارى، لأنه لو توجه إلى طليطلة لاشتد توغله فى بلاد النصارى، وهى أرض يجهلونها، وليس لهم علم بطرائق النصارى وأساليبهم فى القتال، ومن هنا يسهل على النصارى تطويقه من الخلف، ويقطعوا صلته بالجنوب وينقضوا على جيوشه قضاء تامًا

ومن ثم فضل القائد المرابطى أن يرابط بقواته قريبًا من بطليوس فى انتظار لقاء النصارى حتى إذا ما دارت عليه الدائرة استطاع أن يلوذ بأسوار بطليوس ويعتصم

---

(1) حسن أحمد محمود- قيام دولة المرابطين.

بشعته الخصيبة، يؤكد ذلك تواتر الأنباء بتدفق قوات النصارى صوب هذه المدينة لملاقاة المسلمين[1]

وبالفعل قد أفادت هذه الخطة، ذلك الموقع قوات «يوسف بن تاشفين» حيث عسكر بجيوشه في فحص الزلاقة، وكان يفصل بينهم نهر بطليوس، وفي بطاح ذلك الفحص الذي تتخلله الأحراش، ضرب محلته وراء ربوة عالية تحجبه عن أنظار النصارى، منفصلاً عن محلة الأندلسيين

وقد وقف في قلب محلته يرقب تحركات العدو، منتظراً فرصة مواتية لينقض كالصاعقة، ويحدث مفاجأة استراتيجية وتكتيكية[2] تحدث خللاً في صفوف العدو

فلما رأى الجيش القشتالي قد التحم بالأندلسيين بدأ ينفذ مفاجآته، وهي مباغتة العدو من الخلف، فزحف بأكبر جزء من جيشه على معسكر الأدفونش، وأجرى مذبحة هائلة في الجنود الموكلين بحراسة المعسكر، وأشعل النار فيه فاحترق، وانقض على ظهر القشتاليين وهو يحتوي أمامه الجنود الفارين[3].

أما عن اختيار المواقع التي تقوم عليها معارك الموحدين هذا ما سنوضحه من خلال معركة الأرك الشهيرة التي انتصر فيها الموحدون على النصارى.

فعندما تجمعت الجيوش الموحدية في جزيرة طريف استأنف مسيرها إلى أشبيلية حيث مكث فيها الخليفة أسبوعين ينظم جيوشه، ثم غادرها إلى قرطبة مخترق نهر

---

(١) قيام دولة المرابطين، ص (٢٧٦) وما بعدها

(٢) تقوم المفاجأة الاستراتيجية على إخفاء نية الهجوم، ووقت الهجوم، وحجم قوات المهاجمة ومكان الهجوم أي (النية والوقت والحجم والمكان) وتتطلب المفاجأة الاستراتيجية السرية التامة في التخطيط وفي حشد القوات وتعبئتها مع اتباع أساليب الخداع السياسي والعسكري. انظر اللواء محمد جمال الدين محفوظ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، ص (٤٣٦). أما المفاجأة التكتيكية فتحدث في نطاق العمل التكتيكي ومن أمثلتها اتباع أساليب مبتكرة في القتال والاندفاع في اتجاه غير متوقع والسرعة في تحريك القوات والتغيير المفاجئ لاتجاه تحركها، وتتحقق عموماً بما تتحقق به المفاجأة الاستراتيجية فيما عدا النية. انظر المصدر نفسه ونفس الصفحة (١٩)، قيام دولة المرابطين، ص (٢٧٦) ومابعدها

(٣) انظر في وصف الزلاقة، دوزي ملوك الطوائف، ص (٣١٠) وما بعدها، أشباخ، ج(١) ص (٨٢)، وما بعدها، نفح الطيب للمقري، ج(٢) ص (٥٢٣)، عبد الله بن بلكين- التبيان ص (٣٣٨)، الحلل الموشية، ص (٤٧)، روض القرطاس، ص (٩٤)

البلدة الكبير، ثم استراح بها ثلاثة أيام، ثم خرج منها من باب «مورادال» وسار في قواته شمالاً صوب سهل «الشعطرة» وقلعة رباح. أما ألفونسو الثامن ملك قشتالة فأسرع بحشد قواته بطليطلة بمجرد سماعه عن قدوم الموحدين، ثم غادرها مسرعاً نحو الجنوب، واخترق نهر وادي يانة متجهاً نحو أراضي قلعة رباح إلى أن وصل حصن الأرك وعسكر به، يريد أن يلتقي بالموحدين في ساحة هذا الحصن. وكان ملك قشتالة قد أنشأ هذا الحصن في محلة تعرف بالأرك وهي من أعمال قلعة رباح تقع على مساحة أحد عشر كيلو متراً في غربي مدينة «سيوداد ريال» «الحديثة»[1]. وهذه المحلة تقوم فوق ربوة عالية تمتد سفوحها حتى نهر وادي يانة، وكانت وقتئذ هي نقطة الحدود بين قشتالة وأراضي المسلمين.

وقد استمر الخليفة المنصور في سيره مخترقاً أراضي قلعة رباح حتى وصل إلى مقربة من محلة الجيش القشتالي المعسكر في الأرك، واستمر في سيره حتى اقترب من معسكر النصارى بقدر مرحلتين[2]، متخذاً من السهل المنبسط معسكراً له، بينما عسكر النصارى الإسبان على الربوة نفسها المعروفة بمنعتها ووعورتها حتى يتحكموا في المسلمين من علٍ، ويلوذوا إليها ويتحصنوا بها.

وتشرف هذه الربوة في اتجاه الجنوب على وادي عميق متدرج وهو المكان الذي دارت فيه المعركة، ويجري وادي نهر يانة بحذاء هذا الوادي من شماله وغربه ويدور في منحناة كبيرة حول ربوة الأرك، ويطلق اليوم على هذا الوادي الذي تغمره الخضرة اسم محلة «الديجو»[3].

ونستطيع أن نتبين من خلال هذا الوصف موقع كل من محلة المسلمين ومحلة النصارى، فمن المحتمل أن النصارى قد اتخذوا من مشارف ربوة الأرك مكاناً لمحلتهم على مقربة من حصن الأرك، وذلك ليعتصموا به وقت اللزوم، ويستند أيضاً إلى نهر وادي يانة ليحموا به ظهورهم، وقد امتاز موقعهم أيضاً بأنه على اتصال بقرية «بولبتي» التي يمكن أن تمدهم بالإمدادات التي يحتاجون إليها

---

(1) عنان: عصر المرابطين والموحدين ج(2) ص (200)

(2) نص القرطاس، ص (147).

(3) نفس المصدر ونفس الصفحات

أن عن محلة المسلمين فقد اختاروا لها موقعا حصينا أيضا وسهلا للمعترك واسعا تستطيع أن تمرق فيه خيول المسلمين، حيث كانوا يحتلون البسيط الواقع أمام هذه الربوة فى أسفل الوادى، وقد حصنوا محلتهم بنهر وادى يانة من جهة الغرب.

ولنقف الآن وقفة متأنية لنرى ما يسفر عنه أهمية موقع كل من الطرفين فى إحراز النصر، حيث كان كل من القائدين بارعًا فى اختيار موقع محلته

وعلى الرغم من أن النصارى كانوا يحتلون مكانا مرتفعا وهى ربوة الأرك لينقضوا منها على جيوش الموحدين فى البسيط أسفل الوادى، ويلوذوا بها عند الفرار، إلا أن الموحدين قد عرفوا ما لهذه الربوة من مزايا استراتيجية فاستغلوها فى رسم خطتهم والتى تقوم على تحمل الصدمة الأولى ثم يحيلونها إلى ضربة مضادة حيث يحيطون بالنصارى فى بقاع هذا السهل ويطوقونهم ويحيلون بينهم وبين الاعتصام بتلك الربوة ويعملون لهم مصيدة لحصرهم وتبيد جيوشهم

وفى ضحى اليوم التاسع من شعبان سنة ٥٩١هـ ١١٩٤م، نشبت المعركة وكانت عنيفة، وقد تلقى الموحدون الضربة الأولى حيث إن القشتاليين قد هبطوا من محلتهم فى صفوف كثيفة قاتمة كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسرابًا تتلو أسرابًا، وأمواجًا تعقب أمواجًا[1]، وقد أكمل لنا صاحب روض القرطاس كيف استطاعت هذه القوة النصرانية أن تسدد ضربتها الأولى بما اندفعت حتى لطمت خيلها أطراف رماح المسلمين أو كادت، ثم تقهقرت قليلاً ثم عادت إلى الاقتراب من المسلمين ثم ارتدت وتهيأت للهجوم الفعلى، وقد ركزت هجومها على قوات القلب التى يقودها القائد العام «أبو يحيى بن أبى محمد بن أبى حفص» وقد كانت الصدمة شديدة، فقتل أبو يحيى، وقتل معه جماعة من هنتاتة والمطوعة وغيرهم. وعندئذ تقدمت قبائل العرب والمطوعة والأغزاز والرماة وأحاطوا بالنصارى من كل جانب، ثم دخلت جيوش الأندلس إلى المعركة وزحفت مع قبائل زناتة وسائر قبائل البربر، واندفعت الجيوش الموحدية جميعها نحو محلة القشتاليين، واشتد القتال بين الفريقين وكثر القتل فى مقدمة القشتاليين التى قامت

---

(١) روض القرطاس، ص (١٤٩)

بالهجمة الأولى، حتى اضطروا إلى التقهقر نحو الربوة فحالت القوات الموحدية دون ذلك، فارتدوا ثانية نحو السهل فحملت عليهم العرب والمطوعة وهنتانة والأغزاز والرماة، وعملوا فيهم سيوفهم ورماحهم وحصدوهم حصداً وأفنوهم حسبما تقول الرواية الإسلامية[1].

من هذا العرض يتضح أن القادة المسلمين كانوا ذا مهارة باختيار أصلح المواضع التي تدور فوقها معاركهم، بل ما من معركة ظفر بها المرابطون والموحدون إلا كان للموقع الذي اختير للمعركة أثر عظيم في الظفر بأعدائهم.

٤- أنظمة التعبئة:

وقد أعطانا ابن خلدون وصفاً لأنظمة التعبئة وقسمه إلى نوعين فقال: وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين:

أ- الزحف صفوفًا: وهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم.

ب- الكر والفر: وهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب[2].

وابن خلدون في هذا التقسيم يخص العجم بطريقة الزحف صفوفاً، ثم يعود ويعترف في موضع آخر بأن العرب كانوا يقاتلون زحفاً وذلك لأنهم أرادوا أن يقاتلوا أعداءهم بمثل نظامهم[3].

ويمكن إزالة هذا الغموض إذا اعتبرنا أنه يريد بالعرب الذين ذكرهم في كلامه عرب بني هلال الذين حاربوا البربر في زمانه ببلاد المغرب.

ويبدو لنا أن المسلمين في بلاد المغرب سواء كانوا مرابطين أو موحدين كانوا يستعملون الطريقتين في المعركة الواحدة وإن كان يغلب في أنظمتهم نظام الصف، حيث كانوا يزحفون صفوفاً، وقد صفوا خلفهم أمتعتهم ورواحلهم، فإذا اختلت

---

(١) روض القرطاس، ص (١٥٠)، ثم انظر «هويثي» في بحثه عن معركة الأرك: المعهد المصري بمدريد مجلة ي Campans de alalrcos. vol.11.P. 62-67 عن تفاصيل المعركة وانظر كتابه Grandes batalles de la reconquista p152

(٢) مقدمة لابن خلدون، ص (٢٢٦، ٢٢٧).

(٣) المرجع السابق، ص (٢٢٨، ٢٢٩).

الصفوف لأنى سبب سحبوا إلى رحالهم فأعدوا تنظيمها للتهيؤ بهجوم جديد، وهذا ما كان يسمى عندهم «الكر بعد الفرة» أو «الرجعة بعد الجولة»، والغرض من الجولة أن تعرف القبيلة المتسببة في الفرار لأنه من المعروف أنهم كانوا يصفون جنودهم على أساس قبلي، ويعين القائد لكل قبيلة مركزها ويجعل لها قائدا لتتبارى القبائل في إظهار بطولتها، وتخزى أن يهزم الجيش بسببها.

وقد فضل المسلمون نظام الصف في معظم حروبهم لما فيه من مزايا قتالية للعاملين به فهم أصدق في القتال وأرهب للعدو، وقد أفاض ابن خلدون الحديث عن مزايا نظام الصف فقال: «وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدمًا، فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو، لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد»[1]

وقد حرص المرابطون على استعمال نظام الصف في معاركهم عملاً بالقرآن والسنة الشريفة، وقد قدمت لنا الرواية الإسلامية وصفًا لطريقتهم في القتال بنظام الصف، يقول البكري: «وكان للمتونة في قتالهم شدة وبأس ليست لغيرهم، وكان قتالهم على النجب أكثر من الخيل، كان أكثر قتالهم مترجلين يقفون على أقدامهم صفًا بعد صف، يكون بأيدي الصف الأول منهم القنا الطوال، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق، يحمل الرجل الواحد منهم عدة يزرقها فلا يكاد يخطئ ولا يشوى، ولهم رجل قدموه أمام الصف بيده الراية فهم يقفون ما وقفت منتصبة، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعًا، فكانوا أثبت من الهضاب، ومن فر أمامهم لم يتبعوه، وكانوا يختارون الموت على الانهزام، ولا يحفظ لهم فرار من زحف»[2]، وبهذا الوصف يكون المرابطون قد طبقوا فرائض الجهاد الخمسة التي ذكرها ابن رشد «الطاعة للإمام، ترك الغلول، الوفاء بالأمان، الثبات عند الزحف وعدم الفرار»[3].

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص (٢٢٨، ٢٢٩)، مخطوط الهرثمي ورقة (٤)

(٢) أبو عبيد البكري- المغرب، ص (١٦٦)

(٣) مقدمات ابن رشد

وقد تعود المسلمون ضرب المصاف وراء العساكر من الجمادات والحيوانات يتخذونها ملجأ للخيالة في كرهم وفرهم، يطلبون به ثبات المقاتلة لتكون أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب، وكان هذا النظام متبعا على مذاهب أهل الكر والفر، وتبنت من أهل الزحف ليزيدهم ثباتًا وشدة.

فالفرس كانوا يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجا من الخشب مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات، ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون، بينما كان الروم والقوط بالأندلس يتخذون لذلك الأسرة، ينصبون للملك سريره في حومة الوغى ويحف به خدمه وحاشيته وجنوده ومن هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير، ويصير فئة المقاتلة وملجأ للكر والفر.

أما نظام المرابطين وهو قوم صحراويون فإنهم كانوا في أول أمرهم يتخذون من إبلهم ودوابهم التي تحمل أمتعتهم، فئة لهم يسمونها «المجبوذة» توثق هجمتهم وتؤمن دبرتهم، وقد كانوا يعتمدون على الإبل في أول عهدهم اعتمادًا كبيرًا حتى بعد تمدين جيوشهم، فقد أبقى يوسف نظام الإبالة يقيم منها صفوفًا تحدق بمعسكره وتحمى مؤخرته، وتؤمن طرق مواصلاته، فلا يعمد العدو إلى قطعها وتهديدهم، وقد ظهر دور الإبل في معركة «الزلاقة»[1] كما عرفنا سابقًا، وأحيانًا كان يتخذ منها الفرسان المرابطون سورًا وحصونًا يستترون وراءها، ثم ينفذون من خلالها للضرب والطعن ثم يعودون إليها، فهي بهذا تقوم بدور الفيلة عند الفرس

ويبدو أن المسلمين قد أبطلوا هذا النظام على عهد «ابن خلدون» حيث يقول: «وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة، واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للأثقال والفساطيط يجعلونها ساقة من خلفهم، ولا تغني غناء الفيلة والإبل فصارت العساكر عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف[2].

وقد كان من عادة ملوك المغرب أن يتخذوا طائفة من الجند الإفرنج في جيوشهم كما هو الشأن عند المرابطين والموحدين، فما السر في ذلك؟

---

(1) نفح الطيب- المقرى، ج(٢) ص (٥٢٦).

(2) مقدمة ابن خلدون، ص (٣٠٤).

إننا لنراهم دائمًا يستخدمون هذه الطائفة في مقاتلة أهل المغرب من العرب والبربر فقط ويرجع السبب في ذلك إلى أن المرابطين والموحدين يتخذون من فرقة الإفرنج مصاف وراء عساكرهم بدلا من الجمادات والحيوانات التي كانوا يتحصنون بها وتزيد من ثبات المقاتلة، ومن هنا كانت هذه الفرقة عوضًا عن ضرب المصاف وراء العساكر حتى تكون ردءاً للمقاتلة أمامهم. وقد اختاروهم من النصارى لأنهم أقوام تعودوا الثبات في الزحف، ولم يستخدموهم في مقاتلة النصارى بالأندلس حذرًا من ممالأتهم على المسلمين، وكان هذا هو النظام المتبع في المغرب على عهد ابن خلدون[1].

ويبدو أن المرابطين قد جمعوا بين نظامي الكر والفر ونظام الزحف في حروبهم الأولى ضد ملوك المغرب، وكان هذا نظامًا أملته عليهم طبيعة المرحلة التي ظهروا فيها وطبيعة البيئة التي يحاربون عليها. ولنأخذ على ذلك مثلاً يبين طبيعة حروب المرابطين مع ملوك المغرب في أول عهدهم ونعرف من خلاله أنسب أنواع التعبئة للقتال في هذه المرحلة. وهذا المثال سيكون حول استيلاء «يوسف بن تاشفين» على مدينة «فاس» التي تكثر حولها الحصون والتي طال استيلاؤه عليها. وقبل الحديث عن الأسلوب التكتيكي لفتح هذه المدينة سنقف قليلاً عند مصطلح عسكري ورد في عبارة لابن خلدون حيث يقول: «وارتحل يوسف إلى مدينة فاس وتقرى منازلها، وافتتح جميع الحصون المحيطة بها»[2] فماذا يعني ابن خلدون بلفظ «تقرى»؟

التقري في اللغة: استقرى البلاد أي تتبعها يخرج من أرض إلى أرض[3]، وهو أن توجه الجيوش إلى بلاد المملكة على ألا تقف لحصار مدينة معينة مكتفية بحروب الجيوش التي تخرج إليها فقط وبما يمكن أن تحصل عليه من مكاسب ممكنة، كأن تنضم إليه مدينة - والمدن في هذا الوقت كلها محصنة - وهو ما يطلق عليه بسياسة النفس الطويل حيث يعتمد على إجهاد الخصم وتدويخه حتى يقع فريسة في يديه.

---

(١) نفح الطيب، ج(٢) ص (٣٠٦)

(٢) تاريخ ابن خلدون، ج(٦) ص (١٨٤)

(٣) المختار من صحاح اللغة مادة «قرا»

وكانت ظروف جبهة فاس التى سيحارب فيها يوسف عنيدة قائمة على التحالف، وقد بدأ الصراع يتدخل «يوسف بن تاشفين» بين طرفين هما صاحبا فاس ومكناسة عندما اختلفا ثم استنجدت مكناسة بيوسف، وكان أمير فاس يعتمد على حلف بينه وبين صاحب طنجة «الحاج سكوت البرغواطى»، كما كان يعتمد على قرابته من منازل لفروع مغراوة قوية وهى فروع الريف حول تازا وتكرور وتلمسان.

وأمام هذه الظروف جرت حرب فاس بتكتيك التقرى عليها وعلى ما حولها من حصون صغيرة وكثيرة منتشرة على المشارف الجبلية لجبال غمارة، فكان بذلك يتعرض لحلف فاس وغمارة، بينما كان يعرض الصلح والسلم على صاحب طنجة ويدعوه ليتعاون معه ضد طغاة مغراوة.

ويقتضى التطبيق أن تتقدم الجيوش من الجنوب حتى ترد منطقة فاس فتدور على حصونها ثم تسير مع نهر سبو أو مع روافده النازلة من جبال غمارة حتى تدور حول ما تشاء من الحصون ثم تعود، إذن ما هو تفسير حملات يوسف هذه نحو فاس وخاصة إن الحملة تتقدم فترد مدينة فاس، وقد تلقى بعض الجيوش، وقد تصالح بعض الحصون، ثم تتقدم مرة أخرى نحو غمارة، ثم تعود دون أن تحقق هدفاً ثميناً. إذن ما هو الهدف؟ إن الهدف هو التقرى انتظاراً للشوط الأخير الذى يقع فيه الصيد المطلوب. وقد طالت عمليات التقرى هذه حتى سقطت فاس عام ٤٦٢م، ووقعت الحصون التى تحكم المنطقة «غمارة» عام ٤٦٥هـ، ثم وقعت منطقة تازا فى شرقى فاس عام ٤٦٧هـ، على حين كان ابتداء هذه العمليات كلها عام ٤٥٦هـ، أثناء حصارهم فى القرى المشهورة «تامهديت»[1].

إزاء هذه الظروف فإن أنسب أنواع التكتيكات العسكرية للمرابطين هو نظام الكر والفر، ولكن أغلب تكتيكهم العسكرى كان يقوم على نظام الصف «الزحف» فى أغلب معاركهم بالأندلس، وقد ذكر لنا ذلك مؤرخ معاصر وهو الطرطوشى

---

(١) د. محمد عبد الهادى شعيرة- المرابطون، تاريخهم السياسى، ص (٨٨، ٨٩)

حيث وصف طريقة اللقاء مع العدو في بلاد الأندلس، وكان هذا في مستهل الحكم المرابطي «أما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا، وهو تدبير نفعله في لقاء عدونا، أن تقوم الرجالة بالدروق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة، فيصفون صفوفهم ويركزون مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض»[1].

يبقى أن نعرف عدد هذه الصفوف ونوع السلاح المستخدم في كل صف، ويفهم من النصوص السابقة أن المسلمين في المغرب والأندلس كانوا يستخدمون صفين وأحيانًا ثلاثة صفوف، في الصف الأول منها القنا الطوال، ومن يليه من الصفوف تحمل المزاريق كما يفهم من كلام البكري السابق في وصف طريقة قتال لمتونة[2].

ويبدو أن إبالة المرابطين كانت تشكل صفًا ثالثًا تحمل الفرسان الذين يقفون أمام الصفوف وعلى الجناحين، وذلك لتمكين الرماة من مزاولة عملهم، وقد غير يوسف نظام الإبالة إلى نظام الخيالة بعد استيلائه على مدن المغرب الأقصى

وقد اعتاد المرابطون والموحدون أن يجعلوا على الخيالة أميرًا خاصًا يعمدون إليه لحماية الجانبين .. وهو نظام متبع في معظم الجيوش المحاربة في ذلك الوقت. بينما تقوم بحراسة فرسانهم رماة من الغدائين والأحباش الذين اشتراهم المرابطون والموحدون من غانا، وجعلوا منهم أعدادًا كبيرة في فرق الحرس الخاص لما عرف عنهم من إتقان فن الرمي.

أما الموحدون فقد كانوا يصفون أربعة صفوف من الرجال، في الصف الأول بأيديهم القنا الطوال والطوارق المانعة، ومن ورائهم صف ثان من أصحاب الدروق والحراب ومن ورائهم صف من أصحاب المخالي والحجارة، ثم الصف الرابع والأخير من الرماة وكانت تشكل هذه الصفوف على هيئة مربع وتترك في الوسط دارة مربعة ترابط فيها قوى الفرسان.

---

(١) سراج الملوك، ص(١٧٩)

(٢) المغرب، ص (١٦٦)

ويصف ابن اليسع جدوى هذه الخطة التى ابتكرها عبد المؤمن ضد المرابطين: «كانت خيل المرابطين إذا دفعت إليهم لا تجد إلا الرماح الطوال المشرعة والحراب والحجارة والسهام بأسرة، فحين تميل من الدفع وتدبر، تخرج خيل المسلمين من طرف تركوها ونحو أعدوها فتصيب من أصابت، فإذا كرت عليهم دخلوا فى غاب القنا»(1).

ويمكن تلخيص فوائد نظام الصف وأهم مزاياه فيما يأتى:

1- يلائم هذا النظام مع متطلبات الترتيب العمقى مما لايدع مجالاً لقيام العدو بعملية خرق للجبهة.

2- يترك بوسع القائد إمكانية الاحتفاظ بالصف الأخير كاحتياط يزجه فى المكان المناسب عند الحاجة أو تكليفه بمهمة الهجمات المعاكسة.

3- يؤمن تحقيق مبدأ السيطرة أكثر من نظام الكر والفر(2).

وحين كثر عدد المقاتلين من المسلمين وذلك باستيلاء المرابطين على المغرب والأندلس واحتكاكهم بالنصارى فى حروبهم، تطور نظام الصفوف إلى ما يسمى بالتعبئة، أى ترتيب المقاتلين على نظام الكراديس، والكردوس كلمة يونانية (Routh) ومعناها الكتلة أو الكتيبة، والكتيبة تسمى باليونانية (فالانكس) (Phalanx).

وقد شرح لنا ابن خلدون خلاصة هذا النظام وفوائده فقال: «إن الدولة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك، كانوا يقسمون العساكر أقسامًا يسمونها كراديس، ويسوون فى كل كردوس صفوفه، وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحى، استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضًا إذا اختلطوا فى مجال الحرب، فيخشى من تدافعهم فيما بينهم للجهل بعضهم بعضًا، فلذلك كانوا يقسمون العساكر إلى جموع ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض، ثم يرتبونها قريبًا من الترتيب الطبيعى فى الجهات الأربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد

(1) الحلل الموشية نقلا عن ابن اليسع، ص (98).
(2) مقدمة ابن خلدون، ص (329).

فى القلب يحيط به أربعة جيوش مستقلة بقوادها، جيش فى اليمين يسمى «الميمنة» واخر فى الشمال يسمى «الميسرة»، ثم عسكر اخر من وراء العسكر يسمونه «الساقة» ويقف الملك فى الوسط[1]

ويمكن إجمال نظام الكراديس فى النقاط التالية[2]:

١ - العمل على تجميع الجنود وحشدهم فى مجموعات متعاونة حتى لا يتخاذل بعضهم بعضاً

٢ - سهولة ومرونة تشكيل القوات وتحركاتها بأرض المعركة وتغيير موضع كل منها حسب ظروف المعركة وأوامر القائد الأعلى

٣ - يمكن لهذا النظام تشكيل الجيوش ذات العدد القليل ليمكنها من مواجهة الجيوش ذات الأعداد الكثيرة، وذلك بتشكيل معين يخالف تشكيل العدو فيحقق عنصر المفاجأة الإستراتيجية

٤ - نظام الكراديس يدعم فرق الجيش بعضهم بعضاً ويعطى فرصة سانحة لقوى الفرسان أن تباشر عملها حيث إنه يكون بين جناحى الميمنة والميسرة طريقان لمرور الخيل ولمرور أصحاب المبارزة فيكون بين الصفوف فرصة عند صاحب الميمنة وفرصة عند صاحب الميسرة وفرصة عند صاحب القلب [3].

٥ - نظام الكراديس أثبت فى الحروب لأنه إذا انهزم كردوس يثبت كردوس آخر، أما الصف فإذا انهزم بعضه تداعى سائره[4]

---

(١) [illegible]، ص (٢٠٣)

(٢) [illegible] نظام الكراديس شائعاً بين المسلمين فى القرن الثانى الهجرى كما كان متبعاً فى النظام البيزنطى، وقد عملت به كثير من الأمم الإسلامية وخاصة إذا ما علمنا أن «مروان بن محمد» الخليفة الأموى أمر باتباع نظام الكراديس وجعله نظاما رسميا ولكن المتصفح لتاريخ حروب المسلمين فيما بعد يجد أن المسلمين لم يبطلوا نظام الصف نهائيًا بل كانوا يستعملون النظامين معًا، فقد لاقى نظام التعبئة هذا معارضة من بعض دعاة الخلافة من أهل البيت الذين اعتبروا العدول عن نظام الصف إلى نظام الكراديس بدعة يجب إبطالها، وظلوا فعلا على الزحف صفوفًا، فإبراهيم الإمام كان فى حروبه ضد الخليفة «المنصور» يلتزم نظام الصف ويعد نظام الكراديس بدعة فيقول: «لانصف إلا صف [illegible]» [illegible] فى لنهاية هزيمته أمام عدوه الذى اتبع نظام [illegible]

(٣) مخطوط الهرثمى ورقة ٢٠

(٤) ابن الأثير - الكامل، ج(٥) ص (٣٢٩)

وقد التزم المرابطون في سائر حروبهم مع النصارى بالنظام الخماسي في ترتيب جنودهم حيث كانوا يقسمون جيوشهم إلى خمسة جيوش.. مقدمة، ميمنة، ميسرة، قلب، مؤخرة.

وكانت المقدمة تتألف من الجند المشاة، والجناحان (الميمنة والميسرة) يتألفان من وحدات الفرسان الخفيفة وحملة القسي وحملة النبال، ويتألف القلب من وحدات الفرسان الثقيلة، وعليها يرجع الفضل غالبًا في إحراز النصر في المعارك الحاسمة، أما القوى الخفيفة أو الاحتياطية فكان يقودها يوسف بن تاشفين باعتباره القائد الأعلى للجيش المرابطي وتتألف من صفوة الجند وقوى الحرس على اختلافها وكل هذا في المؤخرة أو ساقة الجيش[1].

وقد أمدتنا الرواية المغربية بوصف لتعبئة الجيوش المرابطية في معركة كان يقودها الأمير تاشفين بن علي سنة ٥٢٤ هـ ضد النصارى في فحص الزلاقة ببطليوس: "فلما تراءى الجمعان واضطربت المحلات، ورتبت المراكب فأخذت مصافها ولزمت الرجال مراكبها، فكان في القلب الأمير ووجوه المرابطين وأصحاب القطاعات، وعليه البنود الباسقات مكتتبة بالآيات، وفي المجنبتين كبار الدولة من أبطال الأندلس عليهم حمر الرايات بالصور الهائلة، وفي الجناحين أهل الثغر والأوشاب من أهل الجلادة عليهم الرايات المرقعات بالعذبات المجرعات، وفي المقدمة مشاهير زناتة ولفيف الحشم بالرايات المصبغات والأعلام المنبقات"[2].

ومن الملاحظ في هذه التعبئة أنها قائمة على نظام قبلي محض، فكان الحشم وهم من الزناتيين والمصامدة يؤلفون قسمًا مستقلاً بذاته، وكان الأندلسيون والمطوعة يؤلفون قسمًا آخر مستقلاً، ثم فرق لمتونة وغيرها من أهل اللثام فكانت مستقلة عن الفرق الأخرى، وكانت هذه الفرق تحشد في المعركة كالآتي: فرق الحشم مع فرسان زناتة في المقدمة، وفرق الملثمين في القلب، أما المحاربون من أهل الأندلس فكانوا أحيانًا في الساقة أو مع أهل الثغور في جناحي الجيش.

---

(1) أشباخ - تاريخ المرابطين والموحدين، ص (٤٧٩).

(2) ابن الخطيب: الإحاطة، تحقيق عنان المجلد الأول، ص (٤٦٠) - "الأوشاب من الناس هم الضروب المتفرقون، المرقعات أي ممزقة الألوية- المنبقات: المزركشة".

وتقديم فرق الحشم يتفق مع التقاليد القبلية إلى حد كبير فقد وضعت فى المقدمة لتصطلى بنار الضربة الأولى وتكون بمثابة درع واقية لعساكر لمتونة حيث لا تتقدم إلى القتال إلا بعد أن تكون فرق الحشم قد نالت من العدو وأنهكته حينئذ تتقدم للإجهاز عليه والظفر بالنصر[1]

وقد التزم الموحدون بتعبئة جيوشهم على النظام الخماسى بعناصره التقليدية كما حدث فى موقعة «الشنترين» و«الأرك» وغيرهما. ففى موقعة «العقاب» التى هزم فيها الخليفة الناصر، قد قسم جيشه إلى خمسة فرق تتألف المقدمة من قوات المتطوعة فى مختلف الطوائف، وتتألف قوات القلب للاحتياطية من الجند الموحدين وهم أغلبية الجند النظامية، وتتألف الميمنة من القوات الأندلسية والميسرة من قوات البربر فى مختلف القبائل[2].

وبمرور الوقت تمكن المسلمون فى نظام التعبئة مما اقتبسوه من فنون الحرب لدى القدماء والأمم الأخرى وقد تعددت ضروب التعبئة حتى صارت سبعة تعبئات وإن كانوا لايستعملونها كلها ولكنهم أدخلوها فى فنونهم الحربية[3].

مربع عبد المؤمن بن على:

ينسب المؤرخون إلى «عبد المؤمن بن على» خليفة الموحدين الأول الفضل فى اختراع تشكيلة المربع، التى اتخذت من ذلك الوقت أساس خطط الدفاع الموحدية، وقد التجأ إليها عبد المؤمن ضد المرابطين فى يوم «منداس»، فقد رأى عبد المؤمن تفوق المرابطين فى عددهم وعدتهم واعتمادهم على قوى كبيرة من الفرسان فلجأ إلى خطة المربع المبتكرة التى تعتمد على تخصيص فرجات لصفوف الفرسان فى جميع جوانب المربع تستطيع أن تنطلق منها ثم تعود إلى أماكنها الداخلية دون أن تخل بنظام الرجالة «المشاة». ويقوم بالهجوم الأول قوات المطوعة المجاهدة تؤيدها القوات الخفيفة، فإذا استطاع العدو أن يرد هؤلاء، وأن يتقدم حتى مواقف الجنود النظامية، وقف حملة الحراب أمامه كالسد الحديدى الذى لايخترق، واستقبله

(١) أشباخ- تاريخ الأندلس، ص(٢٣٥)

(٢) روض القرطاس، ص (١٥٨)، أشباخ- تاريخ الأندلس، ص (٣٦٧)

(٣) ينظر جورجى زيدان - تاريخ التمدن الإسلامى، ج(١) ص (٢٠٧)

الرماة من حملة القسى والنبال بسيل من السهام والحجارة، فإذا استطاع العدو أن يخترق الصف الأول وهم حملة الحراب استقبله حملة السيوف والدروع متأهبين ويبادر الفرسان إلى معاونتهم من الأماكن الداخلية، فإذا استطاع بعد كل ما تقدم أن يتغلب على القلب والجناحين فعندئذ يقوم الجيش الموحدى بالضربة الأخيرة، وتتقدم قوات الضلع الرابع من المربع وهى المسماة بالاحتياطى المكون من صفوة الجند ولاسيما الحرس الخاص، ويقودها الخليفة بنفسه وكثيراً ما كانت هذه الصفوف الاحتياطية تساعد على إحراز النصر بشجاعتها ودقة دربتها، وكانت هذه القوات تقع أحيانًا داخل نطاق من السلاسل الحديدية تبرز من خلالها الحراب الطويلة فتثخن بذلك فى العدو حينما يجترأ على الدنو منها(1).

٥- إدارة المعركة وتعاون مختلف الصفوف:

كانت الصفوف ترتب حسب الخطة الموضوعة، ففى بعض المعارك نرى الرجالة أمام الخيالة وفى أخرى نرى العكس، ويمكن القول بشكل عام أن المشاة وقسمًا من النبالة كانوا يشكلون عنصر القلب الرئيسى، بينما يشكل الخيالة وقسم آخر من النبالة عنصرى الميمنة والميسرة، وكان الاحتياطى يشكل من جميع الصفوف، أما الشئون الإدارية فتبقى فى المصاف مع بعض النبالة للحماية.

ونود أن نشير قبل أن نخوض الحديث فى تعاون مختلف الصفوف أن المرابطين والموحدين قد اعتادوا ألا يبادروا بالهجوم عملاً بقول الرسول الكريم: «لا تتمنوا لقاء العدو، فعسى أن تبتلوا به». ففى معركة الزلاقة لم يبادر المسلمون بالهجوم على النصارى بل إن محلة الأندلسيين قد تحملت الضربة الأولى لهجومهم العنيف. وفى معركة الأرك الموحدية، لم يبدأ الموحدون بمهاجمة القشتاليين، بل تلقى قلب الجيش الموحدى الضربة الأولى، وكانت قوية حيث هب القشتاليون فى نحو ثمانية آلاف فارس كلهم قد احتجب بالحديد والبيضات والزرد وركزت هجومًا مكثفًا على قلب الجيش(2).

---

(1) [illegible] تونسية، ص(98)، أشباخ - تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، ص (448، 449)، عنان - عصر المرابطين والموحدين، ص (246) فى القسم الأول، (634) فى القسم الثانى

(2) روض القرطاس، ص (149، 150).

ولكن إذا اضطر القائد المسلم إلى القتال ولم يجد عنه مندوحة ونظم قواته طبقًا لحالة الشمس والريح، فلا يجعلهم يقاتلون والشمس فى أعينهم، أو حين هبوب الريح فى وجوههم، فإن استطاع أن يجعل موقعهم بحيث تهب الريح من خلفه، وإلا استدار منحرفًا بحيث تهب على جانبه[1].

ويمكن لنا أن نقدم وصفًا شاملاً لتعاون صفوف المقاتلين على اختلاف أنواعها فى المعركة يكمل بعضها البعض فى تلاحم وتعاون عجيب، كالآتى

أ- مكان القائد وإلقاء أوامره:

فى بعض المعارك كان القائد يتخذ موقعه فى قلب الجيش، فيقيم عريشه أو خيمته على مرتفع من الأرض، ليلقى الأوامر ويراقب سير المعركة ويصحح الأخطاء التى يراها، وفى أحيان أخرى يكون الخليفة مشتركًا فى المعركة فيتخذ مكانه فى مؤخرة الجيوش يقود الساقة ومعه حرسه الخاص ويتدخل فى المعركة فى الوقت اللازم ليقلب نظام المعركة لصالحه.

وبعدما يختار القائد موقعه فى أرض المعركة ينصبون له السرير «الكرسى الكبير» فى حومة الوغى وراء المقاتلة، ويحف به خدمه وحشمه وجنده ومن هو زعيم بالاستماتة دونه، وترفع الرايات فى أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير، ويصير فيئًا للمقاتلة وملجأ لهم[2].

وقد قدمت لنا الرواية الإسلامية وصفًا لقبة الخلفاء الموحدين الحمراء، ففى معركة «العقاب» قد ضربت هذه القبة فوق ربوة عالية تتوسط البسيط الذى تحتله الجيوش الموحدية، ودارت العبيد وهم علية الحرس الخليفى حول القبة من كل ناحية، وقد شهروا حرابهم فى اتجاه العدو، وقد ضرب فى نفس الوقت حول القبة سياج من الأعمدة والسلاسل الحديدية الضخمة، فكانت سدًا منيعًا، وجلس الناصر فى قبته حاملاً درقته مرتديًا زيه الحربى، وفى إحدى يديه سيفه المسلول

---

(1) مخطوط الهرثمى ورقة (٢٥)

(2) جورجى زيدان- تاريخ التمدن الإسلامى ص (٢٠٥)

إلى الأخرى المصحف، وربطت فرسه مسرجة أمامه، ووضعت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد تحت إمرة الوزير «أبي سعيد ابن جامع»[1].

وقد نصح لنا الطرطوشي واجبات القائد نحو نفسه في صورة نصائح فقال: «يجتنب قائد الجيش العلامة التي هو مشهور بها، فإن عدوه قد يستعلم حليته ولون جنيبه ورايته، ولا يلزم خيمته ليلاً ونهارًا، وليبدل زيه ويغير خيمته، ويخفي مكانه كي لا يلتمس عدوه غرته، وإذا سكنت الحرب فلا يمشي في النفر اليسير من قومه خارج عسكره، فإن عيون عدوه قد انكبت عليه»[2].

وقد عمل بهذه النصائح القادة في حروبهم ضد النصارى، ففي موقعة الأرك قام القشتاليون بالهجوم الأول على قلب الجيش معتقدين أنه هو الجناح الذي يقوده الخليفة، ولكن المنصور قد غير مكانه وأمر بأن ترفع الأعلام الخليفية على القلب لإيهام العدو وتضليله.

أما عن إبلاغ الأوامر من القائد الأعلى إلى قادة الفرق المختلفة، فقد كانت تستعمل كل الطرق لتوصيل أوامرهم إلى قواد الفرق، فقد كان القائد الأعلى أحيانًا يلقيها بصوته المرتفع إن كان أصحابه يسمعون، وإلا أناب عنهم من يبلغها كما حدث في موقعة الأرك، فقد أناب الخليفة المنصور الوزير أبا يحيى في تبليغ أوامره، وصاح بصوت جهوري يقول للناس: إن أمير المؤمنين يطلب إليهم أن يغفروا له، فإن هذا موضع غفران، وأن يتغافروا فيما بينهم، وأن يطيبوا نفوسهم وأن يخلصوا نياتهم لله، فبكى الناس، وصاحوا من جانبهم بطلب الغفران من خليفتهم ويمن نيته، وصدق طويته، يرجون الخير من الرحمن، ثم قام القاضي أبو علي بن حجاج، وألقى خطبة بليغة تفيض حماسة وبيانًا على الحث على الجهاد وفضله ومكانته وقدره عند الله، وكان لهذه الحركة آثارها في إنعاش النفوس وإذكاء العزائم[3].

---

(1) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص (158)، انظر أيضًا أشباخ - تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج(2)، ص(245).

(2) سراج الملوك، ص (144).

(3) البيان المغرب- القسم الثالث، ص (148، 149).

وطوال المعركة كانت الرسل لا تفتر بين القائد الأعلى وقواد فرقه، ليوصلوا أوامره إليهم إما شفهية أو مكتوبة.

ومن الأمور الجديرة بالإشارة إليها، هي العلاقة بين القائد وقواده، فيجب أن تنشأ بينهم علاقة حسنة بحيث يرتبط القادة والجند برباط قوى قوامه الثقة المطلقة واتحاد المشارب وتقارب القلوب، حتى يستمعوا له وينفذوا أوامره، وإلا فقد يحدث للجيش نكبة تقضى عليه قضاء مبرماً بسبب تمرد القادة وخروجهم على أوامره أو يفسرونها تفسيراً خاطئاً، مثلما حدث فى موقعة «شنترين» الموحدية والتى فنى فيها أغلب جيوش الموحدين، وذهب ضحيتها خليفته أبو يعقوب يوسف لسوء فهم أوامره فقد صدر أمره بتحريك الجيوش من موضع نزوله إلى موضع آخر ففهم القواد أنه صدور بالكف عن القتال، وكان أمر الخليفة أن تقوم قوات الأندلس لغزو مدينة «أشبونة» وشن الغارة على أنحائها، وأن يكون رحيل هذا الجيش نهاراً، فأساء القادة فهم أوامر الخليفة وظنوا أنه أمر بالرحيل فى جوف الليل إلى أشبيلية. ويقول صاحب روض القرطاس: وصرخ الشيطان فى محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل وفى هذه الليلة تحدث الناس بذلك وتأهبوا له فرحل من الناس طائفة بالليل، فلما قرب الفجر أقلع السيد أبو إسحاق وأقلع كل من كان يليه وتابعه الناس بالرحيل فارتحلوا وأمير المؤمنين مقيم فى مكانه لا علم له بذلك»[1].

وكان أشنع ما فى ذلك هو ما حدث من غموض فى فهم أوامر الخليفة والتسرع فى تنفيذها، فهرعت طوائف غفيرة من الجند فى الارتداد فوراً فى جوف الليل وعبور الأنهار، ووقع الارتداد فى مناظر مروعة من الاختلال والصخب والفوضى، فلم يستمع القواد والجنود إلى الأوامر الصادرة بالانسحاب المنظم فيقول ابن عذارى: «إن ثقات الخليفة تطوفوا أول الليل على الرؤوس والجموع وأوعزوا إليهم ترتيب التحرك، وكيفية الإقلاع، وأن يكون كل قبيل من جهتهم ثابتين مرصدين حتى ترحل المحلة والأثقال، وتتخلص إلى السعة من المضيق والأحوال»[2]

---

(١) روض القرطاس، ص (١٤٢)

(٢) البيان المغرب، القسم الثالث، ص (١٣٦)

فلما ظهر الصبح ظهرت الهزيمة الكبرى، فلم يبق حول الخليفة سوى الساقة، وقد أدرك النصارى ما حل بالمعسكر الموحدى من قلاع وارتداد الفلول القريبة منه، فهجموا على ساحة الخليفة، ووصلوا إلى قبة الخليفة الحمراء، وأصيب بعدة جراح مات متأثرًا بها. ومن الواضح أن أسباب هذه الهزيمة النكراء، إنما ترجع إلى استئثار الخليفة بتوجيه قواته، دون أن تكون هناك رابطة قوية تربطه بهم، مما جعلهم يسيئون فهم أوامره أو يدهشون لها، فقد نفذت أوامر حمقاء دون تدبر ودراسة، فقد أمر بنقل موقع الجيش من شرقى وجنوبى شنترين إلى الشمال والغرب وهو أمر عارضه القواد الموحدون لأنه يضع الجيش الموحدى فى مواقع تعرضه للتطويق ثم جاء الانسحاب المفاجئ وما صاحبه من فوضى، وما انتهى إليه الأمر من فقد الاتصال بين الفرق المنسحبة، وبين حرس الخليفة وحاميته فكانت الكارثة التى أودت بالجيش وبحياة الخليفة نفسه.

ومن الغريب أن نفس الأسباب هى التى أدت إلى هزيمة "الناصر" الخليفة الموحدى فى موقعة العقاب، فبالرغم من اكتمال هذه الجيوش عدة وعددًا، إلا أن عناصرها كانت متنافرة، وقوادهم لم تكن تدين بذرة من الولاء للموحدين، بل كانت قلوبهم تحمل الكره والضغينة لهم، ولم تكن هناك صلة مودة بين الطرفين أو ثقة متبادلة بينهما، فقد حبست أعطياتهم وتأخرت بينما كان المتبع أيام المنصور أن يمنح العطاء للجند مرة كل أربعة أشهر دون تأخير، ومن هنا خرجت الجنود إلى الغزو وهم كارهون، فقد خبت قواهم المعنوية، وقد بلغت بهم الحالة فى المعركة أنهم لم يسلوا سيفًا ولا شرعوا رمحًا، ولا أخذوا فى شىء من أهبة القتال، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصدين لذلك[1].

ب- بداية المعركة وتعاون مختلف الصفوف:

تبدأ المعركة بمبارزة بين الأبطال من الجانبين تحميسًا للقلوب وتشويقًا للقتال وذلك أمام الجيشين المتواجهين. ففى معركة "أقليش" المرابطية برز فارس من العرب فقطع فارسًا من النصارى، فأذراه من مركبه، ورماه بين يدى موكبه[2]. عندئذ

---

(١) المراكشى- المعجب، ص (١٨٣).

(٢) رسالة تميم بن يوسف فى فتح أقليش كان كاتبها ابن شرف وهو شاهد عيان نقلاً عن عصر المرابطين والموحدين، ج(١) ص (٥٣٧).

صاح المسلمون مهللين ومكبرين، وبعد ذلك يضطرب الجيشان وتموج بحر المعركة، فإذا ما نوى القائد الهجوم، أمر مكبرين بالتكبير وأمر أصحاب الطبول بقرع الطبول النحوية. ليعد كل إنسان نفسه ويأخذ مكانه من الصف، وكان شعار المرابطين أن يتنادوا بهذه الصيحة «يا خيل الله اركبي»[1]، بينما كان شعار الموحدين وصيحتهم «أصبح والحمدلله» وقد رددوا هذه الصيحة أثناء حصارهم لوهران حيث اجتمعوا في الجبل المطل عليها فصاحوا صيحة واحدة بلسان واحد، ولم يكن اللمتونيين يصيحون بذلك[2].

ويصف لنا ابن شرف في رسالته استعداد جيش المرابطين في حالته القصوى بعد هذه الصيحة «وثربا كما ثار الشهم بفرصته، وطار السهم لغرضه، وأمرت رحالا بلزوم المحنة فسدوا فرج أبوابها، ولاذوا بأوتادها وأسبابها، فداروا بها دور السوار واتخذوها انتظام الأسوار. وقد شرعوا الأسنة من أطرافها، وأحالوا البواتر في اكفانها، وأضاقوا الأفنية، وقاربوا بين الأخبية»[3]

دور النبالة:

إذا زحف العدو أمهله الرماة حتى يكون في مرماهم، فيمطروه وابلاً من سهامهم وهم جاثمون على ركبهم جماعات بحيث تخرج سهامهم مجتمعة كأنها صادرة عن قوس واحدة، فإذا اقترب العدو أشرعوا رماحهم في صدره بحيث تؤلف سوراً شائكاً يمنع تقدمه، وهنا تشتبك الرماح، فيشرع الرجال الرمح في صدور الرجال وقد تحصنوا بالدروع الواقية، ثم يتدافعون فلا يرحزح أحدهم الآخر إلا بعد تغلب قوى على ضعيف، أو ثقيل على خفيف، أو تقصف الرماح من شدة الضغط عليه[4]

دور السيافة:

فإذا ما نفدت المزاريق والنشاب والرماح وهي آلات القتال التي يحمى بها وطيس المعركة. وانتقلت المعركة إلى ملحمة[5]، يتقابل فيها الخصمان، وجهاً

---

(١) رسالة تميم بن يوسف في فتح أقليش كان كاتبها ابن شرف وهو شاهد عيان نقلاً عن عصر المرابطين والموحدين، ج(١) ص (٥٣٦)

(٢) نظم الجمان، ص (١٢٧). (٣) رسالة تميم السابقة، ص (٥٣٦)

(٤) ارجع إلى وصف الطرطوشي في سراج الملوك، ص(١٧٩)، ووصف البكري في المغرب، ص (١٦٦)

(٥) الملحمة: مكان القتل الشديد، بينما المعركة هو مكان القتال، والمأزق أو الملقط ما تضايق من أماكن الحرب. انظر حلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هزيل الاندلسي، ص (١١٤)

توح يتصافحون بالسيوف، ويتعقبون الرؤوس والأطراف والمفاصل، في حين تدفع أمامها التروس والدروع الحديدية، وهنا يلتمس كل جندي أية وسيلة سانحة ليتغلب بها على خصمه، فقد يضربه بالدبوس أو الملطة، وقد يطعنه بالخنجر، وقد يتطور الأمر إلى المعانقة والضربات المعجزة حتى يصرع القوى الضعيف فيقتله أو يأسره.

دور الخيالة:

إن من أول مهام الخيالة الاستطلاع، وكان يختار لها سرعان الخيل، وتسمى الطليعة وهي التي تقوم باستكشاف مواقع العدو، ثم تعود بعد ذلك لتشترك في المعركة ويكون عملها في بدء المعركة القتال بالكر والفر عن طريق المبارزة، وعندما يحمى وطيس المعركة تكلف بحماية جانبي الجيش أو تهديد أجناب العدو، لأن الخيل لا تعمل لها مع الرجالة، ومن أعمالها أيضًا محاولة القيام بحركة التفاف حول العدو أو إحباط تلك الحركة من فرسانه إذا حاول القيام بها، ومن مهامها أيضًا تتبع الفارين والتقاطهم ثم تكلف في نهاية المعركة بمطاردة العدو وتتبع المهزومين من الرجالة[1].

عمل المشاة:

والمتتبع لكتائب المشاة في المعركة يجدها بين كر وفر، يتقدم الراجل منهم في ثبات يتقلد سيفه في يمينه ودرقته في شماله، وقد كشر عن أنيابه، وعض على نواجذه، وقطب على جبينه، ونظر شذرًا ببعض عينه، وأخفى صوته إلا همهمة في صدره، أو تلمظًا بالشفاه، أو تهامسًا بالحديث، لأن كثرة الضجة من أسباب الفشل، ولأن الصمت يساعد على الضبط ودقة التنفيذ، فإذا أجبرت القوات على الرجوع أو أمرها قائدها، رجعت بانتظام بحيث يكون صدور الجند إلى العدو منحرفين بأجسامهم مختلسين النظر إلى الخلف حتى يعودوا إلى مواقعهم[2].

---

(1) جرجي زيدان- تاريخ التمدن الإسلامي، ص (١٨٧)، وحلية الفرسان وشعار الشجعان، ص (١٧٣).
(2) الفن الحربي في صدر الإسلام - عبد الرؤوف عون، ص (٢٤٧)، مقدمة ابن خلدون، ص (٢٣٠).

ولا ترتفع أصوات الجند بالتكبير إلا عند حدوث حدث حسن كهجمة عنيفة أو قتل قائد الأعداء أو فرارهم نهائيًا أو فتح حصن لهم، حيث يكون للتكبير أثره في خلع القلوب وإثارة الرعب.

وقد جاء في رسالة تميم ما يدل على ثبات جنده أمام هجمات العدو وصمودهم في وجهه، «إذ وصلوا إلى مقدمة جيشه وكان هناك القائد أبو عبد الله محمد بن أبي زنقي مع جماعة فصدمهم العدو بصدور غرة وقلوب أشرة فأنحوا ككلكل ورموا بجندل، وشدوا فما ردوا، وصدروا فما صدوا، وتنهنهر القائد أبو عبد الله غير مول، وتراجع غير مخل، إلى أن اشتد من بطود ورحم من جيشنا بعود، فتراءى الجمعان وتدانى العسكران، وأمسكنا ولا حين، ووقفنا ولا أناة بنا، فعند ذلك صار النصر فمد يمناه، وأناط الصبر فأشرق محياه، ونزلت السكينة وانخلعت القلوب المستكينة، واهتزت العوالي مائحة، وهدرت الشقاشق هائجة، وجحظت العيون غضبًا، وطنت الأوتار سببًا، وأذن الحديد بالجلاد، ونزت السيوف من الأغماد، وتصاهلت الخيول، وتصاولت القيول، فعند ذلك توقف القوم كوقفة العير بين الورد والصدر»[1].

ثم تقدم لنا الرسالة وصفًا للملحمة التي اشتد وطيسها والتي استعر فيها القتل «فعند ذلك اختلطت الخيل بل سال السيل، وأظلم الليل واعتنقت الفرسان واندقت الخرصان، ودجى الليل لقتام، وضاق مجال الجيش للهام، واختلط الحسام بالأجسام، والأرماح بالأشباح، ودارت رحى الحرب تفر بنكالها وثارت ثائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها، فلتغر الصدور ابتراد وجزم القلوب انتهاد»[2].

نهاية المعركة:

وعندما تدنو المعركة من نهايتها يتطلب من المسلمين مزيد من الصبر والثبات، وقد تسفر المعركة عن حالتين:

أ- عند انهزام العدو أمام المسلمين، صدر الأمر «الفرقة المجردة»[3] بتعقب الفارين بالرماح والسيوف وقد تخففت من الدروع وكل ما يثقلها، أما باقي الجيش

(١) رسالة تميم السابقة، ص (٥٣٧)

(٢) نفس المصدر ونفس الصفحة

(٣) ابن هذيل الأندلسي - حلية الفرسان، ص (١٧٣)- المجردة: هي فرقة تجرد لأعمال كثيرة منها تعقب الفرس

بأخذ في جمع الغنائم والسبايا ثم تسليمها إلى صاحب الأقباض، وأحيانًا يقوم بهذا العمل ساقة الجيش.

وإذا فر الأعداء إلى قلاعهم أو حصونهم فلا يشغلون أنفسهم بحصار هذه القلاع إلا بعد التقاط الخارجين عنها حتى لا يتجمعوا ويرتدوا عليهم ويحدث انحسار جيش المسلمين.

ب- والحالة الأخرى وهى عندما تسفر المعركة عن هزيمة المسلمين من انسحاب منظم، ولتغطية هذا الانسحاب كان يختار كتيبة من الفدائيين الاستشهاديين فيعقرون دوابهم، ويحرقون آلات حصارهم ويترجلون ويكسرون أغماد سيوفهم حتى لا تحدثهم أنفسهم بالعودة، ثم يجثون على ركبهم، وقد شرعوا الأسنة فى نحور أعدائهم ليغطوا انسحاب إخوانهم كما حدث فى موقعتى «شنترين» و«العقاب» الموحديتين، وكان يقوم بهذا العمل الجرئ غالبًا فرق الحرس الخاص، فمثلا فى معركة «العقاب» استطاع النصارى أن يخترقوا قلب الجيش الموحدى إلى نقطة الحرس الأسود فردتهم السلاسل الحديدية ورماح العبيد المشهورة، ولكن النصارى ردوا أكفال الخيل المدرعة إلى رماح العبيد فاخترقوا الدائرة المدرعة ودخلها النصارى وفرق جيش الموحدين فى كل ناحية، ولبث الخليفة الناصر حتى آخر لحظة فى مكانه وهو يحاول أن يحث جنده على الصمود حتى تم انسحاب جيشه ولولا ثبات الناصر لاستؤصلت جموع الجيش الموحدى، وقد قتل حوله من العبيد المدافعين عنه ما يناهز عشرة آلاف عبد، ثم اضطر الناصر أن يمتطى صهوة فرسه ويفر هاربًا ويترك ميدان المعركة[1].

وبعد انتهاء المعركة وانسحاب كل من الجيشين ينصرف كل منهما بقدر استطاعته إلى نقل الجرحى ودفن الموتى وإحصاء المفقودين.

٦- مناداة الجند فى المعركة:

لقد كانت لكل من المرابطين والموحدين شعاراتهم التى يتميزون بها ويتعارفون من خلالها، سواء أكانت هذه الشعارات قولية يتصارخون بها عند القتال أو

---

(١) روض القرطاس، ص (١٥٩)، المراكشى- المعجب، ص (١٨٣).

شعارات للأفراد والجماعات تميزهم عن غيرهم كاتخاذ لون بعينه أو تعليق علامات معينة.

والشعار القولي هو عبارة عن ألفاظ خاصة سرية كان يتفق عليها سرًا بين القائد وجنوده وهي تشبه ما تسمى في الحروب الحديثة «بكلمة السر» التي بها يتعارف الجند ويحذرون مفاجأة عدوهم.

ولدينا نص يشير إلى أن المسلمين كانوا يتخذون مثل هذه الألفاظ التي تسمى بكلمة السر. فيصف لنا ابن صاحب الصلاة مغامرات «جراندة الجليقي» قاطع الطريق التي قام بها ضد بعض القواعد الإسلامية بتحريض من ألفونسو هنريكيز فقال: «فكان يتسلل في الليالي الممطرة الحالكة المظلمة الشديدة الريح والثلج إلى البلاد، وقد أعد آلات من السلالم من أطول العيدان، بعلو سور المدينة التي يريد اعتلاءها، فإذا نام السامر المسلم في برج المدينة، ألقى تلك السلالم إلى جانب البرج، ورقى عليها بنفسه أولاً إلى البرج، ويقبض على السامر، ويقول له: تكلم على ما كانت عليه عادتك لئلا يشعر الناس بنا، فإذا استوفى طلوع حملته صاحوا بلغاتهم صيحة عظيمة منكرة، ودخلوا المدينة، وقتلوا من وجدوه واستلبوه وأخذوا كل من فيها سبيًا وفنيًا»[1].

ومن الثابت أنه لكل من المرابطين والموحدين شعار عام وهو التكبير الذي كان شعار كل مسلم، يجهرون به عند فتح الحصون أو ظهور بارقة النصر.

وكانت لهم صيحات تقال عند الهجوم العام، فقد كانت صيحة المرابطين «ياخيل الله اركبي»، وكانت صيحة الموحدين «أصبح والحمد لله»[2]. أما عن شارات الجيوش المرابطية والموحدية فقد كان شعار المرابطين العام السواد في ملابسهم وراياتهم اقتداء بزي بني العباس، بينما كان شعار الموحدين اللون الأخضر كي يظهروا ميلهم للدولة العلوية. وكان لكل من الجيشين لواء هو الرمز العام للجيش يشير إلى مركز القيادة أما فرق الجيش الأخرى وقد كانت ترفع رايات ذات ألوان مختلفة تدل عليها كما سبق أن تحدثنا عنه[3].

---

(١) نقلا عن عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج(٢) ص (٢٧)، وأيضًا البيان المغرب، القسم الثالث، ص (٧٨)

(٢) ابن القطان- نظم الجمان- تحقيق مكي، ص (١٢٧)

(٣) انظر اللواء والراية وشارات السلطان.

وقد تعارف القواد المسلمون الأوائل مع جنودهم على بعض المصطلحات العسكرية ينادون بها جنودهم للعمل بها في ميدان المعركة، فكانت علاماتهم المحصورة هي «النفير النفير»، وعند الرجعة قالوا: «الرجعة الرجعة»، وعندما يريدون ركوب الفرسان للحرب نادوا «الخيل الخيل» وعند الترجل يقولون «الأرض الأرض».

ولما تمدن المسلمون وتعدد أصناف جنودهم وتنوعت حركاتهم، جعلوا لكل حركة اسمًا خاصًا يدل لفظه على المراد به وهذه أسماؤها: الميل، الانقلاب، الانفتال، استدارة صغرى، استدارة كبرى، تقاطر، اقتران، رجوع إلى الاستقبال، استدارة مطلقة، أضعاف، اتباع الميمنة، اتباع الميسرة، جيش منحرف، جيش مستقيم، جيش مورب، رض، تقدم، حشو، رادفة[1].

وكان إذا أراد القائد أن يميل جنده إلى جهة أو يتخذ شكلاً خاصًا من هذه الأشكال أو حركة من هذه الحركات، ينادى بكلمة من هذه الكلمات، وهم قد تدربوا على المراد من كل منها فيميلون كما يشاء على مثال الحركات العسكرية فى جنود هذه الأيام، ثم استعانوا على إتمام المراد بالإشارات الميدانية، ولذلك كان على الجند أن يراعوا القائد بأعينهم حتى إذا مال مالوا معه، كما عرفنا من نص البكرى فى بلاد المغرب.

٧- بعض المناورات والحيل الحربية:

من تمام البحث فى موضوع «التكتيك» أى فن القتال، أن نتحدث عن بعض الحيل والخدع العسكرية لجيوش المرابطين والموحدين وهى تظهر مهارة القائد الحربية إذا حلت صفوفه، وقد يلجأ إليها إذا أراد أن يستعجل النصر، أو ليرفع بها روح جنده المعنوية، أو يحطم بها معنويات عدوه.

ويبدو أن هذا النوع من التكتيك- الخدع الحربية- كان منتشرًا فى القرن العاشر، فقد كانت الحروب تدور وتستند على أساس من هذه الخدع متمثلة فى الكمائن والتقهقر الظاهرى[2]، وقد أشار ابن خلدون[3] إلى عدة أنواع من هذه الخدع

---

(١) جرجى زيدان- التمدن الإسلامى، ج(١) ص (٢١٠).

(٢) محمود شيت خطاب، فردريك باليت- أصول المعرفة العسكرية - ترجمة الجمل، ص (٥٩).

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص (٣٠٩).

الحربية فقال فيها الكمائن والاستطراد، وإرهاب العدو وتضليله، وسوف نتحدث عن هذه الحيل من خلال حروب المرابطين والموحدين.

الكمائن:

يجب أن يكون الكمين في منخفض من الأرض منيع ويجب أن تكون دالة المختفي الكامن سليمة من العلل التي تنبه الأعداء إلى مكان الكمين[1]، وعادة يكون على جانبي الطريق أو خلف جبل، وكان من الوصايا الحربية التي أوصى بها بعض كتاب "تاشفين بن علي" يحذره من خدع العدو وينبهه إلى أحكامها[2]

والبس لبوسًا لايكون مشهرًا — فيكون نحوك للعدو تطلع

واحذر توقع في مضايقها الوغى — خدعًا ترويها وأنت موسع

وتحذر كمين الروم عند لقائها — واخفض كمينك خلفها إذ تدفع

ومن هذه الخدع عند المرابطين، أنه عندما حاول "سير بن أبي بكر" الاستيلاء على ملك أمراء الطوائف في الأندلس، قصد إلى ملك بني هود، وكانوا "بروطه" وهي قلعة منيعة وماؤها ينبع من أعلاها وفيها من الأقوات والذخائر ما تكفيهم أعوامًا فحاصرها وطال الحصار مدة طويلة، ففكر في خدعة يتمكن بها من فتح تلك القلعة، فرحل عنها وجند أجناده على هيئة الإفرنج في زيهم، وأمرهم أن يقصدهم ويغيروا عليهم وكمن هو وأصحابه بالقرب منه وراء هضبة مرتفعة، فلما رآهم أهل القلعة استصغروهم فنزلوا إليهم ومعهم صاحب القلعة، فخرج إليهم سير بجنوده وقطعوا طريقهم إلى القلعة، وأعملوا فيهم سيوفهم، وقبض على صاحب القلعة باليد وتسلم الحصن[3].

وكان المرابطون غالبًا ما يلجأون إلى هذه الخدع من الكمائن عندما يتعذر عليهم اقتحام الحصون والقلاع لمناعتها، فبعدما عاد الأمير "تميم" من معركة "أقليش" ترك قوات مرسية وبلنسية تحت إمرة قائديهما لحصار قلعة أقليش فلبثا على حصارها

---

(١) مخطوط الهرثمي ورقة (٣٥).

(٢) الحلل الموشية، ص (٩٤)

(٣) المقري- نفح الطيب، ج(٢) ص (٥٣٢)

فتوهما بأن مناعة هذه القلعة وأن حصارها سيطول تظاهرا بالانسحاب وارتدا فى قواتهما قليلا ثم رتبا الكمائن، فظن النصارى أن المرابطين قد رحلوا بجيوشهم فخرجوا من قلعتهم ، فانقض عليهم المسلمون، وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً واحتلوا القصبة، وترتب على احتلال هذه القصبة أو القلعة أن سقطت فى أيديهم عدة من القلاع والحصون المجاورة لها[1].

وقد عرف عبد المؤمن بن على بقدرته الفائقة فى رسم الكمائن والتمويه على الأعداء فكان فى أغلب معاركه يتم له النصر بكمين أو أكثر يرسمه للعدو.

ففى حربه مع المرابطين فى منطقة بنى ممول دوخ أهل هذه البلاد واستولى على معظم أسلابهم من الحلى والثياب والأقوات، فتبعه تاشفين بن على ونشبت بينهم معركة عنيفة هزم فيها المرابطون واستولى عبد المؤمن على أسلابهم، فخرجت قوات جزولة من مراكش إلى مكان الموقعة لنجدة المرابطين، وطمعت فى أن تنتزع الغنائم من الموحدين، فرتب لها عبد المؤمن الكمائن فى مضايق الجبل وقدم الغنائم بين يديه استدراجاً لهم، وخرجت جزولة وهاجمت ساقة الغنيمة وقتلت بعض حراسها، فخرجت إليها الكمائن الموحدية وأمعنت فيهم حتى أفنتهم واستولت على سائر أسلحتها ودوابها، ثم ارتد عبد المؤمن صوب بلاد جنفيسة ظافراً[2].

الاستطراد:

هو أن يظهر القائد الهزيمة أمام عدوه ليتبعه، فيبعده عن حصونه وتطول المسافة بينه وبينها ثم يكر عليه مرة واحدة، ويصدمه بكل قوته فيهزمه، وقد كانت هذه الحيلة معروفة لدى المسلمين الأوائل، فيقول الهرثمى: «إنه يجب على المسلمين ألا ينخدعوا إذا استطردهم العدو فلا يحملوا عليه، بل ينتظرون حتى يسكن الوهج ويثبت لهم»[3].

وفى سنة ٥٤١هـ توجه عبد المؤمن إلى حاضرة الدولة المرابطية «مراكش» وهو يعرف مدى حصانتها ومناعتها، فنزل بجبل يقع غربها ثم بنى عليه مدينة استند بها ثم زحفت جموعه على تلك المدينة فامتنعت عليهم لحصانتها، عندئذ لجأ عبد

---

(1) ابن أبى زرع: روض القرطاس، ص (١٠٣، ١٠٤)، نظم الجمان ص (١٨، ١٩)
(2) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج(١) ص (٢٣٠)
(3) مختصر فى سياسة الحروب ورقة (٣٠)

المؤمن إلى حيلة عسكرية، وهى رسم للكمائن لكثيرة لهم، وأمر فرقة من الموحدين أن تناوشهم وتظهر لهم الهزيمة والفرار ليطمعوهم فيهم، ويخرجوهم من حصونهم، فانهزم لهم الموحدون بحروبهم إلى الكمائن، وحينما وصلوا إلى مقربة من المدينة التى بناها عبد المؤمن بالجبل، وابتعدوا عن حصنهم، أمر جنده بالثبات، وأن يلزموا الأرض ويستتروا من الرمى بالتروس، ثم أمرهم بالهجوم العام، وضرب الطبول فخرجت الكمائن وانقضت على الفرسان المرابطين ومات فى ذلك اليوم من أهل مراكش مالا يحصى[1].

إرهاب العدو وتضليله:

وهى من الحيل التى يرمى القواد من ورائها لتقوية الروح المعنوية لجنودهم وإثارة الرعب فى قلوب الأعداء وهو أمر تتبعه الجيوش الحديثة، ويكون ذلك بإيهام العدو بقدوم الإمداد أو إظهار عددهم وقوتهم أمامه ليزيده خوفًا وارتباكًا، وكان غالبًا ما يفعل الموحدون ذلك مع أعدائهم من المرابطين، فقد عسكر تاشفين بن على فى حصن على البحر شمال شرقى وهران فلجأ الموحدون إلى إرعابهم وبث الذعر فى قلوبهم إذ أخذوا يطلقون أصواتًا عالية ودفعة واحدة سمعها المرابطون وأهل وهران جميعًا، ثم قادوا جميع دوابهم وسقوها دفعة واحدة من عين وهران التى يستقى منها سكان الميناء، كل هذا والمرابطون يرصدون تحركاتهم فى توجس وخوف[2].

وفى سنة ٥٢٩هـ خرج عبد المؤمن لغزو بنى يغمر، وهى قبيلة ذات بأس وشجاعة أرسل إليها المهدى ابن تومرت أحد أصحابه ليبشر بمهدويته، فأنكرت عليه المهدوية وقتلته ولم يستطع المهدى إخضاعها، فأراد عبد المؤمن أن يغزو هذه القبيلة ليستفيد بشجاعتها فى صراعه ضد المرابطين، ولكنها امتنعت عليه كما امتنعت على المهدى إذ وضع أبناؤها الحطب على ظهور الجمال، وأضرموا فيها النيران، ودفعوها مذعورة فى صفوف الموحدين، فرعزعت صفوفهم وملأتهم رعبًا

---

(١) الحلل الموشية، ص (١٠٣)

(٢) نظم الجمان - ص(١٢٧)- ت. محمود مكى

وزحف رجال بنى يبغو فى أثر الجمال بسيوفهم وهكذا انتهت المعركة بهزيمة الموحدين[1].

وبعد استيلاء الموحدين على مدينة تلمسان هرع المرابطون بقيادة «يحيى بن أبى بكر بن يوسف» المعروف بالصحراوى إلى مدينة فاس ليتحصنوا بها وينظموا خطط المقاومة والدفاع عن المدينة، فعبر الموحدون نهر سبو وصعدوا جبل «زالاغ» المشرف على فاس من الشمال وأوقدوا النيران فوق الجبل ليرهبوا بها المرابطين الذين تملكهم الاضطراب والفزع فدخلوا مدينة فاس وتحصنوا بها، وضرب عليهم عبد المؤمن حصارًا قويًا ثم افتتح المدينة بعد ذلك[2].

وكان بعض القواد أحيانًا تجمع قوات كثيفة فى جهة ما ليخدع بها عدوه فيظن أن الهجوم سيبدأ منها فيحشدوا قوات كبيرة تقابلها ويهمل نوعًا ما مواقعه الأخرى، فيسرع هذا القائد بالهجوم على تلك النقطة الضعيفة فى سرعة خاطفة، ليتم له النصر فى غفلة من عدوه، ومن أمثلة تضليل العدو ما فعله الخليفة المنصور فى موقعة الأرك حيث رفع الأعلام الخليفية على قلب الجيش ليوهم العدو بأنه الجناح الذى يقوده الخليفة ثم سرعان ما غير موضعه إلى المؤخرة مع جند الموحدين، وقد تركز هجوم القشتاليين على القلب ظانين أنه جناح الخليفة بينما ذهب المنصور وجند الموحدين وجند الأندلس وأحدثوا تطويقًا والتفافًا على الجيش القشتالى المهاجم حتى بددوا شمله وأحرزوا نصرًا مؤزرًا فى موقعة الأرك.

---

(١) عصر المرابطين والموحدين، ج(١) ص (٢٢٩) نقلاً عن ابن القطان.

(٢) ابن الأبار، الحلة السيراء، ص (٣١٥).

الفصل الثالث

مرحلة ما بعد المعركة

فى أعقاب كل معركة كانت تثور بعض المشكلات التى ترتبط بالحروب، وتعد نتيجة مقررة لها، وكان لابد من إيجاد حل لهذه المشكلات، ورسم السياسة العامة التى يلتزم بها المسلمون من المرابطين والموحدين إزاء مشكلات تلك المرحلة.

ومما لاشك فيه أن الرسول الكريم ﷺ قد تعرض لهذه المشكلات فوضع لها الحلول ورسم الخطوط الرئيسية العريضة لمعالجتها، وقد التزم المسلمون من المرابطين والموحدين بسياسة الرسول ﷺ فى كل ما تعرضوا له من مشكلات الحرب والتى أفاض فيها الفقه المالكى بدلوه فى هذا المضمار، وسوف نتناول هذه المشكلات بالتفصيل:

أولاً: مشكلة الأسرى ومعاملتهم

كان من النظام المتبع فى الحروب الإسلامية، أن يؤخذ الأسير بعد هزيمة قومه فيشد وثاقه بربط يديه خلف عنقه، ثم يوضع مقيداً فى محبسه، حتى يفصل القائد فى أمره. وقد طبق قواد المرابطين والموحدين تعاليم مذهب مالك فى نظام الأسر ومعاملة الأسرى، فقد ذهب مالك وجمهور أهل العلم إلى أن الإمام مخير فى الأسير بين خمسة أشياء: إما أن يقتل، وإما أن يأسر ويستعبد، وإما أن يمن فيعتق، وإما أن يأخذ فيه الفداء، وإما أن يعقد عليه الذمة ويضرب عليه الجزية[1].

والتخيير فى الأسرى ليس الحكم فيه بالهوى، وإنما هو على وجه الاجتهاد فى النظر لمصلحة المسلمين، كالتخيير فى قتل الأسير، «فإن كان الأسير من أهل النجدة والفروسية والنكاية فى المسلمين قتله الإمام، فإن لم يكن على هذه الصفة وأمنت غائلته وله قيمة استرقه قائد المسلمين وقبل فيه الفداء إن بذل فيه أكثر من قيمته، وإن لم تبذل فيه قيمة ولا فيه محمل لأداء الجزية أعتقه كالضعفاء والزمنى الذين لا قتال عندهم ولا رأى لهم ولا تدبير، وإن لم تكن له قيمة وفيه محمل لأداء الجزية عقد له الذمة وضربت عليه الجزية»[2].

(١) مقدمات ابن رشد، ص (٢٧٧)

(٢) المصدر السابق، ص (٢٧٧، ٢٧٨)

وقد يرى الإمام باجتهاده خلاف ما ذكرنا طالما في مصلحة المسلمين هذا الاجتهاد، كأن يعفو عن هذا الأسير المعروف بالنجدة والفروسية وبذل الأموال الكثيرة ليستميله إلى جانب المسلمين حيث يرى الإمام أخذه أولى من قتله[1].

ويكره أغلب أصحاب مالك فداء الأسرى بالمال، ويقولون إنما كان ذلك ببدر لأن النبي ﷺ علم أنه سيظهر عليهم ولكنهم يتفقون على جواز فداء أسرى الأعداء بأسرى المسلمين[2].

وسوف نعرض بعض الأمثلة لمعاملة الأسرى بين المرابطين والموحدين كما نص عليه الفقه المالكي، والذي أباح للقائد العام الاجتهاد في معاملتهم حسبما يتفق مع مصلحة المسلمين، والنفع العام لجيوشهم.

ففي سنة ٥٣٢هـ خرج عبد المؤمن بن علي الموحدي بقواته قاصداً الاستيلاء على حصن «تسينلين» الذي دافع عنه حاكمه المرابطي «يوجين بن ويدون» ببسالة حتى أدركه «الإربرتير» فهرب الموحدون نحو الجنوب واستولى على «انيرمند ميمون» و«تاسلوات» ودخلوا تارودنت قاعدة السوس الأدنى، ثم «ايتمونوين» ثم «يحلى». ويقول البيذق: «وقد أسرنا كثيراً من نساء المرابطين، كما أسر المرابطون منا كثيراً من النساء ومن بينهن زوجة القائد الموحدي «يعزى بن مخلوف» وحملن إلى مراكش، ثم رجع عبد المؤمن إلى تينملل ومعه سبايا المرابطين ومن بينهن السيدة «تاموجونت» ابنة الوزير المرابطي «ينتان بن عمر» الذي شفع في المهدي ابن تومرت عند السلطان «علي بن يوسف» وخلصه من القتل الذي كان قد دبره له فقهاء المرابطين برئاسة «مالك بن وهيب»، وظل المهدي يذكر له هذا الجميل طول حياته، فلما استقر عبد المؤمن «بتينملل» وقفت السيدة «تاموجونت» وقدمت نفسها لعبد المؤمن وذكرته بصنيع والدها في المهدي: يا أمير المؤمنين شفع والدي «ينتان بن عمر» في المهدي. قال لها: صدقت، أنت طليقة. قالت: وهل يصح أن أطلق وحدي من أربعمائة؟ فقال لها: صدقت، وأمر بإطلاق جميع النساء في كرامة حتى وصلن مراكش[3]. ويذكر «البيذق» أن «علي بن يوسف» قابل الجميل

(١) مقدمات ابن رشد، ص (٢٧٨).

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة.

(٣) أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر ليفي بروفنسال ١٩٥٨، ص (٨٨).

بتنه فأمر بإطلاق زوجة «يعزى بن مخلوف» ومن معها من النساء وبعثهن إلى تيمل فى أمن ودعة وكرامة، فقال عبد المؤمن: «إنما أعمالنا ردت إلينا ونحن قوم لا نعمل على هتك العروض»[1].

وكان عبد المؤمن أحياناً يطلق الأسرى بدون فداء وذلك إذا رجا بإطلاقهم صلاحهم ونفعاً يعود عليه وعلى دعوته، وفى نفس السنة اتجه عبد المؤمن بجيوشه لمحاربة المرابطين جنوب تدلى ووقعت المعركة بين الفريقين وانتهت بهزيمة المرابطين، ولما وصل الموحدون إلى «داى» فر حاكمها المرابطى «على بن ساقطرا» واستولى عليها الموحدون دون مقاومة، وأعلن من كان بها من صنهاجة بيعتهم للموحدين وطالبوا عبد المؤمن بالإفراج عمن كانوا معهم من أسرى صنهاجة فأجاب مطلبهم[2].

وفى بعض الأحيان كان «عبد المؤمن بن على» يلجأ إلى قتل الأسرى اتقاء شرهم، ففى سنة ٥٢٦هـ خرج عبد المؤمن فى جيش ضخم من الموحدين قوامه ثلاثون ألف مقاتل وسار إلى قلعة «تازاجورت» وكانت تدافع عنها حامية مرابطية بقيادة «بدر بن ولجوط» فاقتحمها واستولى عليها وسبى أهلها[3]، وفى رواية أخرى أن قائد «تازاجورت» كان يدعى «يحيى بن مريم» وأن عبد المؤمن «قتله وقتل معه نحو عشرين ألفاً من المجسمين وأسر زوجته ميمونة بنت ينتان بن عمر وصحبها معه إلى الجبل حتى افتديت فيما بعد بمن كان من أسرى الموحدين فى تلمسان»[4].

وفى بعض الأحيان كان يسترق الأسير إذا لم يجد فداء، أو كان غير أهل للمن عليه فيقوم بخدمة سيده ورعى مواشيه وله حق بيعه إذا اقتضت الحال، وكان يقام سوق عقب المعركة لبيع السبايا على عادة أسواق الرقيق، فقد جاء فى رسالة ابن عدون فى فتح قلعة شنترين: «وأمرنا بإقامة سوق سبيهم وأموالهم على مرأى ومسمع من نسائهم ورجالهم فازدادت ريحهم بذلك ركوداً ونارهم خموداً»[5].

(١) أخبار المهدى ابن تومرت.. ص(٨٨).

(٢) عنان- عصر المرابطين والموحدين، ج(١) ص(٢٣٤)

(٣) أخبار المهدى ابن تومرت، ص (٨٥)

(٤) هذه رواية ابن القطان فى نظم الجمان نقلاً عن عنان، ج(١) ص (٢٢٥)

(٥) المراكشى- المعجب، ص (٢٢٦)

وقد ازداد عدد النصارى المأسورين في عهد الموحدين فقد كانت أساطيلهم تغير على سواحل النصارى فيأسر رجاله أعداداً غفيرة من أهلها ذكوراً وإناثاً ويأتون بهم إلى بلاد الأندلس ويحملونهم إلى غرناطة ويقدمونهم إلى السلطان فيأخذ منهم ما يشاء ويهدي ويبيع[1]، وكان «ابن ميمون» قائد أسطول المرابطين ثم الموحدين فيما بعد يقوم بهذا الدور فيبعث بالأسرى والغنائم إلى سلطان المرابطين، ثم بعد ذلك إلى «أبي يعقوب» الموحدي[2] بعد أن دخل ذلك القائد في طاعة الموحدين.

وكان نظام المفاداة من النظم الشائعة بين المسلمين في المغرب والأندلس وبين النصارى لأنهم كانوا في حروب دائمة، وكانت هذه الحروب تنتهي عادة بأخذ أسرى من الجانبين، وكان أحياناً يتفق الطرفان على أن يفتدى أسير من المسلمين بأسير من النصارى وكان عادة يحدد لهما لتبادل زمان ومكان يتم فيه.

فتروي المراجع أنه عند غزو البرتغاليين لمدينة «باجة» واحتلالهم لها أخذوا من أهلها أعداداً كثيرة أسرى بعد أن أحرقوها وهدموا أسوارها، وقد أنقذ الموحدون معظم هؤلاء الأسرى بالفداء[3].

وفي سنة ٥٧٥هـ كثر عدد الأسرى بين المسلمين والقشتاليين عن طريق حروبهم البحرية التي كانت لاتفتر أن تندلع بينهم، فعندما اشتد عدوان البرتغاليين في البر والبحر قرر الخليفة «أبو يعقوب الموحدي» أن يقوم بمجهود لرد هذا العدوان فبعث أسطوله المرابط «بسبتة» تحت إمرة «غانم بن مردنيش» لغزو شواطئ البرتغال، فاتجه صوب «أشبونة» وهاجم ثغرها واستولى على سفينتين من سفن البرتغال برجالها وعاد بأسطوله إلى سبتة، وعندئذ سارت حملة بحرية برتغالية إلى الجنوب، وهاجمت شواطئ ولاية المغرب الجنوبية واستولت على جزيرة «شلطيش» وأسرت كثيراً من سكانها المسلمين وبقوا في الأسر حتى افتداهم الخليفة أبو يعقوب الموحدي[4].

---

(١) القلقشندي- صبح الأعشى، ج(٥) ص (٢٧٢).
(٢) ابن خلدون، ج(٦) ص(٢٤٢).
(٣) البيان المغرب- القسم الثالث، ص (١٠٠-١٠٣).
(٤) المرجع السابق نفسه، ص(١١٣)

ثم أمر الخليفة أبو يعقوب أن يقوم أسطوله بغزو البرتغال مرة أخرى، فخرج "غانم بن مردنيش" وأخوه "أبو العلاء" فى حملة بحرية نحو مياه البرتغال الشمالية، وتعمق المسلمون فى داخل مياههم، ولكن البرتغاليين دبروا لهم كمينًا وانقضوا عليهم وفرقت صفوفهم وأسر غانم وأخوه أبو العلاء وجملة من أكابر الموحدين، واحتوى البرتغاليون على أسلابهم ومتاعهم وبعض من سفن الموحدين وأسروا من كان بهذه السفن وذلك عام ٥٧٦هـ. وقد كتب غانم من موضع اعتقاله إلى الخليفة الموحدى يلتمس الغوث. فعهد ذلك الخليفة إلى "هلال بن مردنيش" لنظر فى فداء أخيه، فجمع المال اللازم لذلك وبعث به إلى إشبيلية وحمل إلى النصارى، وتم الإفراج عن غانم وأخيه وبقية أصحابه[1].

وفى سنة ٥٧٧ هـ حدثت موقعة بحرية أخرى بين الأسطول الموحدى بقيادة "عبد الله بن جامع" قائد أسطول سبتة ومعه "أبو العباس الصقلى" قائد أسطول إشبيلية ضد الأسطول البرتغالى جنوبى "أشبونة"، وقد هزم فيها البرتغاليون وقتل قائد أسطولهم، واستولى المسلمون على عشرين سفينة من سفنهم وأسروا نحو ألف وثمانمائة أسير وغنموا غنائم وفيرة من العتاد والسلاح. وبادر القائدان المنتصران "ابن جامع والصقلى" فى السير إلى الحضرة الخليفية وفى صحبتهما الأسرى والغنائم، وقد قدموا هذا كله إلى الخليفة فأمر بتخصيص بعض الأسرى لافتداء غانم بن مردنيش وأمر بإعدام الباقين[2].

من هذا يتضح أن نظام فداء الأسرى كان معمولاً به بين الجيوش المرابطية والموحدية والنصارى، وكان المسلمون يتبعون فى ذلك ما نصت عليه الشريعة الإسلامية فى أغلب الأحيان. هذا وإن كانت المراجع لم تمدنا بوصف تفصيلى يبين كيفية تبادل الأسرى إلا أنه على ما يبدو كان نظامًا متبعًا بين جيوش دول العالم قبل المرابطين والموحدين وإبان حكمهم أيضًا.

---

(١) البيان المغرب - القسم الثالث، ص (١١٦)

(٢) المصدر السابق، ص (١١٧، ١١٨) ونلاحظ تعارض رواية ابن عذارى فى افتداء غانم بن مردنيش، وانظر ابن خلدون، ج(٦) ص(٢٤١)

وقد قدم لنا الأستاذ «الخضري» وصف الفداء تم سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٦م بين المسلمين والروم، ويرى كل هذا النظام متبعًا بين دولتي المرابطين والموحدين «وقد تقابل الفريقان في يوم عاشوراء، على نهر «اللامس» وكان عدد من فودى به من المسلمين ٤٦٠٠ أسير، فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيرًا أو كبيرًا، وقد عقد المسلمون جسرًا على النهر، وعقد الروم جسرًا فكان المسلمون يرسلون الأسير الرومى على جسرهم ويرسل الروم الأسير المسلم على جسرهم، وقد ذكر الخضرى من دلائل التسامح الإسلامى أنه بقى مع المسلمين بعد انتهاء التبادل ١٠٠ أسير رومى فتفضلوا على الروم بإطلاقهم بلا مقابل»[1].

معاملة الأسرى:

كيف كان يعامل المسلمون أسراهم؟ قبل أن نجيب عن هذا التساؤل يجدر بنا أن نتحدث أولا عن معاملة النصارى لأسرى المسلمين حتى يتضح الفرق بين المسلكين.

وسوف نقف أمام نص نستشف من خلاله غلظة النصارى وقسوتهم فى معاملة أسرى المسلمين، يقول أشباخ: «ولابد أن عدد الأرقاء في إسبانيا النصرانية كان عظيمًا جدًا، وذلك أن جميع الأسرى فى المعارك المستمرة التى كانت تنشب ضد المسلمين كان يقضى عليهم فيها بالرق وكانوا يكلفون بأشق الأعمال، وكانوا يمنحون الحرية أحيانًا بشرط اعتناقهم النصرانية، إذ كان يسوغ للنصارى فقط أن يكونوا أحرارًا [2] فى ممالكهم النصرانية الإسبانية».

وقد كانت الدولة البيزنطية تعطى السيد حق التصرف المطلق فى عبده فيميته أو يبيعه كما يشاء[3]، وقد زاد عدد الرقيق فى هذه البلاد زيادة هائلة لعدم الرغبة فى عتقهم حتى بلغ عددهم فى بعض الأنحاء ثلاثة أرباع الأحرار من أبنائها يلاقون شر المعاملات بل إن بعض تلك الدول كانت تعد تجارة الرقيق من أهم مواردها وكانت تحصل مكوسًا على العبيد والغلمان والخصيان[4].

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية- الدولة العباسة، ص (٣٤)

(٢) تاريخ الأندلس فى عصرى المرابطين والموحدين، ج(١) ص (١٣٥)

(٣) محمد كرد على- الإسلام والحضارة العربية، ج(١) ص (٩٤)

(٤) نورمان بينز- الإمبراطورية البيزنطية- تعريب مؤنس وزايد، ج(١)، ١٩٥٠م ص(١٦٣)

أما الإسلام فقد أحسن المعاملة لهؤلاء الأسرى، وكثيراً ما كان الرسول ﷺ يعمل على رعايتهم واحترام إنسانيتهم، فكان يعفو عن الأسرى ويقبل فيهم الفداء، ويوصى أصحابه بألا يكلفوا عبيدهم فوق طاقتهم من الأعمال، وأن يرحموهم إذا كلفوهم بها كما أمرهم أن يطعموهم مما يطعمون ويكسوهم مما يلبسون[1].

ويكفينا فى هذا المقام ما حرص عليه الإسلام فى إكفال الحرية للعبيد والأرقاء فجعل عتق العبد أحد أبواب ثمانية من مصارف الزكاة، فالعبد يساعد من أموالها فى سداد أقساط ليكاتب سيده حتى يمنحه حريته، كما جعل الإسلام عتق الرقبة كفارة كثير من المخالفات الدينية التى يرتكبها المسلم ككفارة القتل واليمين والظهار... إلخ.

وقد كان المسلمون يقيمون للأسرى المعتقلات بعيدة عن المناطق السكنية بحيث تتوافر فيها شروط الإقامة عقب الحروب مباشرة وكانت هذه المعتقلات مسورة وتتوافر فيها كل مايجب أن يراعى فى أماكن إقامة جيوش الدولة الآسرة نفسها[2]، كما حرص المسلمون على أن يقدموا للأسرى الأكل والملبس المناسبين. وقد أوصى القرآن الكريم بذلك حيث يقول تعالى: ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** (٨) **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** ﴾ [الإنسان: ٨، ٩] وقد أوصى الرسول بإطعام وإكرام أسرى بدر، وقال «أبو يوسف»: والأسير من أسرى المشركين لابد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه[3]. وقد حدد الفقهاء واجبات المسلمين نحو أسرى الحرب فى سبعة أمور هى: معاملة الأسير، معتقلات أسرى الحرب، القيام بأود الأسرى وكسوتهم ومحاكمتهم وحمل الأسرى على الإدلاء بالأسرار العسكرية، وتقرير مصير الأسرى، وتقديم الجندى نفسه للأسر، وفك الأسرى، ومن أراد الاستزادة فى ذلك فليرجع إلى كتاب «آثار الحرب فى الفقه الإسلامى»[4].

---

(١) الخضرى- تاريخ الدولة العباسية، ص (٢١٢)

(٢) وهبة الزحيلى- آثار الحرب فى الفقه الإسلامى- دار الفكر ببيروت طبعة ثانية، ص (٤٠٥)

(٣) الخراج: ص(١٤٩)

(٤) الدكتور وهبة الزحيلى عن رسالة الدكتوراة من كلية الحقوق جامعة القاهرة

وخلاصة القول أن الإسلام كان يرعى حق الأسير ولايلقيه فى المعتقلات حتى يموت جوعًا وعريًا، ولا يكلفه من الأعمال ما يقصم ظهره أو تهدر آدميته كما رأينا فى أيامنا هذه من معاملة أمريكا لأسرى المسلمين فى قاعدة «جوانتانامو»، وكما تفعله أيضًا فى أسرى المسلمين فى العراق وما نشرته صحف العالم من صور تعذيب أسرى العراق على أيدى الجنود الأمريكان ومن وضعهم فى أوضاع تهدر آدميتهم، وإطفاء أعقاب السجائر فى أجسادهم وتنتهك أعراض نسائهم، كما اقشعرت أبداننا من صور المشانق التى أقاموها لإعدام رجال المقاومة المسلمين بالعراق. والإبادة الجماعية لأحياء بأكملها

ولايغيب عن بالنا ماتقوم به إسرائيل اليوم تجاه الأسرى الفلسطينيين وذلك بإجراء التجارب العلمية عليهم والتى لم يتأكدوا بعد من نتائجها، كما أنهم يشوهون هؤلاء الأسرى تشويهًا يمس عقولهم ونفسياتهم بالإضافة إلى أجسادهم، وذلك باستخدام أحدث الوسائل العلمية والتكنولوجيا بهدف القضاء على هذه الفئة وإفساد حياتها النفسية والتى أغلبها من الشباب فهو تخريب متعمد وقتل مدبر متخذين من قضية أسرى الحرب ستارًا لهم.

وقد عامل المرابطون والموحدون أسراهم معاملة طيبة وفق ما روته لنا المراجع، فتروى لنا المراجع أن «عبدالمؤمن بن على» الخليفة الموحدى قد جاءته نصارى المهدية الذين وقعوا فى الأسر ويئسوا من مقاومته وطلبوا منه الأمان لكى يسحبوا فأرسلوا عشرة فرسان ليفاوضوا الخليفة فى أن يؤمن النصارى على أرواحهم فقبل. ووصلت به سماحته أن أمر بتجهيز السفن الموحدية لنقل النصارى إلى بلادهم سالمين، وكان قرارًا حكيمًا إذ كان «وليم» ملك صقلية قد قرر أن يقتل جميع المسلمين ببلاده إذا أقدم عبد المؤمن على قتل نصارى المهدية. ومما يدل على رحمة عبد المؤمن وسماحته وخاصة بالسبايا من العبيد أنه يقول فى رسالته التى أرسلها إلى ولاته يأمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر «فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئًا منهن أو يبيع حتى يستأذن الحاكم بأمره منكم والشيوخ، لئلا يذهب الحق فى ذلك ويضيع، ولتتقدموا للنظر فى أسواقهن من ترضون دينه وأمانته، وتتحققون ثقته وصيانته، فمن أبيح له البيع والابتياع أحضره الأمين

المذكور، ليرتفع بشهادته الشك والنزاع وتحرى نسبة محراه ويمتثل الأمر المقنع، وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء فى جميع من تغنموه منهن من تلك الأرجاء حتى تخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته، وتعلمونا من ذلك بجليته لنرسم لكم فيه ما يكون عليه اعتمادكم، ويجرى إليه اقتضاؤكم[1]

وإذا كان هذا هو حال عبد المؤمن مع أسراه من النصارى فكيف كانت معاملة أعدائه لأسرى الموحدين؟

لقد قدمت لنا الرواية العربية صورة بشعة من تعذيب النصارى لأسرى الموحدين قام بها «ابن همشك» وحلفاؤه من النصارى عند هجومهم على غرناطة وهزيمة الموحدين وتناثر جيوشهم بين قتيل وغريق وأسير، وبالرغم من فداحة الكارثة التى ألمت بالموحدين فإن «ابن همشك» أخذ يتفنن فى تعذيب أسراهم، فأفحش فيهم المثلة بمرأى من إخوانهم المحصورين إذ كان يلقى بهم من الشواهق ويضعهم فى كفة المنجنيق ويقذف بهم، وكان يضم أغصان الشجر العادى بعضها إلى بعض ويربط الإنسان بينها ثم يسرحها حتى يذهب كل غصن بحظ من الأعضاء[2].

وقد ارتاع عبد المؤمن لتلك الكارثة التى أصابت جيشه فجهز جيشًا ضخمًا وزوده بالمؤن والعدد الكافية وجعل على رأسه ابنه «يوسف بن عبد المؤمن» وقضى على قوات «ابن همشك» وصهره «ابن مردنيش» قضاء مبرمًا فى موقعة السبيكة سنة ٥٥٧هـ - ١١٦٢م.

ثانيًا: فرض الجزية

فرض الإسلام ضريبة يدفعها أهل الذمة فى مقابل قيام المسلمين بالدفاع عنهم وحمايتهم من أى عدوان يتعرضون له، ولإظهارهم بمظهر الخاضع لحكم الإسلام فى دولة الإسلام، وهى بمثابة إقرار لدافعيها من المعاهدين بالمواطنة الصالحة فى هذه الدولة. وهذه الضريبة تسمى «الجزية»، وتقررت الجزية فى قوله تعالى: ﴿ قاتلوا

---

(١) رسالة عبد المؤمن بن على من إنشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية- مخطوط كتاب نظم الجمان لابن القطان لوحة (٦٥ ب - ٦٥ أ) نقلا عن عنان- عصر المرابطين والموحدين، ح(١) ص (٥٥٢)

(٢) ابن الخطيب - الإحاطة المجلد الأول، تحقيق عنان، ص (٣٠٧- ٣٠٩)

الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ [التوبة ٢٩]

والجزية هي مبلغ معين من المال يفرض على الرؤوس من غير المسلمين ويسقط بالإسلام، ويدفع عن غنى وقدرة كما قوله تعالى: ﴿عن يد﴾.

وقد أفاض أصحاب مالك الحديث عن الجزية وجعلوها نوعين: جزية «عنوية» كالتي فرضها عمر بن الخطاب، وأخرى «صلحية» لاحد لها إلا ما صولحوا عليه من الإمام من قليل أو كثير.

وتؤدى الجزية على ثلاثة أوجه: جزية مجملة، وجزية مفرقة على رقاب الأعداء، دون الأرض، وثالثة أن تكون مفرقة على رقابهم وأرضهم أو على أرضهم دون رقابهم.

والجزية العنوية هي التي توضع على المغلوبين على بلادهم المقرين فيها لعمارتها، فإنها عند مالك رحمه الله تعالى على ما فرضه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أربعة دنانير على أهل الذهب[1] وهي تعادل اثني عشر درهماً.

ويروى أصحاب مالك أن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال البالغين لأنها ثمن لتأمينهم وحقن دمائهم، والصبي والمرأة لايقاتلان، والعبد مال من الأموال[2]، ويستثنى منهم أيضاً الأعمى والمقعد والمجنون والراهب إن كانوا فقراء.

ويرون أن تؤخذ الجزية من أهل الذمة عند وجوبها، واختلف في حد وجوبها، فقيل إنها تجب بأول الحول حين تعقد لهم الذمة ثم بعد ذلك عند أول كل حول وإن كان مالك يرى أنها تجب في آخر الحول.

أما الجزية الصلحية إذا وقعت مبهمة من غير تحديد أن تؤخذ بعجلة عند أول الحول لأنها عوض عن تأمينهم وحقن دمائهم وترك قتالهم، وقد وجب لهم ذلك بعقد الصلح[3].

وقد عمل المرابطون والموحدون بتعاليم السنة الإسلامية الحنيفية في حروبهم مع النصارى فكانوا ينذرونهم قبل الحرب بالدخول في الإسلام أو قبول دفع الجزية أو

---

(١) مقدمات ابن رشد، ص (٢٨١).
(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة
(٣) المصدر السابق، ص (٢٨٢).

الحروب كالرسالة التى أرسلها يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو السادس قبل معركة الزلاقة، وكالرسائل التى كان يبعث بها خلفاء الموحدين إلى قواد النصارى ليخيروهم باعتناق الإسلام أو دفع الجزية قبل إعلان الحرب عليهم.

وقد أفادت المراجع فى أن يوسف بن تاشفين كان عادلاً فى جباية الأموال فلم يعرض على رعيته إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين[1] وقد كانت الجزية تجبى على الوجه التالى:

١- أغنياء يؤخذ منهم ٤٨ درهمًا.

٢- متوسطو الحال يؤخذ منهم ٢٤ درهمًا.

٣- فقراء يكسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهمًا[2]

وبإقرار المرابطين والموحدين لنظام الجزية كما فرضه الإسلام يكون قد:

١- أوجب لدافعيها من الحقوق ما أوجبه للمسلمين.

٢- أسقط عن الذميين واجب حمل السلاح، وجعل فى عنق الدولة واجب الدفاع عنهم والمقاتلة فى سبيل أرضهم وذراريهم.

٣- أباح لهم التمتع بما هو حلال عندهم، وإن كان هذا الحلال حرامًا عند المسلمين ولم يفرض عليهم أدنى عقاب لذلك.

٤- مكنهم من أن يشعروا بوجودهم العقائدى وأباح لهم أن يقيموا بيعهم وكنائسهم، وأن يقيموا شعائرهم دون رقيب أو معارضة.

ثالثًا: توزيع الغنائم على الجند ونصيب الدولة منها

قد جرت عادة المرابطين والموحدين أن يجمعوا الغنائم بعد تتبع المنهزمين ثم توضع فى يد شخص أمين حاسب يسمى: «صاحب الأقباض، أو صاحب النفل»[3] كما هو متبع فى غالبية الجيوش المعاصرة، ولا تقسم هذه الغنائم حتى

---

(١) ابن أبى زرع- روض القرطاس، ص (٨٧)، عبد الله بن بلكين- التبيان، ص (١٢٧)

(٢) حسن إبراهيم حسن- النظم الإسلامية، ص (٢٧٧- ٢٨٠) وتاريخ الإسلام السياسى لنفس المؤلف، ج(٤) ص (٣٥٠)

(٣) الإدريسى - التراتيب الإدارية، ج(١) ص (٣٨٠)

تنتهي الحرب لئلا يتشاغل الجند بها فتحل بهم الهزيمة، فإذا انتهت الحرب عجل أمير الجيش بقسمتها في دار الحرب ومع ذلك يجوز تأخيرها إلى دار الإسلام بحسب مايراه أمير الجيش.

وهناك فرق بين الغنيمة والفيء، فالفيء هو كل مال وصل من الأعداء للمسلمين عفواً من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب. أما الغنيمة فهي كل ما أصابه المسلمون من عساكر الكفار وعن طريق الحرب.

ويبدأ الإمام بإخراج الخمس من الغنيمة فيقسمه بين أهل الخمس على خمسة أسهم وهم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [الأنفال: ٤١]، ثم يقسم الأربعة الأخماس الباقية على الجند الغانمين، غير أن الإمام إذا رأى أن يمن على الأسرى بإطلاقهم فعل وبطلت حقوق الغانمين فيهم[1]، وهي نفس قسمة الفيء إلا أن أربعة أخماس الفيء الباقية بعد خمس الإمام كانت تقسم في صدر الإسلام بين الجند في الأعمال الحربية وما تتطلبه من شراء الأسلحة وغيرها من معدات الحرب، وقد ظلت الحال على ذلك حتى ظهرت الدواوين وقدرت أرزاق الجند.

وقد عمل المرابطون والموحدون بهذه التعاليم، فعندما غنم المرابطون في حروبهم ضد أمراء مغراوة وأمراء درعة وسجلماسة مغانم كثيرة، وزع ابن ياسين خمس هذه الغنائم على فقهاء درعة وسجلماسة والباقي على جنود المرابطين.

إذن حظ الدولة من الغنيمة هو خمس الغنائم والفيء كما جاء في مذكرات «عبد الله بن بلكين» في معرض حديثه عن عدل «يوسف بن تاشفين» بأنه لم يفرض على الناس إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين[2]. ومن الطبيعي أن هذا الخمس حق بيت المال ينفق منه السلطان على جنده ويشتري منه السلاح اللازم، وما تتطلبه أمور الدولة من نفقات.

(١) حسن إبراهيم حسن- تاريخ الإسلام السياسي، ج(٤) ص (٤٥٣، ٤٥٤).
(٢) التبيان، ص (١٢٧).

أما حظ الجندى من الغنيمة فكان ثلاثة أنواع:

١- أسهمه من الغنيمة: كان يأخذ الراجل منهم سهماً واحداً، وللفارس ثلاثة أسهم فسهم له وسهمان لفرسه[1]، وقد نوه ابن رشد إلى ذلك قائلاً: «وغير بعيد أن يكون تأثير الفارس بالفرس ثلاثة أضعاف تأثير الراجل، بل لعله واجب» ويرمى من وراء ذلك أن يبين أهمية الفرس فى القتال، فعليه يقع عبء المعركة فى مراحلها الثلاث، فبه تقوم فرقة الطلائع بعملها قبل الاشتباك، وعليه يقوم الفرسان بحماية أجناب الجيش، ثم عليه الاعتماد عند مطاردة الفارين فى حال النصر أو النجاة بصاحبه من الموت فى حال الهزيمة، أما الراجل فعناؤه عند الاشتباك الفعلى والمبارزة وهو ثلث المراحل الرئيسية للمعركة[2].

٢- النفل: وهو شيء من المال غير محدود يعطيه القائد مكافأة لمن أجاد القتال زيادة على سهمه تشجيعاً له، وقد اختلف فيما ينفله الإمام فقيل إنه لا ينفل إلا من الخمس لأن الأربعة الأخماس للغانمين، والخمس مصروف إلى اجتهاد الإمام وهو مذهب الإمام مالك[3]، وهذا ما فعله ابن ياسين فقد استولى على فيء عظيم من سجلماسة فأخرج منه خمسه وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة الذين كتبوا إليه لتخليصهم من ظلم أميرهم «مسعود بن وانودين الزناتى» ثم قسم الباقى على المرابطين[4]، بل دأب المرابطون فى أغلب غنائمهم أن يوزعوا الخمس أو أغلبه على المجاهدين فضلاً لتحفيزهم على الغزو والظفر من جديد[5].

وقيل إن الإمام لاينفل إلا بعد الخمس من أربعة الأخماس لأن الخمس عندهم قد صرفه الله تعالى إلى المذكورين فى الآية فلايخرج عنهم منه شيء، وقد قيل: له أنه ينفل من جملة الغنيمة قبل أن يخمسها، ولايرى مالك رحمه الله تعالى للإمام أن ينفل قبل القتال لئلا يرغب الناس فى العطاء فتفسد نيتهم فى الجهاد.

---

(١) انظر ابن رشد فى البداية، ج(١) ص (٣١٤)

(٢) انظر عبد الرؤوف عون- الفن الحربى، ص (٢٧٧)

(٣) مقدمات ابن رشد، ص (٢٦٩)

(٤) ابن أبى زرع: روض القرطاس، ص (٨١)

(٥) الحجى: تاريخ الأندلس فى عهد [illegible] ج(١) ص [illegible]

٣- سلب القتيل: وهو فرس وسلاح وملابس وما على نفسه، وقد كانت العادة المتبعة أن سلب القتيل لقاتله إلى أن خمسه عمر بن الخطاب، فيروي ابن رشد عن بعض حروب الفرس أن البراء بن مالك قتل مرزبانا فارسيا وأخذ سلبه الذي قدر بثلاثين ألفا من الدراهم، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال لأصحابه: إنا كنا لا نخمس السلب وإن سلب البراء يبلغ مالا كثيرا ولا أراني إلا خمسته[1].

وبذا وضع عمر بن الخطاب مبدأ تخميس السلب إذا بلغ حدًا كبيرًا أو زاد زيادة غير معقولة[2].

٤- الرضخ: هو نصيب من لا نصيب لهم في الغنائم كالأطفال والنساء والعبيد إذا باشروا القتال أو قدموا معونة فعالة أو مساعدة محددة مفيدة خلال القتال مثل معالجة المرضى وتقديم الماء وإعداد الطعام ومعونة المسلمين، وكان بعض الذميين أيضًا يشتركون مع المسلمين في القتال، فكانت هذه الطوائف تمنح قدرًا من الغنيمة وهو شيء يقدره القائد ولا يبلغ به سهم المقاتل، وقد ذكر أبو يوسف أن الذمي والعبد والمرأة يرضخ لهم من الغنيمة[3] أي يأخذون قدرًا لا يبلغ السهم

رابعًا: العلاقات السياسية والسلمية الناجمة عن الحرب

تنتهي الحرب بين الدول الحديثة عادة بمعاهدة صلح تعقد بين المتحاربين يتقرر فيها انتهاء حالة الحرب والعودة إلى العلاقات السلمية بين الطرفين، ويسبق معاهدة **الصلح عادة اتفاق الهدنة، وإبرام ما يسمى بمقدمات الصلح.**

والصلح الذي تنتهي به الحرب في الإسلام إما صلح مؤقت وإما صلح مؤبد، فالمؤقت يسمى الموادعة أو المهادنة وهو مصالحة أهل الحرب على ترك القتال مدة معينة بعوض أو غيره سواء فيهم من يقر على دينه ومن لم يقر، دون أن يكونوا **تحت حكم الإسلام**[4].

---

(١) بداية المجتهد، ج(١) ص(٣١٢)

(٢) انظر مقدمات ابن رشد، ص(٢٧٠)

(٣) كتاب الخراج، ص(١٢٢).

(٤) آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص (٦٦٢)

أما الصلح المؤبد فهو عقد الذمة، والذمة في اللغة العهد وهو الأمان والضمان والكفالة، وعقد الذمة عند الفقهاء هو التزام تقريرهم في ديارنا وحمايتهم والذب عنهم ببذل الجزية والاستسلام لهم من جهتهم[1].

وإذا كانت الحرب قائمة مع العدو فحسن نضعنه وطلب الأمن والصلح فجنحه المسلمون حسب ما يرى ولي الأمر من المصلحة[2]، حتى ولو كان مقصد العدو المخادعة لقوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم (٦١) وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ [الأنفال: ٦١، ٦٢]

ولكن يجب أن تكون الخدعة من الخفاء بحيث لايقع المسلمون عليها، أما الخدعة المكشوفة فلا يمكن معها الصلح ولايمكن أيضًا دوام الصلح عند الاطلاع على نية العدو وإن كانت خبيثة لقوله تعالى ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾ وحكم الصلح عند المسلمين أن يلتزموا الوفاء به وبشروطه الصحيحة لقوله تعالى: ﴿أوفوا بالعقود﴾ [المائدة: ١] وقوله تعالى: ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ [التوبة: ٤].

وإذا اشتمل الصلح على عوض مالي فيجب دفعه بحسب مايتفق عليه سواء من الجانب الإسلامي أو من غيره[3].

وقد اشترط الفقهاء لعقد الصلح شروطًا يجب أن تذكر فيه وهو أن يكون الإمام طرفًا في العقد أو نائبه الذي يفوض إليه العقد ولو تفويضًا عامًا كوالي الإقليم مثلاً، لأن الهدنة تحتاج إلى سعة نظر وتقدير للمصالح العامة، ويجب أن يعقد العقد إن كان فيه منفعة للمسلمين ستعود عليهم، وكذلك يجب أن يحدد بمدة معينة فلايترك مفتوحًا وأن يكون الصلح خاليًا من الشروط الفاسدة[4]، ونظرًا للحروب الدائرة والمستمرة بين الموحدين والنصارى فقد كانت تعقد بينهما هدنة أو صلحًا من هذا القبيل توقف فيها الحرب لفترة معينة ينص عليها العقد وشروط الصلح.

---

(١) آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص(٦٦٢).

(٢) المصدر السابق، ص (٦٦٣)

(٣) المصدر السابق، ص(٦٦٢).

(٤) المصدر السابق، ص(٦٦٨) وما بعدها

وتحكي لنا المراجع عن عدة معاهدات وقعت بين النصارى الإسبان والمسلمين منها تلك المعاهدة التي وقعها «الكونت نونيودي لارا» حاكم طليطلة، والفونسو الثامن ملك قشتالة، وانضم إليهم «ألفونسو هنريكيز» ملك البرتغال فقد بعثوا رسلهم إلى الخليفة «أبي يعقوب يوسف» يطلبون المهادنة والصلح بعد اشتداد هجوم المسلمين على أراضيهم والانتقام لفشلهم في حصارة «وبذة»، وقد استمرت المفاوضات شهرين وانتهت بعقد الهدنة بين الخليفة وبين الملوك النصارى وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٥٦٨هـ - ١١٧٣م، وكان مما حمل الخليفة على إيثار الصلح والمهادنة رغبته في التفرغ لأعمال الإنشاء، وتعمير البلاد التي خربت من جراء العدوان والغزو مثل باجة وغيرها[1].

ومما لاشك فيه أن هذه الهدنة كانت في صالح الموحدين، فقد تفرغ الموحدون لتقوية جيوشهم وتنظيمها استعدادًا لمعارك أخرى قاسية، بل أحدثت تصدعًا في جبهة النصارى وخاصة جبهة البرتغال، حيث أحس «جيرالدو» أو «الجرالده الخليقي» حليف ملك البرتغال أنه قد فقد مكانته بهذه الهدنة وقد أغلقت في وجهه فرص المغامرة ضد الموحدين ولم يجد أمامه أفضل من الدخول في خدمة الموحدين، فسار في صحبة ثلاثمائة وخمسين جنديًا إلى أشبيلية سنة ٥٦٨هـ - ١١٧٤م، والتمس قبوله عبدًا وخادمًا للخليفة فقبل الخليفة التماسه ووصله بالإحسان والإكرام ثم قتل بعد ذلك خيانته واتصاله بألفونسو هنريكيز[2].

وفي سنة ٥٧٥هـ - ١١٨٠م وقع النصارى عقد صلح ومهادنة مع الخليفة «أبي يعقوب يوسف» حيث أوفد «وليم الطيب» ملك صقلية النورماني رسله إلى الخليفة وهو بأفريقية يطلب الصلح والمهادنة، وقد تم الصلح على أن يدفع ملك صقلية إتاوة سنوية تم الاتفاق عليها بين الطرفين، ثم أرسل ملك صقلية مع رسله إلى الخليفة تحفًا وذخائر نفيسة منها حجر ياقوت يسمى «الحافر» لاستدارته فهو شبيه بحافر الفرس، وقد وضع في تابوت مصحف عثمان، الذي دأب الموحدون على إبراز احتفائهم به[3].

---

(١)، (٢) البيان المغرب- القسم الثالث، ص (١٠٣)

(٣) المراكشي- المعجب، ص (١٤٢)

وإذا كان هذا هو الحال في خطب ملوك النصارى لعقد المهادنات وتعاقب الصلح خوفا من قوة الدولة وعظمة سلطانها، فإنه مما يرثى له أن تلك الصورة المشرقة قد تبدلت بصورة أخرى مزرية دلت على ضعف سلطان تلك الدولة وطغيان النصارى عليه، ومحاولة الموحدين العمل على استرضائهم والتقرب إليهم، وظهر ذلك في أواخر عهدهم عندما بدأ يتصدع كيان دولتهم الداخلي بسبب الخصومات والتطاحن حول كرسي العرش.

وقد بدأت صورة هذه العلاقات تتردى وتأخذ مأخذ الإجحاف بالمسلمين منذ عصر الخليفة المأمون الموحدي لدى حاجته إليهم ليستعين بهم في مقاتلة خصومه، ففتح لهم باب إمبراطوريته على مصراعيه، وظهر نفوذهم داخل هذه الإمبراطورية، فقد بلغ من تسلطهم مع هذا الخليفة أن فرناندو الثالث ملك قشتالة حينما عرف ضعف الموحدين وحاجة المأمون في عقد معاهدة وحلف معه اشترط عليه شروطا قاسية ذكرها صاحب روض القرطاس منها أن يدفع ثلاثمائة ألف قطعة من الفضة، وأن يسلمه المأمون عشرة من الحصون الإسلامية في منطقة الحدود التي يختارها بنفسه، وأن تبنى بمراكش كنيسة للنصارى يقيمون فيها شعائرهم، وأنه إذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل إسلامه ويرد إلى إخوانه يقضون في أمره، وفق ما يرون، وإن تنصر أحد من المسلمين، فليس لأحد عليه سبيل[1] ثم يقول ابن أبي زرع: إن ملك قشتالة قد أمده بجيش كثيف من اثني عشر ألف فارس من النصارى ليستعين بهم في مقاتلة خصومه بالمغرب الطامعين في الخلافة، وأن هذا الجيش الضخم قد وصل إلى المأمون في شهر رمضان سنة ٦٢٦هـ، فكان المأمون بذلك أول من قام بإجازة الروم إلى العدوة على هذا النحو[2]

ولكن يبدو أن في هذا الرقم مبالغة، فليس من المعقول أن يمده ملك قشتالة بهذا العدد الضخم من فرسانه، والجيش القشتالي كله لم يكن يضم في كثير من المواقع أكثر من هذا العدد من الفرسان، والأقرب إلى الصحيح أنه أمده تقريبًا بقوة تبلغ خمسمائة فارس، وهذا الرقم يقرره ابن عذارى في موضع آخر حيث يقول: «وحشد الحشود وضم الجنود، جمع نحو خمسمائة فارس من الروم، لما كان يبغى من الحركة ويروم»[3].

---

(١)، (٢) روض القرطاس، ص (١٦٧).

(٣) المصدر السابق، ص (٢٦٤)

وبعد ما تغلب المأمون على خصومه كان في مقدمة ما عمله أن بنى للنصارى في داخل مراكش كنيسة كبرى وكانت أول كنيسة قامت بالعاصمة الموحدية، وقد تخذ منها النصارى وكرا يلوذون به للقادة واخذ من الروم عند تدبير المؤامرات. وقد تكاثر عددهم وحازوا شوكة في جانب الخلافة تؤازر المنازعات وتدبر الانقلابات السياسية والعسكرية.

وقد حبت الخلافة الموحدية هذه الجالية النصرانية مزيد من الامتيازات وخصوصًا في عهد الخليفة السعيد مما حدا بالبابا «إنوسنت» الرابع أن يبعث بالقس «لوبي فرنانديث» إلى مراكش في عهد هذا الخليفة ليكون أسقفًا بها. وقد بعث مع هذا القس كتابًا يهنئه فيه بانتصاراته على خصومه، ويشيد بالدور الذي قام به الجند النصارى في هذه الانتصارات، ثم ينصحه بأن يعتنق النصرانية لكي يعمه حماية الله وعطف النصارى، ثم يرجوه أن يضمن حماية النصارى حتى لا يتعرضوا إلى القتل والبطش. وذلك بأن يخصص لهم بعض الحصون المنيعة الواقعة تحت سلطانه فيلجأوا إليها عند الضرورة، كما كتب البابا في نفس الوقت إلى أمراء تونس وبجاية وسبتة يرجوهم أن يسهلوا لنصارى مراكش الاتصال بإخوانهم في تلك الثغور، ثم يبعث السعيد برده على هذا الكتاب مع الأسقف «لوبي» يشير فيه إلى إكرام الموحدين لرسوله ويرجوه أن يحسن الاختيار فيمن يخلفه للإشراف على النصارى الموجودين ببلاد الموحدين ثم يختم الكتاب بتوجيه الشكر إلى البابا[1]

والمراجع الإسلامية قد غصت بمثل هذه المعاهدات في عقود الصلح التي كانت تجرى بين المسلمين والنصارى في المغرب الإسلامي وتحتاج إلى بحث مدقق يحققها ويخرجها إلى النور في بحث قيم.

أما فيما يخص التقاليد الدبلوماسية التي كانت تتبع عند إبرام هذه العقود وتلك المعاهدات، فإنه كانت تناقش المعاهدة ثم يقرر نصها النهائي شفويًا، وعندما يتم التوافق على النقاط الجوهرية فإنه يلخص ما اتفق عليه شفهيًا ثم يصادق عليه بتشبيك الأصابع أو بقسم، وتعتبر هذه العملية بمثابة إبرام المعاهدة، وأحيانًا تسلم رسالة للسفراء تنص على انعقاد المعاهدة.

(١) انظر نص هذا الكتاب في قسم الوثائق في آخر هذا الكتاب

وأول معاهدة مكتوبة وجدت، يرجع عهدها إلى سنة ١١٧٤م، كما يرى بعض المؤرخين، ولكن يمكننا أن نقول باطمئنان أن أول رسالة مكتوبة كانت عام ١١٨١م، وجهها أسقف «بيزا» إلى السلطان الموحدى أبى يوسف تشير إلى معاهدة مكتوبة أبرمت مع ذلك الخليفة الموحدى[١].

أما فيما يختص بالشكليات فإن عدم الإشارة فى صلب المعاهدة إلى بعضها - مثل حضور الشهود ومصافحات التأكيد وترجمة النص- ليس هذا معناه عدم إجرائها، على أن معاهدات القرن الثانى عشر الميلادى تورد أسماء المفوضين وتعلن أن الله هو خير ضامن وهو الشهيد الوحيد فى إمضاء المعاهدة، وذلك رغم كون السفراء المفوضين كانوا محاطين فى الواقع بمترجمين وعدول وكتاب أو نساخين، وقد تشير المعاهدة أيضًا إلى تشابك الأيدى كعنوان على إبرام العقد وكذلك إلى كون المعاهدة حررت فى نسختين أصليتين

وسوف نقدم صورة عن سير المفاوضات بين السفراء النصارى وملوك المغرب حسبما رواه «لاطرى» الذى جمع الوثائق الدبلوماسية التى كانت خلال العصور الوسطى قاعدة لعلائق المغرب ببعض الأمم اللاتينية مثل ونذة وفلورنسة والبندقية وجنوة. . .[٢].

يأتى السفير المسيحى إلى أفريقية حاملاً من أميره رسالة اعتماد تخوله حق التفاوض فيستقبل من طرف ملك المغرب ويرفع إليه تحيات أميره وهداياه، ثم يرجو منه أن يحدد له اليوم الذى يمكنه أن يبسط فيه لجلالته بصورة أوسع وأتم ما جاء لأجله.

وكان الاستقبال الرسمى يؤجل فى الغالب لبضعة أيام يقضيها السفير فى زيارة الوزراء والحاشية الملكية، وفى الوقت المحدد يقدم السفير نسخة من المعاهدات السابقة أو مذكرة تحتوى على بنود مشروع الاتفاق الجديد فصلاً فصلاً، ثم يحرر السلطان تقريراً حول هذا المشروع يحال على لجنة تدرس بنوده.

---

(١) عبد العزيز بن عبد الله- مظاهر الحضارة المغربية، طبعة ١٩٥٧م الدار البيضاء

(٢) المصدر السابق، ص (٩٩)

ونظرًا لوجود أسرى مسيحيين في المغرب كان السفير يغتنم في الغالب فرصة وجوده بالحضرة المغربية ولقائه مع السلطان فيطلب فك أسر بعضهم، وكانت الحكومة المغربية تتفضل في الغالب بتلبية رغبة السفير بتسهيل افتكاك الأسرى المطلوبين، وقد تتحمل هي نفسها تكاليف الفداء ثم تفتتح المحادثات فيما بعد، وكانت تجرى في الغالب بالقصر أو في منزل أحد كبار الدولة. وفي جلسات المفاوضة كان أعضاء الوفدين الإسلامي والمسيحي يدلون ببعض النقاط والمذكرات التي تشكل فيما بعد مشروعًا تمهيديًا يتخذ أساسًا للمداولات، وعندما يتم الاتفاق بين الطرفين على أسس المعاهدة الجديدة تحرر نسخة من المشروع باللغة العربية أولا وذلك في أغلب الأحيان، وبعد تحرير الأصل العربي تنعقد جلسة رسمية لترجمة هذا الأصل إلى لغة الإسبان النصارى، ثم يتم إمضاء النسخ ثم طبعها بالختم الملكي[1].

وكانت هذه المرحلة الأخيرة تجرى في أبهة ضمن محفل غفير في نفس المكان الذي انعقدت فيه جلسات المؤتمر، ويستدعى عادة للمشاركة في هذا الحفل بعض رجال الدين المسيحي من القاطنين بالبلدة، وبعض الشهود من المواطنين المسلمين وبعض قواد جند الروم المسيحيين المنخرطين في الجيش المغربي، وهؤلاء يوقعون على المعاهدات كشهود[2] هذا بالإضافة إلى المفوضين وتراجمتهم.

كل ذلك يقع إذا ما تم إجراء المفاوضات وتوقيع المعاهدات في المغرب نفسه أما إذا حرر نص المعاهدة في إسبانيا مثلا مع سفير مغربي، فإن طريقة العمل تختصر، وقد علل بعض المؤرخين هذا الاقتضاب في الشكليات وذلك لوفرة العلاقات بين الإسبان والعرب وانتشار اللغتين العربية والإسبانية بين الشعبين، فإذا ما تم الاتفاق بين السفير ووزراء الأمير الإسباني حول أسس المعاهدة، تتكفل الدبلوماسية الإسبانية نفسها بتحرير نسختين للمعاهدة بالإسبانية يكتبان في نفس الوثيقة كل في جهة يفصلها هامش قد سجلت فيه مستندات أخرى، ويوقع الوزير الإسباني باسم أميره على النصين ثم ترسل الوثيقة إلى المغرب ليذيلها السلطان

---

(1) مظاهر الحضارة المغربية، ص(١ ١)

(2) المصدر السابق ونفس الصفحة

بخاتمه وإمضائه فيحتفظ بنسخة ويعيد الأخرى، وكانت هذه الطريقة تتبع فى المغرب الأدنى أكثر من غيره.

وفى بعض الأحيان كان النص الإسبانى المزدوج يسجل فى نسختين منفصلتين يختمهما الأمير الإسبانى بطابعه أولاً ثم يوجههان إلى المغرب بعد ذلك لتطبع بالخاتم السلطانى، ويتم العقد بتبادل وثيقتين أو رسالتين مختومتين بنفس الطابع، ويحتفظ الأمير المسيحى بالنص الذى يحمل طابع السلطان، بينما يحتفظ هذا النص المختوم من طرف زميله الإسبانى، ولمعاهدة المبرمة ١٢٧٤م بين ملك أراجون «جاك الأول» وبين «يعقوب المرينى» فى حقبة تاريخية تالية ليست بطويلة لعلها تعد نموذجاً لهذه الطريقة الأخيرة(١).

تلك صورة مقتضبة عن التشكيلات التى كان العمل جاريًا بها فى المفاوضات والإمضاء على العقود الدبلوماسية(٢).

ويستخلص من هذا العرض مدى ما يتمتع به أمراء المرابطين والموحدين من روح قانونية تساير القانون الدولى الآن ومدى حرص هؤلاء المسئولين على ضمان احترام السيادة لدولهم، كما يظهر أيضاً حرصهم على تطوير علاقات سلمية مع النصارى الأسبان وغيرهم على الرغم مما كان يسود العصور الوسطى من حروب صليبية بغيضة

---

(١) مظاهر الحضارة المغربية، ص [illegible]

(٢) انظر وصف «م دوماس لاتري» لسير المفاوضات بين السفراء الأندلسيين وملوك المغرب فى كتاب مظاهر الحضارة المغربية- ص ([illegible]) وما بعدها [illegible]





الباب الخامس

الأساطيل البحرية لدولتي المرابطين والموحدين

الفصل الأول: نشأة البحرية في دولة المرابطين

الفصل الثاني: نشأة البحرية في دولة الموحدين

الفصل الثالث: المعركة البحرية وإدارتها وأسلحتها



الفصل الأول

نشأة البحرية فى دولة المرابطين

من المعروف أن المرابطين كانوا قومًا صحراويين فى أول عهدهم، فلم تكن لديهم خبرة أو دراية بركوب البحر، وشاء القدر أن تزحف جموعهم صوب المغرب الأقصى ثم اتجهت نحو السهول الساحلية بقصد الاستيلاء على أهم موانئ وثغور البحر الأبيض المتوسط مثل طنجة وسبتة، ويبدو أنهم حتى هذا الوقت لم يكن لديهم أية قوة بحرية تؤازر جيوشهم البرية للاستيلاء على هذه السواحل، بدليل أن «يوسف بن تاشفين» فى حربه لمدينتى طنجة وسبتة سار إليهما من جهة البر بعساكره بينما بعث «ابن عباد» قطائعه البحرية لتعاونه من جهة البحر حتى يمتلكها[1].

ولقد أدرك عاهل المرابطين «يوسف بن تاشفين» بعد انتصاره فى معركة سبتة أهمية الأسطول البحرى فى كسب المعارك، فبدأ يهتم به ويوليه عظيم اهتمامه

ويبدو أنه استعان بخبرة أهل السواحل المشتغلين بركوب البحر ولعله استعان أيضًا ببحارة من الأندلس ودور صناعتها فى تدعيم أسطوله[2]

ومن هنا ظهر للمرابطين فى عهد «يوسف بن تاشفين» أسطول صغير يتألف من السفن التى تنقل الجند من المغرب إلى الأندلس وإن كان يتميز ذلك الأسطول بكثرة سفن النقل عن سفنه الحربية[3]، وقد شارك هذا الأسطول فى نقل جنود المرابطين من بر عدوة المغرب إلى بر عدوة الأندلس خوض معركة الزلاقة، وأصبح ذلك الأسطول همزة الوصل بين العدوتين ليحقق به «يوسف بن تاشفين» مشروعه العسكرى الكبير باستيلائه على بلاد الأندلس وضمها لدولته الناشئة.

---

(١) ابن أبى زرع- روض القرطاس، ص(٩١).

(٢) حسن أحمد محمود- قيام دولة المرابطين، ص (٣٩٢).

(٣) أشباخ - تاريخ المرابطين والموحدين، ج(٢) ص(٢٣٧).

وبفتح جزيرة الأندلس بدأ عهد جديد فى تاريخ البحرية المرابطية، ذلك أنهم وضعوا أيديهم على أهم موانئ البحر الأبيض سواء فى المغرب أو الأندلس فكانت لهم فى سبتة وقادس والمرية أساطيل دائمة، وكانت قطائع القتال تتجمع بموانئ خاصة فى مياه سبتة وطنجة والجزيرة الخضراء وطريف وسلا لنقل جيوش المرابطية إلى شبه الجزيرة الأندلسية أو منها إلى المغرب.

ثم بدأ الأسطول المرابطى فى عهد يوسف بن تاشفين يظهر كعنصر فعال فى معركة [illegible] ولم يقتصر نشاطه على القتال فقط بل أكثروا من قطعة البحرية فاشترك أسطول المرابطين فى معركة بلنسية التى دارت بين المرابطين وبين القمبيطور[1]، حيث نسمع أن أسطول المرابطين قد عاون القوات البرية فى شرق الأندلس فى فتح بلنسية والجزائر الشرقية والمرية[2].

وإن كانت المراجع لم تشر إلى نشاط البحرية فى عهد «يوسف بن تاشفين» فمن المحتمل أنها كانت فى عهده فى طور البناء والتكوين إلا أنه فى أخريات حياته قد اكتملت وظهر نشاطها وعين لها أمير يقودها وهو «عيسى بن ميمون» الذى عرف بلقب «أمير البحر»[3].

وقد ارتقى الأسطول المرابطى فى عهد «على بن يوسف» وأظهرت وحداته نشاطًا ملحوظًا فى البحر الأبيض المتوسط يؤيد ذلك ما ذكره الإدريسى: «من أن أحمد بن عمر المعروف برقم الأوز» كان واليًا لأمير المسلمين «على بن يوسف ابن تاشفين» على جملة من أسطوله[4].

---

(١) هو فارس قشتالى بدأ حياته فى خدمة ملوك الطوائف بالأندلس من بنى هود ثم خرج عنهم وانضم إلى ملك قشتالة حتى طرده سنة ١٠٨١م، ومن هذا التاريخ بدأ يظهر مغامرًا يعمل لكسب المال منضمًا تارة للمسلمين وأخرى للنصارى، ويبدو فى معظم حملاته العسكرية قاطع طريق ورئيس عصابة، وقد ظهرت جرائمه فى مأساة بلنسية حيث غدر بأهلها وحرق قاضيها ابن جحاف (ينظر فى تاريخ الكمبادور: البيان المغرب، ج(٢) ص (٣٠٥، ٣٠٦) - نفح الطيب، ج(٢) ص (٥٧٧)- أعمال الأعلام، ص(٢٠٣، ٢٠٤)

(٢) أشباخ - تاريخ المرابطين والموحدين، ج(٢) ص (٢٣٧)، وقيام دولة المرابطين، ص (٣٩٣)

(٣) انظر قيام دولة المرابطين، ص (٣٩٣)

(٤) المغرب وأرض السودان، ص (٥٤)

وقد ظهر تفوق هذا الأسطول المرابطى فى أكثر من معركة بحرية تصدى فيها أسطول النصارى فيرهبها ويجبرها على الفرار.

وقد عقدت دويلات: بيزة، وجنوة، وإمارة برشلونة، حلفاً لافتتاح الجزائر فى سنة ٥٠٩هـ - ١١١٤هـ، فخرج من مياه جنوة أسطول الغزو وقوامه نحو ثلاثمائة سفينة ومعه وحدات بحرية أخرى من برشلونة وفرنسا وحاصروا مدينة «ميورقة» عاصمة الجزائر ثم اقتحموها وضربوها.

وقد حاول والى ميورقة الاستنجاد بالمرابطين بعدما فرض الحصار على المدينة زهاء عام قاسى فيه المسلمون أهوالاً وشدائد لم يروها من قبل، ولكنه توفى أثناء الحصار، وحاول خلفه القائد «أبو الربيع سليمان» أن يغادر الجزيرة ليسعى فى طلب النجدة، فأسره النصارى، ولكن النجدة جاءت إلى «ميورقة» على يد بحار حربى هو القائد «أبو عبد الله بن ميمون» الذى استطاع أن يخترق الحصار بسفينته تحت جنح الظلام، ولم يستطع النصارى لحاقاً به.

وكان على بن يوسف، قد اتم عندئذ أهبته البحرية الضخمة، فبعث لإنجاد الجزائر واستنقاذها أسطولاً ضخماً قوامه نحو ثلاثمائة سفينة، وأقلعت السفن المرابطية بسرعة صوب الجزائر، بقيادة أمير البحر المرابطى «ابن تفرتاش» أو «تافرطاش»، ولما علم البيزيون وحلفاؤهم بتقدم هذا الأسطول المرابطى الضخم، وأدركوا أنهم لا أمل لهم فى مدافعته، غادروا «ميورقة» مثقلين بالغنائم والسبى بعد أن استصفوا ثرواتها وخربوا ربوعها، وأحرقوها وقتلوا معظم أهلها، ووصلت السفن المرابطية فى أثرهم إلى الجزيرة فى أواخر سنة ٥٠٩ هـ - ١١١٦م، واحتلها المرابطون وشرعوا فى تعميرها، ولما انصرفت السفن النصرانية ناحية إلى أوطانها، دهمتها العواصف والأمواج العالية، فحملت منها أربع سفن صوب ثغر دانية، فطاردها القائد أبو سداد حتى غرقت منها واحدة وتمكن من أسر الثلاث الأخرى[1].

ويبدو منذ ذلك الحين أنه أصبح الأسطول المرابطى قوة هائلة، يحسب لها الأعداء ألف حساب فقد دخلوا فى صراع بحرى عنيف مع النصارى النرمانديين أصحاب صقلية وأغاروا على سواحلها عدة مرات حتى ضج ملكها بالشكوى[2].

(١) ابن خلدون، ج(٤) ص (١٦٥)، وروض القرطاس، ص (١٠٥)، صبح الأعشى، ج(٥) ص (٢٥٧).
(٢) قيام دولة المرابطين، ص (٣٩٤).

واتسعت دائرة نشاط الأسطول المرابطي حيث امتدت غاراتهم إلى سواحل إيطاليا وفرنسا وبدأت تحتك مع أساطيل بيزنطة في شرق البحر الأبيض المتوسط[1]، وبدأت المراجع الإفرنجية تؤرخ لغارات أسطول المرابطين وتتحدث عن بطولة وإقدام قائده «على بن عيسى بن ميمون» الذى أخذ يغزو جنوب إيطاليا وبلاد الشام وشواطئ بروفانس ويحرق كل مايصادفه من قرى وقصور وكنائس، وقد سجلت مدونة ألفونسو السابع نشاط «على بن عيسى بن ميمون» وذكرت أن الجالية المسيحية ببلاد المرابطين قد أسرها على بن ميمون أثناء إغارته بحوض البحر الأبيض وأنه نقلها إلى مراكش لتدخل فى خدمة الأمير المرابطى[2].

من هذا يتضح أن المرابطين قد امتلكوا فى أواخر أيامهم أسطولاً ضخمًا من القطائع والسفن المقاتلة، ومما يؤكد هذه الحقيقة أن الأمير تاشفين بن على كان وهو يجوز معركة وهران ضد الموحدين كان يعلق أمله فى النجاة على الأسطول، وقد استدعاه فعلاً لينقله إلى الأندلس، ولكن القدر شاء أن يصرع هذا الأمير ثم تنتقل هذه الأساطيل بعد فترة قصيرة إلى خدمة الدولة الموحدية.

---

(١)،(٢) قيام دولة الموحدين، ص (٣٩٥)

الفصل الثانى

نشأة البحرية فى دولة الموحدين

لقد بلغت البحرية الموحدية شأواً عظيماً فى عهد عبد المؤمن بن على الخليفة الأول للموحدين، فقد استحوذ على سائر أسطول المرابطين بعدته ورجاله الأكفاء.

ولم يكتف بذلك بل شرع فى إنشاء قطع أخرى بلغ أربعمائة سفينة ألقت مراسيها على جميع سواحل بلاده[1].

وقد بلغ من اهتمام عبد المؤمن بالأسطول أنه أنشأ عدة مدارس حربية لتخرج القادة الأكفاء والبحارة المدربين على استعمال السلاح وركوب الخيل والسباحة وأساليب الحصار براً وبحراً. وحيث أنشأ لهم بركة على مقربة من مدينة مراكش وضعت فيه القوارب والسفن الحربية الصغيرة يتدرب فيها الطلاب على التجديف وقيادة السفن وكل ما يتصل بالفنون الحربية[2].

ومن مظاهر اعتناء عبد المؤمن بالأسطول أنه قام بمسح أراضى مملكته وفرض على كل ولاية الضرائب حسب ثروتها وحشمها، وكذلك مايجب أن تقدمه كل ولاية من الجند من مختلف الأصناف. ففرض على مراكش أن تقدم أربعمائة بحار، وثغرها مائة وخمسين، وكل من طنجة وسبتة ومرسى عريف ووهران ومرسى حنين مائة بحار، وألزم الأندلس بتقديم ثمانمائة بحار[3].

وقد لعب أسطول الموحدين أدواراً هامة فى معارك الخلافة الموحدية عند افتتاح المهدية التى يحتلها النورمانديون سنة ٥٥٥هـ - ١١٦٠م، حيث خرجت جيوش عبد المؤمن من جهة البر تجاه تونس، وكان الأسطول الموحدى بقيادة: «أبى عبد

---

(١) من هذه السفن مائة وعشرون بالمهدية، ومائة سفينة بنواحى سبتة وطنجة والريف، ومائة سفينة بسواحل أفريقية «تونس» ووهران ومرسى حنين، وثمانون سفينة بعدوة الأندلس، ينظر السلاوى، الاستقصا ج(٢) ص (١٢٨)

(٢) أشباخ- تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، ص (٤٨٩- ٤٩١)

(٣) أشباخ- تاريخ الأندلس، ج(٢) ص (٢٥٧)

الله بن ميمون" يحاذيه من جهة البحر وقد أرسل الملك "وليم" إلى المهدية أسطولا ضخمًا لإنقاذها مكون من مائتي قطعة بحرية.

ونشبت بين الأسطولين معركة حامية لم تغن فيها براعة النورمانديين شيئًا، وانتصر المسلمون عليهم نصرًا باهرًا وأحرقوا وأغرقوا جانبًا من سفنهم واستولوا على جانب كبير آخر منها[1].

وكان للأسطول الموحدي نشاط ملموس يتمثل في حراسة الشواطئ الأندلسية من مياه البرتغال جنوبًا حتى مياه بلنسية و جزائر الشرقية وشواطئ المغرب الشمالية من مياه تونس والمهدية.

وقد سجل أسطول الموحدين في عهد الخليفة "أبي يعقوب يوسف" نشاطًا ملموسًا في جبهة البرتغال التي اشتدت هجماتها وتكرر عدوانهم على حدود المسلمين بالأندلس، فبعث أسطوله المرابط بسبتة تحت إمرة "غانم بن مردنيش" لغزو شواطئ البرتغال، فقصد صوب أشبونة وهاجم ثغرها واستولى على سفينتين من سفن البرتغال وعاد بأسطوله إلى سبتة

وتروي المراجع أن أسطول الموحدين قام بعدة اشتباكات مع أسطول البرتغال ليوقف عدوانهم على ثغور المسلمين وأثبت مقدرة رائعة في التصدي لأساطيلهم وإيقاف هجماتهم وأنزل بهم هزيمة ساحقة في معركة بحرية عنيفة سنة ٥٧٧هـ-١١٨١م قتل فيها قائد الأسطول البرتغالي "روبنيو"، واستولى الموحدون على عشرين سفينة وأسروا نحو ألف وثمانمائة أسير، وقد ظهر من خلال هذه المعارك مجموعة من أمراء البحر الموحدين من أبرزهم "غانم بن مردنيش" وأخوه أبو العلاء وعبد الله بن جامع[2]

وكان للأسطول الموحدي وحدات كبيرة ترابط في المعمورة وسبتة وتونس ومالقة وقادس وأحيانًا في مياه البرتغال الجنوبية.

---

(١) أشباخ- تاريخ الأندلس، ج(٢) ص (٢٤٧)

(٢) البيان المغرب- القسم الثالث، ص (١١٧، ١١٨)، ابن خلدون، ج(٦) ص (٢٤١)

وقد بلغت البحرية الموحدية أوج قوتها فى عهد خليفته أبى يعقوب المنصور، ففى عهده نشبت عدة مواقع بحرية بين الأسطول الموحدى وبين القطلونيين على مقربة من طرطوشة، وأحرز أمير البحر الموحدى كثيراً من ضروب التفوق[1]

ولاعجب فى ذلك فقد ذاع صيت هذا الأسطول وعمت شهرته الآفاق مما حدا بصلاح الدين الأيوبى أن يستنجد به فى حروبه ضد الصليبيين فى المشرق

وسنختم الكلام عن أسطول الموحدين بنص هام يدل على مدى نشاط هذا الأسطول، وهو الذى كان يلعبه على سواحل بلاد النصارى. يقول صاحب صبح الأعشى عن أسطول الموحدين: "وببلاد البحرية أسطول الغزو المغرق فى البحر الشامى، يركبه الأنجاد من الرماة والرؤساء المنجدون فيتقدمون بعده على ظهر البحر وهم المعدون فى الغزو، ويغيرون على بلاد النصارى بالسواحل ومن هو بقربه. فيأسرون أهلها ذكورهم وإناثهم ويأتون بهم بلاد المسلمين فيمرون بهم ويحملونهم إلى غرناطة إلى السلطان فيأخذ منهم ما يشاء ويهدى ويبيع"[2]، وفى نفس المعنى يقول ابن خلدون عن قائد الأسطول الموحدى ابن ميمون "كان يبعث بالأسارى والعلوج للخليفة أبى يعقوب الموحدى"[3].

ويمكن للباحث أن يستشف من هذين النصين أن أسطول الموحدين كان مسيطراً على ساحل البحر المتوسط حامياً لسواحله وثغوره من أى اعتداء عليها، وأنه كان يقوم بغارات مستمرة على سواحل بلاد النصارى فيأسرون من أهلها أعداداً كبيرة تعمل فى خدمة السلطان.

ولكن ما سبب تلك الغارات المستمرة وهل كانوا على حق فى غاراتهم على بلاد النصارى وسواحلها؟

بلا شك أن هذا العمل عمل مشروع يقصد من ورائه الردع لإرهاب أعداء المسلمين وإلقاء الرعب والفزع فى قلوبهم، فلا تحدثهم أنفسهم بالاعتداء على

---

(1) اشباخ- تاريخ الأندلس، ج(2) ص (247)

(2) القلقشندى ج(5) ص (272)

(3) تاريخ ابن خلدون، ج(6) ص (243)

حدودهم، وهذه نظرية عسكرية متبعة في العرف العسكري قد أقرها الدين الإسلامي حيث يقول تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ [الأنفال: ٦٠]. وهي نظرية تعرف في الاستراتيجية العسكرية بنظرية (الردع).

وهذه الهجمات من جانب رجال الأسطول الموحدي بالأندلس كانت تذكيها روح الجهاد والعقيدة الإسلامية، تلك العقيدة التي جعلت من رجال هذه الدولة روحًا جديدة وبخاصة سكان بلاد الشواطئ إذ تدفقت جموع المرابطين في ثغور الأندلس لايبغون شيئًا سوى الجهاد في سبيل الله، وبسبب ذلك كثرت في سواحل إسبانيا الإسلامية المراكز الحربية التي غصت بأعداد وفيرة من المقاتلين وقد يطلق عليها الأربطة.

ويبدو أن السلطات الحاكمة كانت تشجع هؤلاء النفر في غاراتهم هذه على سواحل النصارى وكانوا يقدمون لهم المساعدات والمؤن اللازمة لذلك، وقامت تلك الدولة بتقليد بحري فريد سرعان ما انتشر من الأندلس إلى غيرها من البلاد العربية[١].

---

(١) ينظر الدكتور إبراهيم العدوي في كتابه القوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، ص (١٠٣، ١٠٤)

الفصل الثالث

المعركة البحرية وادارتها وأسلحتها

أ- إدارة المعارك البحرية [١]:

من الطبيعي أن يسبق المعركة البحرية إعداد لها مثل حشد القوى وتعبئة الأساطيل والاستطلاع البحري ثم الاقتراب وهذه كلمة مختصرة عن كل مرحلة من هذه المراحل:

١- حشد المقاتلة:

من أولى مهام أمراء البحار بعد تفحص السفن وتزويدها بالنفط والوقود وشحنها بالأسلحة أن تحشد بالبحارة المقاتلين، ويتم الحشد عن طريق النقباء الذين يكلفون بجمع الجند من بين الذين يجيدون الحروب البحرية. ونظرًا لما تتطلبه الحروب البحرية من نوعيات خاصة كانت الدولة تغدق عليهم الأعطيات في احتفال عظيم يقام عادة قبيل الإبحار يحضره الخليفة ووزير الجيش وصاحب الديوان[٢].

٢- تعبئة الأساطيل:

كانت تعبئة الأساطيل تأخذ الشكل الخماسي: قلب وجناحان ومقدمة ومؤخرة، وتصطف السفن إما على هيئة نصف دائرة حتى إذا حاول العدو الاقتراب منها أحاطت به وحطمته. وإما أن تصطف صفوفًا مستقيمة لتنطح مراكب العدو «باللجام» وتفرقه.

---

(١) نظرًا لندرة المادة التاريخية في تاريخ المرابطين والموحدين فإننا لا نجد فيها كثيرًا في إدارة المعارك البحرية بين أساطيل المشرق الإسلامي ومغربه، وسوف نعتمد على بعض المراجع التي تحدثت عن الأساطيل العربية بصفة عامة، وخاصة أننا لم نجد لأساطيل المغرب خاضت حروبًا خاصة في معاركها البحرية، ومن أهم المراجع التي اعتمدت عليها «القوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط» للدكتور إبراهيم العدوي، ومقدمة ابن خلدون، وآثار الأول لحسن بن عبد الله، فمن أراد الاستزادة فليرجع إلى هذه المراجع.

(٢) د. إبراهيم العدوي، القوات البحرية العربية، ص (١٨٤).

٣- المسير في البحر:

تتحرك قطع الأسطول بعد صدار الأمر إليها من أمير البحر، وفي أثناء سير الأسطول يتحتم على أمير البحر أن يقوم بعدة تمويهات ليخفي أسطوله عن أعين الأعداء ويحذر إغارة سفن الأعداء عليه، ومن هذه التمويهات عدم إيقاد النيران وإطفاء كل المصابيح، ويأمر القائد بتركيب قلوع زرق[1] حتى يخفي مراكبه عن أنظار العدو، وهذا شبيه بما تفعله الجيوش المعاصرة من طلاء طائراتها ومركباتها بلون يناسب لون الصحراء حتى تخفى على العدو.

٤- الاستطلاع والاقتراب:

قبل الالتحام مع أساطيل العدو، يقوم كل قائد من الأسطوليين بالاستطلاع البحري، فيرقب حركات صاحبه ويحدد مكانه ثم يدنو منه بحذر ولا تتم عملية الاقتراب عادة إلا في هدوء الريح وسكونها، وذلك ليصرف القائد سفنه حسب خطته ويجتهد ألا تهب الريح عليه حتى لا توقع الخلل في سفنه[2].

وقد عمد أمراء البحر العرب إلى خطة جديدة لجذب سفن الأعداء إليها وذلك بأن يلقي عليها الكلاليب ثم تجذب سفنهم حتى تقترب من سفن المسلمين ثم توضع ألواح بين جوانب السفن حتى تكون جسرًا ينتقل عليه الجند المسلمين إلى العدو داخل سفنه ويقاتلونه عليها[3].

وقد كان لأمراء البحر اختصاصات واسعة من قبل الخلفاء وولاة الأمر، وكان يقوم أمير البحر بتوزيع هذه الاختصاصات على بضعة أفراد يعاونونه في عمله.

فقد كانت كل وحدة من وحدات الأسطول العربي معدة إعدادًا تامًا من حيث رجالها ومعداتها، وذلك وفق نظام دقيق، فلكل سفينة عدد من النواتية أو البحارة الذين يخضعون لكبيرهم الملقب بالرئيس أو الريس، ويتولى الريس مع رجاله تدبير أمر جريان سفينته بالريح أو المجاذيف وكذلك عليه مهمة إبحار السفينة وإلقاء مراسيها.

(١) الحسن بن عبد الله آثار الأول، ص (١٩٦)

(٢) ابن خلدون- المقدمة، ص(٢١٢)

(٣) د. إبراهيم العدوى- قوات البحرية العربية، ص (١٨٤)

وإلى جانب النوتية يوجد فرق من الجند معدة للقتال البحري، وتعمل تحت إمرة قائد يشرف على إعداد الأسلحة وتسيير دفة القتال على السفن.

كل هؤلاء يعملون تحت إمرة أمير البحر وهو القائد العام للأسطول وهو الذي يتولى رئاسة الشئون الحربية كلها، وكان يمنح سلطات مطلقة من قبل الخلفاء في إعداد حملاتهم. فله الحق في اختيار رجال الأسطول ومعاملتهم والإشراف على بناء السفن ومراسيها، والإشراف على أعمال التجسس البحرية[١].

ب- الأسلحة البحرية:

من الأسلحة الرئيسية لرجال الأسطول القسي التي تشد بواسطة اليد أو الرجل، ثم المنجنيق الذي كانت تخصص له مراكب لحمله وحمل حجارته والجنود الذين يعملون عليه، ثم يقوم برمي مراكب العدو بالحجارة، والقوارير المملوءة بالنفط أو الجرار المملوءة بالجير الحي المدقوق، يرمى بها جند الأعداء بقصد أن يعمي غبار هذا المسحوق أعينهم، ويتصبب عليهم في هواء البحر المشبع بالبخار، وهذا ما يشبه قنابل الغازات المسيلة للدموع وغيرها. كما كان يرمى الأعداء بقدور مملوءة بالصابون لتزل أقدامهم وتزلق فوق خشب الأسطول فيكونون عرضة لرماح وسهام المسلمين[٢].

ومن الأسلحة البحرية الفتاكة أيضًا ما يسمى «اللجام أو الفأس» وهو عبارة عن كتلة طويلة من الحديد مدببة المقدم كسنان الرمح يحملها الجند في سفينتهم ثم يدفعونها على سفينة العدو لتصدمها به في مقدمها فتخرقها وتغرقها، أو يحمله الرجال وينطحون به السفينة بنطحة قوية فيحدثون بها ثقبًا عميقًا ويتسرب الماء إلى جوفها فتغرق ثم يطلب من بها الأمان[٣].

وكانت تزود كل سفينة بنوع من الكلاليب تستخدم عندما تدنو منهم سفينة الأعداء إذ تلقى الكلاليب لتوقف سفنهم، ثم يشدونها إليهم ويرمون عليها الألواح

---

(١) [illegible] أمير البحر ومهامه واختصاصاته في [illegible]

(٢) الحسن بن عبد الله- آثار الأول، ص(٢١٥، ٢١٦)

(٣) نفس المصدر السابق، ص (٢١٦)

ويقيمون جسراً من الخشب، ينتقل عليه الجند لقتال العدو، وكان يبطل عمل الكلاليب بأن تقطع بفأس ثقيل[1].

ومن الأسلحة البحرية الشديدة الفتك «النار البحرية» التى استخدمها الروم وزودوا بها أساطيلهم. وكان العرب يجهلونها فى بادئ الأمر حيث لجأوا إلى إطفائها بالماء فازدادت اشتعالاً.

واستطاع الروم الاحتفاظ بسر هذه النار التى نسبت إليهم وعرفت باسم النار الاغريقية إلى القرن العاشر الميلادى- الرابع الهجرى.

واستطاع العرب الوقوف على سر هذه النار وتركيبها، فكانت تتكون من كبريت نقى، وحامض الطرطريك، والصمغ الفارسى والقار الخام والنترات، فإذا مزج الخليط معًا، وغمس فى هذا الخليط نسيج كتان، ثم أشعلت فيه النار انتشر اللهب فى الحال، وتطفىء النار بالرمل فقط أو بالخل[2].

ثم تطور هذا السلاح فيما بعد وظهر منه نوع أشبه بالمفرقعات وكانت تتكون من وحدات كل منها تحوى رطلا من الكبريت المسحوق مع رطلين من الفحم البلدى أو ست أرطال من نترات البوتاس وملح البارود، ثم يوضع المزيج فى غلافات طويلة ضيقة محكمة أشبه «بالخرطوشة» وتغطى فتحتها بسلك حديدى، وتشعل هذه الأنابيب وتقذف فى الهواء بواسطة المجنيق ويسمع لها انفجار مدوى يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف، بيد أن النار التى زودت بها السفن الحربية كانت عبارة عن أنابيب من النحاس تقذف من مقدمة المراكب[3]

جـ- طرق الوقاية من هذه الأسلحة:

مما لاشك فيه أن كل محارب يحاول جاهداً حماية نفسه من طعنات خصمه، وبخصوص طرق الوقاية من السهام والرماح والسيوف، فقد سبق أن تحدثنا عنها فى باب الأسلحة، ولكن أخطر سلاح يجب أن يتقى خطره هو النفط أو النار

---

(١) د. إبراهيم العدوى- قوات البحرية العربية، ص(١٧٨)

(٢)، (٣) المصدر السابق، ص (١٨٢)

الإغريقية ودست السرعة المشتعلة في النفط الذي كانت تطلى به السفن، ومن طرق الوقاية لدفع هذه النار عن سفن المسلمين هو أن يغطوا حول سفنهم اللبود المبللة بالخل والماء حتى لا تشتعل فيها النار، ومن أن يطلوها بالخل الممزوج بالشب والنطرون، ومن أن يطلوا سفنهم بالطين المعجون بالنطرون[1]، وكان رجال الأسطول يحتمون من تلك النيران بدهن أجسامهم بالبلسان[2].

د- أنواع السفن:

كان الأسطول يتألف من الوحدات التالية:

١- الشواني:

جمع الشونة أو الشيني وهي مركب حربي كبير ذو أبراج وقلاع ويستعمل للدفاع والهجوم ويجهز في أيام الحرب بالسلاح والنفطية، ويحشد بالمقاتلة أو الجنود البحرية، وهو من أقدم أنواع السفن ومن أهم القطع التي يتألف منها الأسطول الإسلامي وغيره، لأنها كانت أكبر السفن وأكثرها استعمالاً لحمل المقاتلة للجهاد، وكان متوسط مايحمله الشيني الواحد مئة وخمسين رجلاً ويجدف بمائة مجداف.

ومن وصف الشواني من الشعراء ابن حمديس الصقلي السرقوسي، قال يمدح «أبا يحيى الحسن بن علي بن يحيى»[3].

أنشـــأت شـــواني طايرة ... وبنيت على مـــاء مـــدنا

بيـــروج قـــتـــال تحـــسبـــهـــا ... في شـم شـــواهقـــهـــا قننا

٢- الأغربة:

جمع غراب وهي نوع من المراكب لا تختلف عن الشواني، وسمي بهذا الاسم لأن مقدمته كانت تشبه رأس الغراب أو الطائر، وكان يسير بالقلاع كما كان يسير بعدد من المجاذيف لايتجاوز مائة وثمانين مجدافًا، ومن خصائصه أنه كان مزودً

---

(١) قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، ص (١٨٣)

(٢) السلاح في الإسلام- عبد الرحمن زكي، ص (٣٦).

(٣) المصدر السابق، ص (٢١)، القوات البحرية العربية ص (١٦٧)

محسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية[1].

٣- الحراريق:

وتعرف أحياناً بالحراقات لأن السفينة منها أو الحرقة اختصت بقذف العدو بالأسلحة النارية وأنابيب النفط، وكانت الحراقات تقل عن الشوانى فى الحجم وتمتاز بوجود المحانيق عليها لقذف العدو بالنار المحرقة، وقد حلت محلها اليوم المدمرة[2].

٤- الشلنديات:

مفردها شلندى وهى مركبة حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح وتعدل فى أهميتها الشونة والحراقة وأصلها فى اللاتينية Chelandsuan واستعملها العرب فقالوا: صندل ويستعملها الإفرنج لنقل البضائع[3].

٥- البطس:

وهى نوع من المراكب أخذه المماليك عن الصليبيين وكان يستعمل فى حمل المحانيق والمقاتلة والسلاح والذخيرة وسائر آلات الحرب، وهى عظيمة البناء وتشتمل على عدة طبقات يشغل كل طبقة منها فئة معينة من الجند بأسلحتها وتسيرها قلوع كثيرة تقدر بأكثر من أربعين قلعاً[4]. ومن المحتمل أن تكون قد انتشرت فى بلاد المغرب والأندلس لاحتكاكها بالصليبيين فى معاركهم المستمرة.

٦- القراقير والحمالات:

مفردها قرقور وهى نوع من السفن العظيمة التى تحمل الزاد والكراع للأسطول وأصل اسمها بالإسبانية «كاراكا» بينما تقوم الحمالات بنقل الذخيرة[5].

---

(١) السلاح فى الإسلام، ص (٢١)، والقوات البحرية العربية، ص(١٦٧)

(٢) السلاح فى الإسلام، ص (٣٦)

(٣) السلاح فى الإسلام، ص (١٣)، القوات البحرية العربية، ص (١٦٨)

(٤) السلاح فى الإسلام، ص (٤٧)، القوات البحرية العربية، ص (١٦٨)

(٥) القوات البحرية العربية، ص (١٦٩)

٧- الطرادات:

وهى جمع طرادة أو طريدة وهى سفن صغيرة على هيئة المراكب بدون سطح وتستعمل فى مطاردة العدو لسرعتها[1].

بينما الطريدة فهى مركب حربى سريع كان يستخدم فى نقل الخيل للأسطول وقد أخذ الإفرنج من العرب هذه التسمية فعرفت فى إسبانيا وإيطاليا.

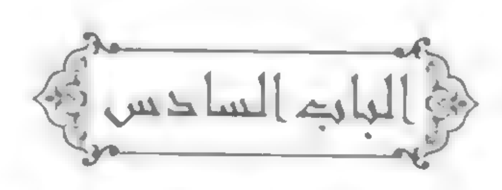
٨- الشباك:

وهى مراكب حربية صغيرة الحجم تستعمل عادة فى البحر المتوسط ويقال فيها أشبك وشبك وهى تحتوى على ثلاثة قلاع وأحيانا تسير بالمجاديف

هذه عجالة عن أسطول المرابطين والموحدين، وإن كان خارجًا عن موضوع البحث وهو (الجيوش الإسلامية وحركة التغيير) ولكن الباحث رأى أنه يعد من تتمة الحديث، لذا قد قمت بتقديم نبذة عنه لعلى أكون قد وفقت فى تقديم صورة ولو قريبة منه تجعلنا نقدر لهذا الأسطول قدره لما قام به من معارك بحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ليذود عن شواطئ بلاد المسلمين فى المغرب والأندلس.

(١) السلاح فى الإسلام، ص(٣٨)





دراسة مقارنة لبعض المعارك

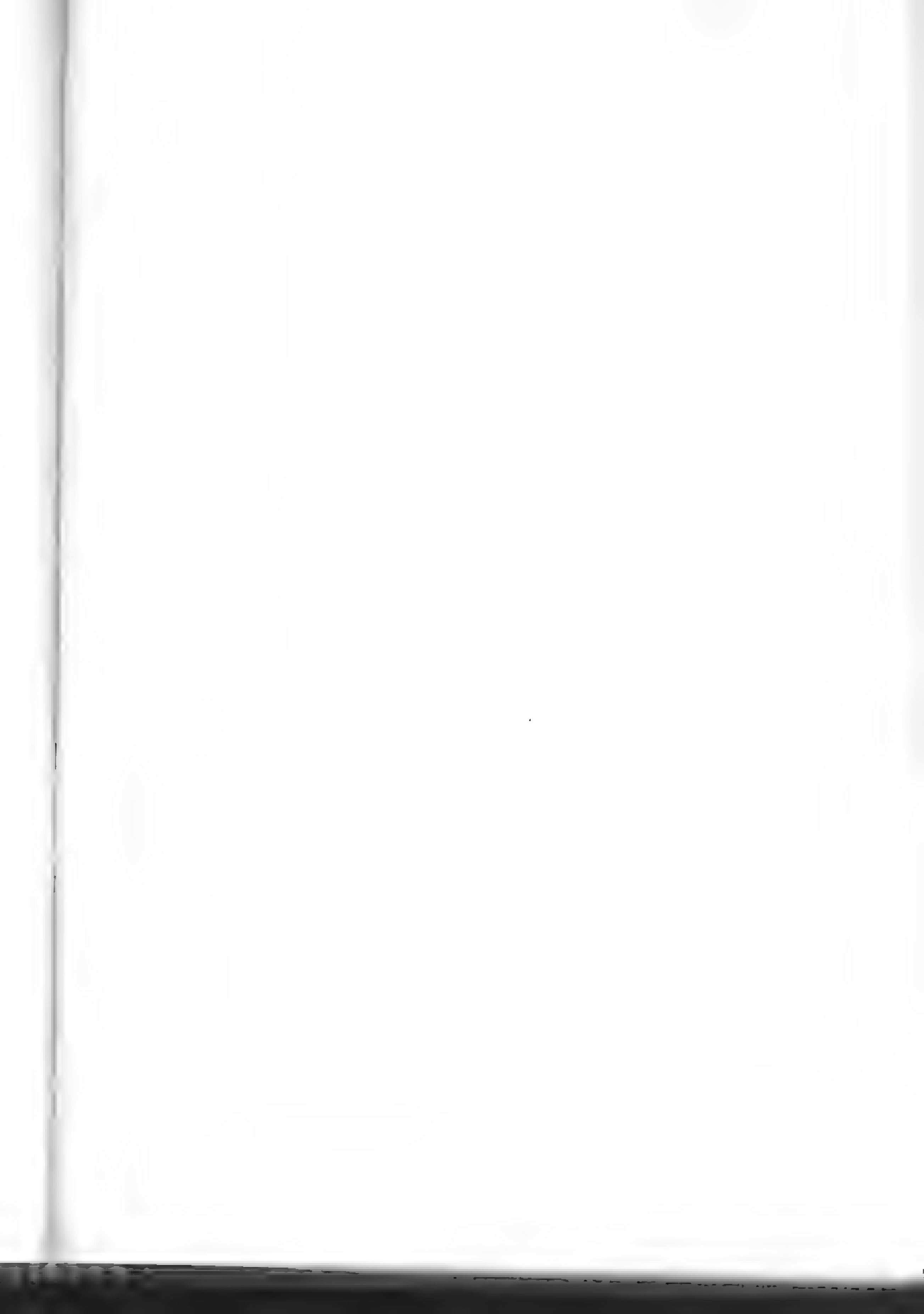
أولاً : من معارك المرابطين (معركة الزلاقة)

ثانيًا : من معارك الموحدين (معركة الأرك)

ثالثًا : المقارنة بين المعركتين

رابعًا : مناقشة آراء المستشرقين حول دولة المرابطين

خامسًا : خصائص الحياة العسكرية لدولتى المرابطين والموحدين



أولا: من معارك المرابطين (معركة الزلاقة)

الموقف العام

١- موقف المسلمين فى الأندلس:

أ- كانت جبهة الأندلس الإسلامية بعد عصر الطوائف يسودها الفرقة والضعف، وغلب كل أمير على ناحية منها حتى بلغ عددهم ثلاثة وعشرين ملكاً، وكل واحد منهم يتوجس خيفة من قواده أن يعلوا على بعض قلاعه وأن ينضموا إلى الأمير المجاور له، كما أنهم انغمسوا جميعاً فى الترف والنعيم مما أدى إلى ضعفهم وتخاذلهم أمام ملك قشتالة الذى رأى فى تهيار جبهة الأندلس فرصة سانحة للقيام بحركة استرداد كبرى لبلاد الأندلس وقام بعدة حملات حربية تلاحقت حلقاتها فى الضغط على الجبهة الإسلامية توجت باستيلاء ألفونسو على مدينة طليطلة.

وكان سقوط «طليطلة» ضربة قاصية للمسلمين فى الأندلس إذ إن ألفونسو لم يقنع بها بل استولى على جميع الأراضى الواقعة على ضفتى نهر تاجة وعلى قلاع مدريد ومقودة، ووادى الحجارة، وقلعة رباح، بل غدا يهدد قرطبة وماردة وبطليوس.

وهنا رأى الأمراء المسلمون فى الأندلس شبح السقوط ماثلاً أمام أعينهم فاتحدوا لأول مرة واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا حداً لفتوح ألفونسو، ولما كانت قوتهم مجتمعة لا تكفى لرد عدوانه، لذا اتفقت كلمتهم على الاستنجاد بقوة خارجية

ويكفى لبيان أن طلب الاستنجاد هذا أصبح ضرورة ملحة ما جاء فى كتاب «أبى بكر» وزير ابن عباد أكبر أمراء الأندلس (لقد غصت المساجد المتروكة بالقساوسة من أعداء الدين ونشرت الصلبان فوق المنابر التى كان يتلى فيها الأذان من قبل، وأخذت النواقيس تقرع من فوقها للقداس بعد أن كان يدعى الصلاة)[1].

---

(١) انظر رسالة الماجستير المقدمة من محمد إبراهيم زغروت إلى كلية دار العلوم فى جامعة القاهرة سنة ١٩٨٢م من صفحة (٢٥٨) وما بعدها، وكذلك انظر للباحث مقالة فى مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد السادس سنة ١٤٠٤هـ بعنوان معركة الزلاقة

ب- إذن ما هى الوجهة التى سيطلبون منها النجدة والغوث؟ بلا شك أنها تلك القـوة الناشئة فى بر عدوة المغـرب، إنها قـوة إخوتهم فى الدين، تلك هـى قوة المرابطين، فـقد اتـفقت كلمـة هؤلاء الملوك على الاسـتنجـاد بهم واسـتدعـائهم للأندلس.

فأمت مدينة مراكش وفود شعبية كبيرة[1] قدمت من الأندلس بزعامة بعض الفقهاء تطلب العون والغوث من أمير المرابطين، الذى كانت سيـاسته - والوفود الشعبية تعلم ذلك - ترمى إلى المحافظة على الوحدة الإسلامية، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأراضى الإسلامية فى إسبانية، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالجهاد فى سبيل الله.

٢- موقف النصارى فى إسبانيا:

وإذا كان القرن الخامس الهجرى قرن ضعف للجبهة الإسلامية فى حوض البحر المتوسط وغرب أوروبا حـيث سقطت الخلافة الأموية وتمـزق شمل الأندلس، فإنه على الصعيد الآخر بدأت حركة المقاومة النصرانية تدخل فى طور جديد من أطوار نضالها هو طور الاسـترداد، فقد انهارت المقاومة الإسلامـية على غير انتظار وبات على القـوى المسيحـية أن تجمـع شملها وأن توحـد صفـوفها لتـرد المسلمين على أعقابهم.

وقد بدأت حركة الاسـترداد هذه على يد الملك «شانجة» الكبير سنة ١٠٠٠م[2] الذى استـطاع أن يوحد قـوى النصارى فى نبـرة، وقشـتالة، وليـون، وأرغونة، وبرشلونة عن طريق المصاهرات حتى بسط سيادته على إسبانيا النصرانية

ولما خلفه ابنه «فـردناند الأول» أضفى على حـركة الاسترداد روحـها الصليبـية حيث بدأ المسيحـيون فى كافة جهات أوروبا ينظرون إليها على أنـها حركة حروب مقدسة.

---

(١) ابن عذارى أبو عبد الله محمد المراكشى ت ([illegible]) البيان المغرب فى [illegible] ملوك الأندلس والمغرب.. القسـم الثالث تحقيق مجموعة - ط تطوان ١٩٦٠م نشر معهد مولاى الحسن بتطوان ج (١) ص (٣١١)

(٢) حسـن أحمد محـمـود (الدكتور) قيام دولة المرابطين صفحـة مشرقة من تاريخ المغرب - ط ١٩٥٧م ص (٢٤٨)

وباركت الكنيسة الرومانية هذه الحركة وخلعت عليه لقب الإمبراطور لتؤكد سيادته على إسبانيا المسيحية، ومن هذا المنطلق بدأ يطالب بإخضاع المسلمين في الأندلس لسلطانه، بل طالب بإجلائهم عن البلاد، فقد روى «ابن عذاري» أنه قال: «إنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديمًا في أول أمركم فقد سكنتموها ما قضي لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم»[1] وقد جنى «فرديناند» ثمار حركته تلك حيث بنى استراتيجيته في مدافعة المسلمين على خطة ذات شقين:

أ- إرهاب المسلمين وبث الذعر في قلوبهم فلا يدعهم يتذوقون طعم الراحة أو الطمأنينة، فيدفعهم إلى حرب مستمرة تثقل كواهلهم وتستنفد طاقتهم وأموالهم، عندئذ يضطرون إلى دفع الجزية وتقديم الأموال لدفع خطره، وقد حدث ما أراد حيث سارع كل من صاحب طليطلة وإشبيلية وبطليوس وسرقسطة في دفع الجزية إليه وجنى من وراء ذلك أموالاً طائلة.

ب- وإذا ما أنس من أمراء المسلمين ضعفًا مضى في توسعه لا يلوي على شيء فقد هاجم قلمرية، واتجه صوب الشرق فهاجم سرقسطة ثم انحدر إلى الجنوب فحاصر طليطلة وإشبيلية وبلنسية، وتمخضت حملاته المتعددة عن توسيع رقعة أملاكه[2] وما كاد الأمر يؤول إلى «ألفونسو السادس» حتى عمل على استمرار حركة الاسترداد حيث جمع أطراف ملك أبيه وأمعن في التقرب من الكنيسة الرومانية فوثق صلته بها واستدر عطفها، وأصبحت هذه الحركة حربًا صليبية ترعاها كنيسة روما وتجند المسيحيين من أجل المشاركة فيها.

وسار ألفونسو السادس على خطة أسلافه فعمد إلى ضرب الحصار حول القلاع والحصون بينما تعمل قواته على إتلاف الزرع وإهلاك الضرع، حتى إذا عض الجوع المحصورين سلموا للطاغية بدون قيد أو شرط. ثم قام بعدة حملات حربية تلاحقت حلقاتها في الضغط على الجبهة الإسلامية قد توجت باستيلائه على «طليطلة» عاصمة القوط القديمة.

---

(١) البيان المغرب - مرجع سابق - ج (٣) ص (٢٨١).

(٢) قيام دولة المرابطين - مرجع سابق - (٢٥١).

وكان لسقوط هذه المدينة أثره العميق على الحصون الإسلامية والنصرانية فالمسلمون قد تمشى الرعب فى أوصالهم وبادروا إلى ألفونسو السادس يخطبون وده ويسترضونه بالمبالغة فى دفع الإتاوة ولكنه لم يقنع بذلك بل عمد إلى اقتحام الديار وضرب الحصار على الحصون الإسلامية فأخذت تتهاوى أمامه واحدة بعد الأخرى

وتضاعفت آمال النصارى بسقوط طليطلة عاصمة القوط القديمة، وسما قدر ألفونسو السادس فى نظر معاصريه فاتخذ لقب (ذو الملتين) وصار يكاتب أمراء المسلمين قائلاً: «من الإمبراطور ذى الملتين المفضل أدفونش بن شانجة»[1]، وقد أشار عليه أتباعه بلبس التاج فقال: لا حتى أطأ ذروة الملك وآخذ قرطبة واسطة السلك[2].

وعندما رأى المسلمون بالأندلس شبح سقوط المدن الإسلامية ماثلاً أمام أعينهم اتحدوا لأول مرة واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا حداً لأطماع ألفونسو السادس وإن كانت قوتهم مجتمعة لا تكفى لرد عدوانه أو الدخول معه فى معركة حاسمة. ومن هنا تطلب الأمر أن يستنجدوا بقوة إسلامية أخرى. إذن ما هى الوجهة التى سيطلبون منها النجدة والعون؟ ومن هم الذين سيستدعون للجهاد فى الأندلس؟

ظروف الجبهة الإسلامية فى المغرب العربى:

إنها بلا شك تلك القوة المؤمنة الناشئة فى بر عدوة المغرب، إنها قوة المرابطين التى قامت من أجل الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمة الإسلام، ودانت لها بلاد المغرب الإسلامى وبلاد السودان حتى جنوب نهر السنغال فى دولة قوية فتية تحت قيادة الأمير «يوسف بن تاشفين»، وقد أجمعت آراء الفقهاء والأمراء فى الأندلس وعلى رأسهم أميرهم الأكبر «المعتمد بن عباد» أمير إشبيلية على استدعائهم للمشاركة معهم فى جهاد المسيحيين بالأندلس. فأمت مدينة «مراكش» حاضرة المرابطين آنذاك وفود شعبية من الأندلس يحملون كتاب «ابن عباد» إلى «يوسف بن تاشفين» يطلبون العون ويستصرخون الهمم.

---

(١) قيام دولة المرابطين - ص (٢٥٤)

(٢) ابن بسام: أبو الحسن على الشنتريني - ت (٥٤٢هـ - ١١٤٧م) الذخيرة فى محاسن الجزيرة - ط القاهرة ١٣٥٨ هـ - ط بيروت ١٩٧٨م - تحقيق إحسان عباس - القسم الرابع المجلد الأول، ص (١٣١)

ومما جاء في بعض هذه الكتب التي وردت من ابن عباد وغيره «وقفت على الجهاد عزائمهم وصح العلم بذلك لدعوة الإسلام غير ناصر، وعلى غزوة المشرك أقدر قادر، فوجب أن تستدعى لما أعضل من الداء وتستغاث...»[1] ولما وقف يوسف بن تاشفين على حقيقة الأمر وظهر له مدى الخطر الذي يتهدد إخوانه المسلمين بالأندلس رفع لواء الجهاد، وبعث رسله يجوبون أرجاء المغرب محرضين المسلمين على الخروج إلى جهاد النصارى بالأندلس مبينا لهم كل ذلك، فقد روى عنه أنه قال: «... ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش إنما هم أحدهم فرس يروضه»[2].

الزعامات السياسية في المعسكرين

أولاً: في المعسكر الإسلامي:

أ- في المعسكر الأندلسي:

كانت أبرز شخصية إسلامية في المعسكر الإسلامي الأندلسي هي شخصية «المعتمد بن عباد» أمير إشبيلية، فقد كان صاحب فكرة استدعاء المرابطين إلى الأندلس، تبنى الفكرة ودافع عنها، وراسل «يوسف بن تاشفين» يصور له سوء الحال ويلهب حميته وحماسته ويستدر عطفه، وتعهد بتموين الجيوش الإسلامية وتقديم كافة مستلزمات المعركة، وهو الذي قاد معسكر الأندلسيين في معركة الزلاقة وتحمل الصدمة الأولى للإسبان حتى خرجت المعركة عن نصر مبين للمسلمين.

ب- في المعسكر المغربي:

كان «يوسف بن تاشفين» أقوى الشخصيات وأبرزها في المعسكر المغربي بل في المعسكر الإسلامي كله، فقد كان محط أنظار مسلمي الأندلس، فهو البطل المنقذ الذي تطلعت إليه الأنظار وانعقدت عليه الآمال، قاد معركة الزلاقة بعد أن خطط لها ونفذ خططه بدقة وحكمة، وحقق النصر للمسلمين ووضع حداً لمطامع ألفونسو السادس وصان الأندلس من أن تتردى في أيدي الإسبان قرابة قرنين من الزمان.

---

(١) المصدر السابق - مخطوط بغداد القسم الثاني، ص (٢٥٩)

(٢) المراكشي محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي - ت ٦٦٩هـ - المعجب في تلخيص أخبار أفريقية والمغرب - تحقيق محمد بن سعيد العريان - ط القاهرة (١٣٦٨هـ - ط ١٣٣٢هـ) ص (١٠٣)

ثانيًا: فى المعسكر المسيحى:

كان من أبرز الشخصيات فى المعسكر الأسبانى النصرانى شخصية «ألفونسو السادس» الذى حشد قوى النصارى واستنفر همم الأمم المسيحية، فدوت أصوات الاستغاثة والاستنجاد فى أرجاء أوروبا، وقد عملت الكنيسة الرومانية على إذكاء الحماس فى نفوس المتطوعين من النصارى فخف فرسان إيطاليا وقشتالة وارغونة وجليقية وليون وغيرها لنجدة أبناء عمومتهم من الإسبان والمشاركة معهم فى معركة فاصلة ضد المسلمين[١]

أهداف الطرفين

أولاً: هدف المسلمين:

كان هدف المسلمين من لقاء النصارى فى هذه المعركة هو استنقاذ جزيرة الأندلس من أيدى الإسبان وذلك بوضع حد لغطرسة ألفونسو السادس وكسر شوكته ثم استرداد مدينة طليطلة التى حزنت من أجلها قلوب المسلمين فى الأندلس بعد سقوطها فى أيدى الإسبان.

ثانيًا: هدف النصارى:

كان هدف النصارى الإسبان فى هذه المعركة مواجهة جيوش «يوسف ابن تاشفين» والقضاء عليها، وبذلك يخلو لهم الجو فى الأندلس مع ملوك الطوائف فيسومونهم سوء العذاب ويستنزفون أموالهم وطاقاتهم ثم يستردون ما بقى فى أيديهم من ممالك وقلاع حسب خطتهم المرسومة فى حركة الاسترداد الكبرى.

الاستعداد للمعركة الكبرى «الفتح التعبوى»

١- القوات المتضادة:

اختلفت الروايات العربية والنصرانية فى تقدير قوات المسلمين والنصارى التى اشتركت فى معركة الزلاقة على النحو التالى[٢]:

---

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين - ترجمة عنان - ط القاهرة ١٩٥٨م - ج (١) ص (٨٣)

(٢) المصدر الأول فى تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ ج (١) ص (٨٤)، والثانى فى الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية - مؤلف مجهول نشر علوش - رباط الفتح سنة ١٩٣٦م - طتونس ١٩٢٣م.

رقم الرواية	القوات الإسلامية		المجموع	قوات النصارى		المجموع
	مرابطون	أندلسيون		مشاة	فرسان	
١	٧٠ ألفًا	٦٠ ألفًا	١٣٠ ألفًا	١٠٠ ألف	٨٠ ألفًا	١٨٠ ألفًا
٢	٢٤ ألفًا	٢٤ ألفًا	٤٨ألفًا	٤٠ ألفًا	٤٠ ألفًا	٨٠ ألفًا
٣	لم يذكر عدد المسلمين		-----	٢٠ ألف	٨٠ ألفًا	٢٨٠ ألفًا

من الجدول السابق تبدو لنا عدة ملاحظات يجب أن توضع فى الاعتبار.

١- دأبت كل من الروايتين العربية والنصرانية فى المبالغة فى تقدير قوات أعدائها، وفى نفس الوقت تقلل من عدد جيوشها أو تلتزم الصمت أحيانًا مما يمثل عقبة أمام الباحث فى التقدير الحقيقى للقوات المتضادة.

٢- وإذا كان لنا من رأى فى تقدير عدد القوات المتضادة فيمكن أن نلتقى مع الرأى الثانى لصاحب كتاب الحلل الموشية الذى قدر قوة المسلمين (٤٨ ألفًا) وقوة النصارى (٨٠ ألفًا) وهى أكثر الروايات اعتدالاً وبعدًا عن المبالغة وأقرب إلى الحقيقة.

٣- يستخلص من الروايات المختلفة فى تقدير القوى المتضادة أن عدد المسلمين كان أقل من عدد النصارى فى هذه المعركة. وهذه حقيقة أشارت إليها بعض المراجع المسيحية[1].

٢- مقارنة القوات:

يبدو من المقارنة بين القوات المتضادة أن هناك ثلاثة فروق بين قوات المسلمين وقوات النصارى تتضح فى الآتى:

١- أن العناصر المشتركة من المسلمين كانت مقصورة على مسلمى المغرب والأندلس فقط فلم يشترك فى هذه المعركة أى عناصر إسلامية أخرى من المشرق

= ص (٣٨)، والثالث روض القرطاس لابن أبى زرع الفاسى: الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله ت (٧٢٦هـ - ١٣٢٦م) الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - ط الرباط ١٩٣٦م، ط أوبسالة سنة ١٩٦٣م تحقيق ونشر كارل تورنبرج - ط ١٩٣٣م - ص(٩٠)

(١) أشباخ، تاريخ الأندلس - مرجع سابق، ح (١) ص (٨٥)

الإسلامي، بينما تكونت جبهة العدو الإسباني من عدة أجناس مختلفة من إيطاليا وفرنسا وجليقية وقشتالة مما جعلها حربًا صليبية أذكت أوارها الكنيسة الرومانية.

٢- على الرغم من أن عدد القوات الإسلامية كان أقل من عدد قوات النصارى إلا أن روح الجهاد الخالصة التي اضطرمت في نفوس المسلمين كانت عوضًا عن ذلك النقص.

٣- أما عن تسليح القوات فقد كان بينهما تباين واضح، فالمرابطون لم يألفوا السلاح الثقيل من لبس الخوذات والدروع والزرد، كما يفعل أهل الأندلس في حروبهم، فقد اعتاد المرابطون التسلح بأسلحة خفيفة تناسب طبيعتهم البدوية البسيطة، فكانوا يتسلحون بدرق اللمط والقنا الطوال والمزاريق المسنونة[1]، واستعان الجيش المرابطي بدرق من لزمة بأسهم والنشاب عرفت بتنقص لزمالة وشدة الفتك، بينما تسلح النصارى بأسلحة ثقيلة من لبس الخوذات والدروع السابغة والزرد حيث لم تظهر إلا محاجر العينين، ولا يخفى مدى ما كان يتمتع به الفارس المرابطي من خفة الحركة والمرونة حيث تحرر تمامًا من الأسلحة الثقيلة التي تعوق حركته وتمنع مرونته.

٣- حشد القوى:

أولاً حشد المسلمين.

١- في ربيع الأول ٤٧٩هـ - ١٠٨٦م عبر يوسف بن تاشفين بجيشه من سبتة، ولما كادت السفن تنشر قلاعها حتى صعد إلى مقدمة سفينته ورفع يديه نحو السماء ودعا الله مخلصًا «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين فسهل عليّ جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه»[2]. وشاء الله أن يهدأ البحر وجارت السفن سراعًا إلى شواطئ الأندلس، ولما نزل أرض الأندلس سجد لله شكرًا.

---

(١) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية - مرجع سابق - ص(١١)

(٢) ابن أبي زرع - روض القرطاس، ص (٩٣)

٢- ثم تقدم صوب قلعة الجزيرة الخضراء في جحفل ضخم تقدمته الفرسان و«المعتمد بن عباد» أمير إشبيلية، ثم أمر «ابن تاشفين» بتحصين هذه الجزيرة ورتب بها حامية خرسانها وشحنها بمقادير هائلة من الأقوات والذخائر لكي تغدو ملاذًا له ولجنوده إذا ما منيت خطته بالفشل، ثم غادرها في جيشه إلى مدينة إشبيلية.

٣- فما كادت قواته تقترب من هذه المدينة حتى حف الناس إليه من سائر الجهات متطوعين للمشاركة في الجهاد، فغصت بهم المساجد والرحبات وانضمت إليه قوات الأندلس النظامية، كل أمير يقود جيشه، وعنى أمير إشبيلية «المعتمد بن عباد» عناية خاصة بإعداد مقادير عظيمة من المؤن، ولبث «يوسف بن تاشفين» في إشبيلية ثمانية أيام يرتب فيها قواته وينظم أموره.

٤- ثم تحركت القوات المشتركة صوب مدينة «بطليوس» في أهبة واستعداد كامل على النحو التالي:

قوى فرسان المرابطين في الطليعة وعددهم عشرة آلاف فارس يقودهم الأمير المرابطي «أبو سليمان داود بن عائشة».

قوى الأندلس مجتمعة ويقودها الأمير الأندلسي «المعتمد بن عباد» وكانت تؤلف جيشًا خاصًا منفصلاً عن جيش المرابطين.

قوى جيش المرابطين ويقودها الأمير المرابطي «يوسف بن تاشفين» بنفسه وقد سار بعدهم بيوم واحد.

وكان ينزل في المساء المحلة التي يغادرها الأندلسيون في الصباح، وذلك تمويهًا للنصارى حتى لا يقدروا قوة المسلمين الحقيقية.

ووصلت الجيوش مجتمعة إلى مدينة «بطليوس» ولبثت هناك ثلاثة أيام يضعون خطتهم الحربية.

ثانيًا: حشد النصارى:

١- في تلك الأثناء كان نبأ مقدم المرابطين إلى الأندلس قد وصل على جناح السرعة إلى معسكر النصارى أمام أسوار «سرقسطة»، وكان ألفونسو السادس قد

ركز معظم قـواته عليها كي يعجل بسـقوطها، ولم يحمله على رفع الحصار عنها سوى الخوف على طليطلة وعلى أراضيه الجنوبية، ثم أعاد حشد قواته وتأهب بكل طاقاته ليخوض المعركة مع المرابطين.

٢- ثم اتحد ألفونسو السادس إزاء هذه المحنة مع «سانشور اميريز» ملك أرجون ومع الكونت «برنجار ريموند»، وكان الأول مشـغولاً بمحـاصرة طرطوشـة والثانى يتأهب لغزو بلسية، فـعدل كل منهما عن مشروعه وانضما بقـواتهما إلى ألفونسو السادس. ثم حشـد ألفونسو قوات أخرى من جليـقية وليون وبسكونية وقـشتالة، ووفدت عليه أيضًا أعداد غفيرة من فرنسا وإيطاليا[1] مما أضفى عليها صفة الحروب الصليبية.

ونظم ألفونسـو قواته فجـعلها فى جيـشين، وجه أحدهمـا إلي غرب الأندلس فأشبلية عـلى أن يجتمع مع الجيش الثانى الذى قاده بنفسه فى طريانـة قبالة قصر «ابن عباد». وقد وصلت هذه القـوات جميعها إلى مدينة بطليـوس حيث الالتقاء المرتقب مع المسلمين.

ثم عسكر الجيشـان على مقربة من بطليوس فى سهل تتخلله الأحـراش تسميه الرواية العربية (الزلاقة) أو السهلة وتسمـيه الرواية النصرانية (سكر الياس)، وفرق بين الجيشين نهر صغير يسمى بنهر «حجير» أو نهر بطليوس. وضرب «يوسف بن تاشفين» محلته وراء ربوة عالية منفصلاً عن محلة الأندلسيين أمام محلة النصارى.

٤- خطة المعركة:

أولاً: خطة المسلمين:

بناء على المعلومات التى حـصلت عليها الطلائع والعـيون، وبعد دراسة مـتأنية لقوات النصارى وحـجمها وطبيـعة أرض المعركة والعـوامل الجوية، وضعت خطة المسلمين، وقد كـانت خطة جمـاعية قـائمة على الشورى والـتفاهم حـيث جمع يوسف بن تاشـفين قـادة المسلمين فى مـؤتمر حـربي وأدلى كل منهم برأيه، وقـد حرص على أن يستمع إلى آراء الأندلسيين بصـفة خاصة لأنهم أكثر دراية بأسلوب

---

(١) أشباخ – تاريخ الأندلس – مرجع سابق، ص(٨٠)

النصارى في القتال، وعلمهم بمكرهم وخداعهم، وقد تم الاتفاق على أن تكون الخطة والأسلوب كالآتي:

١- اختيار أرض بطليوس مكانًا للمعركة حيث تحميه الأحراش وتكثر فيه الربوات.

٢- انفصال الجيش الأندلسي عن جيش المرابطين، على أن يواجه الأندلسيون النصارى مواجهة كاملة لإنهاك قواهم، وقد عبئ جيش الأندلسيين كالآتي

«المعتمد بن عباد» يرابط بجيشه في قلب المقدمة، «والمتوكل بن الأفطس» في الميمنة، وأهل شرق الأندلس في الميسرة، وبقي الأندلسيين في الساقة.

٣- يتم بتوزيع جيش المرابطين كمائن تفاجئ العدو بعد اصطدامه بجيش الأندلسيين، وتمنعهم من التراجع أو الفرار.

اتفق القواد على أن يكون أسلوب القتال كالآتي:

* يخوض المرابطون القتال بنظام الصف وهو نظام من التعبئة يختلف عما تعود عليه النصارى في قتالهم.

* اعتمد الجيش المرابطي على نوعية من السلاح «السهام والإبل» مما كان له أكبر الأثر في حسم المعركة كما سنوضح بعد.

ثانيًا: خطة النصارى:

وكانت خطة النصارى لا تقل إحكامًا عن خطة المسلمين فكانت تعتمد على:

١- اتخاذ سهل الزلاقة مكانًا لمرابطة الجيوش وميدانًا للمعركة.

٢- قسم الجيش إلى قسمين رئيسين هما:

أ- قسم يقوده الكونت «جارسين» والكونت «رودريك» وخصص لمهاجمة «المعتمد بن عباد».

ب- القسم الآخر يقوده «ألفونسو السادس» بنفسه وقد رابط في القلب، بينما كان «سانشو راميرز» ملك أراجون، والكونت «ريموند» جناحين له[1].

---

(١) أشباخ -تاريخ الأندلس - ج (١) ص (٨٧)

جـ- أما فرقة الطلائع فكانت بقيادة البرهانس

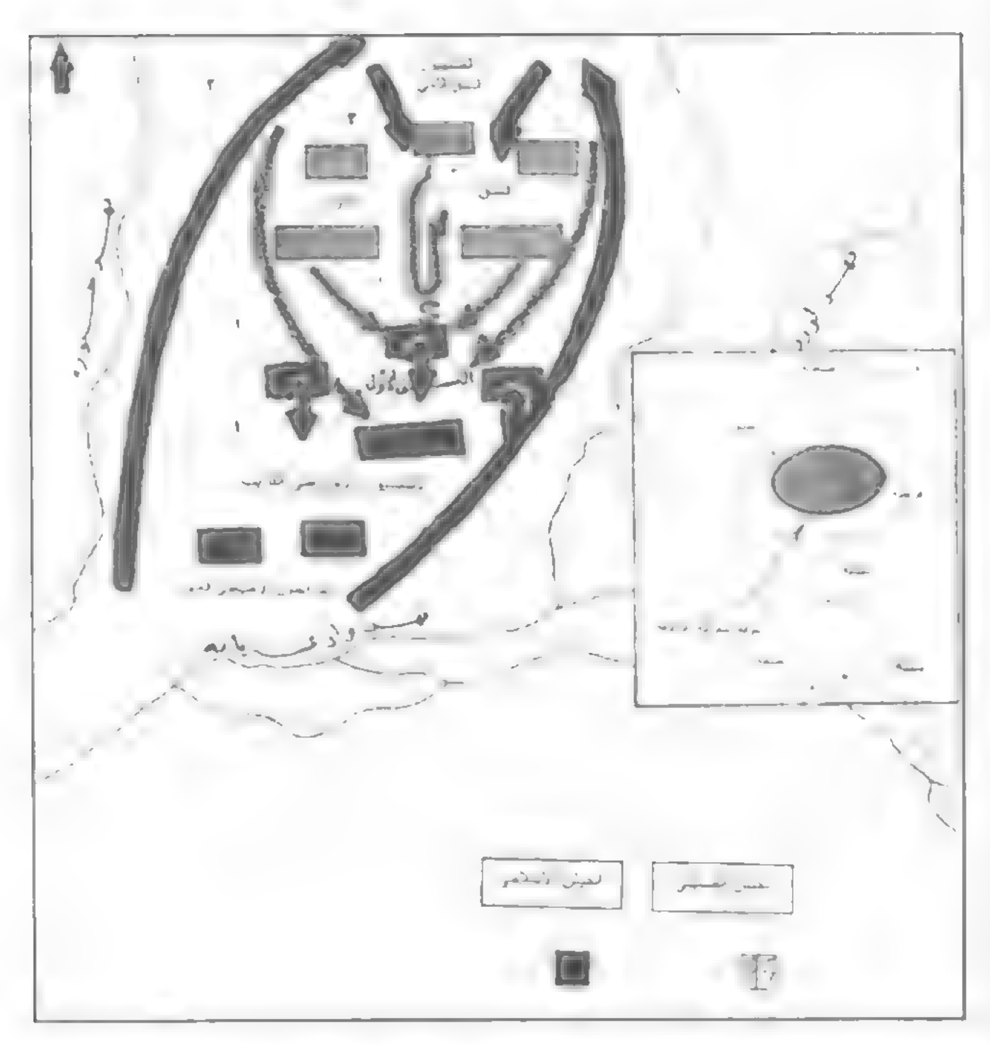
٣- أن تبدأ الطلائع بالهجوم على المعسكر الأندلسى ثم يعقبه هجوم كاسر من جيش النصارى الأول الذى يقوده الكونتان «جارسيا» و«رودريك» حتى يتم القضاء على أهل الأندلس، ثم ينصرف الجيش الثانى بقيادة «ألفونسو السادس» إلى حصون المرابطين فيسحق سهم ويوردهم موارد التهلكة، وبذلك يقضى على قوة المعسكرين الإسلاميين

تحليل خطة المعركة:

لقد حاول القائدان المرابطى والمسيحى التوفيق فى وضع خطتيهما العسكرية، إلا أن خطة القائد المرابطى المسلم كانت أكثر توفيقًا إذ برهنت على عبقريته الفذة كقائد عسكرى مسلم فى القرن الخامس الهجرى ويتضح ذلك مما يلى:

١- اختيار كل من القائدين أرض بطليوس ميدانًا للمعركة أثبت سداد رأى كل منهما، فهما يحصلان على أدنى حد لكل منهما، فهى قريبة من ديار المسيحيين يستطيع أن يجلب منها المؤن والذخائر والمقاتلة فى أى وقت يشاء، كما أن خلفه سلسلة من الحصون يستطيع أن يعتصم بها إذا ما اضطر للانسحاب. أما «يوسف ابن تاشفين» فقد كان أبعد نظرًا فى اختياره من بطليوس ميدانًا للمعركة فهى قريبة من ديار بنى الأفطس يمكن أن يلوذ بها إذا ما انكسر جيشه فلا تكون خسارته كبيرة، فإذا ما باءت الجيوش الإسلامية كلها بالإخفاق تحصن بالجزيرة الخضراء التى سبق أن حصنها بحامية وأودعها الكثير من مؤنه وعتاده، وفى هذه الحالة تعتبر خط دفاع حصين له. هذا بالإضافة إلى طبيعة أرض المعركة التى تكثر فيها الأحراش والربوات العالية المناسبة لبث الكمائن التى اعتمدت عليها خطة «ابن تاشفين» بالدرجة الأولى.

٢- كما أن حشد جيوش الأندلس فى المقدمة عمل له ما يبرره، فهم أدرى بمسالك بلادهم وطرقاتها، وربما خالج «ابن تاشفين» الشك فى موقف الأندلسيين عندما يحمى الوطيس فيلوذون بالفرار ويتركون المرابطين لمصيرهم، لذا اقتضت خطته أن يصطلى الأندلسيون بالهجمة الأولى للنصارى، وفى الوقت نفسه كان يدرك عنف هذه الهجمة فساندهم بفرقة من فرسانه خففت من عنف الهجمة.



معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ شكل رقم (٣)

٣- أما اعتماده على نوعية خاصة من السلاح (الإبل والسهم)، فكان له أثره في تغيير سير القتال وإرباك فرسان النصارى. فقد أمر بعبور جماله إلى أرض المعركة، فعبر منها ما غص ساحة القتال وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الأندلس قد رأوا جملاً قط، ولا ألفتها خيولهم، فصارت خيل النصارى تجمح من رؤيتها[1] وتفزع من رغائها.

وكان هدف يوسف من إدخال الإبل إلى ساحة المعركة أن يحدق بها عسكره ويتخذ منها منافذ لفرسانه تخرج للطعن ثم تعود فارة لتحتمي بها ثم يقذف بها خيول النصارى فتجمح بفرسانها، فيتخذ منها النبالة المسلمون فرصة سانحة بأن يسددوا سهامهم إلى تلك الخيول بدلاً من الفرسان.

واضطرب الفرسان بخيولهم حتى صار كل فارس مشغولاً بفرسه يحو عنه، وشغلوا عن المعركة بالحيرة من أمر خيولهم، فكانوا طعمًا سهلاً لرماح المسلمين وسيوفهم، وهذه الخطة هي نفسها التي اتبعها القائد «صلاح الدين الأيوبي» في انتصاره العظيم في موقعة «حطين».

٥- الرسالة قبل الحرب:

كان الموقف لا يحتمل التأجيل، فما تحمله جيوش المسلمين من المؤن كان قليلاً، مما يهدد تلك الجيوش بالجوع إذا طال مكثها في تلك البقعة، فأرسل «ابن تاشفين» رسالة إلى ألفونسو كما هو متبع في الشريعة الإسلامية، يخيره فيها بين ثلاث: اعتناق الإسلام، أو أداء الجزية، فإذا أبى الاثنين فعليه أن يبادر إلى القتال. ومما جاء في هذه الرسالة «لقد بلغنا يا أدفونش[2] أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن يكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا، فقد أجزناه إليك، وجمع الله في هذه البقعة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك وما دعاء الكافرين إلا في ضلال»[3]. فألقى ألفونسو الرسالة على الأرض وقال للرسول: قل لمولاك إننا سنلتقي في ساحة الحرب

---

(١) المقرى التلمساني: أحمد بن محمد التلمساني - ت (١٠٤١هـ - ١٦٣٣م) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - ط القاهرة ١٣٠٢ ط صادر ١٣٨٨هـ، ج (٢) ص (٥٢٦)

(٢) الأدفونش هو الاسم الذى أطلقته الرواية العربية على ألفونسو السادس

(٣) الحلل الموشية- مصدر سابق، ص (٣٥)، ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ت (٦٨١هـ - ١٢٨٧م) وفيات الأعيان وأنباء الزمان - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - (مطبعة السعادة ١٣٦٧هـ، طبعة بولاق ١٢٩٩هـ - ج (٢) ص (٤٨٣).

مرحلة سير الاقتراب:

تهيأ الطرفان للمعركة واقترب كل منهما من الآخر وجمعت بينهما ساحة القتال، وأخذ كل معسكر يحث أفراده فوقف العلماء والفقهاء فى صفوف المسلمين يحثونهم على الصمود والاستشهاد، ووقف الرهبان والقسس فى صفوف جيش النصارى يحثونهم على القتال.

المرحلة الافتتاحية:

بدأت طلائع المعركة بهجوم عنيف من النصارى إذ سير ألفونسو القسم الأول من جنده بقيادة الكونتين «جارسيان وروردريك» لينقضا بمنتهى العنف على معسكر الأندلسيين الذى يقوده «المعتمد بن عباد»، وكان هدف ألفونسو أن يبعث بذلك الهجوم المفاجئ الاضطراب والفزع فى صفوف الأندلسيين ولكن أشد ما أدهش النصارى إذ رأوا أمامهم جيشًا من فرسان المرابطين قوامه عشرة آلاف فارس يقوده «داود ابن عائشة» يساند مسلمى الأندلس ويحول دون تحقيق الأهداف الأولى للهجوم النصرانى[1].

ولما عرف يوسف بن تاشفين أن قوات داود ابن عائشة لم تستطع سد هذه الثغرة دفع إلى أتون المعركة جيشًا آخر بقيادة «سير بن أبى بكر» على رأس قبائل زناته ومغراوة، ولم يشترك هو فى القتال، وكان هدفه من ذلك أن تستمر المعركة دائرة الرحى لأطول وقت ممكن حتى تشغل على النصارى تفكيرهم وتستغرق جل اهتمامهم فلا يشعرون بما يدبره يوسف بن تاشفين من عنصر المفاجأة ويكون الإجهاد قد بلغ منهم أقصاه.

مرحلة القتال المتلاحم:[2]

وهال الأندلسيين منظر فرسان النصارى فى دروعهم الحديدية «وكأنهم كتل من السحب القاتمة» فأيقن بعضهم بعد عنف الهجمة الأولى بالهزيمة فلاذوا بفرار

---

(١) روض القرطاس - مرجع سابق - ص (٩٤).

(٢) انظر الخريطة الموضحة لالتحام القوات، ص (٣٢١) شكل رقم (٣).

مشين، بيد أن فرسان أشبيلية بقيادة «المعتمد بن عباد» صمدوا أمام النصارى وقاموا قتال الأسود الضوارى، وتقدموا بذلك شرف الأندلس بمساندة إخوتهم المرابطين، وظل أمد الهجوم وظل معه صبر ابن عباد ورجاله، ولكن إلى حين.

وأيقن ألفونسو بالنصر عندما رأى مقاومة ابن عباد ورجاله تضعف تبعًا أمام سيل جنده الجارف، ورأى حركة الفرار تتسع بين مسلمى الأندلس شيئًا فشيئًا فترك النصارى مواقعهم الأصلية وأخذوا يتعقبون أهل الأندلس وهم يتقهقرون ويبتعدون عن مكان معسكرهم أملاً فى إتمام الهزيمة «بابن عباد» وفى هذه اللحظة الحاسمة والحرجة عمد «يوسف بن تاشفين» إلى مفاجأته المعهودة والتى غيرت من سير القتال، فقد وثب بجيشه فى أتون المعركة فى الوقت الذى أخذت فيه قوى النصارى فى الهبوط مصحوبًا بدوى طبوله الهائلة تدق دقًا فتهتز لها الأرض وترتعد لها فرائص الفرسان هولاً، فهاجم معسكر النصارى واستولى عليه وأضرم فيه النار، فاضطرت قوات ألفونسو إلى أن ترتد صوب المعسكر تريد أن تنقذه من الوقوع فى يد المرابطين.

وما كاد أهل الأندلس يعلمون بذلك حتى انقلبوا من الفرار إلى الهجوم وأطبقوا على النصارى من الخلف فأصبحوا بين شقى الرحى، وأجبر ألفونسو السادس على أن يخوض المعركة بين سندان ابن عباد ومطرقة ابن تاشفين، ودام القتال متلاحم بضع ساعات صورها لنا «ابن خلكان» بأنها كانت ساعات حرجة كانت الهجمات فيها سجالاً حول احتواء معسكر النصارى الذى اقتحمه المرابطون وقصدوا محلة الأدفونش «ألفونسو» فاقتحموها ودخلوها وفتكوا فيها وقتلوا وضربت الطبل وزعقت البوقات فاهتزت الأرض وتجاوبت الجبال والآفاق وتراجع الروم إلى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها، فصدموا أمير المسلمين فخرج لهم عنها ثم كر عليهم فأخرجهم منها، ثم كروا عليه فخرج لهم عنها، ولم تزل الكرات بينهم تتوالى....»[1].

---

(١) نقلا عن نفح الطيب - مرجع سابق - ج (٢) ص(٥٣٠)

مرحلة الحسم:

ولما حمي وطيس القتال لجأ ابن تاشفين إلى مفاجأة أخرى ينهي بها المعركة ويحسمها لصالحه حيث دفع بحرسه الخاص إلى ميدان المعركة وهي فرقة من العبيد السود قوامها أربعة آلاف أسود، دخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان، فانقضت على قوات النصارى انقضاض الصاعقة، فشقت طريقها إلى ألفونسو نفسه، وتلاحق به عبد أسود فتعلق به وقبض على عنان فرسه وانتضى خنجرًا كان متمنطقًا به فأثبته في فخذه فهتك حلق درعه ونفذ من فخذه، وجرحه جراحات ساخنة.

وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب وأدرك ألفونسو ورجاله أنهم يواجهون الموت بعد أن أفل طالعهم كل الأفول، ولما جن الليل وبسط الظلام جناحه على سهل الزلاقة الذي غطى بالجثث والدماء، بادر ألفونسو في ثلة من صحبه إلى الاعتصام بتل قريب، ولم ينج من جيش النصارى مع ملكهم هذا سوى قلة قليلة تقدر بخمسمائة فارس معظمهم جرحى، ولم ينقذهم من الموت سوى دخول الظلام حيث أمر يوسف بن تاشفين بوقف القتال.

مرحلة المطاردة:

يعتبر العسكريون مرحلة مطاردة العدو بعد هزيمته وتحطيم قواته من أهم مبادئ الحرب والتي يحرص عليها الجيش المظفر لأنها تعزيز للمكاسب الأرضية التي ظفر بها

والدارس لمعركة الزلاقة يجد أن المرابطين قد تقاعسوا عن مطاردة جيش النصارى المهزوم، وفي الحقيقة، إن هذا أحد المآخذ العسكرية التي نأخذها على المرابطين، فلو طاردوا عدوهم عقب ذلك النصر لكان حريًا أن تسحق المملكة النصرانية في هذا الوقت حيث لم يتركوا لهم وقتًا للنهوض من عثرتهم فكان بوسع المرابطين مطاردة القشتاليين وانتهاز فرصة انهيار جيشهم في محاولة لاسترداد طليطلة وهذه أحد الأهداف الرئيسية.

وإن كان بعض المؤرخين قد أشار إلى حدوث خلاف بين المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين بخصوص تقاعسه عن المطاردة إلا أننا نعزي ذلك على ما يبدو إلى ما يتحلى به ابن تاشفين من شيم أصيلة في معاملة جرحى العدو المقهور حيث روى عنه في هذا الصدد أنه لم يرد أن يحمله الزهو إلى الإسراف في التنكيل

العدو المقهور[1] وخاصة أن من عادة الملثمين فى الحروب أنهم يأنفون أن يطعنوا عدوهم من الخلف وهو يولى الأدبار، فهم لا يتعقبون من فر أمامهم[2].

الدروس المستفادة

للحرب بدون شك مبادئ تعتبر المفاتيح الرئيسية للنصر، ومبادئ الحرب وإن كانت مثار حديث العسكريين اليوم إلا أنها وجدت فى ظل العسكرية الإسلامية منذ قرون بعيدة، وقد طبقها المرابطون فى معركة الزلاقة بمهارة فائقة إلى مستوى التجربة المتبدة والدرس النافع لكافة العسكريين وإليك بعض هذه الدروس

١ - تم حشد القوى عند المسلمين بحشود ضخمة من النظاميين والمتطوعة وكانت على درجة كبيرة من الدربة والتمرين الذى أهلها للقتال، ظهرت فى مواجهتهم لجموع النصارى فى تلك المعركة التى خرج منها المسلمون بضرورة أهمية الجبهة الإسلامية المتحدة والتى أثبتت جدواها عندما توحد مسلمو المغرب والأندلس فى مواجهة قوى النصارى مجتمعة، وهذا بلا شك معضل الداء الذى تعانيه أمتنا الإسلامية اليوم فى مواجهة الصهيونية وعربدتها فى فلسطين

٢ - وعنصر المفاجأة كان من أهم العناصر التى هيأت النصر للمسلمين، وقد ظهر ذلك عند دخول «يوسف بن تاشفين» المعركة فجأة واحتوائه على معسكر النصارى بينما كان ألفونسو مشغولاً بمطاردة الأندلسيين. وكانت تلك المفاجأة هى عامل الحسم الذى أنهى به المرابطون هذه المعركة لصالحهم

٣ - ومن مبادئ الحرب التى عمل بها المرابطون هو مبدأ «الاقتصاد فى القوى» وقد لاحظنا ذلك فى خطة ابن تاشفين عندما كان يقذف إلى أتون المعركة بفرقة تلو الأخرى حسب ما يستدعيه موقف المعركة، ثم رأينا كيف ادخر قوة الحرس الخاص التى قذف بها إلى ميدان المعركة ليحسم أمرها لصالح المسلمين.

٤ - وإذا كان على القائد أن يحافظ على سلامة جنده والمشتركين معه فى المعركة وهو المبدأ الرابع من مبادئ الحرب فإن ذلك مبدأ كان نصب عينى ابن

---

(١) الحلل الوشية - مرجع سابق - ص(٤٩)

(٢) البكرى: أبو عبد الله بن عبد العزيز ت (٤٨٧هـ - ١٠٩٧م). المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب نشر دى سيلان، وهو مأخوذ من كتاب المسالك والممالك - ط ١٨٥٧م ص (١٦٦)، وانظر الرسالة السابقة نفس الصفحات

تاشفين فلم يدع الأندلسيين يواجهون عبء الهجمة الأولى للنصارى بل دفع إليهم بفرقتين من فرسانه يمتصان عنف هذه الهجمة ويطيلان أمد المعركة.

٥- وتعاون الجميع وتضامنهم من أجل الوصول إلى النصر كان من أهم المبادئ الحربية التي كفلت للمسلمين النصر، فقد تضافرت جهود الأندلسيين مع إخوانهم المغاربة على كافة المستويات والمحاور العسكرية، نلمس ذلك في مستوى القيادة والتموين والفرق المختلفة والنبالة، السيفة، الخيالة، الإبالة، المشاة، فلم يدخر أحد وسعًا إلا وأدلى به في دلو المعركة.

أما القيادة في هذه المعركة فقد كانت على مستوى عال حيث تميزت بروحها الجماعية الاستشارية التي يسميها العسكريون اليوم «القيادة المشتركة» في رسم الخطة وتوزيع سائر المهام والواجبات على القواد، وقد تحلى كل من القائدين ابن تاشفين وابن عباد بالإقدام والصبر والشجاعة والتي من شأنها بث الثقة في نفوس الجنود وقد ظهر ذلك في خوضهما المعمعة وإدارة المعركة بنفسيهما لا يباليان بالأخطار التي تحف بهما إنما كان هم كل منهما إحدى الحسنيين الظفر أو الشهادة.

٦- استنزفت معركة الزلاقة قدرة الصليبيين فلم يعد في مقدورهم قتال المسلمين إلا بعد مضي فترة طويلة، كما أنها حققت نصرًا مؤزرًا للمسلمين ردع ملوك الشمال ومنعهم من معاودة تحدياتهم لأمراء المسلمين بالأندلس.

٧- وكان لحسن تنسيق التعاون بين جيوش ابن عباد وابن تاشفين الفضل فيما أحرزه المسلمون من نصر مؤزر، وقد انتهج ابن تاشفين استراتيجية الاقتراب غير المباشر في ضرب مؤخرة ألفونسو السادس، ثم دخول المعركة بعد أن يكون ابن عباد قد أنهك جيوش الصليبيين واستنفد قواهم.

٨- وكان من نتائج الزلاقة أخيرًا أن ارتفعت معنويات المسلمين، واستعادوا الثقة بالذات والقدرة على هزيمة العدو، وقضى نصر الزلاقة على تمزق ملوك الطوائف لبعض الوقت، حتى حلت الخصومة بعدئذ بين الأندلسيين المقيمين في البلاد، والمرابطين القادمين من المغرب ولم تلبث هذه الخصومة أن اتسعت حتى قسمت المسلمين في الأندلس إلى قسمين يتربص كل واحد منهما بالآخر.

ثانيا: من معارك الموحدين (معركة الأرك)

الموقف العام فى الأندلس

١- الموقف على الجبهة الإسلامية:

أ- إلمامة تاريخية

فى قلب جنوب الصحراء المغربية ظهرت دولة المرابطين الكبرى على يد داعية إسلامى هو الشيخ عبد الله بن ياسين، استطاع أن يوحد بين قبائل صنهاجة الجنوب ويصنع منهم قوة عسكرية تضم بلاد المغرب ثم تعبر البحر لتجاهد أعداء الإسلام فى شبه جزيرة الأندلس، وتخوض فيها سلسلة من المعارك العسكرية كان على رأسها انتصار الزلاقة العظيم عام ٤٧٩هـ - ١٠٨٦م كما عرفنا

ثم شاء الله أن يتحول منحنى هذه الدولة من التقدم والتوطد إلى الإدبار والانهيار المفاجئ؛ فبينما هى فى أوج سلطانها إذ بها تجد نفسها فجأة أمام طفرة إسلامية قام بها الفقيه المسلم المهدى ابن تومرت «المغربى» فى مستهل القرن السادس الهجرى مستهدفًا بها تقويض ملك دولة المرابطين، وبعد صراع سياسى وعسكرى طال أمده توجت جهوده بسقوط مراكش حاضرة الدولة وإعلان قيام «دولة الموحدين» عام ٥٤١هـ - ١١٤٦م، التى شملت جميع أقطار المغرب العربى حتى حدود مصر بالإضافة إلى شبه جزيرة الأندلس.

وقد تعاقب على ملك دولة الموحدين مجموعة من الخلفاء بدأت بالخليفة «عبد المؤمن بن على» عام ٥٢٤هـ، وانتهت بأبى العلاء الواثق بالله عام ٦٦٥هـ، وفى عهد الخليفة الموحدى الثالث «يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن» ٥٨هـ - ٥٩٥هـ كان نصر المسلمين فى موقعة الأرك الشهيرة ضد النصارى فى الأندلس. فما الظروف والملابسات التى أدت إلى خوض هذه المعركة؟

ب- أسباب المعركة:

بعدما تولى الخليفة يعقوب المنصور مهام الخلافة هدأت الحروب فى الأندلس بضعة أعوام لعدة أسباب كان منها مرض الخليفة «المنصور»، ثم انشغاله بثورات المغاربة فى أفريقية.

وعندما توجه المنصور لإخماد إحدى تلك الثورات في مغرب الأوسط، انتهز البرتغاليون فرصة غيبته وحاصروا مدينة شلب على حين غرة وقطعوا عنها الإمداد، فاضطرت المدينة إلى التسليم في صورة مخزية ولم يبق من سكانها المقاتلين ستين ألفاً سوى ثلاثة عشر ألفاً، وخرقت بذلك الهدنة التي عقدت مع الموحدين عام ٥٨٦هـ.

ومن جراء ذلك توالت وفود الأندلس إلى الخليفة المنصور تستصرخه وتشكو من وطأة النصارى وتدفق غاراتهم المنكرة، فما كان من المنصور إلا أن حشد جيوشه من أفريقية إلى الأندلس لمجابهة ملك قشتالة(1).

٢- الموقف على الجبهة النصرانية:

لقد حرص ألفونسو الثامن طوال مدة الهدنة على تجنب الحرب بالأندلس، وعدم إثارة المسلمين ضده ليتفرغ إلى فض النزاع الدائر بين ملوك النصارى في تلك الأونة.

ولكن حينما عين ألفونسو الثامن مارتن دي بسيرجه مطراناً لطليطلة خلفاً للمطران جونزالو، راح المطران الجديد يثيرها حرباً صليبية ضد المسلمين، وكونوا حملة كبيرة ضد مسلمي الأندلس وهاجمت البلاد إلى أقصى الجنوب تخرب وتدمر وتسبي النساء والأطفال.

ولم يقنع بذلك بل حرص ألفونسو الثامن ملك قشتالة على القيام بخرق الهدنة والإعداد لحملة نصرانية كبرى فانصاع له وكتب إلى الخليفة المنصور كتاباً يدعوه فيه إلى القتال ويتحداه بأسلوب يفيض غروراً وغطرسة، فلما وصل هذا الكتاب إلى المنصور اشتد حنقه واستعد للحرب وأمر بإذاعة الخطاب على عامة المسلمين فصاحوا جميعاً يطالبون بالانتقام وأجمعوا على الجهاد. عندئذ مزق المنصور الكتاب وكتب على ظهر قطعة منه:

---

(1) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد – ت (٨٠٦هـ - ١٤٠٦م) العبر وديوان المبتدأ والخبر – ط دار الكتب المصرية ١٩٣٦م وط بولاق ١٢٨٤هـ.

﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ [النمل: ٣٧]. الجواب ما ترى لا ما تسمع[1] ثم ذكر هذا البيت:

ولا كتب إلا المشرفية عنده ولا رسل إلا الخميس العرمرم

الزعامات السياسية فى المعسكرين

فى معسكر المسلمين:

١ - الخليفة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، قائد المعركة وخليفة المسلمين، يتحلى بالصبر والشجاعة الفائقة، قوى العقيدة، راسخ الإيمان، كان حريصًا على استشارة قواده بعكس أبيه يوسف بن عبد المؤمن الذى كان من أكبر أخطائه انفراده برأيه وعدم استشارة الناصحين فهلك عند أسوار «شنترين» وفشل فى أكثر من معركة.

٢ - أبو عبد الله بن صناديد: من أعظم قواد الأندلس وأكثرهم خبرة بمكايد العدو فى الحروب، وقد ساهم فى وضع خطة المعركة برأى وجيه عمل به المنصور.

٣ - أبو يحيى بن أبى حفص، كبير وزراء الخليفة المنصور، وقد امتاز بسداد الرأى والفطنة والشجاعة فى كثير من الحروب، وقد ولاه المنصور القيادة العامة لجيش الموحدين فى هذه المعركة.

فى معسكر النصارى:

١ - ألفونسو الثامن: ملك قشتالة، وقائد جيش النصارى فى معركة الأرك، يعده المؤرخون من أبطال حركة الاسترداد الكبرى لممالك الأندلس بعد ألفونسو السادس، وقد منى بهزيمة ساحقة فى هذه المعركة.

٢ - مارتن دى بسيرجا: مطران طليطلة كان وراء اشتعال تلك الحرب بما بثه فى نفس ألفونسو الثامن وإثارة النصرى ضد المسلمين وكان يقوم بدور معنوى بين صفوف الجيش النصرانى لحثه على الثبات ومواصلة القتال ضد الموحدين.

---

(١) ابن خلكان - وفيات الأعيان وأنباء الزمان - مرجع سابق - حيث أورد نص هذا الكتاب، ج(٧) ص(٦)

أهداف الطرفين:

المسلمون: كان المسلمون يهدفون إلى الدفاع عن الأراضى الإسلامية والذود عن أهلها الآمنين ضد عبث القشتاليين واعتداءاتهم المتكررة، ثم تأديب ألفونسو الثامن الذى نقض الهدنة المبرمة بينه وبين المسلمين فلم يرع عهداً ولم يصن ذمة، وصار أكثر إعراضاً، فتطاول على المسلمين وعلى حنيفتهم ومن ثم لابد من كسر شوكته.

النصارى: كان النصارى يرمون إلى إنزال الهزيمة بالجيش الموحدى، وضياع هيبته ومنعته فى شبه الجزيرة الأندلسية بحملة صليبية كبرى على غرار الحملات الصليبية التى يواجهها صلاح الدين الأيوبى بالمشرق الإسلامى، هادفين من ذلك إضعاف المسلمين فى الأندلس حتى يتمكنوا من استردادها بلداً بلداً.

الاستعداد للمعركة «الفتح التعبوى»

١- القوات المتضادة:

أحجمت الرواية العربية التى وقعت فى أيدينا عن ذكر عدد قوات المسلمين المشتركة فى هذه المعركة، بينما أفصحت النقول فى ذكر أعداد قوات النصارى ويمكن تقديرها كالآتى:

أ- رواية ابن أبى زرع[1]: [illegible] ٣ ما بين فارس وراجل وهى رواية فيها شىء من المبالغة.

ب- رواية الضبى[2]: ٢٥,٠٠٠ فارس + ٢٠٠,٠٠٠ راجل، وكان مع الجيش القشتالى جماعات من تجار اليهود لشراء أسرى المسلمين وأسلابهم.

والرأى الثانى أقرب إلى الواقع حسبما تشير إليه خسائر القشتاليين فى المعركة التى قدرها صاحب نفح الطيب[3] ١٤٦,٠٠٠ قتيل، ٣٠,٠٠٠ أسير، وفى رواية ابن الأثير[4]: ١٤٦,٠٠٠ قتيل، ١٣,٠٠٠ أسير.

---

(١) الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص(١٤٩).

(٢) الضبى: أحمد بن يحيى بن أحمد (٥٩٩هـ - ١٢٠٣م) بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس المكتبة الأندلسية مجريط ١٨٨٤م ج٣ ص٣٥

(٣) المقرى - نفح الطيب - مرجع سابق - ج(١) ص(٤١).

(٤) ابن الأثير: على بن أحمد ت (٦٣٠هـ - ١٢٣٣م) الكامل فى التاريخ ط القاهرة (١٣٥٧هـ ط الأهلية ١٣٠٣هـ) ج(٢) ص(٤٥)

٢- مقارنة القوات:

يستفاد من معظم الروايات أن عدد قوات المسلمين كان أقل من عدد قوات النصارى، وليس في ذلك أدنى مبالغة، فقد كانت العناصر المشتركة في جيوش المسلمين تتألف من جنود المغرب والأندلس فقط. بينما كانت جبهة النصارى من حشود هائلة جاءت من ممالك غرب أوروبا مما أكسبها الصبغة الصليبية، ولئن كانت قوات النصارى قد فاقت قوات المسلمين عددًا فإن روح الجهاد العالية التي تحلى بها المسلمون كانت عوضًا عن ذلك النقص، فليست العبرة في الكم وإنما تكون في إعداد المقاتل وقوة إيمانه.

٣- حشد القوى

أولاً: حشد المسلمين:

دوت صيحة الجهاد في جميع أنحاء المغرب، وهرع الرجال والشباب من كل مكان للانضمام إلى ألوية الجهاد في الأندلس، وعند مدينة «القصر الصغير» بدأ الخليفة يعقوب المنصور ينظم جيوشه ويوفر لها تموينها.

وفي أوائل عام ٥٩١هـ اجتاز الخليفة البحر بجيوشه إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس على الترتيب الآتي: قبائل العرب، ثم قبائل زناتة، ثم المصامدة ثم غمارة ثم المطوعة، ثم الموحدون ثم العبيد، وأخيرًا عبر الخليفة في حشد كبير من أشياخ الموحدين والزعماء والفقهاء.

وبعد ذلك استأنف جيش الموحدين سيره إلى «إشبيلية» وهناك مكث الخليفة عدة أيام يستكمل أهبته، ثم أجرى تمييزًا لجيشه، واستعرض الجند صفًا صفًا، وقبيلاً قبيلاً، ثم أخرجت الرواتب والبركات ووزعت على سائر الحشود

ثم بادر الخليفة بالسير نحو قشتالة خشية من نفاد المؤن وعندما بلغته الأخبار بأن ملك قشتالة قد حشد قواته متجهًا شمال قلعة رباح على مقربة من قلعة «الأرك»[1] معتزمًا أن يلقى المسلمين بها وألا يسمح لهم بعبور الحدود إلى داخل أراضيه

---

(١) انظر: روض القرطاس، ص(١٤٦)، وانظر أيضًا: البيان المغرب، ص(١٩٢، ١٩٣)

وعند وصول المنصور إلى هذا المكان، وقريبًا من جيش النصارى ضرب معسكره، ثم عقد مجلسًا من القادة ؛ لاستعراض الخطة التي يجب اتباعها في خوض المعركة.

ثانيًا: حشد النصارى:

خرج ألفونسو الثامن ملك قشتالة لملاقاة الجيش الإسلامي منذ أن سمع بعبوره إلى الجزيرة الخضراء. ثم طلب العون من ممالك النصارى [illegible] في طليطلة حتى وافته حشود النصارى [illegible] الحروب مخترقًا بهم [illegible] حتى وصل إلى حصن الأرك، وكان الحصن [illegible] حدًا فاصلًا بين قشتالة وأراضي المسلمين، وفي هذا المكان عسكر ألفونسو الثامن بجيشه عازمًا على لقاء المسلمين فيه(١).

٤- خطة المعركة

أولاً: خطة المسلمين:

تميزت خطة المسلمين بالروح الاستشارية حيث انعقد مجلس استشاري حربي على مستوى عال من قادة الأندلس والمغاربة وسائر الفرق، واستمع المنصور إلى آراء الجميع، وبعد مشاورات استقر الرأي على تنفيذ رأي كبير قواد الأندلس أبي عبد الله بن صناديد؛ لما له من خبرة كبيرة بمعرفة أساليب العدو ومكائده ووسائل خداعه وكانت خطة المسلمين كالآتي:

١- يكون الوزير الكبير أبو يحيى بن أبي حفص القائد العام للمعركة، وأن تنضوي تحت رايته جميع الفرق من مغاربة وأندلسيين، وأن يتولى قيادة فرق الأندلس قائد أندلسي معروف بشجاعته وخبرته أبو عبد الله بن صناديد، لقيادة هذا الجناح على أن يخضع بدوره للقائد الأعلى أبي يحيى بن أبي حفص في كل أوامره

٢- تتكون القوة الرئيسية المكلفة بلقاء العدو من جند الأندلس والمغاربة النظاميين وعلى هذه القوة مواجهة الهجمة الأولى لجيش العدو.

---

(١) يوسف أشباخ - تاريخ الأندلس- مرجع سابق - ج(٢) ص(٨٣).

٣- أما بقية الجيش وهى القوة المؤلفة من قبائل البربر ومعظمهم من غير النظاميين، وجمهرة المتطوعين فتكون قوات احتياطية يدفع بها إلى المعركة عندما يتحرج موقف المسلمين.

٤- أما الخليفة ومعه قوات حرسه فيرابط وراء التلال منتظرًا الفرصة لينقض فجأة إذا ما ظهر الإعياء فيرجح كفة النصر للمسلمين.

٥- وكان أعظم ما فى هذه الخطة ذلك التمويه العجيب الذى أشار به «ابن صناديد» حيث رأى أن يرابط الوزير أبو يحيى بن أبى حفص فى قلب الجيش بدلاً من الخليفة، وأن يرفع فوق قبته الأعلام الخليفية، بينما ربط الخليفة بقوات الحرس الخليفى وراء التلال، حتى لا يكون هدفًا للقشتاليين ينالون منه[١].

ثانيًا: خطة النصارى:

١- رأى ألفونسو الثامن أن يترك أساليب القتال القديمة فى الحرب ورسم خطته بطريقة مرنة اشتملت على حلين حسبما تمليه طبيعة الموقف.

الأول: تجنب الاشتباك مع المسلمين فى معركة حاسمة وإبعادهم عن التحصن بالقلاع ليرغمهم على الانسحاب لنفاد المؤن وتفشى الأمراض أو حلول الشتاء.

الثانى: أن تقوم فرسانه بتوجيه الضربة الأولى لقلب الجيش الموحدى الذى يقوده الخليفة- كما يظنون - معتمدين فى ذلك على تسليحهم الثقيل الذى لم تألفه فرسان الموحدين من جهة وهبوطهم السريع من أعلى ربوة الأرك كالسيل الجارف. من جهة أخرى.

٢- ادخر ألفونسو بعض القوى ليدفع بها إلى ساحة القتال كلما تفوق عليهم الموحدون فى القتال.

تحليل الخطتين:

مما لا شك فيه أن خطتى الطرفين كانتا دقيقتين ومنظمتين للغاية فكل منهما أحكم خطته لينال بها من الآخر، أما عن ألفونسو الثامن فقد وفق فى نقل المعركة

---

(١) عنان: محمد عبد الله - عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس القسم الأول والثانى ط (١٣٧٣هـ - ١٩٦٤م) ج(٢) ص(٢٠٠)

إلى بلاد المسلمين وتوسيع دولتهم لصراع على حسابهم، ثم وفق أيضا فى خيار مكان محلته حيث رابط بها على هضاب قلعة الأرك ليكون أعلى من خصمه ويتحكم فيه ويسيطر عليه، فإذا كانت الدائرة عليه توزعت جنوده ووجدت لها مسالك نحو بلاده وقلاعًا يعتصمون بها كقلعة رباح المجاورة لهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يضمن استمرار تموين جيوشه بالمؤن اللازمة له. لذا كان فى مقدوره أن يتحمل حربًا طويلة الأمد، هذا فى الوقت الذى لا تستطيع فيه جيوش الموحدين الاستمرار فى حرب طويلة خوفًا من نفاد المؤن.

أما خطة الموحدين فقد تميزت أيضًا بالدقة والإحكام فقد كانت خطة جماعية تعاونت فيها مختلف الفرق والقيادات بصفة روح الفريق الواحد، فالأندلسيون تسند قيادتهم إلى قائد منهم فكانوا أكثر استجابة وطواعية للأوامر من لو أفردت قيادتهم لقائد موحدى.

ومن مزايا خطة الموحدين بالإضافة إلى جماعية القيادة ذلك التمويه الذى صدم كل آمال القشتاليين، فقد ركزوا هجومهم على القلب ظانين أن الذى يقوده هو الخليفة، بينما اقتضت الخطة تغيير مكان الخليفة ورفع الأعلام الخليفية على القلب لتضليل العدو فضاع أمل القشتاليين فى التركيز على القلب وإن جاء هجومهم عنيفًا وقاسيًا.

سير القتال «الفن التكتيكى للمعركة»[1]

أ- مرحلة السير والاقتراب:

بدأت قبيل المعركة بوقت قليل مهام سرايا الطلائع فى الجيشين لجمع المعلومات عن تحركات الجيوش وتشكيلاتها، وقد ظهر نشاط طلائع المسلمين وفعاليتها فى جمع معلومات دقيقة عن العدو وفى إبادتها لأكثر من سرية استطلاع تابعة للقشتاليين

ثم عبئت الجيوش تعبئة حرب وعقدت الرايات لسائر القبائل والطوائف، وشقت حملة النبال طريقها تحت أعلامها الخضراء إلى مقدمة الجيوش لتفتح القتال مع العدو. ثم أمر الخليفة «يعقوب المنصور» جيوشه بالزحف نحو محلة النصارى

(١) انظر الخريطة لمراحل سير القتال ص (٣٤٠) شكل رقم (٥)



أوضاع القوات المتضادة شكل رقم (٤)

إلى أن اقتربت من محلاتهم، وخرجت بعض كتائب العدو لملاقاة الموحدين ولكن لم يحدث أي هجوم من المسلمين لأن المنصور لم يرد أن يخوض المعركة في ذلك اليوم بل فضل خوضها في اليوم التالي، فعاد [illegible] جنود [illegible] حشدوا من [illegible] إلى محلتهم فوق ربوة الأرك وقد أثقلتهم أسلحتهم الحديدية(1).

ب- المرحلة الافتتاحية:

وفي ضحى اليوم التالي التاسع من شعبان سنة ٥٩١هـ = ١١٩٤م أمر الخليفة الموحدي جيوشه بالزحف واندفعت جنوده تحاول اقتحام سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة. وبدأ الفرسان [illegible] تتقدم [illegible] [illegible]، والموحدين تتقدم [illegible]، وقد هلك في الدفعة الأولى منهم ما بين سبعة آلاف وثمانية آلاف فارس كلهم قد حجبت بالحديد والصفائح والزرد، واندفعت هذه القوة حتى اقتحمت حيث أطراف رماح المسلمين ثم تقهقرت قليلاً وعادت للاقتراب من جيوش الموحدين وتهيأت للهجوم الفعلي(2).

جـ- مرحلة القتال المتلاحم:

ركز القشتاليون هجومهم على قوات القلب التي يقودها القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص، مدعين أنها القوة التي يقودها الخليفة، فقاتل أبو يحيى وجنوده أشد قتال ولكن الصدمة كانت عنيفة والهجمة كانت قوية فقتل أبو يحيى ومعه جماعة من رجاله، عندئذ تقدمت قبائل العرب والمتطوعة والأغزاز(3) [illegible]

---

(1) روض القرطاس - ص(١٤٧، ١٤٨).

(2) عنان - عصر المرابطين والموحدين - مرجع سابق - ج(٢) ص(٢٠٥) وما بعدها

(3) الأغزاز هو جنس من الترك، وقد أشار صاحب صبح الأعشى إلى وجود طائفة منهم في جيوش الموحدين. ويبدو أن جيش الموحدين كان يضم أجناسًا أخرى من الأكراد والحراكسة الذين بعث بهم صلاح الدين الأيوبي لقتال أبي يعقوب المنصور الموحدي، وعندما فشلت تلك الحملة توزعت جنودها في المغرب العربي فاستقطبها المنصور ثم أدخلها في خدمته.. انظر القلقشندي صبح الأعشى- ط دار الكتب ١٩٢٨م، وط القاهرة ١٩٢٢م ج(٥) ص(١٦٧)، انظر رحلة التجاني تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب المطبعة الرسمية التونسية سنة ١٩٥٨م ص(١١١- ١١٤)، المراكشي: المعجب- مرجع سابق ص(١٦٠)

وأحاطوا بالمنصورى من كل جانب ثم دفع القائد «ابن صناديد» قائد الميمنة بجيوش الأندلس إلى المعركة وزحفت معه قبائل زناتة وسائر قبائل البربر.

واندفعت الجيوش الإسلامية بجملتها نحو محلة القشتاليين واشتد القتال بين الفريقين وسالت الدماء بغزارة وكثر القتل فى مقدمة القشتاليين التى اضطلعت بالهجمة الأولى حتى اضطرت إلى التقهقر والفرار نحو الربوة التى تحتلها محلتهم، وأسفرت الجولة الأولى تلك عن تحطيم قلب الجيش الموحدى وتمزيق مقدمة جيش النصارى.

ويعطينا صاحب روض القرطاس وصفًا تفصيليًا لدوران المعركة بعد هزيمة القشتاليين فى الجولة الأولى، فقد كان ألفونسو الثامن معتصمًا مع باقى قواته بربوة الأرك، فلما فر القشتاليون يحاولون الاعتصام بهذه الربوة ويستمدون العون من ملكهم لكى ينظموا أنفسهم ويعاودوا الهجوم ثانية على المسلمين، دار الموحدون فى السهل وحاصروا تلك القوة وحالوا بينها وبين الصعود إلى الربوة ثم ارتدوا ثانية نحو السهل، فحملت عليهم سائر قوات المسلمين[1] بسيوفهم ورماحهم.

د- مرحلة الحسم[2]:

ودارت معركة حامية استمرت سويعات واستبدل النقص فى العدد عند الموحدين بالإقدام والشجاعة، وبدا على القشتاليين التعب والإرهاق عندئذ زحف المنصور فى قواته الاحتياطية تحت لوائه الأبيض ليجهز على البقية الباقية أو يلجئها إلى الفرار، وكانت ملحمة مروعة والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار، وأرجاء المكان تدوى بوقع سنابك الخيل التى تفرى القتلى وقرع الطبول وأصوات الأبواق وصليل السلاح وصياح الجند وأنين الجرحى وانفرجت الشدة ولاحت تباشير النصر أمام المسلمين، وتسقطت فرسان النصارى أمام ضربات الموحدين، ونفذ المنصور بقواته إلى قلب الجيش القشتالى الذى يقوده ألفونسو الثامن بنفسه

---

(١) ابن أبى زرع - روض القرطاس - الصفحات السابقة.

(٢) انظر خريطة أوضاع القوات المتضادة ،ص (٣٣٦) شكل رقم (٤)

بحيط به عشرة آلاف فارس وهى البقية الباقيـة من القشتاليين تساقطوا جميعًا صرعى إزاء هجمات الموحدين.

ولم يشأ ألفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه ومواجهته خطر الهلاك والسحق المحـقق أن ينقذ نفسه بالفـرار، ويتحمل عار الهـزيمة، ولكن عندما رأى رجاله استحالة الوقوف أمام ضغط المسـلمين تضرعوا إلى ملكهم أن يحتفظ بحياته حيث إن الله قد تخلى عنه، فرفض أن يستـجيب لهم فجذبوه رغم أنفه، وارتدوا نحو طليطلة وقلوبهم تقـطر أسى وحزنًا لما لحق بهم من معرة الهـزيمة، وتأييد الله بالنصر لجنوده المسلمين[1].

هـ- مرحلة المطاردة واستثمار النصر:

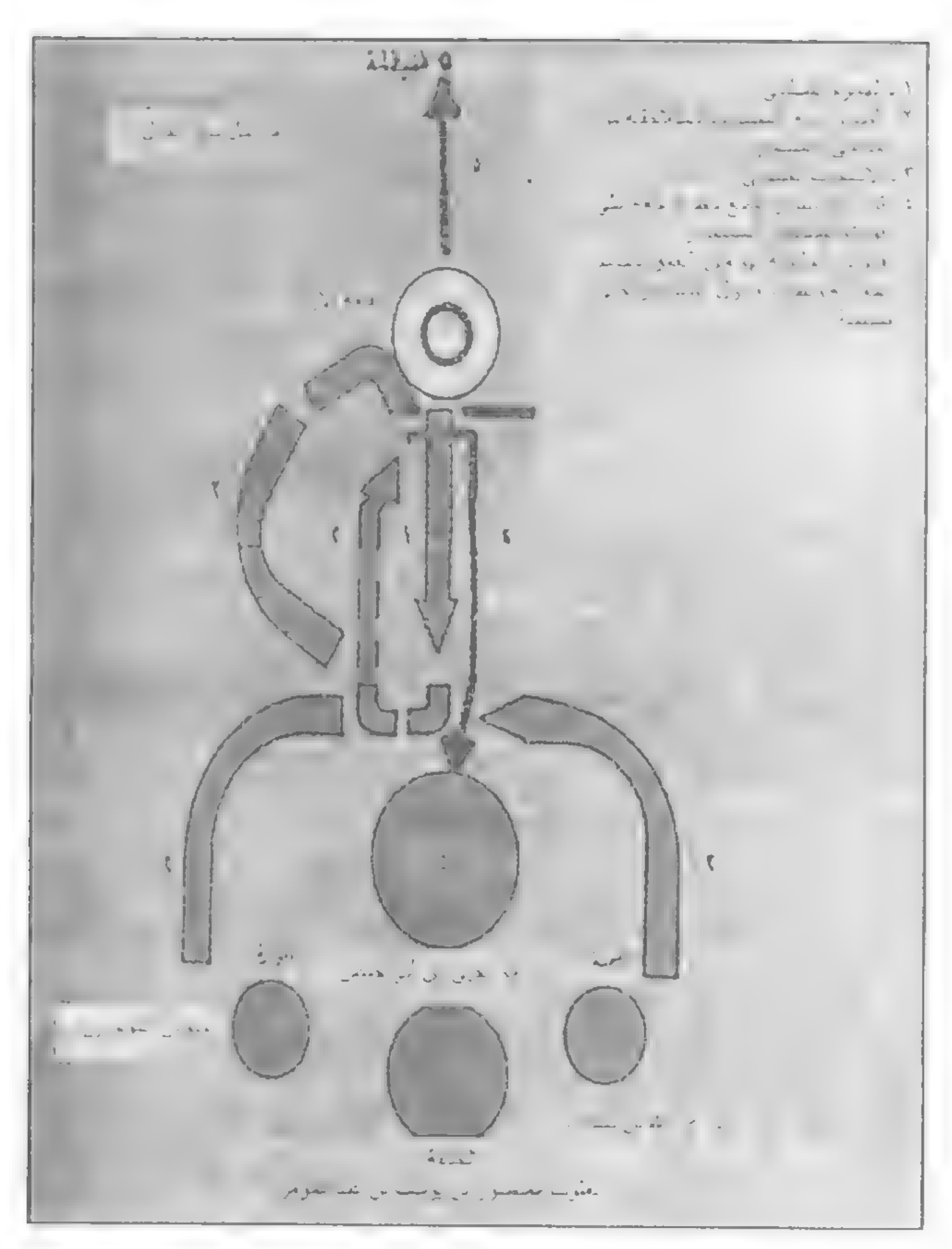
قام الموحدون بعد انتهاء المعركـة على هذا النحو بمطاردة لفلول الجيش القشتالى المنهزم التى اعـتـصـمت بحصن الأرك، فطوق المسلـمون هذا الحصن حـيث كان المنصور يعتقد أن ألفونسو الثامن قد التجأ إليه ولكنه عرف بعد ذلك أنه لاذ بالفرار إلى طليطلة. فاقتحم المسلمون الحصن وأسروا منه ٢٤,٠٠٠ أسير نصرانى.

وقد اختلفت الروايات فى مصير هؤلاء الأسرى فيروى صاحب نفح الطيب أن المنصور فدى بهـم ٥,٠٠٠ أسير مسلم بينما يروى صـاحب روض القرطاس بأن المنصور من عليهم جميعًا بالإفراج وأطلق سراحهم، وأن هذا التصرف قد أغضب قادة الموحدين بـل ندم عليه الخليفة المنصـور نفسه[2]. ولم يكتف المنصور بمطاردة القشتاليين فى أراضى قلعة رباح واستيلائه على بعض حصونها بل إنه واصل سيره إلى الأراضى القشتالية واخترقها شمالاً حتى وصل إلى طليطلة فحاصرها وضربها بالمجـانيق وألفونسـو معـتصم بداخلهـا مكسور الجناح لهـبوط مـعنوياته، ولكن

---

(١) انظر ما قيل عن معركة الأرك فى روض القرطاس، ص(١٥٠)، عنان: عصر المرابطين والموحدين ح(٢) ص(٨٦)، والمقرى نفح الطيب، ح(١) ص(٤١٨)، انظر أيضًا رسالة ماجستير السابقة بعنوان الجيش فى عهدى المرابطين والموحدين. المقدمة من محمد محـمد محمد إبراهيم زغروت، وكذلك انظر المعركة فى مجلة الملك خالد العسكرية لنفس الباحث العدد السابع سنة ١٤٠٥هـ

(٢) المقرى طبعة أولى - ح(١) ص(٤١٨)، ابن أبى زرع ص(١٥١)



مراحل سير القتال شكل رقم (٥)

المنصور لم ينجح في اقتحام أسوار المدينة فعاد منسحبًا إلى الجنوب بعد أن اكتفى بعقد هدنة مع القشتاليين، وربما كان دافعه وراء الانسحاب خشية نفاد التموين أو تفشى الأمراض فى جيوشه ولا سيما أنهم مقبلون على فصل الشتاء.

وبعد أن انتهى المنصور من توزيع الغنائم على الجنود وأودع نصيب الدولة في بيت المال سار بجيشه منتصرًا إلى إشبيلية وأقبلت عليه الوفود مهنئة بالنصر وجادت قريحة الشعراء فرحة بهذا الانتصار العظيم ومنهم الشاعر الأندلسي «أحمد بن حزمون»[1] الذى أنشد قصيدته بين يدى الخليفة قائلاً:

حـــبـــتك مـــعـطرة النـفس	نفـــحـــات الفـــتح بـأندلس
فـــذر الكـفـــار ومـــأتـهم	إن الإســـلام لفـى عـــرس

النتائج والدروس المستفادة

أولاً: على الصعيد السياسى:

تعتبر معركة الأرك من معارك الإسلام الحاسمة حيث جمعت قوى الإسلام مجتمعة من المغرب والأندلس ضد تيار حركة الاسترداد الكبرى التي اضطلع بها ملوك النصارى فى غرب أوروبا.

وإن كانت لهذه المعركة بعض النتائج في المجال السياسي فإنها نتائج محدودة استطاعت أن تكبح نشاط النصارى إلى حين، وتوقف زحفهم على أرض المسلمين لثماني عشرة سنة، بعدها استأنف ألفونسو الثامن ومعه ملوك النصارى حركتهم المسعورة لاسترداد البلاد وأنزلت الهزيمة الساحقة بالموحدين في موقعة العقاب عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، فمحت كل أثر للنصر بالأرك العظيم، وتوالت بعدها مدن الأندلس فى السقوط تباعًا فى أيدى الإسبان.

ومما يؤسف له أن الموحدين لم يحاولوا استثمار هذا النصر العسكرى حيث نظروا إليه على أنه هدف فى ذاته دون أن يربطوه باستراتيجية سياسية، ومن هنا

---

(١) المراكشي: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب - ص(١٦٥- ١٦٧)

يبرر هذا التساؤل هل عبر نصرهم العسكرى فى موقعة الأرك من الخارطة السياسية للأندلس؟ إن الموحدين قد أغفلوا هذا العنصر الهام، فظروف الممالك النصرانية عقب هزيمتهم فى موقعة الأرك كانت مهيأة لاستثمار الموحدين العامل السياسى، حيث انعدم التنسيق بين تلك الممالك النصرانية وأضحت كل منها تخطب ود الموحدين بمفاوضات سرية بعدما استشرى بينها النزاع والحروب المستمرة، وقد عرفنا سابقًا أن المنصور الموحدى زحف بجيوشه إلى طليطلة معقل النصارى وموضع الداء والهدف الرئيسى له من المعركة ثم لظروف غامضة يفك الحصار عنها ويتركها ويعود إلى المغرب.

وهذا هو الخطأ الفادح الذى وقع فيه المنصور حيث إنه أعطى النصارى فرصة استعادوا فيها أنفاسهم وأعادوا تنظيم جيوشهم، وسرعان ما أخذوا بثأرهم فى موقعة تالية لهم وهى موقعة العقاب التى كانت نتيجة حتمية لهذا الخطأ السياسى الفادح، وقد روى عن ألفونسو الثامن عقب هزيمته فى الأرك أنه حلق رأسه ولحيته ونكس صليبه وأقسم ألا ينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرسًا ولا دابة حتى يأخذ بالثار[1].

ثانيًا: على الصعيد العسكرى:

أبرزت معركة الأرك مجموعة من الدروس العسكرية المستفادة منها:

أ- تميزت القيادة العامة بروحها الاستشارية الجماعية فأكسبت القائد العام قوة التأثير فى رجاله، وقد انعكس ذلك فى ظهور الروح المعنوية العالية بين الجنود، وسادتهم روح الفريق مما كان له أكبر الأثر فى رفع الكفاءة القتالية للمسلمين وإحراز النصر.

ب- أظهرت تلك المعركة مدى ما يتمتع به الخليفة المنصور من دماثة الخلق والتحلى بآداب الحرب الإسلامية وحسن المعاملة مع الأعداء، فإنه لم يلطخ صفحة نصره الرائع بالاتجاه إلى قسوة لا مبرر لها فى معاملة الأسرى، بل أطلق سراح

(١) المقرى - نفح الطيب - ج(١) ص(٤١٨)

أسراه دون افتداء، ولعل فى هذا المسلك الإنسانى ما يعطى صورة صادقة لسماحة ديننا الإسلامى.

جـ- أبرزت المعركة مبدأ عسكريًا فى غاية الأهمية وهو الاحتفاظ بقوى احتياطية ترجح ميزان المعركة بالنصر، إذ احتفظ المنصور بقوات احتياطية من حرسه دخل بها المعترك ليحسم المعركة لصالحه فى الوقت المناسب.

د- كما أبانت المعركة عن أهمية المفاجأة والتمويه على مسرح العمليات حيث اقتضت خطة الموحدين نقل الخليفة إلى الاحتياطى ورفع أعلامه الخليفية على القلب الذى يقوده «أبو يحيى بن أبى حفص»، وركز القشتاليون على القلب قاصدين قتل الخليفة فضاع جهدهم هباء، ثم لعبت المفاجأة دورها الحاسم عندما زج بقوته الاحتياطية إلى أتون المعركة وبددت شمل من بقى من القشتاليين.

هذه إحدى معارك دولة الموحدين الذين بذلوا جهودًا فادحة فى سبيل الاضطلاع بحركة الجهاد فى غرب أوروبا وصد عدوان النصارى عن الأندلس الإسلامية طوال عصر الخلفاء العظام من حكامها، الذين ما فتئت جهودهم متضافرة فى تدعيم الكيان العسكرى لدولتهم الإسلامية حكومة وشعبًا، مسخرين فى سبيل ذلك الهدف كل مواردهم الاقتصادية والبشرية فى تعبئة حربية دائمة.

وسجل التاريخ العسكرى لهذه الدولة حافل بالأمثلة التى تبرهن على القيمة العظمى للكيان العسكرى الذى حرص خليفتهم الأول عبد المؤمن بن على ومن جاء بعده من الخلفاء الموحدين على إيجاده. وبهذا الكيان العسكرى حققوا انتصارات رائعة كان أعظمها انتصار الأرك الشهير كما عرفنا. وعندما غاب هذا المبدأ العسكرى الهام من حياة الموحدين أسلمهم إلى الضعف والتخاذل وتوالت عليهم الهزائم وصارت دولتهم أثرًا بعد عين.

ولا يغيب عن أذهاننا أن ما تعانيه أمتنا الإسلامية اليوم إنما هو افتقادها للكيان العسكرى الذى يلم شملها، ويقرب قاصيها، ويعضد دانيها فى تخطيط منسق لتحقيق غاية قومية أو هدف إستراتيجى يقوم به قادة

المسلمين اليوم ليرفع من شأنها بين الأمم التي تكالبت عليها كما تتكالب الأكلة على قصعتها، ويضع حدا للعربدة اليهودية في أرض فلسطين المقدسة، ويقضي على الهيمنة الأمريكية التي أصبحت القوة الوحيدة في العالم ذات القطب الواحد والتي أرادت أن تمحو هويتنا الإسلامية وأصالتنا العربية تحت ادعاء الديمقراطية المزيفة، ولن يصلح حال أمتنا إلا بأخذ العبرة والعظة من التاريخ، ونرى ما فعلت الحمية الإسلامية في جناحي العربي (المغرب والأندلس) حيث أقامت من مسلمي المغرب والأندلس جبهة إسلامية موحدة وأذكت روح الجهاد في نفوس أبنائها، وبذلك صارت الأمة كلها أمة مجاهدة أو أمة محاربة كما يفهم الغرب هذا المصطلح من المنظمات العسكرية الحديثة التى جعلت من الحكومات والدول حكومات حرب.

فما أحوجنا اليوم إلى رفع شعار الأمة المجاهدة ليعيد إلى الأمة عزتها وكرامتها ويحفظ لها أمنها مرهوبة الجانب بقوتها العسكرية الرادعة وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ [الأنفال: ٦٠].

ثالثاً: المقارنة بين المعركتين

مما لا شك فيه أن هاتين المعركتين تعتبران من معارك الإسلام الفاصلة التي حمى بهما الإسلام وحفظت أمته، بعد الله سبحانه. فإن الإسلام [illegible] من المغرب وخاصة الأندلس، [illegible] الإسلام [illegible] حركة الاسترداد الكبرى التي [illegible] بها ملوك النصارى الإسبان في أرض الأندلس. فقد تمت الزلاقة [illegible] عن الأندلس [illegible] بعد أن كاد [illegible] نعم الإسلام حياة جديدة في الأندلس. [illegible] إلى حين [illegible] الأندلس [illegible] ثم [illegible] قرابة مائة وخمسين عاماً [illegible] الأرك أيضاً [illegible] المسلمين [illegible] لسيل النصارى الجارف وسداً له.

وإذا ما عرضنا هاتين المعركتين بالنقد والتحليل لوجدنا كثيراً من التشابه في تخطيطهما الإستراتيجية والتكتيكية في بعض النقاط وتبايناً في بعضها الآخر، مما يقوي [illegible] ويكشف أن كلا من المعركتين يمثل [illegible] دولتي المرابطين والموحدين، [illegible] من حيث [illegible]، فالزلاقة في عصر الأمير يوسف بن تاشفين المرابطي والأرك في عصر الخليفة أبي يعقوب المنصور الموحدي. وسوف [illegible] من خلال النقاط التالية:

١ - الأسباب والدوافع التي أدت إلى هاتين المعركتين كانت متشابهة، فقد كان أهداف المرابطين والموحدين متوجهة إلى الحفاظ على [illegible] بلاد المسلمين في الأندلس، وإيقاف زحف النصارى [illegible] والتصدي لمطامعهم في [illegible] بلاد المسلمين.

٢ - أما عن حشد القوى الإسلامية في المعركتين، فقد كان [illegible] صحيحة مضطرمة بروح عالية، على درجة كبيرة من الاستعداد للقتال، مدربة [illegible] دربة على القتال، وقد تم [illegible] من [illegible] استعدادها وتمام أهليتها للقتال. إلا أن هناك فروقاً في حشد المعركتين، فقد تميزت

حشود الموحدين بأعدادها الضخمة فى تلك المعركة فهو جيش يضيق له الفضاء[1]، وهذا هو دأب الموحدين فى معظم حروبهم.

على أن جيوش المرابطين قد عوضت هذا العجز فى الحشود بروحهم القتالية العالية، فقد كانت حشود المسلمين من مرابطين وأندلسيين يواجهون فى الزلاقة قوى اسبانيا النصرانية كلها، والتى حشدها الزعيم النصرانى "ألفونسو السادس"، أما فى يوم الأرك، فقد كانت حشود الموحدين مقتصرة على منازلة ملك قشتالة وقواته دون أن يعتمد على معونة حليفه ملك ليون، أو ملك نافارا.

وقد شاركت جنود الأندلس فى كلتا المعركتين، وقامت بنصيب موفور فى هاتين المعركتين إلا أن دورهم كان مختلفًا فى المعركتين. ففى معركة الزلاقة حشدوا فى مقدمة الجيوش وكانوا يكونون جيشًا مستقلاً عن جيش المرابطين، فكانوا أول من أصيب من معسكر المسلمين، وكثر فيهم القتل لولا أن تداركهم فى النهاية "يوسف بن تاشفين"، وهذا بخلاف ما حدث فى معركة الأرك حيث نقيت الجيوش الموحدية النصارى مجتمعة وفى جبهة واحدة. ومن ثم كانت موقعة الزلاقة "مقسومة الثقل مكدرة الصفو" ولكن معركة الأرك جاءت "هنيئة الموقع عامة المسرة"[2].

٣- وقد كانت القيادة على مستوى عال فى المعركتين سواء القيادة العامة أو قيادة الفرق المختلفة. وقد تحلى القائدان لكل من المعركتين بالإقدام والصبر والشجاعة التى من شأنها بث الثقة فى الجنود، وقد تمتعا بالحزم ورباطة الجأش، وقد ظهر ذلك جليًا فى أشد مواقف المعركتين حرجًا، فقد صبر "ابن تاشفين" فى الجولة الأخيرة التى دارت رحاها بينه وبين "ألفونسو السادس" وظلت جولات سجالاً بينهما حتى انكشفت المعركة على ظفر هنئ له، وكذلك صبر المنصور فى الجولة الأخيرة والفاصلة بينه وبين "ألفونسو الثامن" والتى تكسر فيها قلبا الجيشين الموحدى والنصرانى فلولا صبر كل من العاهلين ورباطة جأش كل منهما، ثم إشاعة تلك الروح فى رجالهما لما حققا ظفرهما هذا فى المعركتين

(١) ابن الأثير الكامل، ج (١٢) ص (٤٥)
(٢) روض القرطاس، ص(١٥١)، البيان المغرب- القسم الثالث، ص (١٩٦)

وقد كان كل من الرجلين مضطلع اطلاع تام على رجاله، يعرف قدر كل منهم حق المعرفة، ووضع كلا منهم في المكان اللائق به كما عرفنا سابقًا في توزيع القيادات المختلفة والأدوار على القواد ليقوم كل منهم بدوره المنوط به، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن هاتين المعركتين في حقيقتهما معركة بين عزيمتين؛ عزيمة القائد المسلم وعزيمة خصمه، وقد اتضح لنا مدى ما تمتع به القائدان المسلمان من عزيمة ورباطة جأش وجلد على المكاره.

وقد تميزت القيادة العامة في المعركتين بروحها الجماعية الاستشارية مما أكسب القائدين قدرة التأثير في مرؤوسيهم، وتمتعهم بحب الجميع لهما. وقد انعكس ذلك في الروح المعنوية العالية، وتمتع الجيشان بما يسمى في عرف العسكريين المحدثين «بروح الفريق» مما كفل للجيشين كفاءة قتالية عالية بعناصرها المختلفة

ومما لا شك فيه أن دور القائدين بشخصيتيهما وسلوكيهما وأسلوبيهما في القيادة كان لهما أثر بالغ في بناء هذه الروح العالية، والمتتبع لدراسة معنويات الجيشين المرابطي والموحدي يرى مظاهر هذه الروح في عدة نواح منها.

أ- الوحدة والتعاون القائمة على فلسفة «التوحيد» الذي هو مبدأ الإسلام وجوهره والذي تغلغل في كيان هؤلاء الجنود وعمر قلوبهم وأنفسهم، ومن ثم كانت الاتجاهات الفكرية للجماعة الإسلامية موحدة ومركزة في مبادئ وعقائد عامة يعتنقها جميع جند المرابطين والموحدين، وهذا هو الأساس الأول والأصيل لوحدة الجماعة الإسلامية وتماسكها.

ب- الفخر والاعتزاز بالجيش والأمة، وهذا الإحساس هو الذي ولد روح الفريق في وحدات الجيشين اللذين تمتعا بسمعة طيبة نتيجة للانتصارات التي حققها كل منهما في الحروب السابقة، ويكفينا في هذا المقام أن نبين نظرة المعتمد لجيوش المرابطين عند طلبه النجدة والاستغاثة كما روى «ابن بسام» (صح العلم بأنك لدعوة الإسلام ناصر.. ووجب أن نستدعي لما أعضل من الداء وتستغاث)[1]

جـ- فضيلة إنكار الذات التي يدعو إليها الإسلام، ويحرض المؤمنين على أن يؤدوا أعمالهم ابتغاء وجه الله ونيل ثوابه ونعيمه، وبهذه الفضيلة ظهر من أبناء

(١) الذخيرة، ص (٢٦٣)..

المرابطين والموحدين أبطال عمليات [illegible] وقد [illegible] ومع ذلك لم يتباهوا بما فعلوا، ولم يتحدثوا بما قدموا بل أنكروا ذواتهم وكتموا عواطفهم وانشغلوا بها وحده، ولا أدل على ذلك من موقف الخليفة الناصر حيث [illegible] الحشد حيث أمر قائده العام أن يبلغ الجنود عنه «احضروا [illegible] فإن هذا موضع غفران وتغافروا فيما بينكم وطيبوا نفوسكم، وأخلصوا لله نياتكم [illegible] من [illegible] اليوم [illegible] [illegible] [illegible] على بعض القادة المعاصرين وإن لم يذكروا [illegible] قادة المرابطين والموحدين.

وكانت الأعلام والرايات من الأمور التي حرصت على حملها ورفعها الجيوش في [illegible] وفي [illegible] الألوية [illegible] فكان لكل جيش علم للقيادة، [illegible] ولكل وحدة [illegible] تجتمع عليه قلوب رجالها اعتزازًا وفخرًا.

[illegible] الحديث عن القيادة العامة للمعسكرين، وكيف [illegible] القيادة الأخرى لقيادة الفرق المختلفة؟ لقد أحسن كل من القائدين اختيار مجموعة قوادهما، فقد أحيط عاهل المرابطين بنخبة من القواد الأكفاء الذين أدوا معه معركة الزلاقة وأثبتوا كفاءة عالية في القتال أمثال داود ابن عائشة وسير بن أبي بكر، ومحمد ابن فاطمة، وابن الحاج [illegible] وغيرهم، وكذلك أحسن [illegible] المنصور مجموعة من القواد منهم أبو يحيى بن أبي حفص، [illegible] من مساعديه «جرمون بن رياح» و«منديل المغراوي» و«يحيى بن أبي بكر ابن حمامة» و«الخير بن يوسف» و«عبد القوي التجيبي» و«محمد بن منغفاد» و«الحاج أبو خزر يخلف الأوربي» وغيرهم[1].

على أنه يمكن أن نلمس اختلافًا في القيادة بين معركتي الزلاقة والأرك، فقد كان «يوسف بن تاشفين» عاهل المرابطين هو القائد العام للمعركة يديرها ويحرك قواته وله القول الفصل، بينما أسند المنصور قيادة الأرك إلى وزيره القائد أبي يحيى بن محمد بن أبي حفص، وظل هو يقود القوة الاحتياطية ليرجح كفة المعركة لصالحهم، ثم أسند المنصور قيادة جند الأندلسيين لأنفسهم، فقد قدم «ابن

(١) [illegible]

صامداً على عساكرهم مما أذكى روحهم المعنوية وأحسوا بكثرتهم فدفعهم لتصنع المعجزات فى تلك المعركة.

٤- وقد تقررت خطة المعركتين بنوع من الاستشارة الجماعية. فقد عقد كل من القائدين قبل المعركتين مؤتمرا حربيا جمعت فيه قادة كل منهما ليأخذا آراءهم ويستعينا بأهل الخبرة والتجربة منهم، وهذا ما حدث قبيل معركة الزلاقة والأرك كما سبق الحديث عن خطة المعركتين.

٥- وبعدما توضع الخطة كان المرابطون والموحدون على مختلف مستوياتهم يلتزمون بها كما وضعها القائد الأعلى، وكانوا يحرصون على تنفيذها بالصورة التى انتهت إليها. وهذا ما حدث فى معركة الزلاقة فقد رسم يوسف خطة الحرب ولم يحد عنها مطلقًا، رغم ما تكبدته الجبهة الأندلسية من خسائر فادحة، ولكنه تدخل فى المعركة فى الوقت المناسب حسبما خطط لها فى خطة المعركة. وكذلك فإن الموحدين قد حافظوا على خطتهم التى وضعوها فكفلت لهم النصر.

٦- وفى مقدمة العوامل التى ترتب عليها انتصار المرابطين والموحدين هى روح القتال العالية التى يتمتع بها جنود هاتين المعركتين، ومما لا شك فيه أن روح القتال تلك هى العامل المهم فى المعركة، فالعدد والسلاح لا يقومان مقام الشجاعة والإقدام والرغبة فى إحراز النصر، ولم يغفل قائدا المعركتين هذه الناحية، بل حرصا عليها أشد الحرص وخاصة فى أحرج ساعات المعركة، "فيوسف بن تاشفين" يخوض المعركة بنفسه فى مقدمة الصفوف وقد عقرت تحته أفراس ثلاثة، يثب بين الصفوف وهو يذكى حماسة جنده للنصر أو الشهادة بعبارات تفيض حماسة وقوة، فقاتل المسلمون قتال من يطلب الشهادة ويتمنى الموت[1]. وكذلك كان المنصور مثلاً رائعًا لجنده فى حماسه فهو لا يقل عن "يوسف بن تاشفين" شيئًا فى هذا المجال، فقد ترك ساقته وموضعه عندما اشتد هجوم النصارى على قلب جيشه، وسار منفرداً من خاصته وحرسه، ومر على الصفوف والقبائل وألقى إليهم كلامًا حماسيًا فى الهجوم على عدوهم والثبات إليه وعاد إلى موضعه وساقته[2]، وهو لا يفتر ولا يزال يثير حماسة جنده ويدفعهم إلى القتال والصبر إزاء هجوم النصارى العنيف.

---

(١) روض القرطاس، ص (٩٥).

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث، ص (١٩٤).

٧- وقد تشابهت كلتا المعركتين في بداية كل منهما، ففي معركة الزلاقة بدأ النصارى فيها بالهجوم وكان على المسلمين تلقي الهجمة الأولى، فقد هجم «ألفونسو السادس» على جنود الأندلس في تلك الموقعة حتى أجبرهم على الفرار ثم أخذ يطاردهم دافعًا جنوده إلى الأمام، وكذلك في معركة الأرك الموحدية فقد اضطلع «ألفونسو الثامن» بهجوم عنيف على قلب جيش الموحدين حتى فني أغلبه وقتل قائد المعركة، وربما كان المسلمون يرسمون خططهم على ضوء ذلك الهجوم الذي غالبًا ما يبدأ به النصارى، فقد كان المسلمون يتحملون الصدمة الأولى للنصارى محاولين الصبر والثبات والتقليل من خسائرهم بشتى الطرق، ثم بعد ذلك ينقلب دفاع المسلمين إلى هجوم مركز بعد استنفاد كل طاقة جند العدو، وهذا ما حدث في موقعتي الزلاقة والأرك فقد تحول دفاعهم فيها إلى هجوم عنيف أفنى سائر جند العدو كما وضحنا سابقا.

٨- وقد اعتمدت كل من خطتي الزلاقة والأرك على عنصر المباغتة والمفاجأة، وتتضح ذلك في دخول «يوسف بن تاشفين» المعركة فجأة واحتوائه على معسكر النصارى بينما كان ألفونسو وفرسانه مشغولين بمطاردة الأندلسيين وكانت مفاجأته هذه ضربة قاصمة لجيش النصارى أنهى بها معركة الزلاقة لصالحه، وهذه المفاجأة ذكرتنا بالمفاجأة التي أحدثها «المنصور» في موقعة الأرك أيضًا حيث تدخل بقواته الاحتياطية مع باقي قوات الأندلس والفرق الأخرى في الوقت المناسب مركزين هجومهم على قلب الجيش القشتالي وقتاله عن آخره ثم القيام بحركة تطويق لفرسان النصارى عندما حاولوا الفرار إلى ربوة الأرك للاعتصام بها فحالوا دون صعودهم وأفنوهم عن آخرهم.

٩- وقد ظهر في خطتي المعركتين أيضًا عنصر التمويه على العدو، ففي معركة الزلاقة اختفى جيش المرابطين وراء ربوة عالية محجوب عن أنظار النصارى، ثم توزعوا كمائن ومصايد تنقض على جيش النصارى عند اللحظة الحاسمة في المعركة، وكذلك كان التمويه عمدة خطة معركة الأرك، فقد غير المنصور مكانه في المعركة حيث أمر أن ترفع الأعلام الخليفية على قلب الجيش حتى يظن العدو أنه الجناح الذي يقوده الخليفة بينما ترك الخليفة هذا الجناح إلى ساقة الجيش واختفى

فى مكان محجوب عن نظار العدو، وفعلا تركز هجوم النصارى على قلب الجيش الموحدى ضدين له اجناح الذى يقوده خفيفة، بينما تدخل المنصور بحامية فى وقت حرج من أوقات المعركة وهو الوقت الذى وصل فيه القشتاليون إلى ذروة الإجهاد والتعب.

١٠- وتختلف المعركتان من حيث عنصر المطاردة، ذلك العنصر الذى نفتقده دائمًا فى حروب المرابطين، فمعركة الزلاقة بالرغم من أنها قد صدعت من قوى مملكة قشتالة، وقضت مؤقتًا على الخطر الذى كان يهدد ملوك الطوائف فإنها اقتصرت على تحقيق النصر للمسلمين، ولم يتبع يوسف نصره فى هذه الموقعة بأية مطاردة للنصارى الذين ذهبت ريحهم وهزموا هزيمة منكرة، فلم يحاول «ابن تاشفين» محاولة أخرى لاسترداد طليطلة أو غزو أراضى قشتالة، وضاعت منه فرصة ثمينة ونادرة فلو حاول ذلك لاسترد طليطلة وهو الهدف الإستراتيجى من الحرب، بينما المنصور فى معركة الأرك نراه يطارد فلول عدوه المنهزم ويحاصره فى قلعة الأرك، ثم يستولى على عدة حصون فى أراضى قلعة رباح، ثم لم تمض بضعة أشهر حتى خرج المنصور فى قواته ثانية لغزو أراضى قشتالة ووصوله إلى أبواب طليطلة بهدف ردع العدو.

وخلاصة هذا أننا قد ألممنا إلمامة مفصلة لمعركتين من أشهر المعارك الإسلامية وأعظمها، وقد لاحظنا من دراستنا لهما أنهما تشابهتا فى الكثير: فى الحشد، والمسير، والأسباب، والقيادة الرشيدة، وتمتع الجيوش بروح الفريق، وجماعية القيادة، وإقامة المجالس الحربية القائمة على التفاهم والتشاور ثم الالتزام بالخطة مهما كانت الظروف دون تحجر، وتميز جيوشهما بروح القتال وخفة الحركة والقدرة على المناورة، والالتزام بخطة الدفاع وتحمل الصدمة الأولى التى سرعان ما ينقلب الدفاع فيها إلى هجوم عنيف وخاطف، وقد ظهر فى أثناء سير القتال طرق الخلل المفتوحة من القيام بالمباغتات المفجعة للعدو والتى تسبب الذعر والاضطراب لجنوده، مع ادخار القوى للقيام بها بحركات مضادة يترتب عليها تطويق لأجناب الجيش النصرانى.

وإن كان ثمة خلاف بينهما فقد ظهر في جيش الموحدين والأندلسيين في الأرك لعبوا المعركة مجتمعين والجميع قد تفانى من أجل هزيمة المشتغلين حتى استشهد القائد العام لجيش الموحدين ومعه نخبة من كبار القواد وزعماء الدولة. بينما في معركة الزلاقة فقد تحمل الأندلسيون بمفردهم عبء هجوم النصارى في الضربات الأولى ولم يساعدهم سوى فرقة بقيادة داود بن عائشة بينما تدخل المرابطون عندما استنجد الأندلسيون بهم وقوي النصارى فدخلوا المعركة بعد أن مهدت لهم السبيل دماء الأندلسيين، فكانوا أكثر شهيدا، ومما لا شك فيه كانت خسارتهم بالنسبة لجيش الأندلس [illegible] من استشهد منهم في هذه المعركة.

وثمة فارق آخر ظهر في نتائج كل من المعركتين وهو عنصر الملاحقة والمطاردة فقد اقتصر المرابطون على النصر ولم يحاولوا استغلاله فقد تركوا العدو ثم الهجوم على بلنسية واستردادها بينما حرصت قيادة الموحدين على استغلال هذا النصر وذلك بمحاولة الهجوم ومطاردة النصارى وتعقب فلول جيوشهم المهزومة فاستثمر هذا النصر بعد المعركة مباشرة.

رابعاً: كلمة حق ورأى:

«مناقشة آراء المستشرقين حول دولة المرابطين»

يجدر بنا في هذا المقام أن نجلي للأذهان حقيقة تلك الدولة المرابطية ونظهر ما لها وما عليها، ونعرف بأن بعض المؤرخين لهذه الدولة(١) قد انساقوا وراء أهوائهم وميولهم، فدونوا ما شاءت ولم يشيدوا بالمحاسن كما يفعل المنصفون.

كانت لهذه الدولة الفتية لم تنل نصيبها من العدل والمصداقية في معظم الروايات العربية وغيرها من مؤرخي الإسلام والأجانب. وقد يرجع ذلك إلى قصر حياة دولة المرابطين التي انتهت حياتها وهي في عنفوان شبابها قبل أن يهرم أو تشيخ، فجاءت بعض أخبارهم شذرات متفرقة في صفحات المراجع الإسلامية وجاء بعضها الآخر مطموسة معالمه وحقائقه بسبب تعصب كثير من مؤرخي الموحدين. هذا ولم تكن المراجع الأوروبية بأسعد حظاً من سابقتها. فقد جاءت رواياتها مصبوغة بصبغة التعصب الديني والجنسي في أغلبها.

ومن هذه الآراء المتعصبة التي تشددت في حكمها على المرابطين رأي المؤرخ «دوزي» الذي يقول في بعضها «لم يكن الشعب الأندلسي بأسعد حظاً عندما قدم إليه المرابطون، ذلك أن الحكومة والقادة والجند، قد فسدوا جميعاً في وقت قريب من إمارتهم... فقد كان قواد يوسف حينما وفدوا إلى أسبانيا صحراويين بسطاء يتحلون بفضائل التقوى والشجاعة، ولكنهم سرعان ما غرقوا في النعيم ومتع الحياة مما أغدقه عليهم يوسف من كنوز أمرائها، ففقدوا تلك الفضائل وعكفوا على التمتع بتلك الخيرات يريدون أن يقلدوا ملوك الأندلس الذين خلعوهم، ولكن لسوء حظهم أنهم كانوا من ذوي الجلد الخشن الذي يحول دون تمتعهم بمظاهر النعومة والرقة فعجزوا عن مجاراة الأندلسيين».

ثم يقول في موضع آخر: ولم يكن الجند المرابطي بأفضل وضعاً من قادتهم ورؤسائهم، فقد كانوا معروفين بالظلم الخشن نحو أهل الأندلس وبالجبن والهلع أمام العدو، وقد فرغ جيشهم الأمير «علي بن يوسف» مما حمله أن يجند

النصارى في جيشه، الذين يأتى بهم «على بن ميمون» قائد أسطوله من شواطئ جليقية وقطلونية وبيطاليا، ومن مظاهر لؤمهم مع أهل الأندلس أنهم كانوا يسلبون منهم كل ما حلا لهم وراق من مال ونساء، وقد شجعهم على ذلك ضعف حكومة المرابطين التى عجزت أن تقاوم طغيان هؤلاء الجند[1].

مما لا شك فيه أن في أقوال «دوزى» تحاملاً كبيرًا على المرابطين، فقد وصفهم بالخشونة إزاء الأندلسيين. فماذا يعنى بالخشونة؟ لقد حرصت مصادرنا القديمة على أن تصف الملثمين بالخشونة كصاحب روض القرطاس والبكرى وابن خلدون، وهم يقصدون بالخشونة هذه الخشونة الضرورية لحمل عبء الكفاح، وليس المقصود الخشونة الوحشية التى يعنيها «دوزى».

فإن آفة الدول فى فكر المؤرخين القدماء هى الترف والانغماس فى متاع الدنيا. وقد انخدع كثير من الدارسين بلفظ الخشونة، فتصوروا أن حكم المرابطين هو حكم وحشى خشن، ووضعوا فى الطرف المقابل لذلك ترف أهل الأندلس ورقة طباعهم، وهذا فهم منحرف عن القصد والاعتدال وقع فيه المؤرخ «دوزى»، وكل ما يمكن أن يقال عن خشونة المرابطين هو أنهم كانوا يتصفون بصفات تؤهلهم تأهيلاً تامًا للقيام بدورهم التاريخى العظيم من حيث الخشونة والتمسك بالمبادئ، والتزام البساطة وقوة العزم وسلامة الطبع. وقد أشاد «ابن حمديس» بخشونة الملثمين اللازمة لإظهار شجاعتهم فى القتال فقال:[2].

ألفت قلوبهم الخضوع لربهم	والبأس فى أسيافهم متكبر
يرمون أغراض الحتوف بأنفس	ووجوهها لعيونهم تتنمر
وتغور فى هام العلوج جداول	للضرب من أغمادهم تتفجر
من كل وحشى الطباع كأنه	بين القنا الخطى ليث مخدر

لهذا نرجو أن نتحاشى كثيرًا من السمات الوحشية التى أظهرها الدارسون المحدثون فى وصف الملثمين، وأن نعتبر تلك الخشونة إنما هى لازمة لإظهار بأسهم

(١) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne (1932) V. III p 162 - 164

(٢) انظر ديوان «ابن حمديس»

فى القتال، أو اعتبر الملثمين أهل مكرم كمكرم الجاهلية قبل الإسلام على الأقل، أما قول «دوزى» عن قواد المرابطين بأن كنوز الأمراء الأندلسيين التى أغدقها عليهم يوسف قد جعلتهم يفقدون فضائلهم بسرعة، يكفينا فى الرد عليه فى هذا المقام أقوال رواية معتدلة تشيد بخلال المرابطين التى لم تغيرها حياة الأندلس وترفه حين قدم أشياخ المرابطين فيها الأندلس وكانوا قبلها أقوامًا ربتهم الصحراء، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ولا محالطة الأسافل[1]، ويقدم لنا صاحب الحلل الموشية أيضًا رواية عن شاهد عيان قد عاصر عهد المرابطين حتى استيلاء عبد المؤمن الموحدى على مراكش وهو «القاضى أبو بكر بن العربى» المتوفى سنة ٥٤٢هـ، فقد جاء فى كتابه «عارضة الأحوذى فى شرح الترمذى» قوله: «المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين الذابون والمجاهدون دونهم ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا قدم ولا وسيلة ولا موقعة إلا الزلاقة التى أنسى ذكرها حروب الأوائل، وحروب داحس والغبراء مع بنى وائل، لكان ذلك من أعظم وأربح تجرهم»[2].

ثم يبدو تحامل «دوزى» على المرابطين قاسيًا فيصمهم بالجبن إزاء العدو ويرى جبنهم فادحًا حتى إن الأمير على اضطر أن يتغلب على بغضه للنصارى بأن يحشد منهم فرقًا فى جيشه.

ويكفينا لدحض هذه الشبهة أن نسمع ما قيل فيهم: «وكان لهم فى قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار فى زحف»[3].

فهل من العدل أن نصمهم بالجبن إزاء العدو وهم الذين حققوا انتصارات باهرة بعد نصر الزلاقة فى أقليش سنة (٥٠١هـ - ١١٠٨م)، وفى أفراغة سنة (٥٢٨هـ - ١١٣٤م). وأنهم استطاعوا على وجه العموم حتى أواخر عهدهم الذى استطال بالأندلس زهاء خمسين عامًا أن يحافظوا خلالها على رقعة البلاد الإسلامية بالأندلس ولم يسئ إلى كفاحهم ضد النصارى سوى قيام الثورة عليهم فى مختلف القواعد عند ظهور الموحدين وعبورهم إلى الأندلس.

---

(١) الحلل الموشية، ص (٥٩).

(٢) المصدر السابق، ص (١٠٥)

(٣) انظر أشباخ، ج (١) ص (٦٩)، وابن الأبار، الحلة السيراء، ص (٢٠٩)

ويمتلئ "تاريخ دوزي" ببعض حملة التشهير التي قام بها على المرابطين وعلى عاهلهم "يوسف بن تاشفين"(1)، وإن كان يجد في بعض الروايات ما يعينه على حملته إلا أنه كان غير مدقق لتلك الروايات، فقد نقل عنها دون أن يتعرف على ميول أصحاب هذه الروايات، فقد نقل عن المراكشي صاحب المعجب وهو كما عرف عنه مؤرخ ينتمي إلى البلاط الموحدي، لذا كانت روايته عن المرابطين غير دقيقة بدافع التعصب والانحياز.

وقد عرف عن "دوزي" تعصبه ضد المسلمين وتحامله الشديد عليهم وأنه كثيراً ما يميل إلى التعميم الذي أسلمه إلى خطأ في استنباط النتائج، وقد رماه المستشرق "كوديرا" بهذا التحامل ووجه إليه نقداً في هذا الصدد قائلاً: "لقد صيغت أحكام قاطعة جداً، مجحفة بالنسبة لحكم المرابطين، ولما كنا نعتقد أنه لا مبرر لهذه الأحكام، بالرغم من مكانة "دوزي" العظيمة، الذي حذا حذوه معظم الكتاب المتأخرين. فإننا نعتقد أنه يجب أن نقول شيئاً من عندنا، لأنه إذا كان مدون العلامة الهولندي يستند في أقواله على أقوال مأخوذة من الكتاب المسلمين والنصارى، فإني أشعر أنه يحيش بكثير من التحامل، وهذا يرجع بالأخص إلى ما يظهر من تعصبه ضد رجال الدين، وإلى تطبيق التعصب بالنسبة للأمة الإسلامية وإلى ميله الواضح إلى التعميم، وإلى استخراج النتائج بالاستناد إلى قليل من الوقائع)(2).

ومما لا شك فيه أن دولة المرابطين كانت دولة لها محاسنها التي تزكيها، وعليها مثالبها التي تؤخذ عليها. فإن كان للمرابطين قادة وجنداً من محاسن فيمكن إجمالها في فكرة الجهاد التي قامت عليها دولتهم منذ مهدها الأول في الصحراء، ثم إيمان بهذه الفكرة انتقلت من الصحراء إلى بلاد المغرب ثم زحفوا إلى الأندلس منقذين محاربين، وهذا التغيير من الصحراء إلى بلاد المغرب ثم إلى المدينة والحضارة بالأندلس، تطلب منهم تكيفاً مستمراً وهو الذي أجهدهم حتى استنفد كل قواهم قبل الأوان، وقد لبثت الدولة المرابطية قادة وجنداً طوال عهد "يوسف ابن تاشفين" وأوائل عهد ولده "علي"، دولة مجاهدة تحتفظ بكثير من فضائلها من التقشف والمنعة والعدالة والتمسك بأحكام الكتاب والسنة.

---

(1) تاريخ "دوزي" مرجع سابق، ج (3) ص (155 - 168)

(2) F. codera: Decad. Y. Desp. de Los Almoravides P - 190 - 191.

وإن كانت بلاد الأندلس هى جبهتهم الثغرية والتى كانت عليها مسرح معاركهم فيكفى أنها استنفدت منهم كل جهد وطاقة، فى استنقاذ تلك الجهة وسحقهم لجيوش إسبانيا النصرانية فى موقعة الزلاقة العظيمة، وتصديهم لمطامع ألفونسو ملك أراجون وألفونسو ريموندیس ملك قشتالة، بل لا يملك الإنسان إلا أن يقر لهم بالفضل العظيم لما سجلوه من صفحات مشرقة من الكفاح فى فترة حالكة كانت تمر بها الدولة من ثورات داخلية وفتن ظهرت مع ظهور الموحدين، منذ موقعة أقليش ٥٠١هـ إلى موقعة أفراغة ٥٢٨هـ، وبهذا كله تظهر بجلاء بسالة هذه الزمرة الأكفاء من قادة المرابطين وما قدموا به فى سبيل إعلاء كلمة الله.

وإن كانت هناك بعض المثالب التى تعكر على المرابطين صفحة صفوهم العسكرى فيمكن إجمالها فيما يأتى:

١- فقدهم لعنصر المطاردة وعدم استثمار النصر فى أغلب معاركهم مع العدو كما حدث عقب موقعة الزلاقة وقد وضحنا ذلك سابقًا.

٢- ومن الثغرات العسكرية التى تؤخذ على المرابطين والتى صدعت من هيبتهم فى شبه الجزيرة الأندلسية هى سقوط «سرقسطة» قاعدة الثغر الأعلى عام ٥١٤هـ. وبهذه السقطة العسكرية قامت أزمة رهيبة استمرت زهاء ستة عشر عامًا لم يبلغ فيها المرابطون ريقًا، وحمل الأمير «أبو الطاهر تميم» بطل أقليش مسئولية هذه السقطة، وزاد من قسوة هذه الأزمة تشنيع أهل سرقسطة أثناء الحصار وبعده بالمرابطين، فقد كتب قاضى سرقسطة إلى الأمير «تميم» المرابطى رسالة تعنيف وتقريع، يؤنبه فيها على اقترابه من سرقسطة ثم نكوصه عنها، وقد جاء فى رسالته: «يا معشر المرابطية، أنتم المطلولون عند الله بدمائنا، بريتم من نصرة الإسلام يغنينا الله عنكم، هو السد الذى إذ فتق فتقت بعده أسداد»[1] وخرجت من سرقسطة جموع ساخطة على المرابطين فى أنفسهم جروح عميقة من تخاذلهم والنكوص عن نجدتهم.

٣- وترتب على سقوط سرقسطة سقوط باقى قواعدها، وفى غمرة هذه الأحداث المحزنة منى المرابطون بهزيمة ساحقة فى كتندة عام ٥١٤هـ، وكان سببها

---

(١) انظر نص الرسالة فى قسم الوثائق المرابطية. تحقيق عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج (١) ص (٥٣٨)

أن ملك أرجوان "ابن ردمير" زحف بجيشه للاستيلاء على قلعة أيوب فلما أراد المرابطون إنقاذ هذه القلعة اشتبكوا مع جيش "ابن ردمير" فى معركة حامية هزم فيها المرابطون فى ظاهر بلدة صغيرة تسمى "كتندة" واستشهد فى هذه الموقعة عدد من العلماء وكانت النتيجة أكبر من العادة لأن الهزيمة جاءت والروح المعنوية ضعيفة متخاذلة.

٤- من المعروف أن المرابطين قوم صحراويون، وعلى الرغم من بداوتهم وتقشفهم إلا أنهم كانوا يتمتعون بكثير من الفضائل والصفات الحسنة من الشجاعة والفروسية والتقوى والورع والعمل للجهاد فى سبيل الله، إلا أن هناك طوائف من الحشم والعبيد التابعة لهم كانت تعتدى على الناس وتعبث بالأمن تحت ظل ستار اللثام المرابطى، فكانوا يتلثمون على الناس ويهيبونهم، ويأتون أبوابًا من الفجور كثيرة بسبب اللثام وهذا ما نرى "ابن عبدون" وكان فى بلاط "على بن يوسف" يسجل ذلك فى رسالته ويضع حدًا لهذه الأعمال فيقول عند ذكر المرابطين "يجب ألا يلثم إلا صنهاجى أو لمتونى أو لمطى، فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب يلثم، يلثمون على الناس ويهيبونهم، ويأتون أبوابًا من الفجور كثيرة بسبب اللثام وهذا"[1].

ثم يقول "ابن عبدون" (يجب ألا يمشى أحد فى المدينة بسلاح، فإن ذلك داعية إلى الفساد، ولا سيما البربر، فإنهم قوم إذا غضبوا قتلوا أو جرحوا)[2]

وهذا ما يعطينا صورة لما يتسم به بعض الجند البربر من سرعة الغضب وتوتر الأعصاب مما يدفعهم إلى القتل أو الجرح بسهولة دون تروية أو تعقل

وبعد، هذه أحوال المرابطين بين المدح والقدح، وقد أردنا أن نحكم لهم أو نحكم عليهم فليتصفح الناقد ما أنجزوه من أعمال فى سبيل الجهاد وإعلاء كلمة الله على أرض الأندلس مع مقارنة ذلك بعمر دولتهم القصير بالأندلس، الذى بلغ زهاء السبعين عامًا تقريبًا كلها حروب متواصلة مع النصارى حققوا خلالها نصر الزلاقة وأقليش وإفراغة، وحفظوا على رقعة أرض الأندلس أن تقع فى يد الإسبان إلى حين.

---

(١) رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة المنشورة بعناية ليفى بروفنسال، ص (٢٨)

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحات

خامسا: خصائص العسكرية الإسلامية

لدولتى المرابطين والموحدين

وإن كان لكل جيش خصائصه وسماته التى تميزه، فإن جيوش المرابطين والموحدين فى المغرب الإسلامى ملامحها وسماتها المستمدة من روح الإسلام وظروف بيئته واختلاف الأجناس، وتباين العصور. ويمكن لنا توضيح تلك السمات فى النقاط التالية:

أولاً: العقيدة العسكرية:

إن (الجهاد فى سبيل الله) هو جوهر العقيدة والإستراتيجية العسكرية لدى المرابطين والموحدين، وهذه العقيدة مميزة عن العقائد العسكرية الأخرى فهى عقيدة مستقة من القرآن الكريم والسنة النبوية مما جعلها تسمو مكانة عالية، وتتميز بالاستقرار والأصالة والحيوية، والتجديد والمحافظة على الهوية الإسلامية، فهى ربانية المنشأ وسماوية التوجه بينما العقائد العسكرية الأخرى يصوغها وتضع مبادئها القيادات السياسية والعسكرية للبلد فى ضوء غاياتها القومية فهى من وضع البشر وشتان بين عقيدتين وهذه العقيدة العسكرية تجمع بين هذا العنصر الربانى الثابت وبين عنصر الاجتهاد من جانب الفقهاء والعسكريين أولى الاختصاص والأمر. فهى عقيدة منفتحة تستفيد من سائر العقائد الأخرى فى ميادين العمل والتطبيق.

ثانيًا: النظريات الإستراتيجية للحرب عند المرابطين والموحدين تنسجم تمامًا مع غاية الحرب فى الإسلام:

إذ تقوم على نظرية الجمع بين الهجوم والدفاع حسب مقتضيات الموقف العسكرى كما تتحدد نظرية الردع الإسلامية التى تستهدف إرهاب العدو ومنعه من العدوان.

وبذلك يتحقق حقن الدماء والاقتصاد التام فى القوى المادية والمعنوية. ويتضح ذلك من خلال الغزوات التى كان يقوم بها الأمراء المرابطون والخلفاء الموحدون بأنفسهم فى أرض العدو بصفة مستمرة لإرهاب العدو حتى لا تحدثه نفسه بالعدوان

على أراضي الدولة عملاً بقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الْخَيْل تُرْهِبُونَ به عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ثالثًا: القدرة على توافر الكفاءة النوعية والاستعداد للقتال:

حيث كانت الجيوش في تأهب دائم وحذر ويقظة حتى لا تؤخذ على غرة، وكما كانت القيادة العامة تعمل على أن يكون هناك جزء من القوات مستعدة للقتال فور الإنذار بالخطر، وهو ما يسمى في العصر الحديث الدرجة الاستعداد القصوى، مع كفاءة عالية في أعمال المخابرات والأمن ومقاومة الجاسوسية وتوجيهات القادة في القتال(١). ومما يلفت النظر حقًا أن تلك التوجيهات كانت تمتاز بارتباطها العضوي بغاية الإسلام ومقاصده من القتال التي هي من الشرف والسمو والمكانة بحيث يسهل على المقاتلين بذل المهج والأرواح في سبيلها.

رابعًا: القدرة على توافر الكفاءة القتالية للجيوش المرابطية والموحدية:

ويتضح في النقاط التالية:

أ- بناء المقاتل: يقرر العلم العسكري أن كفاءة الجيوش تقوم على خمس دعائم رئيسية هي: المقاتل الكفء، والسلاح القوي، والانضباط، والروح المعنوية، وروح الفريق(٢).

والمتأمل في هذه الدعائم يلاحظ أهمية الجوانب المعنوية بجانب الجوانب المادية، فالعنصر البشري هو العنصر الحاسم في بناء الجيوش، فالإنسان هو الذي يفكر ويضع الخطط ويقاتل ويستخدم السلاح ويقود الجيوش ويتصرف في المواقف ويسمو بالقدرات، وهو الذي يصمد ويثبت ويتقدم ويقتحم المخاطر. فكيف كان منهج الدولة المرابطية والموحدية في بناء الإنسان المقاتل؟ لقد كان المنهج سماويًا، فهو منهج الإسلام الذي صقلهم في [illegible]، وعقيدته الراسخة في ضمائرهم عقيدة التوحيد في العبادة وفي الأخلاق، وإعلانه للكرامة الإنسانية

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible] ص ١٩٦.

وتحريره للشخصية الإسلامية من كل أشكال الخوف إلا من الخوف من الله عز وجل، ومقاومته للعبودية لغير الله، وعنايته بالصحة النفسية والجسمية اللتين تعتبران حجر الأساس لبناء المقاتل الكفء، وهذا واضح كما عرفناه في مرحلة الرباط إذ تولى الداعية «ابن ياسين» وضع هذه النظم لهذا المقاتل، ويمكنك الرجوع والاطلاع عليها.

وقد أثبت التاريخ العسكري الجهادي للمرابطين أن المقاتل المسلم الذي تربى على منهج الإسلام، مقاتل من طراز فريد، لا تؤثر فيه [illegible] الأساليب التي قررتها عقول القادة والمدربين في كل زمان ومكان، فالموت في المعركة أمر لا يحسبه المسلم بل هو غاية من يسعى إلى الظفر بها، وهو الظفر بالشهادة وبالمغفرة والرضوان، ومن ثم فقد تجمعت للمقاتل المرابطي والموحدي كل المزايا والخصائل الحربية على القتال وعلى الوجود، مثل الشجاعة وقوة التحمل، والخشونة والخبرة والطاعة والصراحة والغيرة على الشرف والنجدة والصمود، والتقدم والإقدام وتقدير الواجب والإيمان بالحق والقتال عن عقيدة. وقد قيل عن المقاتل المرابطي «وكان لهم في قتالهم شدة وحدة، ليس لغيرهم، فهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف». ويقول المقري أيضاً «ومع ذلك فهم الأبطال المشهورين ومشايخ مصبحة في [illegible] من صوت السيوف التي تقد الدروع، والصفحات التي تلتهم [illegible] كل ذلك بسبب ذلك الناموس في قلوب الأندلس لقتالهم»(1). هكذا كان المقاتل المرابطي مقاتلاً لا يقهر والسر هو «الإسلام» وعقيدته العسكرية.

ب- التدريب على القتال: وهو من أهم عناصر قدرة الجيوش في القتال، وقد عرفنا أن أعمال الفروسية شرط أساسي من أعمال المرابطين، وأن الخليفتين المرابطة والموحدية كانت حريصتين على تدريب فرقهما بصورة مستمرة، وعرفنا أيضاً أن عبد المؤمن بن علي أعد بركة لتدريب الطلاب على الملاحة وأعمال الفروسية وكان يشرف عليها بنفسه، ولذلك فقد توافرت الكفاءة القتالية العالية لكل أفراد الجيش قادة وجنوداً، وجعلتهم على درجة عالية من الاستعداد للقتال الفوري. وقد ترتب على هذا التدريب تقليل خسائر الجيش في الأرواح والمعدات، ذلك لأن

---

(١) نفح الطيب، ج (٢)

الجندى المدرب جيداً أقل تعرضاً للإصابة من زميله ناقص التدريب، ومن الأقوال المأثورة فى هذا الصدد «إن العرق فى التدريب يوفر الدم فى المعركة» وكانت موضوعات التدريب تشمل: تقوية الأجسام بتعليم السباحة وركوب الخيل والسباق فى الجرى، والسباق بين الفرسان على الخيل أو الإبل والمصارعة ورفع الأثقال إلى غير ذلك من ألوان التربية الدينية والرياضية لتى تبنى الجسم القوى السليم.

وشمل التدريب أيضاً، التدريب على السلاح والرماية بالقوس والنضال بالسهام والطعن بالرمح والحربة والضرب بالسيف، وهى أسلحة القتال المعروفة فى ذلك الوقت، وقد عرفنا سابقاً أن الخليفة الموحدى كان يحرص على مشاهدة هذا التدريب كل عصر فى حضرة أكابر الدولة وتمثل الحرب تمثيلاً حياً بين يديه.

جـ- **الانضباط ومراعاة التقاليد العسكرية**. يعرف الانضباط فى علم النفس العسكرى بأنه الحالة العقلية والنفسية ومقدار التدريب التى تجعل الطاعة والسلوك السليم أموراً غريزية فى جميع الظروف[1]، وهو ما يسمى أحياناً بالضبط والربط، وأن الانضباط شىء يمكن تنميته فى العقل عن طريق التدريب ويتجلى فى الطاعة والسلوك السليم بصورة غريزية أو تلقائية[2]، ويمكن أن نوضح ذلك بصورة أوضح للانضباط، فنقول إن الطاعة ليست هى كل محتويات الانضباط، وما هى إلا جزء منه، وإن الانضباط الحق لا يكتمل إلا بأن يفعل المرء ما يعرف أو يعتقد أنه صحيح فى غيبة الأوامر أو الرقابة وأن يحافظ على الطاعة والسلوك السليم فى جميع الظروف، وفى ظل العوامل والمؤثرات والضغوط المختلفة وهذا ما يعبر عنه بأن تكون الطاعة والسلوك السليم أموراً غريزية فى جميع الظروف.

وقد أجمع القادة العسكريون وعلماء النفس على أن ذلك النوع من الانضباط الذى يقوم على الطاعة والسلوك السليم حتى فى غيبة الأوامر وبدون الحاجة إلى رقيب، وفى جميع الظروف» هو الانضباط الذى يجب أن يتحلى رجال العسكرية فى الحروب الحديثة[3] به

---

(١) مدخل إلى العقيدة والاستراتيجية ص (٢٣٤)

(٢)، (٣) المصدر السابق ونفس الصفحات

وبناء على ما تقدم نستطيع أن نقول إذن. ما هي أسس بناء الانضباط في جيوش المرابطين والموحدين؟

الواقع أن منهج الإسلام في التربية السلوكية الذي التزم به المرابطون والموحدون قد غرس في المجاهد منهم صفة (الانضباط الذاتي) الذي يدفعه إلى الطاعة والسلوك السليم بصورة غريزية وبلا رقابة من أحد وفي كل الظروف. فإن كانت النظم الموضوعة من قبل في جيوش العالم تعتمد في غرس الانضباط في النفوس على دوافع سياسية أو مادية أو قهر السلطة أو الخوف من العقاب، فإن دوافع الإسلام أشرف هدفًا وأقوى أثرًا وأسمى هدفًا لأن جميعها تصب في التكوين النفسي والاجتماعي السليم، وتترسخ في وجدان الإنسان عن اقتناع وإيمان. وقد قام الانضباط في منهج الإسلام الذي يدين به المرابطون والموحدون على الأسس التي درجوا عليها في مرحلة الرباط التي أسس لها ابن ياسين، المهدي وغيره، ومن هذه الأسس

١- اهتمام المرابطين والموحدين بتوفير الحرية والكرامة الإنسانية للجندي باعتبارها من أهم المعايير التي تزيد من فاعلية الجند فهي قضايا تمس الفرد والمجتمع. فإن الذين يساقون لا يمكنهم يومًا من الأيام أن يكونوا قادة فكر، أو قواد جيوش أو أئمة ودعاة

٢- تنمية الضمير الواعي الذي يدفع بالجندي إلى أداء واجبه على أكمل وجه معتمدًا على قوة ذاتية داخل نفسه لا على قوة أو سلطة خارجية، فتنفي من حساب الجندي نفسه الحاجة إلى رقابة أحد عليه وتدفعه إلى أن يرعى الله في عمله

٣- بناء الجندي المرابطي والموحدي على تقدير المسئولية والإخلاص في العمل مما دفع به إلى إتقان عمله على أكمل وجه دون انتظار مكافأة من أحد أو ثناء عليه.

٤- التدريب العملي على الانضباط كما علمنا في نظام الرباط قد أدى إلى ترجمة المنهج إلى سلوك عملي حتى أصبح الانضباط سجية وملكة وعادة.

٥- كما أن ربط هذه التقاليد العسكرية بتوجيهات الإسلام يؤدي بالجندي إلى الاقتناع بها وبأهدافها ويكون قوة دافعة على الالتزام بها.

٦- وكذلك ربطها بالأخلاق الفاضلة التي يتحلى بها الإسلام والتي تحلى بها جند المرابطين والموحدين جعلهم أهلاً للمكانة العليا بين الناس وأهلاً للانتصار المؤزر على أعدائهم. فشتان قوم يحاربون لله، وآخرون يحاربون من أجل مطامع الدنيا. ويقول ابن جنون عن المرابطين (كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة، وصحة مذهب، ملكوا الأندلس من بلاد الإفرنج إلى البحر الغربي المحيط، ومن مدينة بجاية من بلاد العدوة، إلى جبل الذهب من بلاد السودان لم يجر في عملهم طوال أيامهم رسم مكروه، ولا معونة ولا خراج في بادية ولا في حاضرة وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر...)[1].

د- **الروح المعنوية**: وتعرف الروح المعنوية في علم النفس بأنها هي: (الحالة العقلية للفرد في وقت معين، وتحت تأثير ظروف معينة، فأحياناً يكون الفرد شجاعاً قوياً ممتلئاً بالحماسة تحت تأثير ظروف معينة وفي وقت آخر وتحت ظروف أخرى نجده متردداً متخاذلاً فاقد النشاط، فحالة الفرد العقلية التي تحركه - في هذا الوقت أو ذاك - إلى السلوك المتسم بالقوة أو الضعف، أو بالسعادة أو بالحزن تسمى «الروح المعنوية»)[2].

وتعتبر الروح المعنوية العالية من أهم عوامل النصر في الحرب إذ هي الباعث الأساسي لإرادة القتال وهي مستودع القوة والقدرة على مواجهة العدو ومشاق المعركة وأهوالها، والتصميم على إحراز النصر مهما كانت التضحيات.

ويحتل العامل المعنوي مكاناً هاماً في التخطيط الاستراتيجي في كل الجيوش إذ هو العامل الذي يحكم إصدار القرار ببدء العمليات العسكرية أو تأجيلها، لذا نرى «تدمير الروح المعنوية للعدو» من أهم الأهداف الاستراتيجية التي تسعى الجيوش المتصارعة إلى تحقيقها، فتضع الخطط للضربات التي تستهدف تدمير المعنويات سواء بأعمال القتال أو الحرب النفسية. فيا ترى كيف كانت الروح المعنوية لدى جيوش المرابطين والموحدين؟

مما لا شك فيه أن هاتين الدولتين كانتا تضطرم بروح معنوية عالية غرستها فيهم عقيدة الإسلام التي يدينون بها. إذ يعتمد الإسلام في بناء الروح المعنوية على

(١) روض القرطاس، ص (١٠٨)، والاستقصا للسلاوي، ج (١) ص (١٢٨)

(٢) مدخل إلى العقيدة والاستراتيجية... ص (٢٥٢)

أسس قوية منها: تنمية الاتجاهات النفسية الصحيحة للأفراد، وغرس عقيدة القتال غرسًا يقوم على المنهج العملي والسلوكي - كما عرفنا - في رباط «ابن ياسين» وربطة «المهدي ابن تومرت»، فكل منهما كانت أكاديمية عسكرية تعنى بغرس روح الجهاد في نفوس مريديها وأتباعها.

وتعتمد الروح المعنوية أيضًا على عدالة القضية التي يدافعون من أجلها، وتنمية الإحساس بالخطر المحدق بالأمة من أعدائها، والاعتماد على الثقة بالنفس وبالقائد وبالأمة ثم التعبئة المعنوية قبل الحرب وخلالها، ومن ثم رفع المعنويات بأعمال القتال.

وقد ظهرت الروح المعنوية واضحة جلية منذ أن اندفعت جيوش المرابطين من رباط السنغال متجهة صوب الشمال كأنها الصاعقة[1] فعرض «ابن ياسين» قوته العسكرية التي يبدو أنها كانت مركبة من المشاة فحسب عرضًا يقصد به إذكاء الحماسة[2] في شعورهم ثم خطبهم قائلاً: (قد أصلحكم الله وهداكم إلى صراط مستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في الله حق جهاده. أخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق فخلوا سبيلهم وإن تمادوا في غيهم استعنا بالله وجاهدناهم)[3]. وإذا كان «عبد الله بن ياسين» هو صاحب الفضل الأول في بعث المرابطين وإذكاء روحهم المعنوية العالية فإن «يوسف بن تاشفين» صاحب الفضل الأول أيضًا في تنظيم هذه الطاقة وتسخيرها في معركة الجهاد.

ففي معركة الزلاقة وقبل الالتحام جمع يوسف أصحابه وندب لهم من يعظهم ويذكرهم بالصبر والثبات، فظهر منهم من صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سر يوسف، ثم استعرض جنده على حصن الرقة فرأى منهم ما يسره فقال للمعتمد: «هلم لما جئنا له من الجهاد وقصد العدو»[4]، وحرص المرابطون على رفع معنويات جندهم فخصصوا لمعسكر قضاة يقضون بين الجند

(1) قيام دولة المرابطين، ص (٣٧٥).
(2) الجامعة اليوسفية، ص (٣٥، ٣٦)
(3) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص (٧٩)
(4) نفح الطيب، ج (٢) ص (٥٢٩)، دوزي-ملوك الطوائف، ص (٢٩٠، ٢٩١)

ويحضونهم على الجهاد، ويؤمونهم فى الصلاة[1]، وبهذه الروح العالية كان للمتونة شدة وبأس ليس لغيرهم وبذلك ملكوا الأرض[2].

وكان المرابطون يؤمنون إيمانًا شديدًا بعدالة القضية التى يحاربون من أجلها عن عقيدة واضحة تدفعهم إلى الاستماتة من أجلها ومن قول "يوسف بن تاشفين" فى إصراره على حرب النصارى وحرصه على استعادة أرض الأندلس كلها من أيدى الروم عندما لاحظ استكانة ملوك الطوائف (ولأن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم - يعنى الروم - خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجديه، أو صريخ يلبى دعوته)[3]

والمتتبع للتاريخ العسكرى لدولتى المرابطين والموحدين يجد هذه الروح المعنوية عالية سواء عند الإعداد للقتال أو أثناء سير القتال كما عرفنا عند الحديث عن معركتى الزلاقة المرابطية والأرك الموحدية، وما قام به القواد لإذكاء روح الجهاد فى جنودهم.

خامسًا: نمط القيادة العسكرية فى دولتى المرابطين والموحدين:

يحدد علماء النفس للقيادة العسكرية نمطين: الأول القيادة الإرغامية وتسمى أيضًا (بالقيادة المطلقة أو القيادة المستبدة)، أما الثانى فهو القيادة الإقناعية[4].

والقيادة الإرغامية هى القيادة التى يرغم بها القائد مرؤوسيه على طاعته معتمدًا على سلطته ومركزه وقوته، وأما القيادة الإقناعية فهى القيادة التى يحصل بها القائد على طاعة مرؤوسيه وهم مقتنعون بأوامره، ومن مساوئ القيادة الإرغامية أنها قد تؤدى إلى توليد شعور عدائى نحو القائد وإلى ضعف كفاءة المرؤوسين فى تحقيق الأهداف وإنجاز الأعمال التى أرغموا على تحقيقها، وقد تؤدى إلى تفشى روح السلبية عند المرؤوسين والاكتفاء بالعمل الذى يجنبهم عقاب القائد، كما أنها

---

(١) الذخيرة- ابن بسام قسم (٤) ص (١٢٥)

(٢) البكرى - المغرب، ص (١٦٦)

٣) المراكشى- المعجب، ص (٢٢٦)

(٤) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية ص (٢٨٩) وما بعدها

تؤدي إلى محاولة التهرب من العمل في غيبته، وعلى العكس من ذلك فإن القيادة الإقناعية تؤدي إلى توليد شعور بالارتياح والرضا عند المرؤوسين، وبالتالي تؤدي إلى ارتفاع روحهم المعنوية وتوليد روح المحبة والإخلاص للقائد، وتؤدي إلى توفير الكفاءة العالية لدى المرؤوسين في تحقيق الأهداف التي يوجههم إليها، وإلى خلق روح الإيجابية فيهم. فإذن كيف كان نمط القيادة في هاتين الدولتين؟

إن القيادة الإقناعية كانت النمط السائد في دولتي المرابطين والموحدين عامة، فقد كان "يوسف بن تاشفين" غير مستبد برأيه، بل كان يلجأ دائماً إلى الاستشارة والاهتداء بآراء قواده ويشركهم معه في كل عمل يقوم به، واستطاع بقدرته ولباقته أن يقنع مرؤوسيه بقبول قراراته، ويتضح ذلك من خلال مشورته وتفاهمه معهم عند خلعه ملوك الطوائف كما عرفنا سابقاً، وكذلك عند الاستيلاء على الجزيرة الخضراء، فقد استمع إلى رأي كاتبه "عبد الرحمن بن أسباط" وإلى غيره ثم اتخذ قراره بعد ذلك، وظهرت تلك الروح في أحلى صورة لها في إعداد جيوشه الأربعة للاستيلاء على الأندلس من أيدي ملوك الطوائف، فقد أقنع قواده الأربعة بسلامة خطته وبصحة قراره فانطلقت نحو غاياتها مصممة على تحقيقها والظفر بها. وسار خلفاؤه على نهجه متخذين من نمط القيادة الإقناعية سبيلاً لهم، وما كان نصر المرابطين في موقعة "قتيش" الشهيرة إلا نتيجة لهذه القيادة الإقناعية، فلو كان الأمير "تميم بن يوسف" مستبداً بقيادته لا يستمع إلى نصح قائديه المجربين، ولما ثبت أمام النصارى في الوقت الذي كان يريد الارتداد والإحجام عن لقائهم، ولكنه اقتنع برأي قادته وأصدر قراره بلقاء الأعداء. فكان ذلك النصر العظيم الذي أعاد أمجاد المسلمين بعد نصر الزلاقة.

وقد سار خلفاء الدولة الموحدية على هذا النمط من القيادة الإقناعية فكان "عبد المؤمن بن علي" يتمتع بحب مرؤوسيه وطاعتهم له، فتحقق بهذه الروح العالية انتصاراته الباهرة ضد خصومه بل كثيراً ما شاهدنا بعض القواد اللمتونيين في أواخر دولة المرابطين يهرعون إليه تاركين أماكنهم في جيش المرابطين حباً في أسلوب قيادته الاستشارية. وقد استطاع بقواده هؤلاء وجنده أن يقضي على دولة الملثمين وهي في ريعان شبابها ويقيم ملكه الواسع على أنقاضها.

ولكنه يبدو أن هذه الروح الاستشارية قد خفتت في قيادة الموحدين في كثير من الأحيان، وأظهر مثال لذلك قيادة «أبي يعقوب يوسف» الذي استبد برأيه وجنح إلى النمط الآخر من القيادة وهو القيادة الاستبدادية ففقد حب مرؤوسيه له مما أدى إلى انخفاض روحهم المعنوية، وتولد شعور عدائي ضده من أتباع القادة، كما تفشت روح السلبية بينهم، وقد ظهرت آثار ذلك في فشله الذريع في غزوة وبذة وإصابته بكارثة عنيفة راح ضحيتها في موقعة «شنترين»، أما ابنه المنصور فلم يوفق إلى نصره الباهر في موقعة الأرك إلا بفضل حزمه ونصح قادته والتزامه بروح القيادة الإقناعية.

سادسًا: نظرية الأمة المحاربة «إعداد الدولة للحرب»:

لقد اتفق الاستراتيجيون على أن إعداد القوات المسلحة للحرب ما هو إلا جانب واحد من عمل ضخم يحتوي - بالإضافة إليه - على جوانب أخرى مثل إعداد اقتصاد الدولة للحرب، وإعداد الشعب معنويًا وماديًا للحرب، وإعداد أراضي الدولة للحرب، وهذا العمل الضخم الذي يطلق عليه «إعداد الدولة للحرب» إنما هو عمل من أعمال الاستراتيجية العليا أو الشاملة(١)، وهذا العمل واسع المدى يشمل كل ما يسمح للدولة القدرة على ردع العدوان في أية لحظة، وتحقيق النصر في أقل وقت ممكن، والصمود لحرب طويلة الأمد، والتقليل من الخسائر التي تسببها ضربات العدو والمحافظة على مستوى عال من الروح المعنوية وعلى إرادة القتال والصمود لدى الشعب، أي أنه عمل يتطلب حشد كل القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعنوية والعسكرية في تخطيط منسق لتحقيق غاية قومية أو هدف استراتيجي واحد(٢).

وإذا كانت نظرية إعداد الدولة للحرب من نظريات العصر الحديث، فإن دولتي المرابطين والموحدين قد حققتاها على أعلى مستوى من الكفاءة والقدرة بما جعلهما

---

(١) مدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، ص (٣٤٤)

(٢) الاستراتيجية العليا أو الكبرى أو الشاملة: هي تنسيق وتوجيه جميع إمكانيات الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.. إلخ نحو تحقيق الغاية السياسية للحرب، ومعنى ذلك أن القوات المسلحة ليست إلا أداة واحدة من أدوات الاستراتيجية العليا لتحقيق الأهداف العليا للدولة - مدخل إلى العقيدة ص (٣٤٤)

يتفوقون بإعداد الدول الحديثة في هذا المجال وهم (٦) وهناك المؤلفات تتناول
العقيدة الإسلامية التي جعلت الجهاد في سبيل الله أشرف غاية للأمة الإسلامية
والذي يشكل جوهر العقيدة العسكرية الإسلامية، وهذا الجهاد لا ينحصر في إطار
قتال الأعداء بالنفس، بل يمتد ليشمل كل الجوانب الاقتصادية والسياسية
والأخلاقية والمعنوية، بل قد جاء الجهاد بالمال مقدماً على الجهاد بالنفس لأهميته
كما في قوله تعالى: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ [التوبة: ٤١]
وقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾
[الأنفال: ٧٢]. وقد عرفت سابقاً دور الرباط في الدولتين في تربية النفس على
الفضائل ومكارم الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ضرب من
ضروب الجهاد في سبيل الله بل هو الجهاد الأكبر كما سماه الرسول ﷺ. فإذا
أضيفت هذه الجوانب إلى جانب مجاهدة الأعداء وإعداد القوة لردع عدوانهم
وللدفاع عن الأمة والشرف والعرض والمال، والذود عن العقيدة ونشر الدعوة
الإسلامية، كل هذا بجانب المراقبة والحراسة والحذر واليقظة، يكون الإسلام قد
وضع نظرية إعداد الدولة للحرب بصورة تفوق الأمم المعاصرة، والمتصفح
لسجلات التاريخ العسكري لهاتين الدولتين، يجده حافلاً بالأمثلة التي تبرهن على
القيمة العظمى للكيان العسكري الذي تحلت به جيوش هاتين الدولتين، فكثيراً ما
خرجت جيوشهما لمحاربة جحافل النصارى التي تألبت عليهما من كل صوب
وحدب، ومع ذلك يتحقق حليف النصر في التغلب عليها وقهرها لأن تلك
الأمة المسلمة في المغرب والأندلس تملك كياناً عسكرياً وهو ما لا تملكه دول
النصارى مجتمعة، وقد تحدث كثير من القادة عن أهمية الكيان العسكري للأمة
وفي ذلك يقول الجنرال الفيتنامي جياب: (إن القاعدة العريضة لوجود الدولة هي
الأمة المسلحة، وبغير هذه الأمة المسلحة لن يكون هناك أي كيان مهما بلغ حجم
القوات وإمكانياتها) ويقول الجنرال «ديجول» في هذا المضمار أيضاً: (كلما عدنا إلى
دروس التاريخ الحربي البعيدة أو القريبة نجد أن الشعوب أو الدول التي تفقد كيانها
العسكري تخسر الحرب قبل أن تدخل أية معركة، بل قبل أن تطلق رصاصة واحدة)

هذا فهل يحق لنا بعد ذلك أن نفخر بهاتين الدولتين اللتين أقامتا كيانا عسكريا صلبًا تحطمت عليه دفوق سيل الحملات النصرانية الزاخر، وسبقت بذلك كل المدارس العسكرية الحديثة؟

وإن كان ثمة فرق بين الكيان العسكري لدولة المرابطين ودولة الموحدين فيتضح من خلال أنظمة الحكم في كلتا الدولتين، فقد كانت نظم الحكم المرابطية يغلب عليها الطابع العسكري الخالص في أغلب تاريخها، كما كان معظم حكام الولايات من قادة الجيش البارزين مثل: «سير بن أبي بكر اللمتوني» و «محمد ابن الحاج»، و «يحيى بن غانية» وغيرهم كثيرون كانوا من أكابر القادة، وقد عبئت معهم كل إمكانيات الدولة وطاقاتها نحو غاية واحدة وهي غاية الجهاد في سبيل الله، بل في سبيل هذه الغاية تنقلت الدولة في أطوارها الثلاثة: من الطور الصحراوي إلى الطور المغربي وأخيرًا إلى الطور الأندلسي الذي باشرت فيه نشاطها الحربي في الأندلس، والذي امتد أثره إلى جنوب غرب أوروبا محافظة على كيانها العسكري، وقد شهدنا فاعلية هذا الكيان في تحقيق عدة انتصارات في تلك الجبهة سالفة الذكر. ثم أضف إلى هذا الصراع صراع آخر استنفد طاقات تلك الدولة الفتية ألا وهو صراعها مع الموحدين مما عجل بإضعافها وموتها قبل أوانها.

أما الموحدون فعلى الرغم من أنهم كانت تحدوهم مثل هذه الروح التي كانت تحدو المرابطين في محاربة الإسبان والذود عن شبه الجزيرة الأندلسية فإنهم لم يحرزوا مثلما أحرز المرابطون من التوفيق في هذا الصدد وذلك راجع إلى نظم دولة الموحدين التي كانت أميل إلى الطابع المدني منها إلى الطابع العسكري، ولم يحدث هذا بطبيعة الحال إلا بعد رحيل الرعيل الأول من خلفاء الموحدين إذ مال من أتى بعدهم إلى الترف والنعيم وهذا بلا شك هو آفة الدول على مدى العصور، لذا نراهم لم يحكموا بناء الكيان العسكري للأمة كما أحكم بناءه المرابطون. فلا عجب أن يعبر الموحدون بجيوشهم الجرارة مرارًا إلى الأندلس مزودة بكميات هائلة من العتاد والسلاح ومع ذلك لم يحرزوا توفيقًا في حملاتهم، وقد عرفنا سابقًا كيف فشل الخليفة «أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن»

في حملاته ضد القشتاليين في معركتي "وبذة" و"شنترين" ولم يذكر لهم من الانتصارات الخالدة سوى انتصار واحد حققه خليفة المنصور في معركة "الأرك"، على أن هذا النصر العظيم لم يلبث أن محت آثاره موقعة العقاب المشئومة والتي أحرز فيها القشتاليون نصرهم الساحق على جيوش الموحدين التي كانت ضربة قاضية لقوى الموحدين بالأندلس والمغرب.

وقد كانت تعترى الجيوش الموحدية على الرغم من ضخامتها عدة عيوب أثرت في كيانها العسكرى مما عرضها للهزائم أحيانًا ومن هذه العيوب:

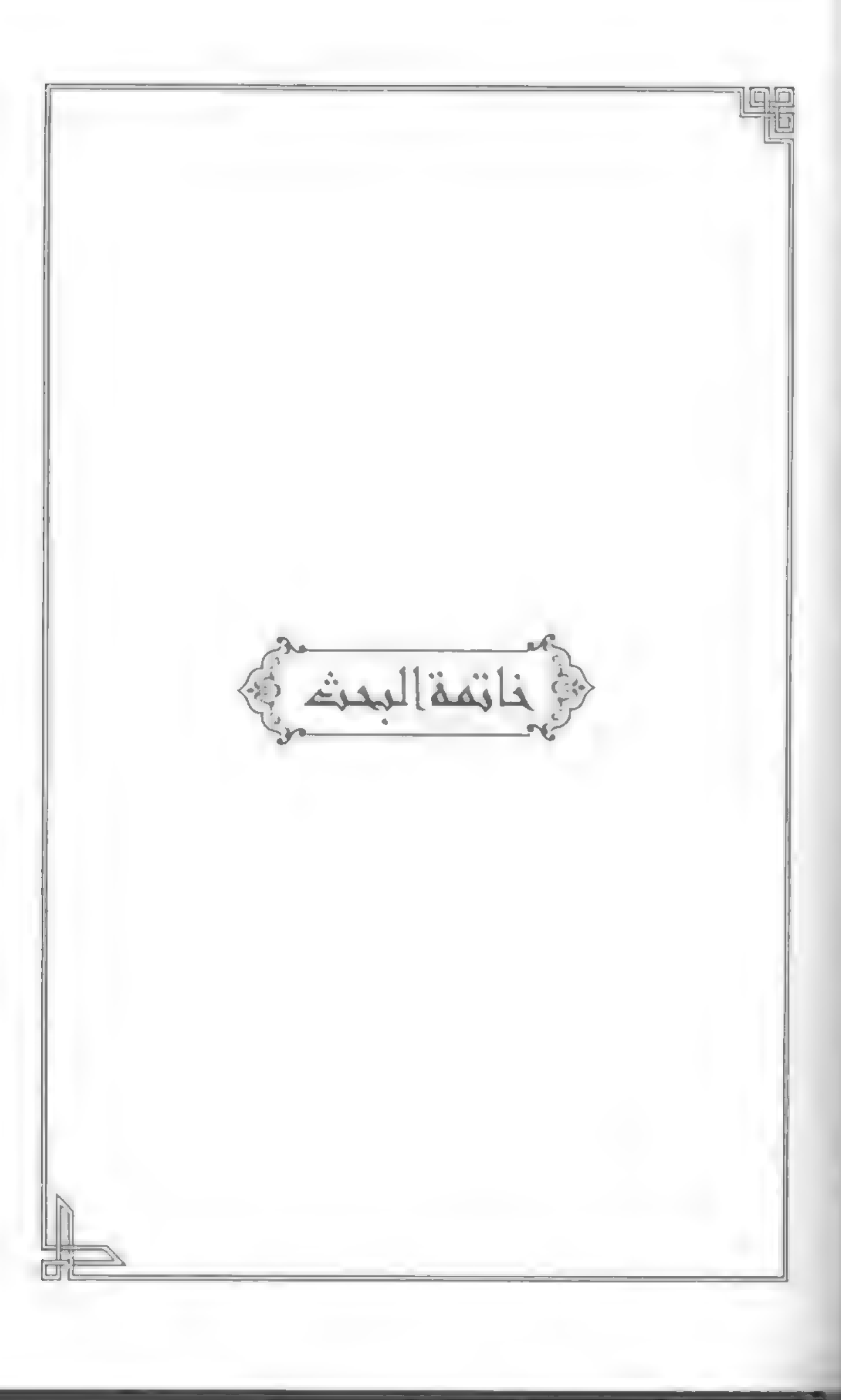
أ- اضطراب القيادة وفوضويتها، فإن لم تكن لهم بعد "عبد المؤمن بن على" الخليفة الأول قيادة حازمة، فقد كان اختيار القيادة يتوقف على الظروف الطارئة، ويتم غالبًا قبيل وقوع الغزو أو المعركة المرتقبة، هذا بالإضافة إلى نمط القيادة الموحدية. وقد كانت قيادة استبدادية وهذا ما عرف عن الخليفة "أبي يعقوب يوسف" حيث استأثر بالقيادة ولم يستمع لنصح الخبراء من قادته مما انعكس أثره على جنوده فأصبحوا سلبيين وغير متعاونين معه، لذا فشل في معظم غزواته وحروبه. أما فوضوية القيادة وعدم دقتها فقد عرفناها في موقعة "وبذة" في اللحظة الحرجة التي أوشك فيها الأندلسيون أن ينهزموا وقد زحزحوا عن مواقعهم والمعركة على أشدها نرى الخليفة يجلس داخل قبته الحمراء مع الطلبة يناقشهم في بعض المسائل الفقهية[1] كما عرفنا سابقًا.

ب- وعلى الرغم من كثرة حشود الموحدين إلا أنها كانت مصابة بداء التفكك وعدم التنسيق بين مختلف العناصر المحاربة، ومما يثبت ذلك وجود بعض القبائل العربية التي حرصت الخلافة الموحدية على حشدهم في الجيش الموحدي حيث ساهموا بقسط وافر في تبعة هذا التفكك إذ رأيناهم يقصون تعاونهم ويحجمون على القتال في الساعات الحرجة، وقد تسبب هذا الإحجام في شل حركة الجيش الموحدى ونال من قدرته وقواه المعنوية.

---

(١) عنان - عصر المرابطين والموحدين، ج (٢) ص (٨٥)

جـ- وقد كان لاختلال مراكز التموين وامدادها للجيوش الموحدية أثره السيىء فى عدم كفاية هذه الجيوش وعدم القدرة على الصمود والثبات كما عرفنا ويبدو أن هذا كان راجعًا إلى امتداد خطوط التموين إلى مسافات بعيدة من مصادرها فى المغرب الأقصى إلى الأندلس عبر المضيق، ومما يؤسف له أن هذا الخلل ظل موجودًا على الرغم من إقامة قواعد التموين الهائلة فيما بين «سلا وسبته» ولا سيما فى وادى «سبو» فى الجيوش الموحدية كانت حينما تعبر إلى الأندلس وتتوغل فى أراضى العدو تشعر بنقص فى تموينها، وكان هذا بالتالى يؤدى إلى انشغال معظم الجند بالقوت، وهذه المثالب وإن كانت قد تركت آثارها على الكيان العسكرى للموحدين إلا أنها لم تمحُ ترابط الجميع وتوافقهم فى كيانهم العسكرى فهو موجود وإن كان أقل من الكيان العسكرى للمرابطين فاعلية وتأثيرًا.



خاتمة البحث



خاتمة البحث

أما عن نتائج البحث فهي دراسة عسكرية فنية لجيوش المرابطين والموحدين بالمغرب والأندلس متناولة الدراسة الاستراتيجية، وكذلك الدراسة التكتيكية من خطط ونظريات حربية أحدثت بها قريحة قواد هذه الجيوش، وكذلك الوقوف على طرائقهم وأساليب قتالهم وخططهم الحربية وكيفية إدارتهم للمعارك، وكيف تمتع قادة تلك الجيوش ببراعة فائقة في اختيار ميادين المعارك وكذلك براعتهم في إقامة التحصينات العسكرية وعمارتها الحربية من إقامة الحصون والقلاع والأسوار والأبواب ذات المرافق المتعددة. وقد حقق البحث نحو تحقيق غايته وأهدافه خطوات واسعة ظهرت من خلالها الحقائق والنتائج ممثلة في الشواهد وسوف نستعرض بعضاً منها:

١ - كشف البحث عن نشأة الجيوش وتنظيمها كما كشف عن أطوارها المختلفة التي مر بها الجيش المرابطي وكذلك جيش الموحدين. وقد تميزت تلك الأطوار بملاءمتها مع طبيعة كل مرحلة مر بها كل من الجيشين إذ يتناسب والهدف الاستراتيجي الذي وضع لها. فقد كان هدف «ابن ياسين» فقيه المرابطين ودعوتهم الروحي توحيد قبائل صنهاجة الكبرى في وحدة تستظل بهديه ومبادئه. وقد حقق ذلك في ثلاث مراحل متتابعة بدأت بتوحيد أهل اللثام من قبائل صنهاجة الجنوب في الصحراء، ثم كان الهدف الإستراتيجي الثاني توحيد صنهاجة الكبرى بانضمام قبائل صنهاجة الشمال إلى صنهاجة الجنوب. ثم زحفت جموع صنهاجة الكبرى نحو الأندلس لتحقيق الهدف الثالث وهو تكوين جيش الدولة الإسلامية الكبرى والذي تصدى لحملات النصارى، وقد تميز ذلك الجيش بعدة مميزات كان أبرزها تلك الروح الجديدة التي سرت في رجاله حيث عمل «ابن ياسين» على صهر العصبية القبلية في بوتقة واحدة هي بوتقة الإسلام وجمع قلوبهم جميعاً نحو هدف واحد هو الجهاد في سبيل الله.

٢- أما عن تطور الجيوش الموحدية فقد تطورت هي أيضا في ثلاث مراحل تم ذكرها في البحث كل أدوارها وأهمها مرحلة جيش الانتقال والتي أعطت صورة واضحة لمرحلة من أهم مراحل هاتين الدولتين فهو يمثل مرحلة نهاية لدولة المرابطين ومرحلة بداية الدولة الموحدين وهي مرحلة مليئة بالأحداث كما عرفنا من خلال البحث كما أنها تستحق أن يفرد لها بحث مستقل

٣- وتحدث البحث عن شروط التجنيد في هذه الجيوش وظهر أن الطور الأول في كل من الجيشين لم تكن له شروط معينة في التجنيد بقدر ما كان يهدف إلى جذب الأنصار والمريدين للانضمام إلى كل منهما، وكان نظام التجنيد في تلك الفترة يقوم على الإلزام الخلقي والتطوع الاختياري حيث يندفع الرجل للانضمام للجيش بدافع حبه لشيخه وتأثره بتعاليمه وهديه، ثم ظهر التجنيد الإجباري في النظم العسكرية بعد ذلك إذ تحضرت الجيوش وتطورت وتحولت الدعوة الدينية إلى دولة ونمت على يدي كل من الزعيمين يوسف بن تاشفين المرابطي وعبدالمؤمن بن علي الموحدي، وقد وضعت الدواوين وأحدثت الدولتان نظما خاصة وفق المذهب المالكي عند المرابطين وهدى ابن تومرت وتعاليمه عند الموحدين.

٤- وكشف البحث عن صنوف الجيوش المرابطية والموحدية التي تكونت منها تلك الجيوش وكانت تتكون من العبيد السود الذين كانوا يجلبون من السودان ويشكلون فرق الحرس الخاص، ثم فرق من الجند النصارى الإسبان الذين استعان بهم المرابطون في ضبط أمن بلاد المغرب وحراسة قلاعه وحصونه، وكان منهم أيضا فرق للحرس الخاص بالملوك والأمراء، ثم فرق من جند الأندلس الذين اعتمدت عليهم القيادة المرابطية والموحدية أعظم اعتماد في حروبهم نظرا لخبرة جند الأندلس بقتال النصارى ومعرفتهم لأساليبهم وطرائقهم في القتال، ومن هنا حرصت القيادة المرابطية على حشد فرق الأندلس في مقدمة جيوشهم لهذا الهدف بالإضافة إلى فرق الجند الأصلية التي تتكون من قبائل الملثمين كجدالة ولمتونة ومسوفة ولمطة وهي القبائل التي لها السيادة والرتب العليا في جيوش المرابطين. أما سائر الطبقات من غير القبائل الحاكمة فينظر إليهم نظرة وضيعة ويطلق عليهم الحشم والعبيد

وقد شكلت غالب هذه الأصناف من جند جيوش الموحدين فيما بعد وأثبت البحث أن هذين الصنفين من الجند قد دخلت جيوش الموحدين فيما بعد مثل الجند العرب والجند الغز. وقد أبان البحث عن كيفية دخولهما في جيوش وكيف استعانت الخلافة الموحدية بهما.

٥ - ويدور البحث الخاص عن تشكيلات جيش المرابطين والموحدين. وأثبت أن الجيش الموحدي كان أكثر تنظيمًا من الناحية الأساسية من جيش المرابطين، وأنه لم يكن مجرد ناقل فحسب بل عمل في تلك النظم ما يلائم طبيعة دولة الموحدين. فظهر لذلك الجيش تشكيلات خاصة به تميزه عن بقية تشكيلات الجيوش المعاصرة تجمع بين الطابع القبلي الذي قامت عليه الدولة والطابع الحضري المتأثر بالحضارة الأندلسية وأبهة الملك.

٦ - وعالج البحث أيضًا دواوين الشئون الإدارية في الجيوش المرابطية والموحدية التي تتناول قضايا الأعطيات والإقطاعات والسكك والدواوين المشرفة على هذه الجيوش. وأثبت البحث أن عطاء الجندي الموحدي كان يفوق بكثير عطاء الجندي المرابطي، وقد كان ذلك هدفًا مقصودًا من قبل الموحدين لاستقطاب جند المرابطين إليهم وخدمتهم في المرحلة الانتقالية. وعرض البحث لكثرة الأنظمة والدواوين المشرفة على شئون الجيش الموحدي كديوان التمييز وصاحب العلامات وصاحب الإطعام وصاحب الرسائل، وكاتب الجيش، والمحتسب وبين استغلال جند المتطوعة في أخريات هذه الدولة. كما تبين أيضًا من البحث اهتمام هذه الجيوش باستخدام الألوية والرايات وشارات الملك والأعلام بين الجند، والبشائر في نشر أخبار الحروب، واستعمال الطبول التي كانوا يستخدمونها في معاركهم، ولاحظنا اهتمامهم باستعراض الجند وإقامة التمرينات والتدريبات الحربية المستمرة.

٧ - وأثبت البحث إجادة المرابطين والموحدين لاستخدام وسائل الدفاع الثابتة من إقامة الحصون والقلاع والأسوار، وقد يثبت ذلك إحكامهم للتحصينات والنظم الدفاعية في المدن الأندلسية التي تميزت بكثرة أبراجها وأسوارها. وقد يرجع إلى المرابطين والموحدين الفضل في ابتكار أنواع جديدة من الأبراج والأسوار والأبواب

ذات المرافق المعقدة، كالبرج المربع والمثمن والأبراج المؤلفة من اثنى عشر ضلعاً، ويرجع إلى الموحدين الفضل فى ابتكار البرج البرانى الذى يقام على الأسوار الخارجية ليدعمها ويقويها، وكذلك إنشاء الأبواب ذات المرافق، فقد ابتكر المرابطون أبوابًا ذات مرفقين ثم عقد الموحدون من نظام هذه الأبواب فأنشئوا أبوابًا مرافقها مزدوجة وأخرى ذات ثلاثة مرافق، ويلاحظ فى عمارة هذه التحصينات الدفاعية مدى تأثرها بالعمارة الحربية الأندلسية فجاءت فريدة فى نوعها وطرازها لأنها جمعت بين فن العمارة المغربى والأندلسى

ويبدو أن هذا النظام من التحصينات الدفاعية قد خطط له المرابطون والموحدون لتفادى خطر المسيحيين على المدن الأندلسية وضغطهم عليها وقت نشاطهم القومى فى حركة الاسترداد

وقد تبين من البحث مدى تفوق الموحدين على المرابطين فى فن الحصار فكانت أمنع الحصون والأسوار تتحطم تحت ضربات آلاتهم المدمرة وقد ظهر ذلك فى حصارهم لوهران والمهدية بأفريقية ومراكش عاصمة اللمتونيين

٨- وقد أثبتنا مدى تمتع القيادة المرابطية والموحدية بحاسة استراتيجية قوية فى اختيار أصلح المواقع لإقامة الحصون والقلاع عليها، وأخذنا لذلك مثالاً هو حصن المهدى ابن تومرت المعروف بحصن «تينمل»، كما تحدث البحث عن نظام الثغور والرباطات وأوضحنا أن المرابطين والموحدين اتخذوا لهم ثغورًا ترابط فيها الجند لرد أى عدوان خارجى على حدود المسلمين وقد ساعدهم على ذلك امتداد رقعة الوطن المغربى والأندلسى على مساحة شاسعة من البحار هذا من جهة، ومن جهة أخرى اضطرام روح الجهاد فى سبيل الله فى نفوس هؤلاء المرابطين من رجالات الدولتين.

٩- وإذا كانت مهمة الثغور هى الحفاظ على رقعة البلاد وعدم انتقاصها فإنه من المؤسف له أن حدود بلاد المسلمين بالأندلس قد انتقصت رقعتها مرتين مرة فى عهد المرابطين وأخرى فى نهاية دولة الموحدين، وتناولنا سقوط سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى كحالة من هذه الحالات واعتبرناها نقطة سوداء فى جبين الحياة العسكرية لدولة المرابطين

١٠- وقد أبان الباحث الخطط عن نظم التعبئة وتنظيم القوات (قبل المعركة ثم أثناء المعركة ثم بعدها) وقد قسمنا هذا الباب إلى مرحلتين عسكريتين وفق النظم العسكرية المعمول بها.

المرحلة الأولى «الفن الاستراتيجي» وهى التدابير التحضيرية للقتال الهجومى وهى مرحلة ما قبل المعركة وتتناول حشد القوى والمسير إلى القتال وحفظ السر فى العمليات العسكرية وبث العيون والجواسيس والمراسلة قبل الحرب.

أما المرحلة الثانية «الفن التكتيكى» وهى مرحلة إدارة المعركة وتوجيه القوات أثناء سير القتال وتشتمل على مجالس الحرب، ودور القادة فى المعركة، اختيار أصلح الأماكن لإدارة المعارك وغيرها، كما كشف الباحث عن أنظمة التعبئة، وأوضح أن المرابطين والموحدين قد استخدموا صنوفاً كثيرة من أنظمة التعبئة منها نظام الكر والفر ونظام الصف ثم نظام الكراديس. وأثبت الباحث ابتكار عبد المؤمن بن على الموحدى خطة المربع الدفاعية التى واجه بها تفوق جيش المرابطين فى عدده وكثافة فرسانه، وقد حاول الباحث أن يضفى على معارك المرابطين والموحدين روح المعارك الحديثة وذلك لتأصيل الناحية التراثية من جهة والاستفادة منه فى حياتنا المعاصرة من جهة أخرى.

١١- ولم يغفل الباحث أهمية الأساطيل البحرية لدولتى المرابطين والموحدين فأفرد لها فصلاً قصيراً تحدث فيه عن نشأة تلك الأساطيل وتطورها، وعن المعارك البحرية وأسلحتها وطرق الوقاية منها. وإن كانت هذه الأساطيل وحروبها البحرية فى حاجة إلى أن يفرد لها بحث مستقل.

١٢- وبعد إجراء دراسة مقارنة لأوضاع الجيشين المرابطى والموحدى خلص الباحث إلى أن هناك أوجه تشابه وتباين بين نظم هذين الجيشين، وظهر ذلك واضحاً من خلال دراسة مقارنة لمعركتين هامتين من معارك المرابطين والموحدين هما معركة الزلاقة المرابطية والأخرى الأرك الموحدية. وكشف الباحث عن المميزات والعيوب التى تنسب إلى كل منهما

١٣ - وناقش الباحث بعض آراء الكتاب والباحثين الذين تحدثوا عن طبيعة دولة المرابطين ما بين مادح لها وقادح فيها. ورد على بعض آراء المستشرقين الذين اشتطوا فى الحكم على جند المرابطين.

هذا ونرجو من الله أن يكون البحث قد حقق أغراضه وأهدافه وأبان عن طبيعة الحياة العسكرية فى جناح أمتنا الغربى. تلك العسكرية المهتدية بروح الإسلام والمستظلة بعقيدة الجهاد الغراء، وقد كانت تلك العقيدة هى الصخرة الضخمة التى تحطمت عليها حملات الصليبيين وحلفائهم فى حروب غرب أوروبا، والله نسأل أن يتقبل منا هذا العمل وهو نعم المولى ونعم النصير.



الملاحق والوثائق



ملحق رقم (١)

قائمة بأسماء أمراء دولة المرابطين

١- الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالى (٤٢٧هـ - ١٠٣٥م) (٤٤٠هـ - ١٠٤٨م)

٢- يحيى بن عمر اللمتونى (٤٤٠هـ - ١٠٤٨م) (٤٤٧هـ - ١٠٥٥م)

٣- ابو بكر بن عمر اللمتونى (٤٤٧هـ - ١٠٥٥م) (٤٨٠هـ - ١٠٨٧)[١]

٤- يوسف بن تاشفين (٤٥٣هـ - ١٠٦١م) (٥٠٠ - ١١٠٧م)

٥- على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ - ١١٠٧م) (٥٣٧هـ - ١١٤٣م)

٦- تاشفين بن على بن يوسف (٥٣٧هـ - ١١٤٣م) (٥٤٠هـ - ١١٤٥م).

٧- إبراهيم بن تاشفين بن على بن يوسف (٥٤٠هـ - ١١٤٥م) (٥٤٠هـ - ١١٤٥م)

٨- إسحاق بن على بن يوسف بن تاشفين (٥٤١هـ - ١١٤٦م) (٥٤١هـ - ١١٤٦م).

ملحق رقم (٢)

قائمة بأسماء خلفاء دولة الموحدين

١- عبد المؤمن بن على (٥٢٤هـ - ١١٣٠م) (٥٥٨هـ - ١١٦٣م)

٢- يوسف بن عبد المؤمن بن على (٥٥٨هـ - ١١٦٣م) (٥٨٠هـ - ١١٨٤م).

٣- يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على (٥٨٠هـ - ١١٨٤م) (٥٩٥هـ - ١١٩٩م)

---

(١) روض القرطاس، ص (٨٦)، ابن خلدون، ج (٦) ص (١٨٤)، الاستقصا، ج (١) ص (١٠٦). ومن المعروف أن أبا بكر اللمتونى عين يوسف بن تاشفين على نصف الجيش وتركه بالمغرب بينما اتجه هو بنصف الجيش الآخر إلى الصحراء لنشر الإسلام وعلاج بعض المشكلات به

٤- محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف (٥٩٥هـ - ١١٩٩م) (٦١٠هـ - ١٢١٣م)

٥- يوسف الثانى بن محمد الناصر (٦١١هـ - ١٢١٤م) (٦٢٠هـ - ١٢٢٤م)

٦- عبدالواحد المخلوع بن يوسف بن عبدالمؤمن (٦٢٠هـ - ١٢٢٤م) (٦٢١هـ - ١٢٢٤م)

٧- أبو محمد عبدالله العادل بن منصور بن يوسف الأول (٦٢١هـ - ١٢٢٤م) (٦٢٤هـ - ١٢٢٦م)

٨- المأمون بن منصور بن يوسف الأول (٦٢٤هـ - ١٢٢٧م) (٦٣٠هـ - ١٢٣٢م)

٩- عبدالواحد الرشيد بن المأمون بن المنصور (٦٣٠هـ - ١٢٣٢م) (٦٤٠هـ - ١٢٤٢م)

١٠- أبو الحسن علي السعيد المتقدر بالله المأمون (٦٤٠هـ - ١٢٤٢م) (٦٤٦هـ - ١٢٤٨م)

١١- أبو حفص عمر المرتضى بن إسحاق بن يوسف الأول (٦٤٦هـ - ١٢٤٨م) (٦٦٥هـ - ١٢٦٦م)

١٢- أبو العلا الواثق بالله بن محمد بن حفص بن عبدالمؤمن (٦٦٥هـ - ١٢٦٦) (٦٦٨هـ - ١٢٦٩م)(١)

---

(١) انظر أسماء أمراء المرابطين والموحدين فى تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ج (١) ص ٤٢.

هذه الوثائق منقولة من كتاب عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس القسم الأول والثانى - لمحمد عبدالله عنان - قسم الوثائق والملاحق الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤م.

وثيقة مرابطية رقم (١)

رسالـــة

وجهها أمير المسليمن على بن يوسف بتقريع قادته وجنده عقب هزيمتهم أمام ابن رذمير «ألفونسو المحارب» فى أراضى بلنسية

(منقولة عن المخطوط رقم ٥٣٨ عربى فى المخطوطات بمكتبة الإسكوريال اللوحة ١٣ أ - ١٣ ب).

«من أمير المسلمين وناصر الدين»، أما بعد.

يا فرقة حشت سربها، وانكثت مريرها، وطفيفة تنفخ سحرها، وعض على حين مرة نحرها، فقد آن أن نعمم أن تفرقكم، ولا أقدمن تفنن صرفكم، حين ركبتموها شنعاء عربية وأصبحتم فى ذرع عارها مثلا سائرا، وحلفتم الرعى منكم بلهم فمن ينس الأنقص من الأنمال، فعاطفتم لها إعراض خشيتكم، وتنسيتم بالمشوبة على سيركم. لا جرم أن قد صرتم سمر الندى، والأحاديث المعة بالغداة والعشى، قد حصرتم من الخيل والخيل، واستهواكم من لقاء عدوكم بالجانب الأروى، لا تحفظونهم قرونا عبس، ولا تعطونهم حجة حسن، لم تعطوهم القفير حتى [illegible]، وتحدثوهم وراءكم طفيلًا، ولم نزل بحوكم لم تشرع، وخيل لم تسرج، ولخصوص فى حصن علية لم يكن، وفيكم لذة ذنبهم، ولعبة أبنائهم قد نعمت فى بيوتكم، عصيتم بالسيركم، وحرستم عسفا على عام، حتى الزقوكم، وتركوكم أسلح من حبارى، وأشرد من نعام.

فلأن حس ملامه [illegible]، [illegible] قد حرتم من حقركم، [illegible] خسران

يا بغايا بنى الأصفر، وسجايا ذوات الدل والخفر، أكرهتم زحافهم - وكنتم علم الله أضعفهم؟ أنى لكم بالمعمرة، وأين؟ وقد فرض الله للواحد منكم بالاثنين، فقال: ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ هذا، وكلمتكم العلى، وحلوبتكم الخيرة لدينا، ما شئتم من صارم، وطرف وبحض وركائب وسوم، ونضايد وخيام

فيا أسفًا للحق يدمعه الباطل، والحالى يبهره العاطل، لا بالخيفية تخورتم، ولا إلى الحنطة والإدنة تخيرتم. ليت شعرى عند تنقدتموها هندية واعتقلتموها سمهرية خطية، وركبتموها جردًا سوابق، وملكتموها مغرب ومشرق؟ ثاوين فى غير عددكم منتزين على أضدادكم، يؤدون الإتاوة إليكم حين أشرقتموهم بالشهوات، وأنتم فيها غرباء الوجه واليد واللسان، وصيروكم عبيد الحصى، ولستم بالأكثرين منهم حصى، بل شرذمة قليل نفعها كثير نجعها. فيا عجب لذهولكم، شأنكم وكهولكم، تأكلون تمرها، ولا تصلون جمرها، وتذهبون بحلوائها، ولا تصبرون على لأوائها؟ أى بنى اللئيمة، وأعيار الهزيمة، إلى من يريعكم الناقد، ويردكم الفارس الواحد.

إلى من يريعكم الناقد ... ويردكم الفارس الواحد

ألا هل أتاها على نأيها ... بما فضحت قومها غامد

تمنيتم مائتى فارس ... فردكم فارس واحد

فليت لكم بارتباط الخيول ... ضئانا لها حالب قاعد

ومن لرعاة الإبل بجلد مقبل؟ لقد ما أذهبتم التلد والطارف، وعجبًا عجيبًا من جذامى المطارف، وأنتم قد قدحتم فى ملكنا، وأذنتم بانتثار سلكنا، فلولا من لدينا من ذويكم، ونصر عنهم إلينا فيكم لأخذتكم عجلاً بصحرايكم، وطهرنا الجزيرة من رجسايكم، بعد أن نوسعكم عقابًا، ونجد أن لا تلووا على وجه نقابًا، فالنبوة تحت عمايمكم، والوهن والفشل طى عرايمكم، لكن ما حلنا عنه من الأنفة، وتوحيده قدمًا من إيقاظ ذوى الملكات، يكفنا عن استيصالكم، ويحملنا على شحذ نصالكم

فستنصروا بعد الهيج، وستيئسوا بعد الرجاء، واحذروا حلماً أغضبتموه، ووادياً من الصبر أنضبتموه، وتوقوا صدراً أحرجتموه، وليثاً من أجمته أخرجتموه، وايم الله لنقسم إنذاراً لكم، وعذراً لكم، لنوردن الفار منكم من الزحف، ما عافه من موارد الحتف، ولنحدرن السوط إلى السيف، ولنذيقن المعذلة فيكم بالخيف، فيعلم المقدام المحجم منكم عن الإقدام، أنه سلم من الحمام إلى الحمام، وتخلى مصرع الأسد المناضل إلى حجر مثله، وشهادة الأبرار إلى مشهد الذل والصغار، كما أن من نسب منكم في حرب إلى طعن أو ضرب، جنته في الأهل والولد، وبعده الأثرة والكرامة بما يجده فخذوا لأنفسكم وأعقابكم، واقصروا ألسنتكم عن رفدكم، والسلام عليكم من حمى الإسلام.

كمل ما كتب به الفقيه الأديب، الكاتب البليغ الأريب ذو الوزارتين أبو عبدالله ابن أبي الخصال عن أمير المسلمين؛

وثيقة مرابطية رقم (٢)

رسالة

كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب إلى أمير المسلمين رحمه الله فى فتح أقليش أعادها الله بقدرته

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ٥٤أ - ٥٨ ب).

أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين، عماد الأنام وعتاد الإسلام، السعيد الأيام، الحميد المقام، كبير بالقدر، وظهيرى على الدهر، الذى أجله بحقه، وأقر له بسبقه، وأدام خلوده مؤيد الإدارة، مؤيد السعادة، مجدد السمو والزيادة. والحمد لله الجبار القهار، الذى شد الأزر، وأمد النصر، وأعطى الفلج عن قسر. فعنق عنه يد الماطل، وفرق بين الحق والباطل، والحمد لله الذى أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام، ونصر بسيفه الإسلام، وغاظ به الكفار، وجعل عليهم الكرة فولوا الأدبار. والله تعالى يشفع سعوده، ويضمن مزيده، وينصر جنوده بمنه

ولما وضعنى أمير المسلمين، أدام الله نصره، حيث شاء من آية التشريف والعز المنيف، وألحفنى من النعماء سربالها وأسحبنى أذيالها، وصرف إلى من عدده وبلده ما أولانى نعمه، ووالانى كرمه، حفظت تلك الحرمة، وشكرت لأستزيد من تلك النعمة، وأخذت فى الاجتهاد فى الجهاد عالقًا بسببه، آخذًا بمذهبه. وهيأت من ماله عندى جيشه الموضوع بيدى وأجبت داعى الله بأعظم نية على أكرم طية لعزمه بيمناه رأسها، وعلى تقواه أسسها وأصلها.

وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله فى العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم بجيش تصم صواهله، وتظم كواهله، راياته خافقة، وعزماته صادقة ونبراته على ألسنة السعد ناطقة. ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين، على جهات سمعت منادينا، وتبعت هادينا، وانقادت وراءنا أعداد وأمداد، برزوا من كمون، وتحركوا عن سكون، وانخنا بثغر بياسة وقد توفد الجمع، وملئ البصر

ونسمع، وأخذت فى ثرى أحمره، والعزم أضمره، وتذييل أشمره، وجددت لاستخرة لله تعالى والاستجارة به، وابتهلت إليه داعيًا ضارعًا، وعولت فى جميع أمورى على حكمه خاضعًا متواضعًا، وخضنا بطرف بلاد العدو أعدها الله، فوطئناها من هنالك، وقد بدا عنوان الأهبة، ولثمنا بنيان لرتبة، وسرنا بجيش يفيض فيضًا، على أرض تغيض غيضًا، ولسيول الخيل بعراق، ولبروق البواتر إشراق، وقد نطقت ألسنة الأعنة بقدم قدام، وأشرقت كواكب الأسنة فى غمام القتام، وسدت الهبوات كل نهج وسبيل، واستقلت الرايات عن قبيل فقبيل، وأفضت بنا الخيرة إلى المدينة الحصينة «أقليش» قاعدة الثغر وواسطة الصدر، ذات العدد العديد، والسور المشيد، فبدر الناشئ وشفع اللاحق، وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال، فدرنا بها دور الحلقة بنقطتها، واكتنفناها اكتناف السبحة بسبطتها، وبهت القوم واتسع البحر عن العوم، وحاروا وحاموا، حين راموا، وجئنا بكل ضرب من الحرب، نخسف عاليها وننسف هاويها، ونلذها بالرماح، ونهزها هز الغصن فى أيدى الرياح حتى فض الختام وعض منهم الإبهام، وعجل الله بالنصر وفتحها بالقسر، ونفخ فى صورهم، ودارت دائرة السوء بدارهم، ومحقتهم السيوف محق الربا، وأذرتهم ريح النصر فصاروا هبا، وبضحوا بطح زرع الحصيد، وبسطوا بسط كلب الوصيد، وأخذتهم فجأتنا أخذة، ونبذت بهم سطوتنا نبذة، فخروا إلى الأذقان، وسبقوا إلى الموت والإذعان، فما كدنا ننزل حتى كدنا ذلك المنزل، وما أنخنا حتى رضخنا، ولا وصلنا إليه حتى حصلنا عليه، فوردنا ما أردنا.

ولما استحر فيهم القتل، واجتث منهم الأصل، ضاق بهم المزدحم، وغص ذلك الملتحم، فقصر الوقت المبغت، وشغل الأخيذ عن المفلت، وألهى الكثير عن من قل، ونام الجم الغفير عن الغل، وعاذ بقاياهم بقصبة المدينة فولجوها كما يلج العصفور، ويقوم العثور، قد غلقوا الأبواب وأسدلوا الحجب، ونحن نصل الجد ونوجر لأفل غرب، ولا ملة حرب، نغتنم الجرائم، ونحتز الغلاصم، ونخرب الديار وبنيتها، ونهدم البيع وصلبانها، ونتناحفو بهدايا، ونتكاشف عن بقايا

خلايا، وتصرخ سينا صنعته الحتوف وعلته السيوف، فالأطلال هدم وعلى
رسومه بدء حتى علا على الشرك الإيمان، وبدل الناقوس بالأذان، وزحزحت
النواقيس من مواضعها وطرحت النواقيس عن بيعها، ولاذ بنا من هنالك من
المسلمين عائذين بنا مستسلمين لنا، فنشدونا بالملة وحرمتها، وكشفوا لنا عن الحلة
ومحنتها، ونقوا من الحمية إلى الحمية، فآوينا شاردهم، وأقمنا قاعدهم، فالحالت
ترتيبهم، وعادت بعد [illegible] ومحبوبة لكفار بشر دار ملتهم، وثار لهم الإسلام
على سنن الإيمان المجدد، واشتهر فيهم التوحيد اشتهار الحسام المجرد، وكشف
الدين عن مستوره، وحصحص الحق المبين على مسره، وقصت [illegible] على ذلك
إلى أن حان [illegible]، وحلت من الشمس الاصفرار، فعند ذلك أرخت السواتر،
وخيمت تلك [illegible] الهوادر، وعدا الخميس الحميس، مبنيًا على ذلك التأسيس،
يحسم أدواء الفتنة في تعادد الأوبر، ويشفع الأوالي بالتوالي، ويشتري العوالي
بالغوالي، فأصبحت في [illegible]، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأن لم يغنوا
بالأمس، وتصدمت تلك العصبة إلى تلك القصبة والقوم في السجن والحصر،
والحصن كالواحد في العلم والإصبع في الخاتم، والمحصور مأسور، وصاحب
الحائط مقهور، ولم نزل نوسعهم قتلا، ونوسعهم أسرًا ونكلا مسافة اليوم إلى أن
حز النهار مده وبت الليل حده، فعدنا إلى محلنا وقد [illegible] الكل فيه، وعلت
الساهر عينه، ولكن لم أل احتراسًا للمحلة بطلائع تحرس جهاتها وتدرأ آفاتها،
وفي القدر ما يسبق الحذر ويفوت الحذر لكن كفاية الله خير من توقين، وكان
الطاغية زاده الله ذلاً، قد حشد أقطاره وحشد أنصاره، وأبعد في الاستصراخ
مصره، وعنا حيث قد أسرى إلى ذمره، [illegible] على عمر [illegible] وصمم، وبئس
ما تيمم، واستلمت جمعتهم على [illegible] أذفونش وشيخهم وزعيم
فرسانهم البرهنسة أردفونش، وصاحب شوكتهم البرهنس، والقمط بتبدرة وقواد
بلاد طليطلة، وصاحب قلعة [illegible] وقلعة عبد السلام، وكل قس قاس ودان
وعاجل ووان، أخذ الله جميعهم وطل نجيعهم ولا أقام صريعهم.

وهذا دعاء لو سكت كفيته ... لأني سألت الله ربي وقد فعل

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون الغرة، ويظهرون صفقا تحت الغرة، وتقدموا فتندموا، ودنوا فهووا، ووصلوا فحصنوا. وأرسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيراً وفتنوه أسيراً والله تعالى فيه خبأة أعدها من عنده وبعثها من جنده، وبرع الفتى إلينا من معسكرهم منش بهم دال عليهم، وكاشف بهم على النبأ العظيم، ومطلعاً منهم على المقعد المقيم، فعند ذلك ثارت ثائرتنا ودارت على مركز التوفيق دائرتنا، وقام القاعد وشمر البنان والساعد، وتضامن القريب والمتباعد، والليل قد هدأ والصبح قد بدأ، والدياجير ممدودة السرادق مجموعة الغياق ولا جار إلا الغاشق ولا مار إلا السما والطارق، وكنت قد استدعيت القائدين المدربين ذوى النصيحة والآراء الصحيحة أبا عبدالله محمد بن عائشة، وأبا محمد عبدالله بن فاطمة ولبى أعزهما الله فحالا فى مضمار وساع واضطلاع، بورع ودراع، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين وخضعنا إلى حكمه مستسلمين، فعند ذلك حل يده المجتبى، وقيل يا خيل الله اركبى، فعدت الآراء بالرايات وحكمت النهى فى النهايات، والأسنة تجور فى آمادها والنصول تصول فى أغمادها، وثرنا كما ثار الشهم لفرصته وطار السهم لفوضته، وأمرت رجالا بلزوم المحلة، فسدوا فرج أبوابها، ولاذوا بأوتادها وأسبابها، فداروا بها دور السوار وانتظموها انتظام الأسوار، قد شرعوا الأسنة من أطرافها، وأجلوا البواتر فى أكنافها وأضاقوا الأفنية، وقاربوا بين الأخبية وعبأنا الجيش يمناه ويسراه، وصدره ولهاه وساقته وأولاه، ونهضنا بجملتنا من محلتنا والنصر يفرع علينا لامه والنصر يبلغ إلينا سلامه، وتوجهنا إلى الله نقتفى سبيله ونبتغى دليله فما رفع الفجر من حجابه، ولا كشر الصبح عن نابه حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام، واتسعت أقضية المسلمين ماضية الأحكام، وقيض الليل خمسه، وفضح الصبح نفسه ولسن السنان لمعاد ولشباب العراك ريعان، ولأعناق الأعلام ضراب أو طعان، وعند ذلك «نجم العجم فى سواد الليل»، وازداد السيل يهطعون إلى داعيهم، ويهرعون إلى ناعيهم، فى دروع كالبوارى، ورماح كالصوارى، كأنما شجروا بالبنيان وسجنوا فى الحديد، يزحفون والحين يعجلهم فيركبون، واختفت بزحلهم يتمعطون تلمظ الحيات، قد تحالفوا ألا يتخالفوا، وتبايعوا أن يتشايعوا

ووصلوا إلى مقدمتنا، وكان هناك القائد أبو عبد الله محمد بن أبي زكري في جماعة، فصدمهم العدو بصدور غرة وقلوب أشرة، فلحوا بكلكل ورموا بجندل، وشدوا فما ردوا، وصادروا فما صدروا، وتقهقر القائد أبو عبد الله غير مول، وتراجع غير مخل إلى أن اشتد منا بعود ورحم من جيشنا بعود، فتراءى الجمعان وتدانى العسكران، فأمسكنا ولا جبن، ووقفنا ولأناة بنا، فعند ذلك ثار النصر فمد بضياه وأنشد النصر فأشرق محياه، ونزلت السكينة وأخلصت القلوب المسكنة، واهتزت البنود مانحة، وهدرت الشقاشق هائجة، وحملقت العيون غضبا، وطلبت البواتر نسبا، وأذن الحديد بالخلاد، وبرزت السيوف من الأغماد، وتصاهلت الخيول، وتصاولت الفيول، فعند ذلك توقفت الفحول كوقفة العير بين الورد والصدر، فبرز فارس من العرب، فطعن فارساً منهم فأذراه من مركبه ورماه بين يدي موكبه، فابهج ما راح وفتح الشهم، وأفصح المعجم، فعند ذلك اختلطت الخيل بالخيل بسال السيل وأنعم الليل، واعتنقت الفرسان وتدفقت الخرصان، ودجى ليل القتام، وصدق محض الجيش للهام، واختلط الحسام بالأجسام، والأرماح بالأشباح، ودارت رحى الحرب تغمر بكلكلها، وثارت ثائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها، فلثغر الصدور ابتراد ولجزم القلوب اتهاد، فما وضح النهار ولا مسح الغبار، حتى خضعت منهم الرقاب، وقبلت رؤوسهم التراب، واتصل الهلك بالشرك، وعدت الضلالة إلى الملك وقلم ظفر الكفر، وطلت يمين الإيمان، وفر الصليب سليبا، وعجم عود الإسلام فكان صليبا، وغمرهم الخيت فهمدوا وانتفعهم الحين فخمدوا، ومات جلهم بل كلهم، وما نجا إلا أقلهم، وجنوا فجنوا، وقيل كانوا، وكشفت الهبوات، وجلت تلك الهنات، عن رسوم جسوم قد قصمتها البواتر ووطئتها الحوافر، خاشعة خدودها، عاثرة جدودها، وأخذت ساقتنا في نقف وضم لنسلك إلى السلب، وملئت الأيدي نيلا وفي الكيل، خيلا وبغالا وسلاحا ومالا، ودروعا، أنتهم حملها، وأثقلهم حملها، فساءت ملبسا وصدرت محبسا، فطرحوها كأنهم محوها، وتقوها كأنهم أعطوها، احتزناها نهبا، وأخذناها كأن لم تكن غصبا، نعمة ولا نكر، وعطية ولغيرهم شكر، ثم أمرت بجمع الرؤوس، فاحتضرت الدابة وبعد في جمع المذبة، فكف

مبلغها بيننا على ثلاثة آلاف منهم غرسية أردفونش، والقومط وقود بلاد صبيطة
وكثير منهم لم يكمل الآن البحث عنهم، فكانت كالنهب الجسيم، بل الطود
العظيم، وأذن عليهم المؤذنون، يوحدون الله ويكبرون، فلما جاء نصر الله،
ووهب لنا فتح الله شكرنا مولى النعم ومسديها ومعيدها ومبديها، وصدرت
غانمًا، وأبت سالمًا، وبقي القتلى [illegible] خصص قليل حتى تستحقهم،
مستولين على رمقهم.

فخططت أمير المسلمين أدام الله سروره، ووصل حبوره، معلمًا بالأمر، مهنيًا
بالنصر، لنحمد الله عز وجل على ما وهب، ونشكره على ما منح ووهب، والله
يتكفل بالمزيد ويشفع التقديم بالتجديد، بمنّ النصر والتأييد، فهو ولي الامتنان،
والملبى الفضل والإحسان، لا رب غيره ولا معبود سواه

وثيقة مرابطية رقم (٢)

رسالة

كتب بها قاضى سرقسطة

والجمهور فيها إلى الأمير الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين

حين حاصرها ابن رذمير واستغلبها أعادها الله

(منقولة عن المخطوط ٤٨٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ٥٥: ٦١ب)

من ملتزمى طاعة سلطانه، ومستنجديه على أعداء الله، ثابت بن عبدالله، وجماعة سرقسطة من الجمل فيها من عباد الله.

أطال الله بقاء الأمير الأجل، الرفيع القدر والمحل، حرم الإسلام يمنعه، ومن كرب عظيم على المسلمين، يزيحه عنهم ويدفعه.

كتابنا أيدك الله بتقواه، ووفقك لاشترا دار حسناه، بمجاهدة عداه، يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان عن حال قد عظم بلاؤها ودلهمت صروفها، فنحن فى كرب عظيم وجهد أليم، قد حل العزا والخطب، وأظلنا الهلاك والعطب، فيا عوثاه، ثم يا غوثاه إلى الله، دعوة من دعاه، وأمله لدفع الضرر ورجاه، سبحانه المرجو عند الشدائد، الجميل الكرم والعوايد، ويا لله، ويا للإسلام، لقد انتهكت حماه، وفضت عراه، وبلغ المأمول من بغيته عداه، ويا حسرتا على حضرة قد أشفت على شفا الهلاك، طالما عمرت بالإيمان وازدهت بإقامة الصلوات وتلاوة القرآن، ترجع مربع للصلبان، ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان، ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم، وقد كان مأنوساً بتلاوة القرآن المعظم، تطؤه الكفرة الفساق بذميم أقدامها ويتمنون أن يدنسوه بتمسيح آثامها، ويعمروه بعبادة أصنامها ويتخذوه معاطن خنازيرها، ومواطن خماراتها، ومواخيرها، ثم يا حسرتاه على نسوة مكنونات عذارى يغدن فى أوثق الأسرى،

وعلى رجال أصبحوا حيارى بل هم سكارى، وما هم بسكارى ولكن الكرب الذي
دهمهم شديد والخطر الذي مسهم عظيم جهيد، من حرصهم على بنيات قد كن من
الستر خبئات الوجوه، أن يروا فيهن السوء والمكروه، وقد كن لا يبدون للنظار،
فالآن حان أن يسرن إلى الكفار، وعلى صبية أطفال قد كانوا نشأوا في حجور
الإيمان، يصيرون في عبدة الأوثان، أهل الكفر وأصحاب التثليث. فما هناك أيها
الأمير من يلوذ به بعد الله المجير، فإنه هو المعد لعظائم الفادحة، والنوائب
الكاشحة، هو المطلق لمدامعها، إذ أسبلها في أجفان مدامعها، وتركيب أغراض
لأعدائها، حين أحجمهم عن لقائها، فإلى الله المشتكى، ثم إلى رسوله
المصطفى، ثم إلى ولي عهده أمير المؤمنين المرتضى، حين تعلقت بأحشائه، وأمدت
بالجم الغفير من أجناده، [illegible] إلى دفع عدوه [illegible] له وجهاده، والذب
عن أوليائه المعتصمين بحبل طاعته، والمتحملين لسمعة الأشياء الشديد لينهم في
حسب موالاته ومشايعته، من أمة قد نهكهم ألم الجوع، وبلغ الأذى بهم من عصر
الوجيع، قد برح بهم الحصار، وقعدت عن نصرتهم الأنصار، فترى الأطفال بل
الرجال جوعا يخرون، يلوذون برحمة الله ويستغيثون ويمسون متقادمين بل
يتصرعون حتى كأنك قلت اخسئوا فيها ولا تكلمون، وما كان إلا أن وصلت
وصل الله بركة بتقواه، على مقربة من هذه الحضرة ونحن نأمل مثلما يحوي الله
أسباب النصرة تشبث العساكر التي قر العيون بهاؤها وسر النفوس زهاؤها،
فما عدا أن تشبثت بها [illegible] عنيت، وما رأيت [illegible] حتى من الخلف ناكصا على
عقبيك عن الأعداء. فما أوليتنا غناء بل زدتنا بلاء، وعلى الداء داء، بل أدواء،
وتناهت بنا حال الجهد واللوى، بل أذلت الإسلام والمسلمين، واجترأت فضيحة
الدنيا والدين، فيالله ويا للإسلام، لقد هتضم حرمه وحمده أشد الاهتضام، إذ
أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام، ونكصت عن لقاء عدوه وهو في فئة
قليلة، وأمة ذليلة، وطائفة كليلة، يستنصر بالصلبان، والأصنام، وأنتم تستنصرون
بشعار الإسلام وكلمة الله هي العليا ويده الطولى، وكلمة الذين كفروا السفلى،
وإن من وهن الإيمان، وأشد الضعف القوي عن الضعيف فكيف عن أقل من
الضعيف، فيا قبح من رضي بالصغار وسمة حطة الخسف، فما هذا الجبن والفزع

وما هذا الهلع والجزع من هذا العدو القبيح، أتخسرون يا معشر المرابطين
وإخواننا في ذات الله المؤمنين، إن سبق على سرقسطة القدر، بما يتوقع منه المكروه
والحذر، أنكم تبلعون بعدها ريقا وتخلدون في سائر بلاد الأندلس عصمها الله،
مسلكًا من النجاة أو طريقًا، كلا والله ليسومنكم الكفار عقب جلاء وفرارًا،
وليخرجنكم منها دارًا فدارًا، فسرقسطة حرسها الله هي السد الذي إن فتق فتقت
بعده أسداد، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله ستبيحت له أقطار وبلاد، فالآن أيها
الأمير الأجل هذه أبواب الجنة قد فتحت، وأعلام الفتح قد طلعت، فالمنية ولا
الدنية، والنار ولا العار، فأين النفوس الأبية وأين الأنفة والحمية، وأين الهمم
المرابطية، فلتقدح عن زنادها بانتضاء حدها وامتضاء جدها واجتهادها، وملاقاة
أعداء الله وجهادها، فإن حزب الله هم الغالبون، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في
سبيله أن ينصره، ولمن حامى عن دينه أن يؤيده ويظهره، فما هذا أيها الأمير
الأجل، ألا ترغب في رضوانه، واشترا جنانه، بمقارعة حزب شيطانه، والدفاع عن
أهل إيمانه، فاستعن بالله على عدوه وحربه، واعمد بعصبة في ذات الله إلى إخوان
الشيطان وحزبه، فإنهم أغراض للمنايا والحتوف، ونهب للرماح والسيوف، ولا ترض
بخطة العار، وسوء الذكر والصيت في جميع الأمصار، ولا تكن كمن قيل فيه:

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ولا يرزأ من العدو فتيلا

ولن يسعك عند الله، ولا عند مؤمن، عذر في التأخر والارعواء، عن مناجزة
الكفار والأعداء. وكتابنا هذا أيها الأمير الأجل اعتذار تقوم لنا به الحجة في جميع
البلاد وعند سائر العباد، في إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والإلحاد ونحن مؤمنون
بل موقنون إجابتك إلى نصرتنا، وبعدك إلى الدفع عن حضرتنا، وأنك لا تتأخر
عن تلبية ندائنا، ودعائنا إلى استنقاذنا من أيدي أعدائنا، فدونك ما هو في ذات
الله، وعن كلمته، ومحاماة عن الإسلام وحزبه، فذلك ذخر الأنفس لك في
الأخرى والدنيا، ومورث لك عند الله المنزلة العليا، فكم تحيي من أمم، وتجلي من
كروب وغمم. وإن تكون منك الأخرى وهي الأبعد عن متانة دينك وصحة
يقينك، فأقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة عصمها الله ليخرج الجميع عنها
وبدرا إلى العدو وقمه الله منه ولا تتأخر كيفما كان طرفة عين، فالأمر أضيق

والحق أزهق، فعدتم عن الفعل والتسويف قبل وقوع المكروه والمخوف وإلا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا ونفوسنا، والمسئولون عن صبيتنا وأطفالنا، لإحجامكم عن أعدائنا وتثبيطكم عن جهة بلادنا وهذه الخلل بعيدك أيها الأمير عنها، وبها تحملك من العار ما لم تحمله أحد، وتورث وجميع المرابطين الخزي أبداً، فالله الله اتقوه وأيدوا دينه وانصروه، فقد تعين عليكم جهاد الكفار والذب عن الحرم والديار، قال الله: يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة الآية، ومهما تأخرتم عن نصرتنا فالله ولي الثأر لنا منكم، ورب الانتقام، وقد برئتم بإسلامنا للأعداء من نصر الإسلام، وعند الله لنا لطف خفي، ومن رحمته ينزل الصنع الحفي، ويعيب الله عنكم، وهو الحميد الغني. ومن متحملي كتابنا هذا، وهم ثقات تقف من كنه حالنا على ما لم يتضمنه الخطاب، ولا استوعبه الإطناب، فمنه ولو أنتم تعول في الإصغاء إليهم واقتضاء ما لديهم، إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

وثيقة موحدية رقم (٤)

رسالة

الخليفة أبى يعقوب يوسف

إلى الطلبة والموحدين بجزيرة الأندلس ينبئهم فيها باهتمامه بأمر الأندلس والعمل على نصرتها ومجاهدة أعدائها ويطمئنهم على تنفيذ هذا العزم بما بعثه من عسكر موحدى تحت إمرة الشيخ أبى حفص تمهيدا لجواز الموحدين إليها. من إنشاء «أبى الحسن بن عياش» ومؤرخة فى ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ.

(منقولة عن كتاب المن بالإمامة مخطوط اكسفورد لوحات ١٤٠، ١٢٢)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم.

والحمد لله وحده، من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى الطلبة والموحدين الذين بجزيرة الأندلس أدام الله توفيقهم وكرامتهم

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو نشكره على آلائه ونعمه، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم، المهدى المعلوم، القايم بأمر الله تعالى، والداعى إلى سبيله، ونوالى الدعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ممشى أمره العزيز إلى غاية تتميمه وتكميله. وإن كتبناه إليكم وصل الله توفيقكم وكرامتكم بتقواه من حضرة مراكش حرسها الله، والذى نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه. وهذا الأمر العزيز ما وعده الله من النصر وضمن له من التأييد وتكفل له من التمكين، وزاد من تبسطه وامتداد علوائه واتصال مسماره وحلوصه إلى كافة الأرجاء وتغلغله فى كافة الأنحاء لإكمال دينه وإتمام نوره، وبث دعوته وتصديق وعده، لا تزال موارده الخافقة لصوره، مستقية لآثره المثبتة لأركانه الممكنة لقواعده، تشيع من الأسباب القوية واللطائف المنهضة،

والمعاني المغيبة على سريرته، المرغبة لتشميره وحريته، مما يؤذن له بإنجاز موعوداته، وتتبع مضموناته، حتى يستوي على مداه الذي لا غاية بعده ويقف على منتهاه الذي لا مطلع وراءه يقيناً تضمنت مقدمات لعلمه القلوب، وقرت على ظهور براهينه النفوس، وعضدته الآيات البينة ونطقت به الآثار المنفسحة وناقدت شد أحواله لمن ألقى السمع وهو شهيد

وما زلنا ونشكر الله على أنه نعمة تحكم الجزيرة مهدها الله، والحرص على غوثها والانتواء لنصرتها والعمل على قصد ذلك بالمباشرة والمشاهدة بشغف على ما ستتسلم منها حيرتها الأعداء وتستوهب الأعداء محجمين بردها مما كادوها به من التلف والتخفيف والتنقيص، ودفع الأفساد وكسر الشوب والإرصاد للغيض مما فيض فيها من نور التوحيد وحفظ ما نصب من أعلام هذا الأمر والمناصبة للمتحاشين إليه المتعلقين بأسبابه المستدمين بذمته، ممن صح ولاؤه، وصدقت طاعته وخلص على النسك ونصح على السر، ونجعل لها من الفكر حظاً يستحق الصدق على ما سواه من الأفكار ويأخذ السبق على غيره من معانيات الأمور، ونراهم من الأهم الأغنى والأول الأولى فيما يحق لله في جهاد أعاديها ومكابدة مناويها، ومن لم تنفعه العبر على مرورها على بصره وتواردها على مشاهدته وإنابتها به ولم يرع سمعاً دعوة الحق التي ملأت الخافقين وقرع صوتها مسامع الثقلين، وتمكن أسباب التفرغ لذلك والتوسع فيه والنظر في أحكامه، ويعترض من أهل هذه المغارب شواغب يثيرها الخبال ويبعثها المعقة الضلال، فلا يسمع إثمالها ولا يسوغ الإضراب عنها قياماً بحق الدين وتوقياً من مستشراء الشر وتوقد أسباب الفتنة وبمصرف إليها من الالتفات والقصد لحسم عللها وبراء أدوائها ما يقشع غياباتها ويطهر أقذاءها وينتهي إلى المقصود الأول من التمرغ للجزيرة مهدها الله والتوطيد لأمرها دوما . الاشتغال بهذا الغرب يلظ بأرجائه، ويشتمل على جوانبه ويتخلل زواياه ويستقصي أوعاره وسهوله حتى صفى الله مشربه، وخلص من الشوب مشارعه، ووقف بأهل الالتواء من أصناف مشغبيه على ثنايا ثبات بقدمه، وندم على ما فرط من ذنبه، وغنى شقي تمادى في غلوائه، ولج في تمرده فولى كل ما استحق، وسهم حظه ما رضي، ووجد التثريب مرد الأمان، وتنوء كتف الإحسان

وحقت على العاصي كلمة العذاب، وأخذه التبيب والتصيير إلى سوء المآل، وشر المآب، وما ربك بظلام للعبيد، ولما تولى الله هذه الجهات منة التمهيد وبسط لها نعمة التمكين والتوطيد، عطف الفكر إلى محل مثاره وسلك سبيل الاعتقاد إلى قراره، وتوجه حفل الاشتغال إلى الجزيرة مهدها الله، وتوفرت دواعي الاستعداد لنصرتها وجهاد عدوها، ورأينا في أثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة المتممة المباشرة، أن نقدم بين أيدينا عسكراً مباركاً من الموحدين أعانهم الله صحبة الشيخ الأجل أبي حفص أعزه الله، يكون تقدمه لجواز جمهور الموحدين، مؤيداً بما عزمنا عليه، والله المستعان، من التحرك لجمة أهل التوحيد، والقصد لهذا الغزو الميمون، الذي جعلناه نصب العين، وتجاه الخاطر، فتتعاونون مع إخوانكم الواصلين على بركة الله إليكم، على جهاد أعدائكم، إلى أن يوافيكم إن شاء الله هذا العزم، ويلم بكم هذا القصد، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها، المبرمة أغراضها، التي انعقدت بها النية، وتقدمت لها في ذات الله الخمية، واستعنت بتوفيق الله في تأصيل أصولها الفكرة الموجهة والروية، وإنا لنرجو من المبلغ لآمال القلوب، المتفضل بإدراك كل مطلوب، أن يهب فيها من العون ما يتمم مبدأها، ويكمل منشأها، وتشفي به صدور أوليائه، بالنعمة في أعدائه، وإن فضله تعالى ليسمح بلوغ هذه الأمنية والإطلال منها على كل شرف وثنية، فما ذلك على الله بعزيز، وإذا طالعتم وفقكم الله هذه الأنباء، واستعلمتم ما في ضمنها من البشائر، وعنوانات الفتوح، وآثار هذه القصود، وحملتم ذلك على الثقة بما وعد الله هذا الأمر، والتلفت إلى ما عودة رأيتموها نعمى تخولتكم، ورحمى انتحتكم وأتتكم، وشرحتم لها صدوركم، وعمرتم بها أحناكم، وشغلتم بها مشاهدكم، وسررتم بها غايبكم وشاهدكم، وأذعتموها إذاعة تثلج بها صدور الأولياء، وتحرج منها صدور الأعداء، ويكون للمؤمنين منها مطلع أمل، وللكفر مطلع هول ووجل، عرفكم الله شكر النعمة بها، وأعانكم على أداء واجبها، وبلغكم الغاية الجسيمة منها بمنه ويمنه، وإذا وصلكم هذا الكتاب، فأشيعوه قراءة على من حضركم من أصناف الناس، وإرسالاً بنسخه إلى من نأى عنكم، حتى يجد أثر الاستبشار به، ويترقب بمودعه الغايب والشاهد، والحاضر والنائي إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس مائة.

وثيقة موحدية رقم (٥)

رسالة

الخليفة المرتضى لأمر الله إلى البابا إنوصان الرابع ينوه فى بدايتها بدحض نظرية التثليث. ويشير فيها إلى ما ورد من كتب البابا إلى الخلافة الموحدية. ويرجو أن يكون اختيار الحبر المكلف بالنظر فى شئون النصارى بالمغرب من ذوى العقل الراجح، والأخلاق الحميدة، والنزاهة الوافرة. مؤرخة فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٦٤٨هـ.

(وتحفظ الرسالة المذكورة بمحفوظات مكتبة الفاتيكان الرسولية بروما برقم (1802) a.a xviii -1 وهى الوثيقة الوحيدة من نوعها وعصرها، التى تحتفظ بها مكتبة الفاتيكان)

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، والحمد لله وحده

من عبدالله عمر أمير المؤمنين ابن سيدنا الأمير أبى إبراهيم بن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره، وأمدهم بمعونته، إلى معظم ملوك النصرانية ومعظم عظماء الأمة الرومية، وقيم الملة المسيحية ووارث رياستها الدينية، الباب إينه سنس الرابع، أنار الله تعالى بصيرته بتوفيقه وإرشاده، وجعل التقوى التى أمر عز وجل بها عدته لمحياه ومعاده، وأناله من مسالك الهداية ما يقضى لمدى الغاية، بتمام انفساحه وامتداده، تحية كريمة نراجع بها ما تقدم تحيتكم الواردة علينا، ويترجم لكم أرجها عما تعتمدكم به البار لدينا.

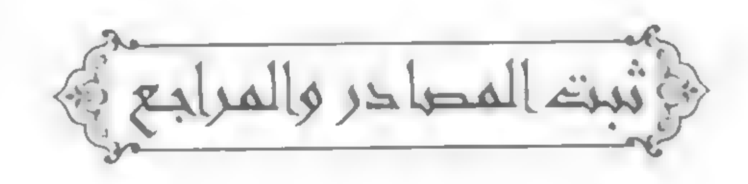
أما بعد فإنا نحمد لله الذى لا إله إلا هو، حمد من علم أنه الرب الواحد، الذى دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد، وبرهنته العقول الراجحة عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه الوالد، تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمشبه

والحمد، ونصلي على سيدنا محمد رسوله المصطفى الكريم، الذي وضحت به للنجاة المذاهب والمقاصد، وخرقت له بظهور المعجزات الباهرة على يديه العوايد، ونصر بالرعب فألقى له يد الاستسلام كل من كان يناوى ويعاند، وعلى آله وصحبه الكرام، الذين زدانت بهم المحاضر والمشاهد، ووصلت صوارمهم في مواقف الحروب السواعد، وأنجزت لهم في استيلاء الإسلام على مشارق الأرض ومغاربها المواعد، ونسأل الله عز وجل رضاه عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم، الذي جدد لدين الله تعالى الشعب المعدود، وأهلت بهدايته بعد اقفارها المعاهد، وباء بالخسران المختال لأمره والمكايد، وعن الخلفاء الراشدين المهتدين، الذين تولى منهم إتمام بدايته الإمام الراشد فالراشد، وعلت بهم لأمر الله تعالى المراقي والمصاعد، وعن سيدنا الأمير الطاهر أبي إبراهيم بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الذي طابت منه العناصر والمحاتد، واشتق من نبعه للخلافة مذ أورق نضارة وغضارة قنتها المائد، وزهد في الدنيا الفانية، ورغب في الأخرى الباقية، فنعم الراغب الزاهد.

وبعد، كتبنا كتب الله تعالى لنا حظوظًا من رضاه، تزكو وتتوفر، واستعملنا وإياكم بكل ما نتهيأ به لإحراز الفوز لديه ونتيسر من حضرة مراكش حرسها الله تعالى، ودين الله عز وجل عال مسماه ومصعده، والتوحيد حال بالظهور جيده، ومقلده، والسعي معمل في ابتغاء من الله تعالى موفقه ومسدده، والحمد لله رب العلمين حمدًا يتوالى على الألسنة تكرره وتردده، ونستدعي به من مزيد النعماء أفضل ما وعد به تعالى من يحمده ويشكره، والى هذا يسر الله تعالى بتوفيقه إسعادكم وجعل في طاعته التي تعدد بها خلقه إصداركم وإيرادكم، فإنه سبقت ما إليكم مراجعات من كتبكم المؤثرة المواصلة إلينا وأرسلنا نحوكم من الجواب عنها ما تمسا به بركم ووفيتم، وعرفناكم أن موجب تخصيصكم الذي أبد في مكانتكم على منصب وقرار لمرتبتكم فيه أهل دينكم، بالشفوف على سائر ما لهم من المراتب، فأنتم عندنا لذلكم بالتكرمة الجميلة ملحوظون، وبالعناية الجميلة محفوظون، نؤكد من أسباب المواصلة لكم ما حقه أن يؤكد، ونجدد من عهود الحماية بكم ما شأنه أن يجدد، ونشكر لكم ما توالى علينا من حسن إيثاركم لجانبنا، وتردد.

وفي سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين أعزهم الله الشيخ الذي كان قد وصل بكتابكم إلينا، انصرافًا لم يعده من فيه بر وإكرام ولم يعمه فيه احتفاء به واهتمام، كما أنه في المدة التي قضى له فيها لدينا بالمقام، لم نزل نتعهده أثناءها بالإحسان والإنعام، وحملنا كتابنا إليكم تعريفًا بما اختار من الانصراف، وتوخيًا فيما آثره من ذلك لإسعافه، وما قصر له في حال مقامه ورحيله، ولا عدل به عن حفي البر وجميله، وشيء من وجزيله، ذهابًا لتكريم إشارتكم السابقة في حقه، وسلوكًا به من البر على أوضح طرقه، والله تعالى يرشد في كل الأحوال لأذكى الأعمال لديه، وينجد من الأكراب والأفعال، على ما يقرب إليه بمنه، ومتى سمح لكم أسعدكم الله تعالى بتقوه أن توجهوا لهم ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين أعزهم الله من ترونه برسم من يصحبهم في دينهم ويجريهم على معتاد قوانينهم فتخيروه من أهل العقل الراجح والسمت الحسن، وممن يستلذ في نزاهة على واضح السنن، وممن يتميز في الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن ودلكم هو الذي إذا تعين من قبلكم مستجمعًا للصفات المذكورة، ومتحليًا بالخلال المشكورة، حسن في كل ما يستخدم، وتسنى له بذلك أجزل الخير وأوفره، وأنتم تفون بهذا المقصود في ما تعمدون من اختياركم متى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم لأحد، وتعتمدون فيه أجمل معتمد وشكرنا لكم على كل ما تذهبون إليه في جانبنا من تمشية الأغراض والمذاهب، وتحتفلون فيه من المساعدة الصادرة فيكم عن كرم الضرائب، وتبادرون إلى بذله من المكارم المناسبة لنا لكم في نحلتكم من إنافة المناصب، لم تكن له صدق مصادقتكم، وتتوخى فيه ما لا يعدل عن موافقتكم جزاء لبركم بمثله، واعتناء بما يقتضي لولائكم بدوامه واتصاله، بحول الله تعالى وقوته، وهو سبحانه ييسر لنيل الحسنى، والزيادة من فضله، ويأخذ ما في ديننا ودنيانا على أقوم سبله، ويجعلنا وإياكم مما يمنحه من التوفيق، في أول رعيل من حزب خلقه وأهله، بمنه وكرمه لا رب سواه. وكتب في الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وستمائة.




ثبت المصادر والمراجع



أولا: مصادر مخطوطة ومصورة

الحسامي: لاجين بن عبدالله الذهبي الحسامي الطرابلسي. ت (٧٣٨هـ - ١٢٩٧م).

١- تحفة المجاهدين في العمل بالميادين. مصور بالجامعة العربية ف (٢ - ٩)

الحسن العباسي: الحسن بن عبدالله بن محمد - بدأ تأليف كتابه سنة ٧٠٨هـ.

٢- آثار الأول في تدبير الدول. مخطوط بالمتحف الحربي بالقلعة برقم (٣٨٣) عربي ومطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي

ابن ميمون: عبدالله بن ميمون بن عبدالله. من رجال القرن السابع الهجري

٣- الإفادة والتبصير لكل رام مبتدئ أو ماهر. تحرير بالسهم الطويل أو القصير مصور بمعهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية عن كوبريلي بأستنبول. رقم (١٢٣١).

الهرثمي: من رجال الحرب في عصر المأمون العباسي.

٤- مختصر في سياسة الحرب. مصور بالجامعة العربية. ف (٨٤٤)

مؤلف مجهول:

٥- نظم التعبئة. مصور بالجامعة العربية ف (٩٤٦).

ثانيا: مصادر قديمة

ابن الأثير: على بن أحمد ت (٦٣٠هـ - ١٢٣٢م)

٦- كتاب الكامل في التاريخ. القاهرة ١٣٥٧ هـ. الأهلية ١٣٠٣هـ.

ابن الآبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبو بكر القضاعي ت (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م).

٧- الحلة السيراء. تحقيق الدكتور حسين مؤنس - القاهرة ١٩٦٣م - وطبعة دوزى ١٨٥١م.

الإدريسي: الشريف محمد بن عبدالعزيز ت (٥٤٨هـ - ١١٥٤م)

٨- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة ط ١٩١١م.

٩- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس. وهو مأخوذ من «نزهة المشتاق». نشر هنرى بريس. الرباط ١٩٣٦، طبعة دوزى.

البكرى: أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز ت (٤٨٧ هـ - ١٠٩٧م)

١٠- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب. نشر ديسلان. وهو مأخوذ من كتاب المسالك والممالك ١٨٥٧م

البيذق: أبو بكر بن على الصنهاجى. القرن السادس الهجرى.

١١- أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين: تحقيق ليفى بروفنسال- باريس ١٩٤٨م.

ابن بلكين: عبدالله بن بلكين آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة.

١٢- مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة المسماة بكتاب التبيان نشر ليفى بروفنسال النسخة الوحيدة المحفوظة بجامع القرويين بفاس. دار الكتب المصرية

ابن بسام: أبو الحسن على الشنتريني. ت (٥٤٢هـ - ١١٤٧م).

١٣- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القاهرة ١٣٥٨هـ - وطبعة بيروت ١٩٧٨م. تحقيق الدكتور إحسان عباس.

البخارى: الحافظ أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ت ٢٥٦هـ

١٤- صحيح البخارى. شرح القسطلانى طبعة بولاق ١٣٠٤هـ - ١٣٠٦م.

التجانى: أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد. القرن الثاني الهجرى

١٥- رحلة التجانى. تحقيق حسن حسنى عبدالوهاب. المطبعة الرسمية التونسية ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.

ابن جبير: أبو الحسين محمد ت (٦١٤هـ - ١٢١٧م)

١٦- رحلة ابن جبير تحقيق الدكتور حسين نصار. القاهرة ١٩٥٥م

الجرارى: عبدالله بن العباس الجرارى الرباطى

١٧- الغاية من رفع الراية. طبعة أولى ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م

الحسن: الحسن بن عبدالله بن محمد.

١٨- آثار الأول فى تدبير الدول. مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطى ١٢٩٥هـ

الحميرى: أبو عبدالله بن عبدالله بن عبدالمنعم. ت أواخر القرن التاسع

١٩- كتاب الروض المعطار. (صفة جزيرة الأندلس) تحقيق ليفى بروفنسال طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٣٧م

ابن حزم: أبو محمد على بن أحمد على ت (٤٥٦هـ - ١٠٦٤م).

٢٠- الفصل فى الملل والأهواء والنحل. القاهرة ١٣١٧هـ، ١٣٢١هـ

ابن حجر العسقلانى: أحمد بن على ت (٨٥٢هـ - ١٤٤٨م)

٢١- فتح البارى بشرح البخارى طبعة بولاق ١٣٠١هـ.

ابن حمديس: محمد بن عبدالجبار بن حمديس الأزدى الصقلى ت (٤٤٧هـ - ١٠٥٥م).

٢٢- ديوان ابن حمديس.

ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى ت (٨٠٦هـ ١٤٠٦م)

٢٣- المقدمة -بولاق طبعة المهدى (١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م)

٢٤- العبر وديوان المبتدأ والخبر - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦م - وبولاق ١٢٨٤هـ.

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ت(٦٨١ هـ ١٢٨٧م)

٢٥- وفيات الأعيان وأنباء الزمان. تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد. مطبعة السعادة - نشر مكتبة النهضة المصرية طبعة أولى ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م - وطبعة بولاق ١٢٩٩هـ

ابن الخطيب: الوزير محمد لسان الدين ت (٧٧٦هـ - ١٣٧٤م)

٢٦- الإحاطة فى أخبار غرناطة. تحقيق عنان. رقم (١١) من سلسلة ذخائر العرب. مطبعة القاهرة ١٩٤٤م، ١٩٥٦م

٢٧- تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الإعلام فى من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام تحقق ليفى بروفنسال. بيروت ١٩٥٦م.

٢٨- تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط. وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الإعلام تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى، والأستاذ محمد إبراهيم الكتانى. نشر دار الكتاب بالدار البيضاء عام ١٩٦٤م.

الدباغ: عبدالرحمن ت (٦٩٦هـ - ١٢٩٦م) المعروف بأبى زيد عبدالرحمن بن محمد الأنصارى.

٢٩- معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان. أربعة أجزاء - تونس ١٣٢٠ هـ القاهرة ١٩٦٨م.

ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الفقيه الإمام ت ٥٢٠هـ - قاضى جماعة قرطبة، ومعاصر للمرابطين.

٣٠- كتاب المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات الشرعيات لأمهات مسائلها المشكلات والمعروفة بـ «مقدمات ابن رشد» مطبعة السعادة

٣١- بداية المجتهد ونهاية المقتصد - طبعة شركة المطبوعات العربية

ابن أبى زرع الفارسى: الشيخ أبو الحسن على بن عبدالله ت (٧٢٦هـ ١٣٢٦م).

٣٢- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس -الرباط ١٩٣٦م أوبسالة سنة ١٨٦٣م. تحقيق ونشر كارل تورنبرج، ط ١٩٩٣.

الزركشي: أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي ت (القرن الحادي عشر الهجري).

٣٣- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية - تونس ١٢٨٩هـ

ابن سيده: أبو الحسن على بن إسماعيل الأندلسى ت(٤٥٨هـ - ١٠٦٦م).

٣٤- المخصص. ط المطبعة الأميرية ١٣١٦هـ

الشريف الرضى: محمد بن الحسين بن موسى ت (٤٠٤)هـ.

٣٥- نهج البلاغة. شرح محمد عبده ط الحلبى.

ابن صاحب الصلاة: عبدالملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجى.

٣٦- المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين نشر دار الأندلس بيروت ط أولى ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م تحقيق عبدالهادى التازى

الضبى: أحمد بن يحيى بن أحمد ت (٥٩٩ هـ - ١٢٠٣م).

٣٧- بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس (المكتبة الأندلسية) مجريط ١٨٨٤

الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير المعروف بالطبرى ت (٣١)

٣٨- تاريخ الأمم والملوك ط المطبعة الحسينية ١٣٢٦هـ

الطرطوشى: أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى ت(٥٢٠هـ)

٣٩- سراج الملوك القاهرة ١٢٨٩.

ابن عذارى: أبو عبدالله محمد المراكشى (توفى فى القرن السابع الهجرى).

٤٠- البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب القسم الثالث تحقيق امبروسى ميراندة، مع محمد بن تويت، ومحمد إبراهيم الكتانى، الطبعة تطوان ١٩٦٠، والمنشور بعناية معهد مولاى الحسن بتطوان.

ابن عبدون التجيبى: أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون ت(٥٢٠هـ - ١١٢٦م) تولى القضاء للمرابطين.

٤١- رسالة ابن عبدون فى الحسبة المنشورة بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال طبع المعهد الفرنسى بالقاهرة

الفيروز أبادى: الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن عمر الشيرازى ت (٨١٦هـ).

٤٢- القاموس المحيط فى أربعة أجزاء ط ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م.

ابن القيم: أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبى بكر بن القيم الجوزية ت (٧٥١ هـ).

٤٣- الفروسية - ط دار الكتب المصرية ١٩٤١م.

القلقشندى: أبو القاسم أحمد بن على بن أحمد بن الجمال ت (٨٢١)هـ.

٤٤- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا - ط دار الكتب ١٩٢٨، القاهرة ١٩٢٢

ابن القطان: على بن محمد بن عبدالملك بن يحيى ت (٦٢٨هـ - ١٢٣م).

٤٥- نظم الجمان. تحقيق محمود على مكى المطبعة المهدية بتطوان ونشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس. ط أولى.

الكندى: الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندى ت (٢٥٢ هـ).

٤٦- السيوف وأجناسها رسالة أخرجها القائم مقام عبدالرحمن زكى - ط جامعة القاهرة ١٩٥٢م.

ابن الكرديوس: أبو مروان عبدالملك الوزرى (من علماء القرن السادس الهجرى)

٤٧- الاكتفاء في أخبار الخلفاء (تاريخ الأندلس) تحقيق أحمد مختار العبادي مدريد (١٩٧١م).

الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت (٤٥٠هـ).

٤٨- الأحكام السلطانية ط مصر ١٢٩٨هـ.

المقرى التلمسانى: أحمد بن محمد التلمسانى ت (١٠٤١هـ - ١٦٣٣م).

٤٩- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. القاهرة (١٣٠٢) هـ. وطبعة صادر ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

المراكشى: محيى الدين أبو محمد عبدالواحد بن على ت (٦٦٩هـ).

٥٠- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد سعيد العريان القاهرة طبعة أولى ١٣٦٨ - ١٩٤٩، طبعة القاهرة ١٣٣٢هـ.

ابن تومرت: المهدى بن محمد بن عبدالله بن تومرت ت(٥٢٤هـ - ١١٢٩م).

٥١- أعز ما يطلب. تحقيق لوسيانى ١٩٠٣. مطبعة لوسيانى الجزائر.

٥٢- موطأ الإمام المهدى ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م. مطبعة لوسيانى الجزائر

المقدسى: شمس الدين أبو عبيد الله. ت (٣٨٧هـ - ٩٩٧م).

٥٣- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم. القاهرة ١٩٠٠.

المالكى: ابن أبى عبدالله: أبو بكر عبدالله المالكى ت (٤٥٣هـ - ١٠٦١م).

٥٤- رياض النفوس. نشره الدكتور/ حسين مؤنس. القاهرة ١٩٥١.

النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب بن محمد النويرى ت (٧٣٣هـ)

٥٥- نهاية الأرب فى فنون الأدب. طبعة دار الكتب ١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م.

الناصرى: أبو العباس أحمد بن خالد ت (١٣١٥هـ - ١٨٩٠م).

٥٦- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى. الدار البيضاء ١٩٥٤م، القاهرة ١٣٠٦هـ.

ابن هزيل: على بن عبدالرحمن بن هزيل الأندلسي

٥٧- حلية الفرسان وشعار الشجعان، تحقيق محمد عبدالغني حسن، الكتاب السادس من ذخائر العرب، دار المعارف.

أبو يوسف: الإمام المجتهد يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ت (١٨٢هـ)

٥٨- الخراج - ط مصر ١٣٠٢هـ

مؤلف مجهول

٥٩- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية نشر علوش ط الفتح سنة ١٩٣٦، طبعة تونس ١٩٢٣.

مؤلف مجهول

٦٠- الاستبصار فى عجائب الأمصار. نشر وتعليق د.سعد زغلول عبدالحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية المطبوع رقم ١ كلية الآداب

ثالثا: المراجع الحديثة

أ- مراجع عربية:

أحمد شوقى (الضابط)

٦١- فن القيادة ط مصر ١٩٤٨م

جورجى زيدان: الأستاذ المؤرخ

٦٢- تاريخ التمدن الإسلامي دار الهلال ١٩٠٢ - ١٩٠٦م

جمال الدين عبيد (المحقق)

٦٣- نظم الحرب في الإسلام ط الحلبي ١٣١هـ

حسن إبراهيم حسن (الدكتور)

٦٤- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، القاهرة (١٩٥٧م)

٦٥- النظم الإسلامية، القاهرة ١٩٦٢م

حسن الباشا

٦٦- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية - ط ١٩٦٦م.

حسن أحمد محمود (الدكتور)

٦٧- قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب - ط ١٩٥٧

حبيبة: على حسن محمود (الدكتور)

٦٨- مع المسلمين فى الأندلس. ط مكتبة الشباب - القاهرة ١٩٧٢م

حسن على حسن (الدكتور)

٦٩- الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية فى المغرب الأقصى فى القرنين الخامس والسادس الهجرى. رسالة للدكتوراة - كلية دار العلوم جامعة القاهرة.

الخضرى: الشيخ محمد الخضرى. أستاذ التاريخ الإسلامى.

٧٠- محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ - ١٣٧٠هـ.

٧١- تاريخ الدولة العباسية ط أولى ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م.

سالم: السيد عبدالعزيز سالم (الدكتور)

٧٢- المغرب الكبير. العصر الإسلامى. القاهرة ١٩٦٨م.

شكيب أرسلان

٧٤- الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية - ط أولى ١٩٣٦م.

٧٥- تاريخ غزوات العرب بيروت ١٩٦٦م.

عبدالرءوف عون

٧٦- الفن الحربى فى صدر الإسلام.

عبدالرحمن زكى (الدكتور القائم مقام «العقيد» مدير مكتبة الجيش سابقا)

٧٧- السلاح فى الإسلام - ط الجمعية التاريخية. دار المعارف بمصر.

٧٨- الألوية وشارات الملك.

٧٩- الجيش والأناشيد - دار الكتب المصرية.

٨٠- شكل الحروب - دار الكتب المصرية

العدوى: إبراهيم أحمد العدوى (الدكتور)

٨١- القوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، نشر مكتبة مصر

العبادي: أحمد مختار

٨٢- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ط أولى ١٩٦٦ مطبعة المصري

عنان: محمد عبدالله

٨٣- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس القسم الأول والثاني

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ١٣٧٣ - ١٩٦٤م

٨٤- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي. القاهرة ١٩٦٠م

٨٥- الآثار الأندلسية الباقية - القاهرة ١٩٦١م

عبادة: عبدالفتاح

٨٦- سفن الأسطول الإسلامي ١٩١٣م

العبادي: الأستاذ/ عبدالحميد ت (١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م)

٨٧- ابن عذارى (٦٩٥هـ - ١٢٩٥م) أبو عبدالله محمد

٨٨- البيان المغرب - بيروت (١٩٥٠م)

ابن عبدالله: الأستاذ عبدالعزيز

٨٩- مظاهر الحضارة المغربية. الدار البيضاء ١٩٥٧م.

علام: عبدالله على

٩٠- الدعوة الموحدية بالمغرب. القاهرة ١٩٦٤م

محمد جمال الدين محفوظ (اللواء)

٩١- المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية. الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٦م.

محمود شيت خطاب: اللواء ركن

٩٢- الرسول القائد - الطبعة الخامسة ١٩٧٤م

محمد فرج (العقيد)

٩٣- المدرسة العسكرية الإسلامية - دار الفكر العربي.

٩٤- فن إدارة المعركة في الحروب الإسلامية - دار الفكر العربي

مصطفى زيد: الأستاذ المدرس بكلية دار العلوم

٩٥- تفسير سورة الأنفال - ط ١٩٥٣م.

محمود شلتوت: (شيخ الأزهر السابق)

٩٦- القرآن والقتال - جـ ١ دار الكتاب العربي ١٩٥١م

مراجع عقيلة الغاني: الدكتور بكلية الآداب جامعة بنغازي

٩٧- سقوط دولة الموحدين. منشورات جامعة بنغازي - ط أولى ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

المراكشي: محمد عثمان

٩٨- الجامعة اليوسفية الرباط ١٩٣٧م.

محمد عبدالهادي شعيرة: أستاذ التاريخ الإسلامي سابقا بجامعة عين شمس

٩٩- المرابطون، تاريخهم السياسي -ط أولى- مكتبة القاهرة الحديثة

مؤنس: حسين (الدكتور)

١٠٠- نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين والموحدين - مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد مجلد ٣ (١٩٥٥) رقم: ٣٥٩.

١٠١- تطور العمارة الإسلامية فى الأندلس، مقال، جولييت، كلية الآداب جامعة إبراهيم باشا الكبير، المجلد الأول ١٩٥١م

نعمان ثابت: (الضابط العراقى ونيس الركن)

١٠٢- الجندية فى الدولة العباسية - ط بغداد ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م.

وهبة الزجيلى:

١٠٣- آثار الحرب فى الفقه الإسلامى- دار الفكر بيروت - الطبعة الثانية

ب- مراجع معربة:

الجنرال أندريه بوفر

١٠٤- مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية - ترجمة أكرم ديرى

١٠٥- الردع والاستراتيجية - ترجمة أكرم ديرى

بروفنسال: المستشرق ليفى

١٠٦- الإسلام فى المغرب والأندلس. ترجمة الدكتور/ السيد عبدالعزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى. القاهرة ١٩٥٨م.

١٠٧- الحضارة العربية فى إسبانيا -ترجمة طاهر مكى- طبعة أولى ١٩٧٩م

١٠٨- مجموعة رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية رباط الفتح - المطبعة الاقتصادية ١٩٤١م.

١٠٩- رسالة ابن عبدون فى الحسبة - طبعة المعهد الفرنسى بالقاهرة.

جورجى كستلان:

١١٠- تاريخ الجيوش. تعريب كمال دسوقى. النهضة المصرية ١٩٥٦م

جوستاف لوبون: الدكتور المؤرخ المستشرق

١١١- حضارة العرب - ط الحلبى ١٩٤٥م تعريب زعيتر.

دوزى: رينهارت

١١٢- تاريخ مسلمى إسبانيا دار الكتب المصرية.

١١٣- معجم مفصل في أسماء الألبسة عند العرب - دار الكتب المصرية.

١١٤- ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام - دوزي ١٩٣٣ - ١٣٥١ ترجمة كامل كيلاني

فيلب حتى

١١٥- تاريخ العرب - مطول - الأستاذ [illegible] ط ثانية ١٩٤٩م

ميرندا أمبرسيو أوشى

١١٦- التاريخ السياسي للدولة [illegible] الأستاذ [illegible] [illegible] ١٩٦١م

ميجور جنرال دك باليت

١١٧- أصول المعرفة العسكرية - ترجمة [illegible]

١١٨- [illegible] الإمبراطورية البيزنطية - تعريب [illegible] ١٩٥٩م

١١٩- [illegible] تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين - ترجمة عبد الله عنان - القاهرة ١٩٥٨م.

جـ- المجلات والأبحاث:

١٢٠- مجلة المجمع العلمي العراقي. المجلد الخامس. موضوع القتال في الإسلام - محمود شيت خطاب

١٢١- المجلة المصرية للقانون الدولي العام. المجلد الخامس ١٩٤٩م. موضوع (القانون الدولي العام والإسلامي) محمد عبدالله دراز

١٢٢- المجلة المصرية للقانون الدولي العام. المجلد الرابع عشر ١٩٥٨م. موضوع (نظرية الحرب في الإسلام) محمد أبو زهرة

١٢٣- المجلة المصرية للقانون الدولي عام ١٩٦١م موضوع (تفسير الاتفاقات الدولية) للدكتور حامد سلطان

١٢٤ مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد الحادى عشر - الجزء الثانى ديسمبر ١٩٤٩م. (الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين والموحدين حسين مؤنس).

١٢٥ مجلد المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٥٣ المجلد الأول.

١٢٦- مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد المجلدان ٧، ٨ سنة ١٩٥٩ ١٩٦٠م رقم ٣٥٩د.

١٢٧- مجلة الثقافة المغربية سنة ١٩٤١م عدد أغسطس وأكتوبر من نفس السنة المذكورة.

رابعا: المراجع الأوروبية

1- oman. Dr. Oman: Ahistory Of Art of War In The Middle Ages.

2- F. Codera Decadencia Y Disparacion De LOS Almoravides En Espana (Zaragoza 1899)

3 A. H. Miranda: Les Grandes Batallas De Le Reconquista (Madrid 1956).

4- M. Lafuente: Historia GenaRal De Eapana

5- R. Dozy: Historia Des Musulmans D' Espanagne (Leiden 1932).

6 Goldziher: Le livre De Mahamed Ibn Toumert (Alger 1903) Introdection

7- Terrasse (Henri):

- Histoire Du Maroc (Casablanca 1994)

-L'art Hispana. Mauresque. Paris 1932



محتويات الكتاب



محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة

المقدمة

مدخل تاريخي (١-٢٨)

الباب الأول

نشأة الجيوش فى دولتى المرابطين والموحدين (٣٠ - ٦٤)

الباب الثانى

تشكيلات الجيوش وتنظيماتها وشئونها الإدارية

(٦٦-١٠٣)

الباب الثالث

أسلحة القتال فى الجيشين (١٠٥ - ١٢٨)

الباب الرابع

نظم التعبئة فى جيوش الدولتين (١٤٠ - ١٩٣)

الباب الخامس

الأساطيل البحرية لدولتى المرابطين والموحدين (٤٩٤ - ٦٠٥)

الباب السادس

دراسة مقارنة لبعض المعارك (٢٠٧ - ٢٥٨)

ثبت المصادر والمراجع

(٢٨١ - ٢٩١)

يرصد حقيقة تاريخية ، شملت دولتى المرابطين والموحدين فى المغرب (٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م) إلى (٦٦٨ هـ = ١٢٦٩ م) .

قام فيها المؤلف الكريم بدراسة متأنية لأوضاع الجيوش فى الدولتين ، وما يلزمها من دراسة للأوضاع العسكرية ، والنظريات الحربية ، وكذلك العقيدة العسكرية ، والتعامل مع الشعوب غير المسلمة المغلوبة ، بالرفق والتسامح .

وقد احتوى الكتاب على مقدمة ، ومدخل تاريخى ، وستة أبواب ، وخاتمة كالتالى :

الباب الأول : نشأة الجيوش .

الباب الثانى : تشكيلات الجيوش وتنظيماتها وشئونها الإدارية .

الباب الثالث : أسلحة القتال .

الباب الرابع : نظم التعبئة فى جيوش الدولتين .

الباب الخامس : الأساطيل البحرية .

الباب السادس : دراسة مقارنة لبعض المعارك .

وقد وثّق المؤلف كتابه بعدد كبير من المراجع المتخصصة لمن أراد الاستزادة .

نسأل الله أن ينفع به أبناء أمتنا الإسلامية

وهو الهادى ، والموفق إلى صراطه المستقيم



دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢٥١ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٤ فاكس: ٣٩٣١٤٧٥
email:info@eldaawa.com www.eldaawa.com